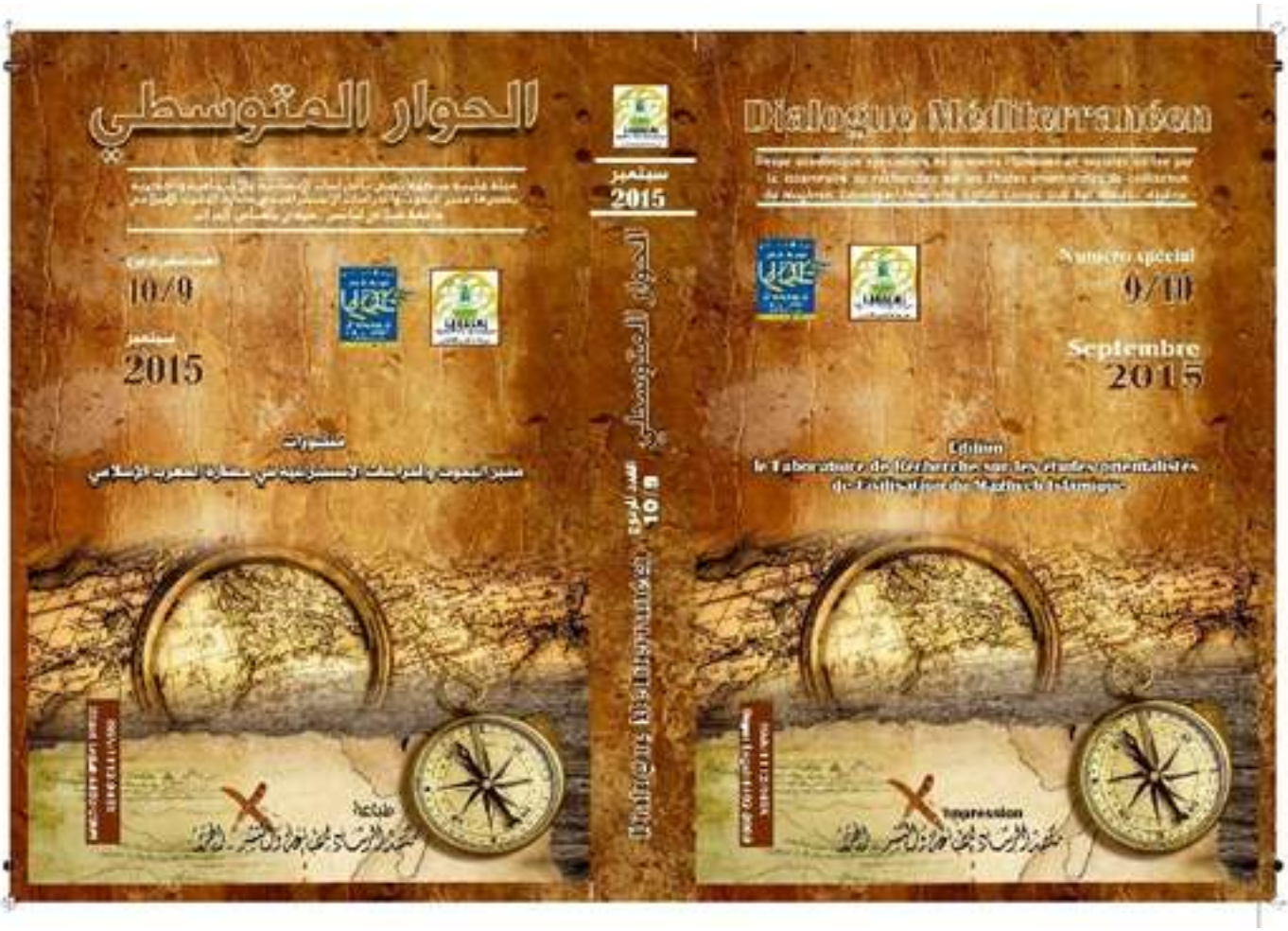
الحوار المتوسطي
10/9
سبتمبر
2015
منشورات
Dialogue Méditerranéen
Numéro spécial
9/10
Septembre
2015
Edition

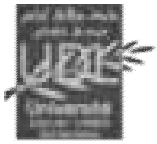

الحـــــوار المتوسطي

مجلة علمية محكمة تعنى بالدراسات الإنسانية و الاجتماعية والفكرية
يصدرها مخبر البحوث و الدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي
جامعة الجيلالي ليابس سيدي بلعباس- الجزائر

العـدد المزدوج 9و10

عـدد خاص سبتمبر 2015

ردمد : 1112-945X
الإيداع القانوني : 4402-2009

منشورات

مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي

طباعة

مكتبة الرشاد للطباعة والنشر - الجزائر

شارع السكة الحديدية/ سيدي بلعباس/ الجزائر

الهاتف والفاكس: 048 54 66 07
الهاتف 040 41 17 96
المحمول 07 73 394265

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

العنكبوت: ٢٠

مجلة الحوار المتوسطي

عنوان المجلة : الحوار المتوسطي

مدير المجلة : أ.د. حنيفي هلايلي

الناشر : منشورات مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية.

الخطوط : حنيفي هلايلي

الطبعة : سبتمبر **2015**

العدد المزدوج : عدد خاص رقم 9و10

الطبع : دار الرشاد سيدي بلعباس

الإيداع القانوني: 2009/4402

ردمد :1112/945x

الحـــــوار المتوسطي

مديـر المجلـة :

أ.د- حنيفي هلايلي

رئيس التحريـر:

د. عبد القادر صحراوي

الهيئة العلمية

د.مـــيسوري عباس	د.إســـماعيل نقاز
د.محمد ســـمير عباد	د.بن إبـراهيم حميدة
د.طـــواهري ميلود	د.نـــــوال غوثي
د.الجـــيلالي ملاك	د.فرعـــــون بخالد

الهيئة الاستشارية

أ.د- عبد الحميد حاجيات (جامعة تلمسان)	أ.د- ريـاض بوريش (جامعة قسنطينة)
أ.د- عبد العـــزيز لعرج (جامعة الجزائر)	أ.د- محمد الأمين بلغيث (جامعة الجزائر)
أ.د- أحـــــمد يلـــديز(تـــركيا)	أ.د- دحـــــو فغرور (جامعة وهران)
أ.د- إبـــــراهيم السعداوي (تونس)	د- عبد القادر دوحة(جامعة خميس مليانة)
أ.د- محمد جـــــادور (المغرب)	أ.د- الـــتليلي العـــجيلي(تونس)

قواعد النشر بالمجلة

ترحب المجلة بمشاركة الكتّاب والأساتذة و الباحثين .

و تقبل للنشر الدراسات والمقالات المتعمقة وفقا للقواعد التالية :

1. أن يكون محتوى العمل المقترح للنشر أصيلا لم يسبق نشره، وأن لا يتعدى حجمه 15 صفحة و ألا يقل عن 8 صفحات.

2. أن يتبع العمل المقترح للنشر الأصول العلمية المتعارف عليها عالميا، وخاصة ما يتعلق بالتوثيق و إثبات الهوامش و المراجع و الخرائط و الوثائق.

3. ترسل الأعمال المقترحة للنشر في نسختين ورقيتين و نسخة إلكترونية على قرص مدمج، ولا ترد أصولها لأصحابه سواء نشرت أو لم تنشر.

4. تخضع الأعمال المقترحة للنشر في المجلة للجنة علمية متخصصة لتحكم في مصداقيتها و جودتها بتقارير سرية.

5. في بعض الحالات، تعاد البحوث لأصحابها لإجراء تعديلات عليها بطلب من اللجنة العلمية التي تسهر على العدد المقترح.

6. يرفق البحث بملخص باللغة الإنجليزية و 5 كلمات مفتاحية.

المقالات المنشورة في هذه المجلة لا تعبر إلا عن آراء أصحاب و لا تعكس رأي المجلة.

ترسل المقالات باسم مدير المجلة :

كلية التكنولوجيا– جامعة سيدي بلعباس–الجزائر

مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي

مقر مخابرالبخث رقم 12

البريد الإلكتروني: hanifi_andalous@yahoo.fr

صفحة الواب: www-LEO.univ-sba.dz

المحتويات

ملف الرحلات

الموريسكيون الأندلسيون في إسبانيا من خلال رحلتي الشهاب الحجري و الوزير الغساني أ.د. حنيفي هلايلي	15
الرحلة و كتابة تاريخ بلاد المغرب رحلة التقروتي أنموذجا حميد أيت حبوش	37
أدب الرحلات في كتابات أبو القاسم سعد الله تاريخ الجزائر الثقافي نموذجا زكريا بن علي	59
ملامح من الحياة العامّة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني د/بوسليم صالح د/الزين محمد	77
الورثلاني: مقدمة عن رحلته و ملاحظات عن فضل علم التاريخ و الأخبار د. عبد القادر صحراوي	95

ملف الدراسات التاريخية و الاجتماعية و الفكرية

تحليل المكاني للمستوطنات الإسرائيلية في محافظتي الخليل ورام الله-البيرة، باستخدام نظم المعلومات الجغرافية (GIS) أ. خليل حلاحلة أ.خليل أبوعلان	115
المحطات التجارية الليبية وأهميتها في نشر الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا خلال القرن التاسع عشر د. سعيد عمر المدني	133
الإعلام الجديد و تحديده لاتجاهات الأستاذ الجامعي نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل .(دراسة وصفية تحليلية لعينة من أساتذة جامعتي مستغانم وسيدي بلعباس) د. العربي بوعمامة. أ. أوسامة عمر	153

السلوك الصوفي بين السلمية والاستسلام مصطفى د. دريس بن مصطفى	187
فعالية برنامج علاجي مقترح لمساعدة تلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي"ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات (دراسة تجريبية على عينة مكونة من 877 تلميذ و تلميذة من تلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي) من أصل 115 مدرسة ابتدائية بولاية سيدي بلعباس إيمان واري	207
آليات التفعيل المقاصدي في الفكر النوازلي بين حركية الواقع ومرونة النص الونشريسي أنموذجا أ.إسماعيل نقاز	235
نظرة المستشرقين إلى مناهج كتابة التاريخ عند المؤرخين المسلمين بن عتو حمدون	267
مصير مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر د. محمد زاهي	279
حركة الجهاد البحري ونشوء الحكم العثماني في المغرب العربي د. سمير عبد الرسول العبيدي	291
السياسة العامة العالمية و مفهوم الحكم العالمي أ.د. رياض بوريش	311
شروط و إجراءات التعيين في الوظائف الدبلوماسية في ظل أحكام وقواعد القانون الدبلوماسي د.ة. نضيرة إدريس خوجة	327
السياسة المتوسطية للجماعة الأوروبية د. محمد سمير عياد	339
تأثير النفوذ اليهودي على الامتيازات الإفريقية في الجزائر خلال العهد العثماني د ة. فاطمة درعي	377
حلب في الأدب التركي الحديث مؤلفات علي كمال نموذجًا عبد الستار الحاج حامد	419
الداي حسين باشا أخر شخصية عثمانية تحكم الجزائر فطيمة شيخ	459

تقديم:

تناولت المعاجم والموسوعات شرح مادة: "رحل". ومشتقاتها وقدمت أمثلة من استعمالها من مأثور الكلام، وفي دائرة المعارف للبستاني نجد لها عدة معان، هي: الهجرة والانتقال والاستكشاف والسياحة.

وفي دائرة المعارف الإسلامية نلاحظ ارتباطها بالجغرافيا حيث كانت الريادة في هذا العلم للرحالين. ومن عوامل الرحلة، الحج الذي قال فيه المولى عز وجل: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الحج آية 25].

وطلب العلم والسياسة والاقتصاد ودعوة الفرق الإسلامية والرغبة في الاستكشاف .

بفضل من الله و توفيقه يكتمل العدد المزدوج التاسع والعاشر، وها هي ثماره جاهزة لأن تشبع العقول النهمة للعلم وتروي الأذهان المتعطشة للمعرفة. وبما أن النتاج العلمي والمعرفي لكل مؤسسة علمية بحثية يعد لسانا ناطقا لها ومرآة صادقة لتوجهاتها في خدمة العلم، فإن مجلة الحوار المتوسطي تحرص على توفير كل الشروط المطلوبة في البحوث وأن تكون متسمة بالطابع الأكاديمي حتى تكون خير سفير للجامعة.

إننا في هذا العدد المزدوج اخترنا بحوثا متنوعة اعتمدها الخبراء في أدب الرحلات والتاريخ والجغرافيا والاقتصاد والقانون والفلسفة والعلوم السياسية و الفقه الإسلامي. كما ركزت بعض العروض على المساهمة في اللغات الأجنبية بالفرنسية والألمانية. و لم تغب عن نشريات هذا العدد مسألة الاهتمام بالرحلات في المجالات الإسلامية وتعميق المعرفة بالذات، ومن ثم كانت الرحلة أداة للتواصل بجميع أشكاله.

وفي الأخير تدعو مجلة الحوار المتوسطي الكتاب والباحثين وتشجعهم على المساهمة بمقالات ذات صلة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية والفكرية واللغات الأجنبية بشرط ألا يكون قد سبق نشرها أو تقديمها للنشر .

نسأل الله التوفيق وحسن الثواب.

أ.د هلايلي حنيفي

مدير المخبر ومدير المجلة

ملف الرحلات

ملف العدد

الرحالة العرب و المسلمون
اكتشاف الآخر

الموريسكيون الأندلسيون في إسبانيا
من خلال رحلتي الشهاب الحجري و الوزير الغساني

أ.د. حنيفي هلايلي
جامعة سيدي بلعباس

Abstract:

The access to flights or other help often to take advantage of Views Blog, meditation in the recorded comments. And on the search for the causes of exposure to some of the topics and the neglect of some or sufficiency reference to it without any comment or analysis.

Keywords:

The trip - the Spanish authorities - French ships – Moriscos-community - the Grand Palace.

إن الإطلاع على الرحلات السفارية أو غيرها يساعد في كثير من الأحيان على الاستفادة من المشاهدات المدونة، والتأمل في التعليقات المسجلة. وعلى البحث عن أسباب التعرض لبعض الموضوعات وإهمال بعضها أو الاكتفاء بالإشارة إليها دون أي تعليق أو تحليل.وقد عد المؤرخون هذه الرحلات من مصادرهم التي يرجعون إليها في تدوين أخبارهم لما لها من أهمية في وصف الأحداث أو لما فيها من الاستطرادات العفوية التي تعين الباحث على الربط بينها وبين استنتاجاته التي يصل إليها.
ومن البديهي أن مؤرخي الدولة السعدية و العلوية قد استخدموا هذه

الرحلات في أبحاثهم واستنطقوا الخبرات المدونة في سجلات الرحلات .فكانت بسبب ذلك من أهم المصادر التي اعتمدوا عليها سواء بالنسبة إلى الرحلات التي كانت في بداية انطلاق الدولة أو في الرحلات التي كانت بعد ازدهارها.ولم تكن الفائدة منها مقتصرة على الجوانب السياسية ولكنها أفادت في الدراسات الاجتماعية والأدبية والجغرافية فاعتبرت بسبب ذلك زادا ثقافيا ينهل منه كل حسب اختصاصه وحسب رغبته. ومن أهم الرحلات التي دونت على عهدي المولى زيدان السعدي و المولى إسماعيل العلوي الرحلتان الموسومتان برحلتي ناصر الدين على القوم الكافرين لأفوقاي ورحلة الوزير في افتكاك الأسير للكاتب محمد بن عبد الوهاب الوزيرالغساني. .

أولا : رحلة الشهاب الحجري

تعد رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب والمعروف كذلك بـ رحلة أفوقاي الأندلسي، والمختصرة في كتاب آخر عنونه بـ ناصر الدين على القوم الكافرين،[1] من روائع أدب الرحلات للرحالة الموريسكي أحمد بن قاسم الحجري المشهور بـ *أفوقاي والشهاب الحجري*. لقد تمكن الحجري من مغادرة الأندلس إلى المغرب سنة 1597، لأنه كان مهدداً بأخطار كثيرة بسبب دفاعه عن الأقلية الموريسكية. و كان يعتبر نفسه مجاهداً.لهذا كان يغامر بنفسه دون أن يخاف من تهديدات الحراقين الذين يتربصون بالطائفة الموريسكية من أجل إلحاق الضرر بها:

(و بلغ الحال بي حتى إذا وقفت مع جماعة للكلام ترى كل واحد منهم ينسل حتى أبقى وحدي منفرداً) .[2]

يتمحور الكتاب حول فراره الشهاب بدينه وبدنه من ملاحقة محاكم التفتيش سنة 1597 [3]من ضواحي غرناطة، وذهابه إلى مرسى شنتمرية بالبرتغال، وتنكره كمسيحي من إشبيلية، وركوبه بارجة برتغالية مدعيًا توجهه إلى مدينة مازاغان التي كانت تحت الاحتلال البرتغالي، ليهرب هو وجماعة معه إلى بلاد المسلمين ويرسو في ميناء أزمور المغربي. عرضت لنا الرحلة تطورات الأوضاع التي دفعت المسلمين الموريسكيين إلى مواجهة السلطات الإسبانية تصديا لحملة التنصير التي أجبروا عليها، وكيف أدت لاندلاع ثورتهم الكبرى في غرناطة(1568)، بالإضافة إلى الحيل التي لجأوا إليها للتخفي من محاكم التفتيش التي استهدفتهم وأنزلت بهم أشد صنوف العذاب.إن عنوان الرحلة نفسه يعبر بوضوح عن اتخاذ الحجري لمنهج المواجهة(ناصر الدين على القوم الكافرين)، بل اعتبر مؤلفه السيف الأشهر الموجه ضد النصارى، واعتبر ميلاده في بلاد الكفار نعمة من الله (فيقول العبد الفقير... أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي من نعم الله تعالى أن جعلني مسلماً في بلاد الكفار...).[4]

لعل أهمية الرحلة تكمن في الموقع الذي كان يحتله الحجري.إذ كان صلة وصل حضارية فيما بين(الأنا) المسلمة التي تشكل طاقته ومصدر اعتزازه وافتخاره و(الأخر) و نعني الذات المسيحية، لأنه نشأ وكبر وتكون في فضائها، فتمكن بفضل ذلك من أن يدرس الحضارة المسيحية ويتعمقها. ومن هذه الزاوية، نستطيع أن ندرك هذه الشخصية الواقفة على ثقافتين ونقاربه.. و لأجل هذا كان يلجأ الحجري إلى المقارنة بين الحضارتين مع تحيز واضح للذات المسلمة، و كان يرجع إلى المؤلفات المسيحية لمناظرة علمائها.

سافر الحجري إلى أوروبا، سعياً منه في إنصاف الطائفة الموريسكية التي تعرضت للنهب من طرف أرباب السفن الفرنسية بسبب طرد فليب الثالث(1598–1621) .[5] على إثر هذا النهب ،اتصلت بعض العائلات الموريسكية بالمولى زيدان(1603–1627) و طلبوا منه مساعدتهم و إرسال من يطالب بحقهم، كما أشار الحجري إلى ذلك: (و طلبوا من السلطان المولى زيدان... أن يأذن لهم في إرسال بعض أصحابهم مع رجل من الأندلس من الذين كانوا قبلهم بتلك المدينة و أسفر نظره أن نمشي بأصحابهم و أعطانا للسلطان كتابه).[6] لهذه الجماعة تلتها **رحلة أفوقاي في وصف لاهاي** بين 1611–1613، وهي تروي عن زيارة الرحالة لبلاد الهولنديين، يصف فيها لاهاي وأمستردام، وأنشغل في هذه الرحلة بمحاورة الفرنسيين والهولنديين من أجل عرض قضيته الموريسكية، وكانت المناظرات حول الأديان.

و الظاهر أن رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب يقصد بالأحباب فيما يرجح أنهم إخوانه المسلمون فيما وراء البحر أي في عدوة المغرب، التي لجأ إليها. فعندما دخل أفوقاي بلاد المغرب كان سلطانها أحمد المنصور الذهبي(1578–1603)، و كان قد تولي منصبه في جمادى الأولى سنة 986 هـ الموافق لشهر أوت 1578 م وسط معركة وادي المخازن، التي لقي فيها البرتغاليون على يد المغاربة هزيمة كبيرة، فلقب بالمنصور تيمنا بالنصر الذي أحرزته جيوش المغرب، وكان عصره من أعظم عصور المغرب. تعدَّدت أسماء المعركة في الإسطوغرافية المغربيَّة، مثل: معركة الملوك الثلاثة، ومعركة القصر الكبير، ومعركة وادي المخازن، وهو الاسم الذي دَرَجَ على استعماله

المؤرخون المغاربة في كتبهم، وربَّما خطر لبعض المؤرخين المعاصرين أنْ يسموها اليومَ بدافع تصحيح جاء متأخرًا عن موعده" :معركة الملوك الأربعة"؛ لأنَّها إضافةً إلى الملوك الثلاثة الذين ذهبوا ضحايا لها، كانت منطلقًا لبروز ملك رابع سطع نجمه عاليًا في المغرب، ألا وهو أحمد المنصور الذهبي.[7]

كان حينما وفد عليه الشهاب الحجري أفوقاي بلغت مدة حكمه أكثر من عشرين عاما. فلما قدّم إليه قائده محمد بن إبراهيم الشعياني وكان أثيرا لديه و موضع ثقته وتقديره لما أبداه في حكم منطقة أزمور من حزم ، لّما قدم إليه هذا الأندلسي الفار، ووقف على قصته و ما يتمتع به من براعة أدبية ولغوية، أولاه عطفه وأمر بتعيينه مترجما للبلاط، وأبدى الشهاب براعة في أعمال الترجمة من العربية إلى الإسبانية و من الإسبانية إلى العربية، وأسبغ عليه لقب (ترجمان سلاطين مراكش). كان يستعمله السلطان سفيرا عنه في بعض البلاد الأوروبية. و لما توفي السلطان أحمد المنصور في سنة **1012** هـ **(1603م)** استمر الشهاب في عمله بالبلاط المغربي خلال الحرب الأهلية بين السعديين التي تلت وفاة المنصور ثم مدة أخرى في ظل ولده السلطان مولاي زيدان .الذي أرسله في مهمة إلى بلاد هولندا وفرنسا[8].

يتضح من الأسلوب الذي ترجم به الشهاب هذا الكتاب أن اللغة العربية كانت ما تزال قوية عند الموريسكيين المثقفين، بالرغم من كل ما فعلته إسبانيا، وفعله ديوان محاكم التفتيش الإسباني، لقتل الحضارة العربية الإسلامية و التراث الأندلسي. ويشير الشهاب في كتابه إلى المقري مؤرخ

الأندلس وإلى كتابه الجامع (نفح الطيب) وقد عاش الرجلان في نفس العصر،

و الظاهر أن أفوقاي قد لقي المقري بمصر خلال مروره بها في طريقه إلى الحج أو خلال العودة منه، وذلك في سنة **1040** هـ / **1631** م قبيل وفاة المقري بقليل[9]. كانت لأفوقاي معرفة عميقة بالديانتين المسيحية واليهودية، وكانت له استشهادات من نصوصها وكتبها المقدسة. وكان بحق مُعبّرا عما قد نسميه اليوم بحوار الثقافات الذي لم يكن أن يكون آنذاك إلا حوار أديان .

ولد أحمد ابن القاسم ابن أحمد الفقيه قاسم ابن الشيخ الحجري، والمعروف بالشهاب الحجري، وكذلك بأفوقاي، في سنة **1569**، وقيل في **1570**، بمنطقة من أحواز غرناطة، وهو من الموريسكيين، المسلمين الأندلسيين الذين لم يتمكنوا من الهروب من الأندلس إبان سقوطها واضطروا إلى أن يتظاهروا بأنهم نصارى خوفا من ملاحقات محاكم التفتيش والتي كانت تقتل كل من تظهر عليه أي علامات تدل على أنه مسلم أو عربي إلى درجة أنهم بدلوا أسماءهم، ولهذا تلقب بـ»أفوقاي»، وتعلم اللغة العربية من أبيه العالم وحفظ القرآن، ودرس علوم الشرع سرًا، وتعلم اللغات الأعجمية، وانكب على كتب العقائد اليهودية والنصرانية واطلع على دقائقها، وعاش في إشبيلية ومدريد، وظل سنين طويلة يعد العدة ويتحين الفرص للفرار من إسبانيا، واستطاع أن يغادرها متنكرا في هيئة مسيحي عجوز، في سنة **1007**هـ-**1598**م. واستقبله السلطان أحمد المنصور الذهبي، واطلع على قصته وما يتمتع به من كفايات أدبية ولغوية، أولاه عطفه، وأمر بتعيينه مترجما للبلاط، وأبدى الشهاب براعة في أعمال الترجمة من العربية إلى الإسبانية ومن

الإسبانية إلى العربية، وأسبغ عليه لقب ترجمان سلاطين مراكش. وكان السلطان فوق ذلك يستعمله للسفارة عنه في بعض البلاد الأوروبية.

ولما توفي السلطان أحمد المنصور استمر الشهاب في عمله بالبلاط المغربي خلال الحرب الأهلية التي تلت وفاة المنصور ثم مدة أخرى في ظل ولده السلطان المولي زيدان، وكان له دور بارز في الحياة الثقافية بالمدينة. ولما صدر قرار طرد الموريسكيين، وتعرضوا وهم في طريقهم إلى المنفي على متن السفن للسرقة من قبل قراصنة البحر الأوروبيين، اشتكوا إلى السلطان زيدان السعدي عند وصولهم إلى مراكش، وقرر قبل أن يطالب السلطات الفرنسية، أن يبعث بأحمد بن قاسم الحجري سفيرا إلى أوروبا، وبالتحديد إلى إسبانيا وفرنسا وهولندا بهدف رد الاعتبار للأقلية الموريسكية واسترجاع ما نهب منها اثر طردها من الأندلس.

وذكرت المصادر التاريخية أنه لما زار مصر كان يحدث المسلمين ببعض قصصه، فطلب منه الشيخ علي الأجهوري، وهو من كبار علماء المالكية، أن يكتب كتابا يضمن فيه قصته، فكتب كتاب «رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب»، ثم اختصره في كتاب «ناصر الدين على القوم الكافرين»، وذكر أنه انطلق بحرا حاملا كتاب السلطان، متنقلا بين المدن الأوروبية، قاصدا بلاط حكامها وملوكها وأمرائها يطالبهم باسترداد حقوق هذه الطائفة. وعرض في كتابه تجربة الموريسكيين العرب المتنصرين المريرة مع الأسبان وتفاصيل الرحلة وما دار فيها من مناظرات بينه وبين علماء النصارى واليهود وبعض النخب وأوائل المستشرقين والأمراء في أوروبا. وتكمن أهمية هذه الرحلة في كونها شاهدة ومعبرة عن العلاقات التي كانت قائما

آنذاك بين دار الإسلام متمثلة في المغرب والإمبراطورية العثمانية من جهة، ودار الكفر والحرب متمثلة في أوروبا من جهة أخرى[10].

وعرضت الرحلة لتطورات الأوضاع التي دفعت المسلمين الموريسكيين إلى مواجهة الحكومة الإسبانية تصديا لحملة التنصير التي اجبروا عليها، وأدت لاندلاع ثورتهم الكبرى في غرناطة، بالإضافة إلى الحيل التي لجأوا إليها للتخفي من محاكم التفتيش التي استهدفتهم وأنزلت بهم أشد صنوف العذاب[11].

اعتبر الباحثون والدارسون أن نص الرحلة بمثابة وثيقة تاريخية نادرة، وأحد أهم النصوص في اللغة العربية التي تناولت تجربة الموريسكيين المتنصرين. وذكر المؤرخون أنه في أواخر حياة أفوقاي سافر الشهاب لأداء فريضة الحج، ولما عاد نزل بتونس وأصبح من المقربين لأميرها الداي مراد(1637–1640)، وعكف على ترجمة العديد من المؤلفات العربية إلى اللغة الإسبانية، خاصة كتب الشرع لكي يستعين بها الموريسكيون في المنفي الذين مازالوا يجهلون اللغة العربية. [12]

لرحلة الحجري أهداف ثقافية كانت تتمثل في تحصين و تقوية الشخصية الثقافية الإسلامية،و تفوق في ذلك بالنظر لتكوينه و معرفته بالديانات الأخرى، فحاول الانتصار للمسلمين و الإسلام منطلقا من معاناته كموريسكي مطرود و جريح. و لهذا جاءت رحلته مشحونة بآهات معبرة عن حسرة هذه الأقلية و آلامها، لاسيما و أنها عاشت الاضطهاد والتعذيب من محاكم التفتيش و الحراقين. غير أن الظاهرة الموريسكية قد خفت حدتها

مع مرور الوقت. و دخلت أوروبا ظرفية جديدة في النصف الثاني من القرن السابع عشر و الثامن عشر. فظهرت انشغالات وطموحات جديدة.

ثانيا : رحلة الوزير الغساني

تراوحت مهام السفراء المغاربة في قضايا افتكاك الأسرى، وقضايا الجلاء عن الثغور التي تحتلها اسبانيا في الضفة الجنوبية من البحر الأبيض المتوسط. و بالرغم من كثرة الموفدين المغاربة إلى اسبانيا، فإن قلة منهم هي التي اهتمت بتدوين رحلة سفارية. ومن بين هؤلاء الموفدين، الوزير الغساني(ت: 1119هـ/ 1757م)[13] الذي زار اسبانيا في العقد الأخير من القرن السابع عشر. وقد كانت الغاية من السفارة، التي توجه على رأسها، افتداء الأسرى المسلمين في اسبانيا و استرجاع ما يوجد من المخطوطات العربية في خزائنها. فقد استغل السلطان مولاي إسماعيل(1672–1727) من تم أسرهم في حصار مليلية ليقايض، بهم الأسرى المسلمين و المخطوطات العربية، وإن كان بعض الدارسين يشكك في أن الغاية من السفارة هي افتكاك الأسرى وجلب الكتب .[14]

تعتبر رحلة الغساني الأولى من نوعها إلى الديار الإسبانية، وتشكل المرجع الأساسي الذي نهلت منه سائر الرحلات السفارية الأخرى.إن المعلومات التي عرفت بالوزير الغساني شحيحة، إذ تشير في أغلبها أن الغساني سليل أسرة أندلسية استقرت بمدينة مراكش، و أنه كان كاتباً في البلاط السلطاني بمدينة مكناس، واكتسب شهرته كخبير بجمع الكتب ونسخها. والظاهر أن الغساني لم يدون حياته البيوغرافية في رحلته السفارية.

عندما استرجع السلطان العلوي إسماعيل(1672–1727) مدينة العرائش من الأسبان بعد حصار طويل سنة 1689، و أسر من كان في قلاعها ، فكر في توجيه سفارة قصد افتداء الأسرى المسلمين واسترجاع ما يوجد من الكتب العربية في أسبانيا.[15] و يتعلق الأمر بالخزانة الزيدانية التي كان قد سطا عليها القراصنة أثناء رحلة زيدان السعدي(1603–1627) البحرية بين أسفي و أغادير خلال الأزمة التي أعقبت وفاة أحمد المنصور(1578–1603). ولأن الغساني كان على دراية بالكتب، اختاره السلطان للقيام بهذه المهمة. ويرى الكاتب بنحادة بأن سفارة الغساني إلى اسبانيا ،تندرج ضمن توجه جديد للمخزن المغربي في تعامله مع البلدان الأوروبية.[16]

بدأ الغساني رحلته بأخبار مرسى جبل طارق وختم رحلته بأخبار ووقائع عن فتح الأندلس وبين المدخل والمخرج يمتد نصّ الغساني ويتشعب، بينما هو يقف على الأحوال والمشاهد من مدينة إلى أخرى من مدن الأندلس، وصولاً إلى مدريد في قلب الجزيرة الأيبيرية، وتتعدد طبقات نصه ومستوياته، وينبني خطابه، فإذا بنا، إلى جانب الأديب الناثر وذواقة الشعر والجمال، بإزاء عالم اجتماع وسياسي عارف بخفايا الأشياء، ومثقف مطلع ليس على وقائع التاريخ العربي–الإسلامي وحسب، وإنما الأوروبي أيضاً.

لقد أحسن السلطان العلوي اختيار السفير الذي أرسله. فهو ليس مثقفا وأديبا وعالما بالتاريخ، وليس وزيرًا عارفًا بتفاصيل الصراعات الدولة والتناقضات بين الدول الأوربية فقط، ولكنه – على حد تعبير نوري الجراح – يبتعد عن كل تلفيق أو تحامل أو تزوير، ويتميز بأمانة كبيرة وروح متسامحة في فترة عصيبة من الصراع الإسلامي مع الغرب سادت خلالها أوربا روح

التعصب الأعمى الذي لم يسلم من شروره حتى المسيحيون أنفسهم في محاكم التفتيش[17] .

خرجت سفارة الغساني من مدينةسبتة في 15 محرم 1102هـ/ 19 أكتوبر 1690م متجهة إلى جبل طارق، و مكثت الرحلة في العاصمة مدريد زهاء ستة أشهر، و عاد الغساني إلى المغرب في 29 ماي 1691.هذه المدة كانت كافية للوزير ،لأن يقدم وصفا ضافيا لأسبانيا، فاعتبر بحق مؤرخا و ديبلوماسيا من الطراز الرفيع، و تعتبر رحلته أهم مصنف إسلامي عن تاريخ أوروبا في القرن 17م. و من خلال الرحلة يمكننا رصد المحطات التالية:

أ- الغساني كمؤرخ:

لم تكن الكتابة التاريخية عند الغساني مجرد استحضار للبطولات، أو لغرض تبرير وجوده كمسلم في دار الحرب، و إنما الغاية هي محاولة فهم الأخر انطلاقاً من تاريخه، فاعتنى بكتابة تاريخ إسبانيا ، منذ القرن 15م،

حيث قدم وصفا للملك الإسباني كارلوس الثاني الذي كان في ضيافته.[18]

ثم تحدث عن ملوك أسبانيا. و الملاحظ أن الغساني كلما ذكر ملك من هؤلاء أردف اسمه بعبارة(دمره الله)، ففليب الثاني(1556–1598) اعتبره أخبث ملوك أسبانيا، لأن عصره تميز بالعصبية والدموية خاصة تجاه الموريسكيين، والقضاء على مسلمي غرناطة سنة 1568 بكل قسوة ووحشية.[19]

وعبر تاريخ ملوك أسبانيا ، تحدث عن علاقة ملوك أسبانيا بالضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، فعندما أرخ لشارل الخامس(شارلكان)(1516–1556)، تحدث عن الهجوم الذي شنه على مدينة الجزائر

سنة 1541م.[20] و الهجوم لأجل الاستيلاء على تونس سنة 1534.[21] كما أرخ لمعركة وادي المخازن لسنة 1578.[22]

استعرض الغساني سفراء الدول الأوروبية المقيمين بمدريد وهم من فرنسا و ألمانيا و انجلترا و البرتغال، و لخص الحروب الأسبانية الفرنسية وتعرض لشرح أسبابها فيما يتعلق بوراثة العرش في كل البلدين و السياسة الإسلامية لفرنسا تجاه الدولة العثمانية فيما يتعلق بسياسة الامتيازات.و فسر سبب ثراء أسبانيا خلال هذه الفترة إلى قوة التجارة مع العالم الجديد. واحتلت الحروب العثمانية الأوروبية حيزا واسعا في نص الرحلة فهو يتعرض للحروب التي قادها سليمان الثاني(1687-1691)من أجل استرجاع مدينة بلغراد في الفترة التي كان فيها الغساني بالبلاط الإسباني.[23]

ب- الغساني الدبلوماسي:

يبدو هذا الوصف من خلال عنوان كتابه المبرر لوجوده كمسلم في دار الكفر .لقد حرم فقهاء الإسلام إقامة المسلم في ديار الكفر، إلى جانب تحفظ النصارى من إقامة المسلمين بين ظهرانيهم خاصة مسألة الحجر الصحي،المعروفة في جميع نقاط التماس بين شمال

و جنوب البحر الأبيض المتوسط منذ القرن 14م.[24]

ج- الغساني و الجدل الديني:

كان الغساني في سفره بإسبانيا يلتقي برجال الدين المسيحيين ويتحادث معهم في مسائل عقدية، و من خلال نص الرحلة يبدو أنه كان متسامحا معهم في الحوار و الجدال الديني. و الواقع أن الغساني انبهر بالتنظيمات

والمؤسسات التي كانت موجودة بإسبانيا وساهمت في ازدهارها و تقدمها وصفها في رحلته :

- البريد: و هو مخصص للرسائل.
- الصحافة: و هي من وسائل الاتصال بالعالم الأوروبي و لها دور مهم في نقل الأخبار و رواج التجارة.
- الأمن في الطرق: و يساهم به رجال متخصصون في الحراسة للقضاء على الفوضى و اللصوصية.
- المارستانات: و هي بمثابة مستشفيات إذ كان بمدريد لوحدها 14 مارستاناً، ويقوم رجال بالإشراف عليه تطبيقا و تمويلاً.
- نظام التفتيش: و كان صارما يقوم به ديوان محاكم التفتيش و متحرر من سلطة الحاكم.

يشكل أدب الرحلة ثروة معرفية كبيرة، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجول وأنفس تنفعل بما ترى، ووعي يلم بالأشياء ويحللها ويراقب الظواهر ويتفكر بها. وقبل أن ترسم لوحة أوسع لرحلة ومسارها لا بد من الإشارة إلا أن رحالتا الشهاب الحجري والوزير محمد بن عبد الوهاب الأندلسي كانا من كبار مثقفي العصر، وكانا يتمتعان بسرعة هائلة بنسخ الكتب و حسن النظر و المشاهدة .

الإحالات:

(1) رحلة السفير الشهاب الحجري أهم وثيقة تاريخية كتبت عن نفي الأندلسيين الموريسكيين العرب المتنصرين، وصورت ظروف انتقالهم إلى شمال إفريقية وما لقوه في إسبانيا من اضطهاد وعدوان .ينظر الكتاب: أحمد قاسم، الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين(تحقيق و تقديم و ترجمة: شورفان كوننكزفلد، قاسم السامرائي، خيرا ردفيي خرز، مدريد: المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، بدون تاريخ. و أيضا : رحلة أفوقاي الأندلسي(حققها و قدم لهاك محمد رزوق)،ط**1**، بيروت: سيكو للطباعة و النشر، **2004**.

(2) الحجري، ناصر الدين على القوم الكافرين،(تحقيق: محمد رزوق)، الدار البيضاء: الالدار الجديدة، **1987**، ص **29**.

(3) تأسست محاكم التفتيش في اسبانيا خلال عهد الملكين الكاثوليكيين. فكانت أول محكمة في إشبيلية التي مارست الضغط على اليهود المتنصرين (Conversons). ما أنشأت محاكم أخرى منذ **1482**م بقرطبة، وجيان، وبلد الوليد، وفي سنة **1483**م، أصدرت البابوية بروما براءة تقضي بإنشاء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش (Suprema) تشرف على شؤون الدين المسيحي الكاثوليكي .كما تأسست محكمة سانت أفيتو (S. Oficio)، بقرطبة سنة **1482**م. للمزيد راجع :

Guy, Testas et Jean, Testas, L'inquisition , que sais-je ? Paris, PVF, éd, **1983**, P.**7**.

بلغت البيليوغرافيا الخاصة بدراسة محاكم التفتيش سنة **1963**، حوالي **1950** عنوانا، وصدرت على شكل دراسات عديدة ومتنوعة للمزيد راجع:

Bartolomé, Bennassar L'inquisition Espagnole XVe XIXe Siècle, Paris, hachette, **1979**, pp. **72** – **101**.

(4) الحجري، ناصر الدين، ص **17**.

(5) فيليب الثالث بالإسبانية) (Felipe III): أبريل **1578** – **31** مارس **1621**.والمعروف أيضًا باسم فيليب الورع، كان ملك إسبانيا وملك البرتغال والغرب وصقلية حيث حكم باسم فيليب الثاني. ولد في مدريد ونجل فيليب الثاني ملك إسبانيا وزوجته الرابعة آنا من النمسا ابنة الإمبراطور ماكسيميليان الثاني.

(6) الحجري،ناصر الدين، ص **18**.

(7) لقي في هذه المعركة معركة وادي المخازن أو معركة الملوك الثلاثة هي معركة قامت بين بلاد المغرب الأقصى والبرتغال في 30 جمادى الآخرة 986 هـ_4 أوت1578 م ثلاثة ملوك حتفهم هم عبد المالك وسباستيان والمتوكل؛ ولذا عرفت بمعركة الملوك الثلاثة، وفقدت البرتغال في هذه الساعات ملكها وجيشها ورجال دولتها، ولم يبق من العائلة المالكة إلا شخص واحد، فاستغل فيليب الثاني ملك أسبانيا الفرصة وضم البرتغال إلى تاجه سنة (988هـ - 1580م)، وورث أحمد المنصور العرش السعدي في فاس، وأرسل سفارة إلى السلطان العثماني يعرض عليه فيها انضمام دولته لدولة الخلافة العثمانية. للمزيد يرجى العودة إلى المراجع التالية:

- شوقي ،أبو خليل: وادي المخازن، دار الفكر: دمشق، 1988م.
- إبراهيم ،حسن: واقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، دار الثقافة: الدار البيضاء، 1979م.
- إحسان ،هندي: معركة وادي المخازن، مركز الدراسات التاريخية: دمشق، 1985م.
- عبد المجيد، قدوري، المغرب و أوروبا مابين القرنين الخامس عشر و الثامن عشر، مسألة التجاوز،ط1،بيروت: المركز الثقافي العربي،2000، ص ص 174-175.
- إبراهيم، حركات، المغرب عبر التاريخ،الدار البيضاء: دار الرشاد الحديثة، 1420هـ/ 2000، ص ص 258-261.
- إبراهيم علي حسن، (أحمد المنصور الذهبي)، سلسلة: خالدون في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1407هـ / 1987م، ص: 35- 36

(8) حول السفراء المغاربة و ظرفيات الرحلات ، راجع الدراسة القيمة: عبد المجيد قدوري، سفراء مغاربة في أوروبا،في الوعي بالتفاوت،ط1،الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة،1416هـ/ 1995. ص ص 13-20.

(9) لقد أشار المقري لمأساة الموريسكيين بخصوص الطرد و النفي بقوله : (قاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً، و لم يقيض الله لهم نصراً إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر و ألف(1609). فخرجت ألوف بفاس و ألوف أخرى بتلمسان بوهران و جمهورهم خرج بتونس... و كذلك بتطوان و سلا و الجزائر. ينظر: أحمد المقري، نفح الطيب، من غصن الأندلس الرطيب، و ذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب،(نشر : ؛حسان عباس)، بيروت: دار صادر،ج4، ص 528.

(10) لاحظ **بيرنار لويس** الاختلاف الموجود في علاقات الإسلام بالغرب، و أرجع ذلك إلى منطق التميز بين العالمين،(إذا كان الإسلام هو المعبر الأساسي لتحديد الهوية الإسلامية في

علاقته مع الأخر، فإن الغرب تعود أن يميز بين الناس حسب معايير أخرى كالانتماء القومي أو الترابي.و ركز لويس على مركزية الإسلام في تحديد مجموعة من المصطلحات : كدار الكفار ودار الكفر و ملوك الكفار.. فالدبلوماسية الإسلامية في نظره لجأت إلى تقسيم العالم إلى قسمين: دار الإسلام و دار الحرب.و كان المسلمون يستعملون الجهاد ضرورة فرضها القانون و الدين. ومن أجل هذا ، صار الغرب لا يرى في الإسلام إلا الحرب زو المواجهة. للمزيد راجع: Lewis,Bernard,Le langage politique de l'Islam, Gallimard, Paris,**1988**,pp.**88-113**.

(11) انطلق ماكسيم رودنسون في دراسته لمواطن الاحتكاك بين العالم المسيحي و العالم الإسلامي، حيث قدم قراءة موجهة للمصطلحات السياسية عند العرب، فلاحظ أن اهتمام المسيحيين بالعرب جاء نتيجة دخول هؤلاء و سيطرتهم على الأندلس، و بين كيف صارت إسبانيا فضاء للاتصال الثقافي المباشر، و اعتبر حروب الإستردادات عملية أوروبية موجهة ضد الإسلام و مدعمة لنفوذ البابوية. راجع: Rodinson,Maxime,La Fascinatio de l'Islam, Paris, Maspero,**1980**,p.**22**.

(12) تميزت الكتابة عند الحجري بالتشنج و الجدل. فجاءت الرحلة مكتوبة بجمل متقطعة وسريعة النفس. و كان المؤلف يلجأ في غالب الأحيان إلى اعتماد الأسلوب المبني على الحوار الملائم للمناظرات. و تبنى الحجري إستراتيجية المواجهة في الكتابة ليشعر قارئه بعمق التعارض الحضاري الإسلامي. كما اعتمد الحجري على الذاكرة ليستحضر الأحداث التي عاشها في أوروبا خلال رحلته، فجاءت مناظراته في شكل مسرحيات ركز فيها على(الأنا) التي شخصت بطل المسرحية و همش منافسيه و محاوريه الذين كانوا يجسدون(الأخر) الأوروبي و شوههم. راجع: ناصر الدين على القوم الكافرين، ص ص **18**-**25**.

(13) الوزير محمد بن عبد الوهاب الأندلسي الفاسي المتوفى عام **1119**هـ/ **1707**م، يعتبر أحد كبار رجال العلم في عصره، تحدث عنه محمد بن الطيب القادري، في نشر المثاني، بالقول: «هو الكاتب الأرفع أبو عبد الله محمد المدعو حمو بن عبد الوهاب الوزير الغساني الأندلسي الفاسي، كتب للسلطان مولانا إسماعيل، وكان نجيبا في ذلك، ذكر أنه كان كلما يلقى من الأوامر يكتبها ويستوفيها، ولا يغرب عليه شيء منها مع كثرتها. وقد أرسله مولانا السلطان إلى بلاد الروم بالأندلس، يقصد أن يستخرج ما بأيديهم من أسرى المسلمين، وألف في رحلته تلك كتابا أسماه: رحلة الوزير في افتكاك الأسير."

(14) Pérés ,Henri,L'Espagne vue par les voyageurs musulmans de 1610-**à1930**,Adrien-Maisonneuve,Paris 1937,p.7(198p).

تم نشر هذا الكتاب لأول مرة في سنة 1939، من طرف ألفريد البستاني بالعرائش، و ترجمه المستشرق الفرنسي سوفار:

H.Sauvaire,Voyage en Espagne d'un ambassadeur Marocain(1690-1691),Ernest Leroux,**Paris**,1884(252p).

كما قام المستشرق الروسي (Ignati KRACHKOVSKI) بتعريف الرحلة ووزيرها ، ينظر:

أغناطيوس، كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي(نقله إلى العربية: صلاح الدين عثمان هشام)،القاهرة،الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية،**1957**، القسم الثاني، ص ص **732**-**735**. و أيضا الباحث الإسباني:

Vernet(Juan.G), « La Embajada de Al Ghassani(1690-1691), »,In Al Andalus,Vol**18**,,N°**1** ,1953,**pp109**-131.

و أهملت الدراسات العربية موضوع الرحلة، ينظر:

- عبد المجيد ، القدوري، سفراء مغاربة في أوروبا(**1610**-**1691**)،في الوعي بالتفاوت،ط**1**،لله الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة،**1416**هـ-**1995**،(**154** ص).
- أعمال ندوة: الرحالة العرب و المسلمون : اكتشاف الأخر،المغرب منطلقا و مؤثلاً، ط**1**،الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة،**2003**،(**475** ص).

(**15**) الخزانة الزيدانية هي مخطوطات تعود لمكتبة السلطان المغربي زيدان الناصر بن أحمد، استولى عليها قراصنة أسبان في عرض مياه المحيط الأطلسي سنة**1612** م وهي موجودة اليوم بخزانة الإسكوريال بإسبانيا .المخطوطات ذات أهمية علمية بالغة وهي من أشهر الخزائن العلمية في تاريخ المغرب، حيث تتكون من كتب مكتبة زيدان ووالده السلطان أحمد المنصور الذهبي ومما حازه من مكتبتي أخويه الشيخ المأمون وأبي فارس بعد وفاتهما، وتضم الخزانة الزيدانية دراسات في مختلف المجالات وبلغات متعددة منها التركية والفارسية واللاتينية.كما ارتبط اسم (الإسكوريال) بمكتبة المخطوطات والكتب العربية الإسلامية بمدريد، والتي تقع بقصر الإسكوريال الذي اكتمل بناؤه في عهد الملك الاسباني فيليب الثاني سنة **1584**م. وتعود أصول القصة بعد ثورة ابن أبي محلي سنة **1612**م اضطر السلطان زيدان السعدي إلى مغادرة مراكش في اتجاه ميناء آسفي ليسافر منها إلى أغادير، واستأجر سفينة: (**Notre dame de la garde**) تعود للقنصل الفرنسي جان فيليب دي كاستيلو لتحمل نفائسه وخزانة كتبه التي قدرت بأربعة آلاف مخطوط في مختلف فنون العلم والأدب. كانت السفينة على أهبة الإقلاع

إلى مرسيليا ، لكن غير مسارها وحَمّلَها خزانته و أمتعته –من بينها التاج و الصولجان – و أمر القنصل بحارته بالتوجه إلى مدينة أغادير مقابل **3000** دوكا أو درهما ذهبيا. واكترى سفينة أخرى هولندية لنفسه و لخدمه و لحشمه و لبعض الفرسان المخلصين له ، فوصلت السفينتان معا إلى أغادير ، في نفس اليوم فغادر زيدان السفينة الهولندية رفقة زوجاته و خدمه ، و رفض (دي كاستيلو) إفراغ مركبه قبل أن يؤدي له الثلاثة آلاف درهم ذهبي، وبعد انتظار ستة أيام بسبب تأخر وصول المال بسبب الأحوال المضطربة، فر (دي كاستيلو) من ميناء أغادير قاصدا مرسيا حاملا المكتبة و التاج و الصولجان و الألبسة و غيرها من الأمتعة ، و كان ينوي تقديمها لحاكم مرسيليا (دوك دوكيس) مقابل ما اتفق مع زيدان عليه﴾ .إلا أن الظروف قادت السفينة في اتجاه مدينة سلا، فتعرضت لها في الطريق أربع سفن إسبانية و استولت عليها بكل سهولة فاعتقد ملاحوها خطأ بوجود ذهب في الصناديق، فلما فتحوها ولم يجدوا بها إلا الكتب فكروا بتقديمها هدية لملكهم وذلك سنة **1612**م فتوجهوا بها إلى مدينة بلنسية ، و من ثم أمر الملك فيليب الثالث الإسباني ، بنقل هذه المكتبة الضخمة إلى دير الإسكوريال . للمزيد راجع:

– أحمد شوقي،بنين : (خزانة مراكشية بالأسكوريال)، مجلة كلية الآداب و العلوم الإنسانية، العدد**9**، الرباط،**1982**،ص ص **127**–**142**. و المعروف أن إسبانيا سلمت للمغرب نسخ مصورة على الميكرو فيلم، وسلمها ملك إسبانيا إلى ملك المغرب في **16** جويلية **2013** في زيارة رسمية.

(**16**) سفير مغربي في مدريد في نهاية القرن السابع عشر، رحلة الوزير في افتكاك الأسير، لمحمد بن عبد الوهاب الغساني(تحقيق و تقديم: عبد الرحيم بنحادة)، طوكيو: معهد الأبحاث في لغات و ثقافات آسيا و إفريقيا، **2005**، ص **16**.

(**17**) تتمتع رحلة الغساني حسب الجراح بقيمة استثنائية، فهي تأتي بعد خمسين سنة من رحلة قاسم الحجري، و فيها صور و انطباعات عن الحياة الأسبانية في القرن **17**م. ينظر نص الرحلة (تحرير و تقديم: نوري الجراح، ط**1**،أبو ظبي: دار السويدي للنشر و التوزيع،**2002**، ص ص**12**–**13**.

(**18**) الملك كارلوس الثاني (تشارلز الثاني)___ **1661** – **1700** ملك إسبانيا وقشتالة وأراغون ودوق لوكسمبورغ (**1665**–**1700**) وكونت بورغوندى (**1665**–**1678**)، وكان آخر ملوك هابسبورغ على عرش إسبانيا وحاكم أجزاء كبيرة من إيطاليا والأراضي الإسبانية في البلدان المنخفضة الجنوبية والإمبراطورية الإسبانية في الخارج

والتي تمتد من الأمريكيتين إلى جزر الهند الشرقية الأسبانية. عرف بإعاقته البدنية والفكرية والعاطفية بالإضافة إلى دوره في التطورات التي سبقت حرب الخلافة الإسبانية.

(19) حول سياسة فليب الثاني تجاه المشكل الموريسكي، و تطبيقه لسياسة التنصير و الإدماج ، و إصدار ترسانة من القوانين الردعية في حقهم كمنع استعمال الألبسة العربية، وتسليم الكتب، يرجى مرجعة:

حنيفي،هلايلي،الموريسكيون الأندلسيون في الجزائر خلال القرنين **16**و**17**م، مقاربات جديدة في الهجرة و الإسهام الحضاري، ط**1**، سيدي بلعباس: منشورات مخبر البحوث و الدراسات الإستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي **2014**، ص ص **52**-**45**.

راجع بخصوص ثورة غرناطة: ليلى، الصباغ:(ثورة مسلمي غرناطة عام **976**هـ/ أواخر عام **1568**م، و الدولة العثمانية)،مجلة الأصالة، العدد **27**،سبتمبر-أكتوبر **1975**، ص ص **116**-**175**.

(20) جمع شارل الخامس قوة غزو هائلة، عُهد بقيادتها إلى كوندوتييريين شجعان وذوي خبرة وهم أندريا دوريا وفيرانتي الأول غونزاغا وهرنان كورتيس .رغم هذا منيت الحملة التي انطلقت في أكتوبر سنة **1541** بالفشل التام، لأن الظروف غير المواتية للإبحار دمرت **150** سفينة محملة بالأسلحة والقوات والإمدادات. لم يكن شارل الخامس قادراً مع ما تبقى أن يكلل المغامرة بالنصر فعاد إلى إسبانيا، وفي أوائل ديسمبر من تلك السنة، تخلى نهائياً عن سياسته المتعلقة بالسيطرة على البحر.

كانت الحملة الأسبانية بقيادة الإمبراطور شارل الخامس على مدينة الجزائر مابين **21**-**25** أكتوبر **1541** بترسانة عسكرية قوامها **23** ألف و **500** جندي محملين على **516** سفينة.و أسفرت الغارة عن هزيمة نكراء للأسطول الأسباني و تحولت مدينة الجزائر إلى دار الإسلام و الجزائر المحروسة.ينظر:

- **محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن رقية التلمساني،** الزهرة النيرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها الكفرة.

Pierre Mesnard, "Charles Quint et les Barbaresques", *Revue hispanique*, **1959**, -(vol. **61**, **2-3**), p. **215-235**.

Daniel Nordman, *Tempête sur Alger : l'expédition de Charles Quint en* **1541**, éditeur Bouchene, coll. Histoire du Maghreb, Saint-Denis, juin **2006**, **702** pages,

(21) **الحقبة الإسبانية في تونس**، ترمز إلى الفترة بين **1535** و**1574** تاريخ احتلال الإسبان لعدة مناطق ساحلية في البلاد.

دخلت الدولة الحفصية سنة **1535** في صراع خلافة بين السلطان أبو عبد الله محمد الحسن وأخيه الأصغر رشيد .طلب الأخير العون من العثمانيين الذين تمكنوا من الاستيلاء على العاصمة بقيادة خير الدين باربا روسا) دون إرجاع رشيد على العرش). استنجد أبو عبد الله محمد الحسن بشارل الخامس، ملك إسبانيا الذي جهز جيشا قوامه **33،000** رجل و**400** سفينة بالتحافل مع الدول البابوية، جمهورية جنوة ونظام فرسان مالطة .تمكن الإسبان من القيام بإنزال شمالي العاصمة في **16** يونيو، ثم بالإستيلاء على ميناء حلق الوادي، ثم تمكنوا من دخول العاصمة في **21** يوليو .أعيد تنصيب السلطان حسن على العرش لكنه أجبر على المصادقة على معاهدة تضع البلاد عمليا تحت الحماية الإسبانية. استمر في السنوات التالية الصراع بين الإسبان وحلفاءهم والعثمانيين. تمكن العثمانيون في النهاية سنة**1574** ، من طرد الإسبان نهائيا بعد الانتصار عليهم في معركة تونس.

1. حلل السّندسيّة في الأخبار التونسية، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، تونس**1985**، م**2**، ص**205**.

2. أحمد بن أبي الضيّاف، أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك مغراوة وعهد الأمان، الدار العربية للكتاب، **2001**، م**1**، ج**2**، ص**11**.

(22) **معركة وادي المخازن** أو **معركة الملوك الثلاثة** هي معركة قامت بين بلاد المغرب الأقصى والبرتغال في **30** جمادى الآخرة **986** هـ 4 أغسطس**1578** م .تطور الأمر من نزاع على السلطة بين محمد المتوكل والسلطان أبو مروان عبد الملك إلى حرب مع البرتغال بقيادة الملك سبستيان الذي حاول القيام بحملة صليبية للسيطرة على جميع شواطئ المغرب، وكي لا تعيد الدولة المغربية بمعاونة العثمانيين الكرّة على الأندلس .انتصر المغاربة، وفقدت الإمبراطورية البرتغالية في هذه المعركة سيادتها وملكها وجيشها والعديد من رجال الدولة، ولم يبق من العائلة المالكة إلا شخص واحد ثم عادت الإمبراطورية البرتغالية بعد **93** سنة من سيادة إسبانيا عليها. لتفاصيل أكثر ينظر الهامش :**7**.

(23) من الواضح أن السلطان سليمان الذي ذكره الغساني هو سليمان الثاني بن إبراهيم الذي بويع في شهر نوفمبر عام **1687** م وكانت أيامه الأولى أيام اضطراب بسبب تسلط الانكشارية على تسيير الحكم. لكنه استطاع تأديبهم والتغلب عليهم خصوصا بعد أن عقدت الدولة مجلسا

للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ السلطة وكانت نتيجة هذا الاجتماع أن ولي صدارة الوزارة مصطفى باشا الكوبرلي الذي استعمله لإنقاذ السلطة . للمزيد حول شخصية هذا السلطان: يلماز،أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية،(ترجمة: عدنان محمود، ومراجعة محمود الأنصاري)، ط**1**، استانبول: منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، **1408**هـ/ **1988**م، مجلد**1**، ص **556**-**563**.

(**24**) حول الهجرة من دار الكفر إلى الدار الإسلام، يرجى العودة إلى:
أحمد،الونشريسي، المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي أهل أفريقية و الأندلس والمغرب،(تحقيق: محمد حجي و آخرون)،ط**1**،بيروت: دار الغرب الإسلامي،**1981**،ج **2**،ص ص **113**-**119**. و أيضا عن قضايا الحجر الصحي،ينظر: عبد الرحيم ،بنحادة☹ سفيران في مغربيان في مدريد)، أعمال ندوة السفر في العالم العربي الإسلامي: التواصل و الحداثة،الرباط: منشورات كلية الآداب ، **2003**،ص ص **47**-**66**.

الرحلة و كتابة تاريخ بلاد المغرب
رحلة التمقروتي أنموذجا

حميد أيت حبوش
جامعة تلمسان

Abstract:

The trip was not actually humanly still the fanciest indicates a high degree of cultural awareness, due to the benefits of the owner, are many. There is no doubt that the University of bus travel and the lessons learned, and massing of science and knowledge and sharpen the mind and conscience and increase the understanding and perception, and fine-tune personal experience thanks to the hardness and heat attitudes and awe adventure.

Keywords:

The trip - knowledge – hardness– Rules- science.

كانت الرحلة ولا زالت فعلا إنسانيا راقيا يدل على درجة كبيرة من الوعي الحضاري، يعود على صاحبه بفوائد، كثيرة. فما من شك أن السفر جامعة حافلة بالدروس والعبر، و تحتشد بالعلم والمعرفة وتشحذ العقل والوجدان وتزيد في الفهم و الإدراك، وتصقل الشخصية بفضل قساوة التجربة وحرارة المواقف ورهبة المغامرة وطلعة الجديد في كل شأن ومجال

ومواجهة المفاجآت وتحمّل مشاق الغربة و السفر، و كذلك الإطّلاع على الطبائع المختلفة والإعتياد على الغريب و التمرس بمعاملته.و لقد قال الكاتب الفرنسي **(سافاري)**[1] في هذا الشأن: "إن الرحلة أكثر المدارس تثقيفا للإنسان"[2].و قال :(**إليوت)** [3] عن الرحلة أيضا مايلي: "ارتحلوا ... انطلقوا أيها الرحالة فأنتم لستم نفس الأشخاص عند بدء الرحلة".و حتى القرآن الكريم يأمر بالإرتحال والسير في الأرض في قوله تعالى: (قُلْ سيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَ أُنْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُكَذِبِينَ)[4].و في قوله عزّ و جلّ:(هُوَ الذي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكبهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَ إِلَيْهِ النُشُورُ)[5].

-مضامين الرحلات:

لقد تكاملت الرحلات في إبراز المستوى العلمي والأدبي، واستطاعت أن تعكس بأمانة ما كان يطبع البيئة جغرافيا واجتماعيا وحضاريا في البلدان والمناطق التي شملتها الرحلات.و ليس بالإمكان الإلمام بكل المضامين نظرا لكثرتها و تشعبها، مما يجعل الإحاطة بها أمرا شاقا، و لذلك سنقتصر على المضمون الجغرافي، والعلمي والاجتماعي والأدبي.

أ: المضمون الجغرافي:

نستطيع عن طريق الرحلات التعرّف على الطرق و المسالك التي كان يسلكها الرحالة بحرا و برا، و نستطيع من خلال رحلة **(ابن بطوطة)** خاصة

رسم معالم الطرق التي كان يتبعها المتجوّل في بلدان العالم في آسيا و إفريقيا وأوربا.كما ترشدنا الرحلات الداخلية إلى المسالك والطرق التي كانت تربط بين المدن المغربية أو الجزائرية المختلفة.ونستطيع من خلال ذلك التوصل إلى ضبط المسافات الفاصلة بين هذه البلدان انطلاقا من ذكرهم للمراحل وتحديدهم للزمن.

و في الرحلات أيضا، اهتمام بوصف البلدان التي مرّ بها الرحالون أو نزلوا فيها، إلا أن هناك تفاوت في الاهتمام بوصف هذا البلد أو ذاك و لعلّ المدن التي نالت حظا كبيرا من طرف الرحالين، تلك التي قصدوها في البقاع المقدسة بالحجاز والشام، أو المدن التي مروا عليها في الطريق إلى المشرق أو التي صادفوها في رحلاتهم، لذلك وصفت بلدان في آسيا وإفريقيا و أوربا و الأمثلة كثيرة في رحلة كل من "التمقروتي"، "الوزان"، "ابن رشيد"، "ابن بطوطة"، و أعار الرحالون اهتماما خاصا أيضا لمشاهدتهم أثناء تجوالهم داخل البلدان والمدن التي دخلوها، فوصفوا الآثار المختلفة، و تحدثوا عن الأضرحة والزوايا، كما أشاروا إلى جوانب أخرى طبيعية واقتصادية كحديثهم عن السيول والأمطار والثلوج والأسعار و الأزمات الاقتصادية و الصناعات والحيوانات و الموارد الاقتصادية المختلفة[6].

ب: المضمون الاجتماعي:

نعثر في الرحلات ملامح اجتماعية هامة، قد لا نصادفها في غيرها، فلم يكن الرحالون يكتفون بلقاء الأعلام والشخصيات و تدوين الروايات

و إنما كانوا يختلطون بأفراد المجتمعات، و يجالسونهم و يتحدثون إليهم، مما جعلهم على إطّلاع واسع بأحوالهم و عاداتهم و أنماط سلوكهم، و كانت رحلة (**الوزان**) وأيضا رحلة (**ابن بطوطة**) على الخصوص سجّلا حافلا بأخبار الناس و عاداتهم وأخلاقهم ومذاهبهم[7].

كما تحدّث الرحالون عن البدع التي انتقدوها في البلدان التي مرّوا بها و على الخصوص ما شاهدوه في البقاع المقدسة، كما تحدثوا عن عادات الشعوب التي خالطوها و احتكوا بها فأشاروا إلى عادة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، مثل ما أشار إليها (**التمقروتي**) في رحلته عن كيفية احتفال السلطان السعدي بهذا المولد[8].كما أشار الرحالون إلى شيوع التصوّف و منزلة الأولياء و وصف الأحوال الأمنية في الطرق و البلدان التي دخلوها.

ج- المضمون العلمي:

وهو الجانب الأوفر في معظم الرحلات، لأن من دوافع الرحلة لقاء الشيوخ والإطلاع على المكتبات والحصول على الأسانيد والروايات والإجازات وجمع القصائد و الدواوين الشعرية و الفهارس والبرامج والكتب النادرة.

و لقد أسهب الرحالون جميعهم في ذكر الشيوخ والتحدّث عن مجالسهم العلمية، والعلوم و الفنون التي نوقشت في هذه المجالس و القضايا التي أثيرت فيها.و من هنا كان مقياس نجاح الرحلة و توفيق صاحبها

مرهونا بما استطاع جمعه في غيابه عن بلده من معلومات و نصوص و كتب و إجازات.

و نظرا لهذا الحرص على جمع الفوائد و جلب الكتب، فإن الرحالة كثيرا ما يعلن أسفه على عدم تمكنه من إشباع فهمه العلمي حينما لا تسعفه ظروف الرحلة بجمع ما يرغب فيه من المعارف[9].و من خلال الرحلات يمكننا التعرف على العلوم التي كانت سائدة في المجالس العلمية، كعلم القراءات، الفروع الفقهية ، الدراسات الحديثة و التصوّف[10].

د: المضمون الأدبي:

تعتبر الرحلات مصدرا هاما للإنتاج الأدبي بما تتضمنه من نصوص ونماذج أدبية تكاد تكون نادرة، فأصبحت بذلك الرحلة هي ديوان للكثير من الشعراء الذين لا توجد لهم دواوين تجمع أشعارهم و تحفظ إنتاجهم.

و بفضل الرحلات تم الاحتفاظ على الآثار النادرة، و لولاها لكانت عرضة للاندثار و النسيان، و من الأمثلة عن هذه الآثار النادرة، قصيدة **(ابن الفكون)**[11] في رحلته من قسنطينة إلى مراكش[12].

لذلك تضمنت الرحلات نصوصا أدبية كثيرة في الشعر والنثر والنقد، لا يستغنى عنها في دراسة الأدب، فحتى الرحلات التي كان يقوم بها أصحابها لطلب الحديث والرواية و قيام بمهمة سفارية ،كان للشعر الحظ الأوفر والنصيب الكبير في مضمونها. فأغلب الرحالين حرصوا على نقل الأشعار وروايتها، وسجلّوا لأنفسهم أيضا قدرا مهما من القصائد

الشعرية، فكانت هذه الرحلات بمثابة دواوين لأصحابها، خصوصا إذا علمنا أن أكثرهم لا يعرف لهم أشعار إلا من خلال ما أثبتوه في رحلاتهم، و أحسن مثال على ذلك، رحلة (**التمقروتي**)، لا يخلو مضمونها من أبيات شعرية[13]

-التعريف بأبي الحسن التمقروتي :

هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي محمد التمقروتي[14]، ولد سنة **1534**م وتربى في بيت علم و صلاح، فقد كان لجده علي بن محمد شهرة كبيرة في منطقة درعة[15]، و كان والده محمد من أهل الصلاح، أخذ عن الشيخ الصوفي عبد العزيز القسنطيني، و كان عمه عبد الله من أهل التصوف، رحل إلى تونس وصاحب فيها الشيخ عبد العزيز السابق ذكره، و لازمه حتى وفاته بتونس، و كان أخوه محمد عالما وأستاذا للأمراء السعديين و إماما لجامع المشور بفاس حتى وفاته بها سنة **1580**م، وقد سبق أن وجهه السلطان السعدي عبد الله الغالب[16]سفيرا إلى إسطنبول. وذكره التمقروتي مشيرا إلى أنه سفر قبله عند الأتراك العثمانيين، و ندما مرّ بجزيرة كلبلي[17] تذكر مقولة أخيه عنها: (لا يصلها إلاّ من بُليَ).أما أخوه الثاني، الحسن، فقد كان رجلا فاضلا فقيها نحويا، أخذ عن عدد من علماء فاس، مثل أحمد المنجور[18].

هكذا تربى (التمقروتي) وسط عائلة متصفة بالصلاح متحلية بالعلم لها صلات بالسلاطين السعديين، و عاش في كنف والده الشيخ محمد

البكري، و تعلّم في زاوية والده هو و أخوه محمد، و أخذ عن مشايخ منطقة درعة، ثم كلّف بالتدريس في الزاوية[19].

و تقلّد مناصب هامة و رسمية ببلاط مراكش، و كلّفه السلطان السعدي أحمد المنصور[20] بسفارة إلى إسطنبول[21].توفي التمقروتي سنة **1594**م، و دفن بروضة القاضي عياض بمراكش[22].

-رحلته (النفحة المسكية في السفارة التركية):

تعتبر من المصادر الأساسية لتاريخ حوض الأبيض المتوسط، و قد اعتمد عليها العديد من الباحثين في مجالات مختلفة، استلهم فيها التمقروتي نموذج الرحالة الذين تأثر بهم، و خصوصا خالد البلوي[23].و تحريره لهذا الكتاب كان بعد عودته من مهمته كسفير السلطان المنصور إلى إسطنبول، وقد اعتمد التمقروتي أثناء التحرير على خمسة مصادر وهي رحلة البلوي، العقد الفريد لإبن عبد ربه[24]، رحلة ابن بطوطة[25]، كتاب (المسالك والممالك) للبكري[26]، ومدارك القاضي عياض[27].

و قد كتب (**التمقروتي**) بأسلوب واضح، في وصفه للمراسي التي حطّ بها الرحال، بعيد عن أي تزويق أو تنميق، و أحسن مثال على ذلك وصفه الدقيق الواضح لمدينة إسطنبول ببناياتها و أزقتها و تجارتها و عاداتها و نظام الحكم و التسيير فيها، إلاّ أنه كان يحاول استكمال الصورة التي يرسمها لبعض المراسي باقتباس من أوصاف سابقة لعهده، ليقارن بين وضعية المدينة عند واصفيها ممن سبقوه من الرحالة، و بين ما آل إليه أمرها

عندما مرّ بها فعندما وصل (**التمقروتي**) إلى وهران وصفها ثم أورد وصف ابن عبد ربه لها وما قال عنها البكري، وتكرّر نفس النمط في مستغانم و الجزائر و بجاية، و في معظم المراسي التي توقّف بها. ويذكر ضمن ما يذكر رجالها المرموقين علما أو إصلاحا، موتى أو أحياء، مضمنا ذلك كلام من سبقه عنهم، إلاّ أن تأثره بخالد البلوي وإعجابه به جعله يبالغ من جهتين، أولّهما الإكثار من النقل عنه، خصوصا في ذكر من لقيهم البلوي من رجال بجاية و تونس، و هو نقل استغرق ما يفوق العشرين صفحة من كتابه. ومن جهة ثانية، التأثر بطريقة كتابة البلوي و الإعجاب بأسلوبه، حيث حاول (**التمقروتي**) النسج على منواله في بعض مقاطع ﴿النفحة...﴾ خصوصا عند وصف احتفال أحمد المنصور بعيد المولد النبوي، أو لمراسيم تجديد البيعة، نقل (**التمقروتي**) حرفيا أسلوب البلوي دون أن يحيل عليه في مقطعين طويلين، فهو في وصفه لعلاقة الأخوة التي ربطت بينه و بين محمد بن علي الفشتالي خلال سفرهما، يورد نفس الكلام للبلوي في حديثه عن أبي العباس أحمد النقاوسي ونلاحظ نفس التطابق في الكلام عن حديث (**التمقروتي**) عن أشراف السعديين،حيث يورد نفس كلام البلوي، وهو يتحدّث عن محمد بن يحي الحسني[28].

- تاريخ التأليف:

عاد التمقروتي إلى بلدته في مارس **1591**م، و كانت وفاته سنة **1594**م فيكون تاريخ انتهائه من تأليف الكتاب بين هذين التاريخين، بينما يعود

تاريخ نسخة الطبعة الحجرية المعروفة عندنا اليوم إلى سنة **1716**م ، الذي قام بنسخها هو محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن إبراهيم الجزولي البكري الدرعي . وبنص كلمات هذه النسخة: (انتهى بحمدالله تعالى وحسن عونه على يد كاتبه محمد بن عبدالرحمن الدرعي).

و يعتقد أن الرحلة المتداولة حاليا هي عمل مصحح عن نسخة ترجع إلى سنة **1716**م، و التي تعكس إلى حدّ ما طبيعة العلاقات المغربية العثمانية بعد سنة **1708**م.

-النسخ المتوفرة من كتاب (النفحة المسكية في السفارة التركية):

1-نسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية: قسم الوثائق و المخطوطات، تحت رقم **2829** ك، و هي أقدم من النسخة المخطوطة الثانية، تآكلت أطراف أوراقها و اعتورتها ثقوب تحول في بعض الأحيان دون القراءة السليمة، بل إن الصفحة الأولى من المخطوط امحي نصفها الأسفل تماما.وفي وسط المخطوط حالت خروم و آثار سوائل دون تبيان أطراف بعض الصفحات، لكن النسخة عموما مقروءة بعد تمعن وجهد. في الصفحة الأولى قبل بداية نص الرحلة تقييدات تصعب تبينها يبدو أنها تواريخ وفيات، أو أبيات سائرة على عادة المغاربة في تدبيج أشياء من هذا القبيل في مخطوطاتهم،عدد صفحاتها**190** صفحة، وفي الهوامش تصحيحات وتوضيحات وتعليقات سريعة بخط مغربي وبصمغ أسود

داكن يبدو أنه أحدث زمنا من الخط الذي به كتب نص الرحلة، و قد كتب اسم الجلالة وعناوين الكتب وأسماء الأعلام بلون مغاير.

و في آخر المخطوط، بعد الإشارة إلى الفراغ من نسخ النسخة على يدّ محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن إبراهيم الجزولي ثم التمقروتي ثم البكري نسبا الدّرعي دارا و منشأ بعد العصر من يوم الأحد التاسع و العشرين من صفر عام 1128هـ قصيدة حجازية للسيد الفاضل المكرّم الوجيه المعظم سيدي محمد بن إبراهيم التمقروتي رحمه الله.

2-نسخة المكتبة الوطنية للمملكة المغربية: قسم الوثائق و المخطوطات، تحت رقم 795د، عدد صفحاتها 334 صفحة[29]، خط مغربي جميل مقروء، إلاّ أن النسخة من حيث الأخطاء العامة، صورة طبق الأصل عن النسخة السابقة، في هوامشها تصحيحات وتعليقات بقلم رصاص وبصمغ أسود، ولقد أصابت الرطوبة جزءا من غلافها الخارجي.

3-نسخة المستشرق هنري دوكاستري المترجمة[30]، عدد صفحاتها 130 صفحة وقد ذيّل المترجم نص الترجمة بكشاف كما أنه أورد هوامش وتعليقات ذكية أسفل كل صفحة، مع الإشارة إلى أن دوكاستري تصرّف تصرّفا واسعا في النص الأصلي للرحلة.

4-طبعة دوكاستري الحجرية التي تفتتح ديباجتها هكذا: "النفحة المسكية في السفارة التركية، تأليف الإمام العلامة المدرّس أبي الحسن سيدي علي بن

المعظم أبي عبد الله سيدي محمد الجزولي التمقروتي نفعنا الله ببركاته ورضي عنه عدد صفحاتها 190 صفحة.

5-نسخة الباحث التونسي سليمان الصيد، الذي نشر هذه الرحلة في تونس سنة 1985م، عن دار بوسلامة للطباعة والنشر والتوزيع، وأنها مأخوذة من نسخة دوكاستري الحجرية.

6-النسخة التي حققها عبد اللطيف الشاذلي و أصدرتها المطبعة الملكية بالرباط سنة 2002م، عدد صفحاتها 198، و قد قدّم الشاذلي للرحلة كما ذيّلها بكشاف للأعلام والأمكنة والمصطلحات الأجنبية والمؤلفات مع تعريف بالأعلام أسفل الصفحات[31].

7-النسخة التي حققها و قدّم لها محمد الصالحي وأصدرتها المؤسسة العربية للنشر، بيروت سنة 2007، وهي منقحة و وضع لها فهارس متنوعة، كما حدّد وضبط مسار الرحلة[32]. وهذا ما يؤكد اهتمام كبير من قبل المؤرخين لهذه الرحلة على مدى قرن من الزمن.

- مضمون الكتاب:

يتضمن الكتاب الرحلة البحرية الشاقة من تطوان إلى إسطنبول ثم منها إلى تطوان، يستهل التمقروتي الحديث عن رحلته بذكر ذلك الاستدعاء الذي وصله إلى مكان إقامته بمنطقة تمقروت من إقليم درعة، وكان هذا الاستدعاء بمنزلة أمر جازم لا مناص له من امتثاله ليقوم برحلة

شاقة إلى عاصمة الخلافة الإسلامية، و الأمر صادر عن الملك أحمد المنصور الذي كان مقيما بعيدا عن مراكش بمدينة فاس.

و يؤرخ التمقروتي خروجه من تمقروت يوم السبت 1 جمادى الأولى سنة 997هـ الموافق لسنة 1589م، مودّعا الأهل و الأحباب، و قد قدّم وصفا دقيقا لمغادرته لبلدته ضمّنه كثيرا من اللوعة و البكاء، كأن خروجه من درعة خروج فعلي إلى مكان غريب عنه، حيث قال: " خرجنا...من ديارنا بتمـڤروت، بلدنا الذي طال سناه و طاب معناه...مودعا لجميع الأهل ومتجرعا من ذلك ما ليس بالعذب ولا بالسهل، و كان لذلك الوداع موقف مشهور مشهود...و سرنا بعزمة لا يفل حدّها...و أنا بين ظفر التوحش ونابه...و أبدي من الحنين ما لا تطيق الجوانح أن تحنه...ثم وقفت بالثنية المشرفة وقفة مسلم و ودعت البلاد وداع المتألم:

و فارقت ما فارقت لا عن ملالة ودعت من ودعت لا عن تعوّض

ودعـت قلبـي يـوم ودعـتهم و قـلـت يا قلبي عليك السـلام[33]

وقد سلك (التمقروتي) طريق إقليم سجلماسة، والمسافة بين تمقروت وسجلماسة وفاس مسافة طويلة و متنوعة الطبيعة من جبال ونجود وصحاري وسهول، إلا أن التمقروتي لم يشغل نفسه ولا قلمه بوصفها و إفادتنا بما يمكن أن يكون لديه من معلومات جغرافية وتاريخية وحضارية عنها.و بعد خمسة وعشرين يوما يحطّ رحاله بمدينة فاس، حيث يقيم المنصور فيستقبله و يرحّب به و يكرّمه و يقرّبه من مجلسه الخاص

بالرؤساء والأعوان والكتّاب والسفراء الوافدين، و فيهم سفراء الخلافة العثمانية الذين حملوا إلى المنصور رسائل و هدايا دولتهم.

و اغتنم (**التمقروتي**) المناسبة للإشادة بمظاهر عظمة دولة المنصور فوصف بروزه إلى خارج المدينة في موكب رسمي حيث ضربت له سرادقات و قباب وأروقة ملونة على هيئة خاصة و فرشت الأرض بالبسط و أقيمت معالم الزينة، وقد جاء في آخر هذا الوصف: (و القصر الذي يكاد لمعانه يخطف الأبصار، قد نقش ذلك أحسن نقش و ملي بأبهى فرش، و للسرادق الذي هو كالسور أبواب كأنها أبواب مشيدة القصور يدخل منها إلى دهاليز و تعاريج ثم يفضي بها إلى الفصل الذي فيه القباب و القصر فكأنه مدينة قد أحدق بها سور مشرق تنتقل بانتقال السلطان وتنزل بنزوله، وهي من الأبهات الملوكية التي لم تعهد عند الملوك الماضية...)[34].

ولم يفصح (**التمقروتي**) عن موضوع السفارة و سرّها وهدفها، وإنما تحدّث بإيجاز و اقتضاب أن المنصور أرسله مع رفيقه محمد بن علي الفشتالي سفيرين بهديته و رسائله إلى إسطنبول، اصطحبهما الرسل، على حدّ تعبيره الذين حملوا بدورهم هدية و رسائل العثمانيين إلى السلطان أحمد المنصور.

و حديث (**التمقروتي**) عن رفيقه محمد بن علي الفشتالي طيلة فصول الرحلة ذهابا و إيابا و سفرا و إقامة حديث طيب كريم يتسم

بالتقدير و التكريم والإشادة بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات والاعتراف بما كان يقدّمه إليه أثناء الأزمات والأخطار من تسلية و تصبير و تطمين ونصح، وذكر ما تبادلا من قطع شعرية تعبّر عن صادق المودّة وجميل المعاشرة.

و يظهر أن (**التمقروتي**) كان شديد الخوف من البحار وأهوالها و قد تحدث عن ذلك في جلّ فصول الرحلة و اعترف بأن الله ابتلاه بهذا الخوف مع أنه سليم الجسم قوي القلب و كانت أخبار القرصنة يتناقلها الناس كما يتناقلون أخبار أولئك الناس الذين يقعون أساري في يدّ هؤلاء القراصنة و لا يفدون إلاّ بعد محن وشدائد، و خوف(**التمقروتي**) من البحر يتردد في مختلف مقاطع رحلته، فقد قال: (وقد خصّني الله سبحانه بالخوف الكثير بالبحر، دون أصحابي، حتى كاد الخوف أن يمنعني النوم، ينام الناس و أسهر أنا أرعى السفينة، لا أقدر على ميلها و إذا بدا الريح و تحرك البحر و أزيد...فإذا رأيت ذلك طار عقلي فرقا و خفت أن أموت غرقا[35]) .

و قد أورد حكاية معبّرة تمثل موقفه من البحر، قال: (و مما يحكى في بلادنا أن رجلا ممن امتحن في البحر و ابتلى ببلائه حلف ألا يسكن إلا في بلد لا يعرفون البحر و لا آلاته فرفع مقدافا و جعل يسير من بلد إلى بلد، و يعرفه للناس، إلى أن أتى به درعة، فقال لأهلها: ما هذا؟ فقالوا: هذا آلة يدخل بها الخبز في الفرن ويستخرج، فسكن هناك[36].و منذ إجتياز ميناء تطوان، و هو يتحدث عن المراسي التي تمر بها العمارة البحرية، من ترغة

وبادس و رأس ورك، المطل على مدينة مليلية، و جزر ملوية التي وقفت بها السفينة يومين.

وتابع حديثه حول مراسي و مدن هنين و وهران و مستغانم و تنس وشرشال والجزائر ، أقام مدّة مكنته من أن يعرفها و يعجب بها: فهي كثيرة الأسواق والسلع والكتب والطلبة والسفن والجند، و لاحظ تحصين أبراجها وشجاعة رياسها وتفوقهم العسكري حتى على أتراك القسنطينية و أرغمته نزاهته وأجبرته أمانته أن يعترف بأنها: (أفضل من جميع بلاد إفريقيا و أعمر ... حتى أنهم يسمونها اصطنبول الصغرى)[37]. كما تحدث أيضا على بجاية وجيجل و بونة.

والمعلومات التي جاءت في حديثه أنه ينقل كثيرا من كتاب (العقد) لإبن عبد ربه الأندلسي، وأيضا من رحلة: (تاج المفرق) الشهيرة للبلوي الأندلسي، كما نقل عن الجغرافي اللغوي الأندلسي، أبي عبيد البكري وعن القاضي عياض السبتي، والرحالة ابن بطوطة و غيرهم...

وطبيعة هذه المعلومات تنسجم مع معلومات **(التمقروتي)** و ثقافته المهتمة بأعلام المدن و أعلام الفقهاء و الصالحين و أخبار الدول المتعاقبة على هذه الأقطار.و نفس الشيء قدّمه **(أبو الحسن التمقروتي)** عن مراسي البلاد الأخرى من بنزرت ، تونس ، سوسة ،المنستير ، المهدية ، صفاقس ، قـابس ، جربة وغيرها من المعلومات الجغرافية والتاريخية والملاحظات الشخصية.

و نشعر و نحن نقرأ بعض النصوص التي اقتبسها (**التمقروتي**) ولاسيّما من رحلة (تاج المفرق) بشيء من الملل لطولها و اهتمامها بأشياء كانت طريفة في عهد البلوي، فكان ينبغي أن يتجاوزها (**التمقروتي**) ويقتصر على ما يريد به تدعيم معلوماته ومشاهداته الشخصية التي استجدت في تلك البلاد بعد عصر البلوي.

و أثناء الحديث يستعمل (**التمقروتي**) بعض المصطلحات التي تلفت النظر منها كلمة (صندل)[38] و الجمع (صناديل) و الكلمة تعني المركب الصغير و قد لاحظ هذه الصناديل بجوار جزيرة جربة وغيرها من الشواطئ التونسية يحمل كل صندل منها ما بين عشرة و عشرين من الركاب...و منها كلمة (سواخة) بالخاء و قد كتبت خطأ سواحة بالحاء في بعض النقول الخطية من الرحلة، فيقول التمقروتي: (و بين نفزاوة يسار إلى بلاد قسطيلة، و بينهما أرض سواخة لا يهدي إلى الطريق فيها إلا خشب منصوبة فإن ضل أحد يمينا أو شمالا غرق في أرض تشبه الصابون، قد هلك فيها عساكر و جماعات...)[39].ومنها كلمة الحامض بمعنى الليمون فنجده يتكلم على جزيرة جربة ويقول: (وأنواع الحامض فيها كثيرة)[40].

و نلاحظ على نقول (**التمقروتي**) من رحلة ابن بطوطة أنه يأتينا بنص منها عن مدينة (قـابس) لا نجده في نسخة رحلة ابن بطوطة المطبوعة

مما يدلنا على أنه كان يملك نسخة من هذه الرحلة بها زيادات على النسخة المطبوعة[41].

و عندما وصل إلى مدينة طرابلس أبدى بعض آرائه فيما رأى و سمع من نظام الحكم و الإدارة التركية في كل من تونس و طرابلس، وذكر المظالم والمناكر التي يتعرض لها الناس هناك، و يقول إن عددا من المصريين وغيرهم ممن اتصلوا به في القسطنطينية يتقدون الأحوال السيئة التي يعيشون عليها و يتمنون أن يجدوا السبيل إلى الانتقال إلى المغرب[42].

وحاول **(التمقروتي)** أن يعطينا شيئا عن تاريخ عاصمة العثمانيين ونظامها العسكري و ما يوجد بها من حصون و ثكنات للجيش ومراقبة المضائق وحراسة مستمرة و تيقظ دائم لما يطرأ من مفاجآت من طرف الأعداء.

غير أن مسجد –أيا صوفيا– يستولي على إعجابه فينطقه بذلك الوصف الممزوج بالتاريخ والاعتبار والإشادة بعظمة الإسلام والمسلمين الذين فتحوا القسطنطينية وجعلوا من كنيستها العظمى مسجدا للمسلمين... وكذلك قصر السلطان (السراي) ينطقه بوصف دقيق لحاله من نظام وما يحيط به من تقدير وهيبة وما فيه من مظاهر العظمة والأبهة[43].و عند عودته من القسطنطينية وأثناء وصوله إلى مراكش، وصف **(التمقروتي)** قصر البديع و ما أنجز فيه من منشآت تأخذ بالألباب، وحضر حفلات إحياء ذكرى المولد الشريف، و وصف ما شاهده فيها من مظاهر

الزينة التي أحاط بهذه الحفلات من مطاعم و مشارب و فراش و أثاث كما وصف عمل المنشدين والشعراء الذين تقدّموا بين يدي المنصور و أنشدوه في موضوع السيرة النبوية[44].

وتنتهي الرحلة برجوع التمقروتي إلى بلدته بعدما يقرب من سنتين قضاهما في ترحال وسفر و إقامة ويأس ورجاء و انكب في كتابة هذه الفصول وهي فصول جديرة بالدرس لما فيها من معلومات جغرافية وتاريخية وعمرانية ولغوية تعكس نمطا من أنماط الأدب والثقافة في عهد المنصور الذهبي خاصة وعصر السعديين عامة.

ولأهمية هذه الرحلة فإنها في حاجة إلى تحقيق نصها تحقيقا علميا مناسبا يشمل تكميل النقص الذي نشاهده في بعض فقراتها، بحيث تعرضت للبتر و الضياع في العديد من الصفحات، و الذي يدّعم هذا الاعتقاد وجود الأماكن الفارغة وضع فيها حذف: (فأصغت الأذن عند ذلك بحسن الاستماع إلى محاسن السماع فغنوا وأطربوا بألحانهم البديعة وأوتوا الأمداح النبوية والقصائد المولدية (حذف) هو الشيخ الماهر و حرك من السكون الجامد)[45].

أما على مستوى سمات شخصية (**التمقروتي**)، فإن خطابه السياسي هذا يخفي حقيقة شعوره بالانتماء إلى كيان واحد هو الملة الإسلامية و تنقله في مجال واحد هو بلاد الإسلام، فلا يظهر من خلال نص رحلته أي إحساس بأنه بقطعه مراحل سفره يخرج من كيان إلى كيان آخر متميز، إلا

ما كان من دعائه بأن يعيدها الله إلى أرض الإسلام، كلما اجتاز ثغرا يحتله النصارى، فقد أرفق حديثه عن مليلية بدعاء: (أعادها الله للإسلام آمين)[46]. و عندما وصل إلى وهران ذكر أن (فيها النصارى دمرهم الله و أعادها للإسلام)[47].

في الأخير نشير إلى أن الرحلة تعكس ظروف صعبة رافقت **(التمقروتي)** طيلة سفره بحرا مرورا بمجموعة من المدن الجزائرية والتونسية والليبية حتى القسطنطينية، هي كلها تشكل مراحل أساسية داخل الرحلة.

و مهما يكن فإن كتاب (النفحة المسكية) لا يخلو من قيمة تاريخية، لذلك فلا غنى عن هذا المصدر في معرفة أحوال الدولة العثمانية في أوج ازدهارها وأحوال الجزائر و المغرب الأقصى وتونس وأيضا ليبيا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي. تكتسي إذن كتابات الرحالة قيمة علمية وتاريخية، هي مصدر هام لوصف الثقافات الإنسانية عبر التاريخ، كما يوضح قيمتها التعليمية من حيث أنها أكثر المدارس تثقيفا للإنسان، و إثراء لفكره و تأملاته عن الكون و الحياة.

لقد لعبت الرحلة دورها التاريخي الهام في الكشف الجغرافي والحضاري على حدّ سواء، وتضمنت أيضا كتابات الرحالة الوصف الجيد والغني بالتفاصيل لمختلف خصائص البلدان و طبائع أهلها، كما أبرزت حقيقة تعدد الأقوام و تنوع الثقافات في شتى أنحاء العالم.

الإحالات

[1]- ألف كتابا عن مادة الرحلات عام **1785**م، و قدّمه للملك لويس ملك فرنسا في ذلك الوقت.

[2]- فؤاد، قنديل ، أدب الرحلة في التراث العربي، الدار العربية للكتاب، ط**2**، القاهرة، **2002**، ص **21**.

[3]- هو توماس ستيرنز إليوت، شاعر ومسرحي و ناقد أدبي حائز على جائزة نوبل في الأدب سنة **1948**م، ولد سنة **1888**م، توفي سنة **1965**م، و هو أمريكي المولد، انتقل إلى المملكة المتحدة في سنة **1914**، ثم أصبح أحد الرعايا البريطانيين في سنة **1927**. أنظر: الموسوعة الحرة

[4]- سورة الأنعام، الآية **11**.

[5]- سورة الملك، الآية **15**.

[6]- ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار ، تحقيق، عبد الهادي التازي، الرباط **1997**، مج **4**، ص ص **56**، **59**، **63**، **78**/ الحسن بن محمد،الوزان، وصف إفريقيا، تر: محمد حجي، محمد الأخضر، ط**2**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان **1983**،ج**2**، ص ص **245**-**299**.

[7]- الوزان، المصدر نفسه، ج**1**، ج**2** / ابن بطوطة، المصدرنفسه، مج **1**، **2**، **3**، **4**.

[8]- علي بن محمد، التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم و تحقيق، محمد الصالحي، ط**1**، **2007**، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ص ص **174**-**175**.

[9]- الحسن، الشاهدي، المرجع السابق، ج**2**، ص **537**.

10- نفسه، ص **538**.

11- هو أبو علي حسن بن الفكون، ولد سنة **1580** بقسنطينة، أديب، و كان يحب التجوال، فرحل إلى مراكش، و اتصل بخليفة بني عبد المؤمن فامتدحه و نال أعظم الجوائز عنده.

12- الحسن، الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب في العصر المرينى، ج**2** منشورات عكاظ (د.ت) ، ص **539**.

13- التمقروتي، المصدر السابق، صفحات عديدة.

14- نسبة إلى منطقة تمقروت، و هي كلمة أمازيغية، هي إحدى جماعات مقاطعة فزواطة التي تعتبر إحدى المقاطعات الست التي تتكون منها درعة الأوسط: (مزكيطة، تنزولين، ترناتة، فزواطة، الكتاوة، المحاميد الغزلان) و قد ارتبطت في تاريخها بزاويتها المعروفة بـ"الزاوية الناصري".

15- يحدها من الشمال، ورزازات، و من الشرق إقليم قصر السوق، و من الجنوب جبل باني و الصحراء والأطلس الصغير، وغربا إقليم أكادير.

16- هو أبو محمد عبد الله الغالب بالله ولد سنة **1517**م وتوفي سنة **1574**م حكم بين **1557** – **1574**م.

17- يقصد جزيرة كابري، التي هي الآن من الجزر الإيطالية، تقع في جنوب غرب روما، و هي من المعالم السياحية بمناظرها الخلابة.

18- عالم و فقيه و أستاذ السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، ولد سنة **929** هـ اشتهر في حياته بالصلاح و الزهد، له عدّة مؤلفات أشهرها "الفهرس"، توفي سنة **995** هـ/ **1587**م.

19- علي بن محمد، التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم و تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط **2002**، ص **5**.

20- هو أحد ملوك المغرب العظام، ولد بفاس سنة **1549**م، و بويع في ساحة معركة وادي المخازن الظافرة: أوت **1578**م بعد مقتل السلطان عبد المالك، يعتبر عهده الذي دام حوالي ست و عشرين سنة أزهى عهود الدولة السعدية رخاء و علما و عمرانا و قوة، توفي سنة **1603**م بمرض الطاعون.

21- مولاي، بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ش.و.ن.ت، الجزائر **1979**، ص **16**.

22- التمقروتي، المصدر السابق، ص **6**.

23- هو رحالة، ينتسب إلى قبيلة البلويين، المنتشرة في عدّة بلدان إسلامية كالأندلس والمغرب، سافر من موطنه الأندلس إلى المشرق، وأثناء رحلته ألّف كتاب بعنوان "تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، فوصف فيه ما شاهد من الأقطار، و تحدّث عمن اتصل بهم من الرجال، وقد بالغ التمقروتي في الاعتماد على هذه الرحلة، التي تصادف رحلة ابن بطوطة.

24- هو أحمد بن عبد ربه، ولد بقرطبة سنة **860**م، و نشأ بها، ثم تخرج على علماء الأندلس ودبائها، وأمتاز بسعة الإطلاع في العلم و الرواية والشعر، و أشهر كتبه "العقد الفريد" وهو كتاب جامع للأخبار و الأنساب و الأمثال و الشعر و العروض و الموسيقى، توفي سنة **942**م.

25- رحالة مغربي، ولد بطنجة سنة **1304**م، مؤرخ و قاضي و فقيه، لقب بأمير الرحالين المسلمين، زار عدّة بلدان إسلامية، و وصفها في كتابه "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" ترجمت رحلته إلى عدّة لغات، مات في مراكش سنة **1377**م.

26- هو أبو عبيد البكري، نسبة إلى بكر بن وائل، ولد سنة **1014**م، و توفي سنة **1094**م، هو أديب و جغرافي و مؤرخ و عالم النبات، و هو أول الجغرافيين في الأندلس، أشهر ما ألفه كتاب "المسالك و الممالك" وصف جغرافية الأندلس و أوربا، و إفريقيا الشمالية.

27- ولد بسبتة سنة **1083**م، و نشأ بها و تعلّم و تتلمذ على شيوخها، ثم واصل تعليمه في الأندلس، حتى أن أصبح قاضيا، فقيها و مؤرخا، و من أشهر مؤلفاته: ﴿ترتيب المدارك و تنوير المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك﴾، قتل سنة **1149**م.

28-التمقروتي، المصدر السابق، تقديم و تحقيق عبد اللطيف الشاذلي، ص **10**.

29- قمنا بتصوير جزءا من النسخة، بعد إصرارنا مع مدير المكتبة، أنظر الملاحق.

30-- HENRY, DE CASTRIES, EN-NAFAHAT EL-MISKIYA FI-SIFARAT ET-TOURKIYA, Relation d'une Ambassade Marocaine en Turquie **1589**-**1591**, Paris, **1929**.

31- علي بن محمد، التمقروتي، النفحة المسكية في السفارة التركية، تقديم و حقيق عبد اللطيف الشاذلي، المطبعة الملكية، الرباط **2002**.

32- هي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث بنسبة كبيرة

33- التمقروتي، المصدر نفسه، تقديم و تحقيق محمد الصالحي، ص ص **32**، **33**، **34**.

34- نفسه ، ص **36**.

35- نفسه ، ص **107**.

36- نفسه ، ص **159**.

37 - نفسه، ص **105**.

38- نفسه ، ص **96**.

39- نفسه ، ص **91**.

40- نفسه ، ص **96**.

41- نفسه، ص **91** ، أنظر رحلة ابن بطوطة ج**1**، ص **8**، ط، القاهرة **1958**.

42- نفسه ، ص **97**.

43- نفسه، ص ص **113**،**114**.

44- نفسه ، ص **174**.

45- نفسه ، ص **175**.

46- نفسه ، ص **40**.

47- نفسه ، ص **41**.

أدب الرحلات في كتابات أبو القاسم سعد اللّه
تاريخ الجزائر الثقافي نموذجا

زكريا بن علي
باحث جامعة سيدي بلعباس

Abstract:

The degree of interest in its history peoples vary according to the degree of consciousness and then the extent of the growth of the culture, and active community if active intellectual life and treatment varied ideas and conflicting historians look for different sources of knowledge and their studies. Literature, we find the journey which is one of the most important literary branches that are related to various sciences.

Keywords:

The trip - consciousness - conflicting historians - Literature.

تختلف درجة اهتمام الشعوب بتاريخها حسب درجة الوعي عندها ومدى نمو الثقافة بها ، وينشط المجتمع اذا نشطت الحياة الفكرية وتنوعت الأفكار المعالجة و تضاربت نظرة المؤرخين حسب اختلاف معارفهم ومصادر دراستهم. فنجد أدب الرحلة الذي يعد من أهم الفروع الأدبية التي لها علاقة بمختلف العلوم فالجغرافي في كثير من الأحيان كان رحالة أو له معرفة بالرحلات ، و كذلك الأديب والمؤرخ و غير هؤلاء كثير .

وبالرغم من الأهمية البالغة لأدب الرحالة. إلا أن الاهتمام بها به يكاد ينحصر لدى فئة قليلة من الباحثين و المهتمين بمختلف الفنون والعلوم و المعارف في عالمنا العربي اجمع و في الجزائر بصورة اخص وأدق. لا كن هذا لم يمنع ثلة قليلة من هؤلاء من الاهتمام و الاشتغال بأدب الرحالة ورحلاتهم من المنظور الذي له علاقة باهتماماتهم و مجال تخصصهم ومن ابرز هؤلاء الأستاذ أبو القاسم سعد الله الذي تعددت اهتماماته كما تعددت مصنفاته. وهذا ما سنتطرق إليه على ضوء موسوعته العلمية تاريخ الجزائر الثقافي خاصة في جزأيه الثاني و السابع.

تعريف الرحلة:

إن لفظ الرحلة يطلق على عدة معاني فقد جاءت بمعنى السير والانتقال و الوجهة أو المقصد الذي يراد السفر إليه. و بمعنى دنو المكان المراد الوصول إليه ، أو اقتراب وقت الرحيل .ولهذه المعاني كلها كان لفظ رحلة يطلق على من انتقل من مكان لآخر. ومنه أخذ لفظ رحال: وهو الشخص المتنقل من مكان لآخر[1] ، فمشتقات كلمة رحل كثيرة ومتعددة ، وتدل كلها على الحركة ، لأن الرحلة في الحقيقة ما هي إلا حركة و انتقال [2] ومن المعاني التي وردت في لسان العرب الوجهة أو المقصد. كما حضي مصطلح الرحلة بشرح واف في العديد من المعاجم العربية فنذكر ما جاء به ابن منظور في لسان العرب(الترحيل و الرحال بمعنى الأشخاص والإزعاج يقال رحل الرجل إذا سار، و أرحلته أنا ، ورجل حول وقوم رحل أي يرتحلون كثيرا ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له....)[3] ، فالرحلة هنا بمعنى السير وورد لفظ الرحلة في موضع آخر بمعنى الانتقال

من مكان إلى مكان آخر) والترحل و الارتحال: الانتقال وهو الرحلة والرحلة والرحلة اسم للارتحال للمسير ...)[4]

تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح إلا أنها تصب في قالب واحد فقد عرفها الإمام الغزالي (بأنها نوع من مخالطة مع زيادة تعب ومشقة)[5] جاعلا الرحلة عبارة عن احتكاك بالآخر بعد الجهد و التعب الناتجان من الانتقال على الرغم من انه لم يذكر ذلك .أما بطرس البستاني فيعرفها قائلا :(انتقال واحد أو جماعة من مكان غلى مكان آخر لمقاصد مختلفة و أسباب متعددة [6] ، لأن الرحلة لا تكون من دون غرض معين و إنما لها دوافعها الذاتية المرتبطة بالرحالة نفسه ، أو دوافع عامة مرتبطة بشؤون الأمة كلها.

في حين يعرفها صلاح الدين الشامي بقوله: «إن الرحلة تضل انجازا او فعلا او مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة ، أو إسقاط الحاجز الفاصل بين المكان الذي تبدا منه والمكان الذي تنتهي إليه)[7]

من خلال ضبطنا لمفهوم الرحلة في شقيها اللغوي والاصطلاحي تبين لنا أن كلا المفهومين لا يبتعدان كثيرا فهما يشتركان في معنى واحد وهو الحركة . و بفضل هذه الحركة يجني الفرد فوائد متنوعة فالشخص الذي يقوم بالرحلات ليس هو نفسه الشخص الذي يبقى في مكانه ، ولا يحرك ساكنا حيث قال المسعودي في هذا الصدد : "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمي غليه من الإخبار عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار ، ووزع أيامه بين تقاذف الأسفار و استخراج كل دقيق من معدنه وإنارة كل نفيس من مكمنه[8]

أبو القاسم سعد الله مؤرخا و ناقدا لقضاياه:

ولد أبو القاسم سعد الله في بلدية قمار التابعة لولاية وادي سوف في الفاتح جويلية **1930**م من أسرة فقيرة كانت تعيش على فلاحة النخيل [9] ، حفظ القرآن في سن مبكرة . و في سنة **1947**م سافر إلى تونس حيث قضى بالزيتونة سبع سنوات تحصل فيها على الأهلية سنة **1951**م ، ثم التحصيل سنة **1954**م.خلال تواجده بتونس نشر العديد من المقالات في كل من جريدتي النهضة والأسبوع التونسيتين بالإضافة إلى جرائد اهرى كالبصائر الجزائرية، و الآداب اللبنانية ، كما كان له دور في تأسيس رابطة القلم الجديدة سنة **1952**م برفقة شخصيات تونسية نذكر منهم الأستاذين الشاذلي زوكار و منور صمادح [10] .

بعد اندلاع الثورة التحريرية سنة **1954** عاد سعد الله إلى أرض الوطن و كانت وجهته العاصمة ، أين بدأ مهنة التدريس بمدرسة الثبات بالحراش ، ثم انتقل إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة بضواحي العاصمة . وعلى اثر الظروف التي كانت تعيشها الجزائر قرر سعد الله الرحيل إلى مصر من اجل رفع مستواه العلمي و كان ذلك في أكتوبر **1955** م [11] .

عاش سعد الله حياة الترحال قصد طلب العلم فتحصل على الماجستير سنة **1962** م ثم الدكتوراه ثلاث سنوات بعد ذلك [12] . كان يتقن عدة لغات فنذكر منها الفرنسية و الانجليزية حتى الألمانية والفارسية ، تنوعت وظائفه التعليمية فنجد أنه شغل منصب أستاذ مساعد في التاريخ بجامعة ويسكنسن بأمريكا بين عامي **1965**–**1967** م ثم أستاذ بجامعة التاريخ بالجزائر ، و جامعة آل بيت من **1996**م إلى سنة **2000**م.

إن المتتبع لحياة سعد الله العلمية لوجدها زاخرة و متنوعة في مناحي عديدة و ما يبينها لنا زياراته لجامعات عدة كجامعة منيسوتا وجامعة ميشيقان جامعة الملك عبد العزيز و جامعة دمشق و عين شمس . كما حاز عل عدة جوائز تقديرية و تشريفية كعربون شكر و عرفان لجهوده العلمية في إطار الرقي بالبحث [13].فهذه هي اذن شخصية الأستاذ سعد الله الذي بوفاته فقد الجزائر احد اعمد الأدب و التاريخ الجزائري و المغاربي فرحم الله استأذنا القدير و الجليل.

معلمة تاريخ الجزائر الثقافي :

تكمن قيمة الأعمال العلمية في مضامينها و محتوياتها خاصة إذا جاءت هذه الأعمال متضمنة لمواضيع علمية جديدة و سامية و ذات قيمة عالية ، و هذا ما يمكن إطلاقه على معلمة تاريخ الجزائر الثقافي لمؤلفها الأستاذ أبو القاسم سعد الله ، إذ تعتبر هذه الأخيرة بمثابة الإنتاج العلمي الراقي الذي اغني رفوف المكتبات الوطنية الجزائرية بفضل ما احتوته من معلومات قيمة . فمضمون المعلمة يندرج إجمالا في قسمين الأول من هاذين القسمين يخص العهد العثماني و ينقسم بدوره إلى جزأين ، فالجزء الأول اشتملت فصوله على تراث القرن 9هـ/ 15م و التيارات التي عرفها والمؤثرات المتحكمة فيه. بالإضافة إلى ما حضي به من المؤسسات الثقافية وواقع التعليم و رجالاته ، و آراء و مواقف بعض العلماء والمرابطين . والجزء الثاني تناول واقع العلوم الشرعية وكتب النوازل والفتاوى والفرائض و علوم اللغة والشعر والنثر والتاريخ والتراجم والرحلات والعلوم و الفنون.

أما بخصوص القسم الثاني من المعلمة فيتمحور حول الفترة الاستعمارية من 1830م إلى اندلاع الثورة التحريرية عام 1954م ، إذ يضم هذا القسم ستة أجزاء ابتداء من الجزء الثالث الذي يحتوي على ثلاث فصول تدور مواضيعها حول التعليم بالمدارس القرآنية و المساجد، و الزوايا و المدارس الحرة بالإضافة إلى التعليم الفرنسي و المزدوج (العربي والفرنسي) ، ثم يأتي الجزء الرابع الذي يضم بدوره ثلاثة فصول تختص بالحديث عن الطرق الصوفية و السلك الديني و القضائي[14]. أما الجزء الخامس فتتمحور فصوله الأربعة حول المعالم الإسلامية و مؤسسات الأوقاف و المنشآت الثقافية من صحافة و مطابع و نواد و مكتبات ومسرح و موسيقى و ما ترتب من جراء هجرات الجزائريين نحو الأقطار المجاورة.

ثم يأتي الجزء السادس الذي اختص بالدراسات الاستشراقية من نشاط الهيئات العلمية و مشاريع التنصير كما أكد في هذا المجال مكانة الترجمة و ميلاد النخبة المتفهمة [15]للواقع الاستعماري ، وبروز التيارات الدخيلة على المجتمع الجزائري من طرف المنادين بالفرنسية و الاندماج في المجتمع الفرنسي. و يلي هذا الجزء السابع الذي اختص بجميع أصناف العلوم الدينية وأنواع المعارف الاجتماعية و التجريبية بالإضافة إلى التاريخ والتراجم والرحلات[16] . كما تطرق في الجزء الثامن لضروب المعرفة التي شهدتها الجزائر خلال الفترة الاستعمارية إذ خصص فصوله الثلاثة للمعارف اللغوية و ضروب النثر الأدبي والشعر والفنون الجميلة.أما الجزء التاسع فقد خصصه المؤلف لتوظيف الفهارس المختلفة من فهرس الأشخاص و الأماكن و المدارس والجماعات والأحزاب و المؤسسات ،

بالإضافة إلى ضبطه للملاحق و توظيف اللوحات المعبرة عن واقع الثقافة [17].

لقد أكدت الأواسط العلمية على أن هذا العمل و المجهود هو موسوعة تراث و مدونة معارف زاخرة أحاطت بحياة الثقافة الجزائرية. لذا فان القارئ و المتمعن في المواضيع التي اختارها لنا الدكتور أبو القاسم سعد الله في معلمته تمكن الدارسين و الباحثين من تكوين فكرة متكاملة عن هذا الإنجاز الثقافي و تساعد كل المقبلين على هذا الإنجاز الوقوف على مكامن الإبداع فإذا ما احدنا بعين الاعتبار الطريقة التي عالج بها الأستاذ أبو القاسم سعد الله المعلومات و كيفية تناولها ، و عرض أحداثها لاستنتجنا قيمة هذه الخاصية و الميزة بحيث انه استطاع أن يجمع شتات المعلومات وترصد مختلف الأفكار من مصادرها المتنوعة و مضامينها المتعددة من مصادر أولية و مراجع حديثة و مخطوطات قيمة، كل هذا كان قائم بتعامل مباشر مع اللغة و هذا ما يتضح من جزلة للخط وصفاء اللغة و سلاسة العرض و رشاقة الأسلوب [18]

أما من حيث تعامله مع النتاج العلمي للفكر الغربي وانطباعات الدراسات الفرنسية و توجهاتها [19]، فقد كان يتعامل معها من منطلق الشخصية المثقفة التي تخدم البحث في إطاره الموضوعي و هذا ما أكده لنا الأستاذ ناصر الدين سعيدوني عندما صرح قائلا **(لم يكن فجا معاديا لمن خالفه و لا مقتبسا متجنيا على غيره. و لم يعلق القضايا التي آثرها و حتى النتائج التي توصل إليها على مشجب الاستعمار بقدر ما حاول تحليلها**

بنظرة محايدة و نفس متفتحة...")[20]: ومن خلال هذه الشهادة نتوصل إلى مدى الموضوعية التي تحلى بها أستاذنا القدير أبو القاسم سعد الله.

إن ما يمكن الإشارة إليه بخصوص كتاب تاريخ الجزائر الثقافي هو فهم الأحداث و عرض الوقائع في الإطار العام للتاريخ الجزائري ، إذ حاول سعد الله أن يعبر على فهمه للتاريخ وتقييمه للثقافة انطلاقا من حصيلة قراءات تجاوزت نصف قرن و هذا ما يلاحظه المتتبع لنتاج أبو القاسم سعد الله في معالجته و نظرته لماضي الجزائر .[21]

و ما يتوجب علينا ذكره في هذا التعريف ما حصره أبو القاسم سعد اله من إشكاليات لا يمكننا إغفالها أولها ما يتعلق بالمسالة الثقافية في التاريخ الجزائري فكرا و سلوكا و ممارسة[22] و الثانية البعد الزمني و المجال الجغرافي للمجال الثقافي الجزائري[23] والثالثة تدور حول منهج البحث الذي التزم به الأستاذ[24] والملاحظة الأخيرة و التي لا يمكن للباحث المدقق التقليل من أهميتها آفاق التنظير التاريخي الذي انتهى إليه.[25]

أدب الرحلات في كتابات أبو القاسم سعد الله :

قام الأستاذ سعد الله بعرض إسهامات الجزائريين في كتابة الرحلات و فصلها كل على حسب الفترة الزمنية التي عاشها أصحابها و لاسيما القرن الثامن عشر، حيث فصل مجالات كل رحلة أي كل رحلة على حسب توجهات أصحابها فمنها ما كان نتيجة أداء مناسك الحج و بالتالي افردها في خانة الرحلات الحجازية ، و أخرى كانت توجهات أصحابها علمية.

كما قام بذكر ما امتازت به كل فترة من خلال التطرق إلى رحلاتها فبدأ بالعهد الذي سبق الدخول العثماني في ذكر رحلة كل من التوجيبي

التلمساني و أحمد المقري الذي ألف رحلة لجده محمد المقري التلمساني في كتابه أزهار الرياض ن كما حدثنا أبو القاسم سعد الله عن رحلة أكد على أنها في عداد الآثار المفقودة و هي رحلة **أحمد القسنطيني** المعروف **بابن قنفد** [26] ، و كما ذكرنا في السابق فإن تقسيمات أبو القاسم سعد الله للرحلات ابتدأها من العهد العثماني مصنفا إياها كل على حسب مبتغى صاحبها فنذكر :

أ- الرحلات العلمية:

نذكر في هذا المجال كل من رحلة عاشور بن موسى القسنطيني المعروف بالفكيرين ، إذ بعد وفاة والده اتجه لعدة بلدان قصد طلب العلم فنذكر توجهه غلى المغرب و بلاد السودان [27] وبعد مدة غياب عن الديار ناهزت **20** سنة عاد ليقص ما شاهده وما رأى وتحصل عليه من علم.

ب-**الرحلات المغربية** :

صنف أبو القاسم سعد الله رحلة **عبد الرزاق بن حمادوش** ضمن الرحلات المغربية الغير المكتوبة اذ كانت هذه الرحلة قائمة على طلب العلم و التجارة قصد كسب الرزق [28]، فكانت من مدينة الجزائر مرورا بتطوان و مكناس و فاس ثم تطوان فالجزائر [29] . كما تطرق إلى شخصية أخرى كانت على منوال عبد الرزاق بن حمادوش و هو **محمد الزجاي** الذي يعد من أبرز علماء تلمسان و قد نسبت إليه رحلة عرفت باسم الرحلة الفاسية [30] ، و يضيف لنا الأستاذ في هذا الجانب من الرحلة ، رحلة الحاج ابن الدين الأغواطي إلى الصحراء ، إذ تعد هذه الأخيرة على حسب ما أفرد المؤرخ أبو القاسم سعد الله في غاية من

الأهمية إذ تعطينا وصفا عاما للصحراء بقراها وواحاتها وسكانها ، وعاداتهم ، وتقاليدهم.

ج- **الرحلات الحجازية :**

جاء ذكر الرحلات الحجازية بقلم الأستاذ سعد الله بشقيها على حسب تصنيفه لها فنجد الرحلات الحجازية الشعرية و النثرية.

1- الشعرية :

أكد أبو القاسم سعد الله أن معظم الرحلات الشعرية هي من الغرب الجزائري إذ كانت تكتب تارة بشعر فصيح و تارة أخرى بشعر ملحون ، فممن كتبوا بالصنف الأول نجد قصيدة **محمد بن محمد بن منصور العامري التلمساني** التي انتهى من كتابتها في **1152**هـ ، ونجد ما كتبه **عبد الرحمن بن محمد بن الخروب المجاجي** بخصوص رحلته من مجاجة إلى مكة المكرمة في قصيدة مطولة و كان ذلك سنة **1063**هـ[31] أما ما يدخل في إطار الشعر الملحون فنذكر قصيدة محمد بن مسائب التلمساني في القرن الثاني عشر هجري ، بالإضافة إلى قصيدة ابن التركي و الزناقي[32] .

2- النثرية :

إن أهم رحلة ذكرها الأستاذ في هذا المجال هي رحلة الورتلاني و رحلة أبي راس الناصري[33] ، و يضيف فيما بعد رحلة ابن عمار المسماة «نحلة اللبيب في أخبار الرحلة إلى الحبيب"[34]

-رحلات الفترة الاستعمارية:

لقد عمل الكثير من الرحالة في خدمة الاستعمار الفرنسي في إطار الجوسسة قصد سرد أخبار المناطق التي مروا بها لصالح الفرنسيين كي يسهلوا على هؤلاء الولوج إليها و السيطرة عليها.وهذا ما توصلنا إليه من خلال قراءتنا للعديد من الرحلات التي دونها الأستاذ سعد الله في الجزء

السابع من معلمة تاريخ الجزائر الثقافي أين اختص في الحديث عن رحلات الجزائريين أثناء الحقبة الاستعمارية ومن هذه الرحلات نذكر:

- رحلة **الحاج بشير** : حيث يذكر الأستاذ سعد الله أن هذه الرحلة كانت حوالي **1867**م و قد تم تدوينها ن طرف أحد الفرنسيين الذي قام بالجلوس و الاستماع إلى صاحب الرحلة على حلقات (35) ، و ما لفت انتباه المدون لهذه الرحلة هو تسبسب الأفكار و الذاكرة القوية التي كان يتمتع بها الحاج البشير.
- رحلة **إسماعيل بوضربة** إلى غات إذ تعتبر هذه الرحلة من اهم الرحلات خاصة وأن إسماعيل بوضربة كان مكلفا من طرف الحاكم العام راندون ، و ما يبرز لنا أهمية هذه الرحلة اهتمام الفرنسيين أنفسهم بما حملته في طياتها بخصوص الصحراء و نشاط الطريقة السنوسية (36) . و بالمثل نجد رحلة مصطفى بونمان الذي كانت وجهته هو الآخر الصحراء ، بل وحتى تكوينه العلمي يشبه تكوين إسماعيل بوضربة بالإضافة إلى توجهاته في خدمة الإدارة الاستعمارية (37) .
- رحلة الطيب بن براهيم و التي كانت حوالي **1885**م إذ يذكر لنا سعد الله أن علاقته بالفرنسيين كانت وطيدة، و ما يوضح لنا ذلك الملاحظة التي أبداها مترجمو رحلة محمد الطيب بن براهيم بخصوص أهميتها كذكره مثلا الكتابة الليبية القديمة التي كانت محل اهتمام الفرنسيين (38) .

- رحلة محي الدين بن مصطفى [39]: تدور مجريات هذه الرحلة حول تنقل محي الدين إلى الحجاز عن طريق وهران ، و ما يمكن ذكره بخصوص هذه الرحلة هو اندثار بعض صفحاتها نتيجة لعدة ظروف كانت سائدة آنذاك [40] .ونجد من الشخصيات الكثيرة الترحال ما أبدعوا في تدوين تنقلاتهم كالرحالة محمد العربي أبو حامد المشرفي الذي جال و طاف كل من الجزائر و الغرب و الحجاز [41].

- رحلة خليل بن صالح العمري الخالدي التلمساني المسماة الرحلة الحسنية المؤلفة من **605** بيت شعري و التي تدور وقائعها حول رحلة السلطان الحسن الأول إلى تافيلالت عام **1311**هـ [42].

- رحلة إسماعيل حامد المدونة بالغة الفرنسية و الموسومة برحلة المغرب و كانت سنة **1899**م و ما يميز هذه الرحلة أنها جاءت لخدمة الاستعمار الفرنسي قصد بسط سيطرته على الغرب الأقصى [43].

- رحلة القايد ابن الشريف و تصنف هذه الرحلة ضمن الرحلات الحجازية حيث وصف من خلال زيارته البقاع المقدسة أحوال المهاجرين المغاربة عموما و الجزائريين خصوصا ذاكرا لعاداتهم متهجما عليهم من جراء سلوكهم على حسب ذكره و مادحا في نفس الوقت سياسة الحكومة الفرنسية في الجزائر [44] .

- رحلة ابن عبد الله الحاج العربي و التي جاءت تحت عنوان الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى الحجاز [45] ، ورحلة محمد الحافظ المصري التي خصت بذكرها للزوايا التيجانية و كانت سنة **1356**هـ/ **1937**م ،وتنسب هذه الرحلة إلى صاحبها محمد العروسي السوني.

- كما نجد رحلة الشيخ محمد الموسوم الذي خص رحلته بذكر شيوخه خاصة و أنه كان رئيس الطريقة الشاذلية في قصر البخاري ن ورحلة شعيب بن علي الجليلي المسماة)رحلة المشرق و المغرب....و من خلقه العظيم عن حاله يعرب(و رغم كل هذا فإن رحلته حتى الآن مجهولة التفاصيل (46).

- رحلة مسعود الجباري و هو من خيرة المترجمين الذين خدموا الفرنسيين ، حيث توجه هذا الأخير للتحري في قضية هلاك البعثة الفرنسية في الصحراء و جاءت رحلته تحت عنوان " الناجون من بعثة بلاترز﴾ و يميز هذه الرحلة انها كتبة باللغة الفرنسية سنة **1895**م.

- رحلة الحكيم محمد بن العربي غلى الأندلس و هو احد خريجي المدرسة الفرنسية في مجال الطب ، فلم يذكر أي شيء بخصوص رحلته نحو بلاد أجداده كما زعمت الكتابات بشأنه (47).

- رحلة الشيخ أحمد المصطفى بن عليوة و المعروفة برحلة ابن عليوة و التي وصف من خلالها تنقله من تونس ثم ليبيا متجها إلى استانبول مبينا أحداث مهمة مرت بها الخلافة حينذاك اثر الانقلاب و تدهور الحياة السياسية ن فكان متهجما في وصفه الحالة السياسية التي كانت عليها استانبول (48).

- رحلة **الشيخ يذير** و هي مجهولة في بعض الجوانب ، و رحلة المكي بن عزوز حيث يذكر سعد الله بشأن هذا الأخير أن له رحلة جزائرية وأخرى باتجاه زاوية الهامل ، لا كن الثانية هي محل شك رغم أن اسعد الله أكد على عدم الاضطلاع على كلتاهما. و نذكر من الرحلات أيضا

الرحلة المعنونة بمشاهدتي في الجزائر لصاحبها **محمد بلحاج محمد الساسي** والراجح انه دونت في عام **1368**هـ/ **1949**م و هي رحلة خصت عدد من المدن الجزائرية

- ومن الرحلات التي ناشدت السياسة الفرنسية ، رحلة **أحمد ولد القاضي** و هذا ما يستخلصه القارئ من أول نظرة لعنوانها "الرحلة القادية في مدح فرنسا و تبصير البادية" و كانت هذه الرحلة في سنة **1878**م [49] ، ونذكر في هذا الصدد أيضا رحلة ابن صيام باتجاه فرنسا سنة **1852**م ، اذ يعد صاحب الرحلة من المؤيدين لسياسة فرنسا و من الذين خدموها على حساب أبناء الملة و البلد الواحد كمناهضة ابن صيام لثورة اولاد سيدي الشيخ عام **1864**م [50].

و لا ننسى أهم رحلة و هي رحلة **ابن علي الشريف** إلى فرنسا و التي تزامنت مع رحلة **ابن صيام** ، حيث ذكر في رحلته واقع الحياة الثقافية والاجتماعية لدى الفرنسيين و ضرورة انخراط الجزائريين و التحضر على حسب مفهومه و الاندماج في المجتمع الفرنسي ن كما ذكر امورا أخرى تخص جوانب الحياة اليومية.لقد ترقى محمد السعيد بن علي الشريف لأعلى المراتب ، وقامت الحكومة الفرنسية بتكريمه نظرا للمجهودات التي كان يقدمها للإدارة الاستعمارية [51] .و آخر رحلتين ذكرهما لنا الأستاذ أبو القاسم سعد الله رحلة الرؤساء العرب التي كتبها **محمد الفكون** ، و التي تخص هجرة بعثة جزائرية مكونة من الأعيان إلى فرنسا عام **1902** و رحلة أخرى سماها الرحلة الأزهرية و هي منسوبة للشيخ صالح بن مهنة ذلك أن صاحبها خريج جامع الأزهر [52]. و مع كل هذا فإن الأستاذ سعد الله يشكك في صحتها ويعتبرها نوع من أنواع المذكرات التي دونت.

منهج سعد الله في كتابة الرحلات:

تتميز كتابات سعد الله في جانبها العلمي بالدقة و هذا ما أهل الروح العلمية التحليلية السمة الغالبة عليها ، إذ يتجلى للقارئ أو الباحث أن صاحبها يهتم في العديد من الأحيان بذكر ما يرد من أحداث و وجهات نظر دون التطرق إلى التعليق على كثير من الإحكام الواردة فيها ، أو يتخذ منها موقفا صريحا ، و الواقع أن هذا راجع إلى النهج المتبع من طرف سعد الله حتى يسمح للباحثين و الدارسين الاستنتاج و التوصل إلى ما يمكن استخلاصه و الحكم عليه.

و إذا ما أردنا إبراز ما نحن في صدد التصريح به يمكننا أن نستدل بما ورد في الجزء السابع من تاريخ الجزائر الثقافي إذ تحدث الأستاذ سعد الله عن رحلة **القايد بن الشريف** الذي يصف فيها الحكومة الفرنسية على أنها مثالية مثلما جاء بها القرآن الكريم. و في هذا الصدد يصرح الأستاذ بطريقة غير مباشرة قائلا :(**و يبدو أن الرحلة تخدم المصالح الفرنسية ،أو على الأقل تسير في الاتجاه الرسمي للحكومة العامة في الجزائر)** ، و هنا يمكن للمتتبع أن يستنتج دون أي صعوبة أن هذا الرحال عميل الإدارة الاستعمارية و هذا دون أن يصر سعد الله بذلك.

و ما يمكن استخلاصه من جل ما ذكر دقة منهج سعد الله في قضية ذكره للرحالة و رحلاتهم ، إذ يتسم منهجه بالترابط و التسلسل في الأفكار و النصوص و التحليل. أما بخصوص الشواهد التي ذكرها فهي متنوعة وعديدة مما يؤدي إلى دقة الأحكام التي يصرح بها [3 5]، و السمة الغالبة في منهج سعد الله أنه لا يكتفي بعملية السرد التاريخي للرحلات و إنما

تجاوز إلى أبعد من ذلك بحيث يصف الظروف الاجتماعية وحتى السياسية و الاقتصادية لرحالة نفسه.

الإحالات :

(1)- عواطف محمد ،يوسف نواب ، الرحلات المغربية و الأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنيين السابع و الثامن هجريين : دراسة تحليلية مقارنة ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، باريس ، 1996 ، ص 40.

([2])-ناصر عبد الرزاق، الموافي ، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع ،ط1، مكتبة الوفاء للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ، 1995 ، ص 23.

([3])-ابن منظور ، لسان العرب ، مجلد 3 ، ج 18 ، ص 1609.

([4])-نفسه ، ص 1609.

([5])-أبو حامد أحمد بن محمد ،الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ط1، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1986 ، ج2 ، ص 273.

([6])-بطرس ، البستاني ، دائرة المعارف ، مج8 ، مطبعة المعارف، بيروت 1884 ، ص 564.

([7])-صلاح الدين علي ، الشامي ، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة في الكشف الجغرافي و الدراسة الميدانية ،منشأة المعارف ، الإسكندرية ، 1999 ،ص 11.

([8])-أبو الحسن علي بن الحسين ، المسعودي ، مروج الذهب و معادن الجوهر ، تقديم : محمد السويدي ، موفم للنشر ، الجزائر ، 1989، ج1 ، ص3.

([9])-أوكيل مصطفى ، باديس ،" دراسة في آراء و بعض مؤلفات أبو القاسم سعد الله" ، مجلة عصور جديدة ، عدد3-4 ،2011/ 2012 ،ص 227.

([10])-أبو القاسم، سعد الله ، منطلقات فكرية ، ط2 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005 ، ص 45.

([11])-أوكيل مصطفى ،بادس ، المرجع السابق ، ص 227

([12])-أنظر السيرة الذاتية و العلمية لأبي القاسم سعد الله في كتاب : دراسات و شهادات مهدات لأبي القاسم سعد الله : جمع و إخراج ناصر الدين سعيدوني ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،2000 ، ص21.

([13])-للاطلاع عل كامل تفاصيل سيرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله العلمية بالغة العربية والإنجليزية ، راجع كتاب : دراسات وشهادات....، المرجع السابق ، ص ص **21-28**.

([14])- انظر : ناصر الدين، سعيدوني ،"معلمة تاريخ الجزائر الثقافي للأستاذ أبو القاسم سعد الله تعريف و تحليل" ، في كتاب دراسات.....، المرجع السابق ،ص **570**.

([15])-أو المندمجة. وهي تعابير و مصطلحات اختارها المؤلف قصد تبيان و إيضاح نشاط الإدارة الاستعمارية و تأثيرها في بنية المجتمع الجزائري للمزيد حول هذا الموضوع راجع: أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ج**6** ،ص ص **371.372.373**.

([16])-ناصر الدين ، سعيدوني ، المرجع السابق ، ص **571**.

([17])-نفسه ، ص **571**.

([18])-نفسه ، ص **573**.

([19])-تعتبر هذه الدراسات و التوجهات من أساسيات مصادر الأستاذ سعد الله و حيزا لا يمكن الاستغناء عنه. للمزيد راجع : ناصر الدين سعيدوني ، المرجع السابق ، ص **574**.

([20])-نفسه ، ص **574**.

([21])-نفسه ، ص **574**.

([22])-نفسه ، ص ص **575-577**.

([23])-نفسه ، ص **578**.

([24])-نفسه ، ص ص **580-581**.

([25])-نفسه ، ص **582**.

([26])-أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج**2** ، ص **382**

([27])-نفسه ، ج**2** ، ص **383**.

([28])-حول حياة عبد الرزاق ابن حمادوش ، راجع كتاب : أبو القاسم سعد الله ، أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر ، عالم المعرفة ، الجزائر ن **2009** ، ص ص **170-179**.

([29])-أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر .....، المرجع السابق ، ج**2** ، ص **384**.

([30])-نفسه ، ج**2** ، ص **385**.

([31])-نفسه ، ج**2** ، ص **388**.

([32])-نفسه ، ج**2** ، ص **389**.

([33])-للمزيد حول تفاصيل الرحلتين راجع : أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر ... ، ج**2** ، ص ص **390-393-394-395**

([34])-نفسه ، ج**2** ، ص **391**.

([35])-أبو القاسم ،سعد الله ، المرجع السابق ، ج**7** ، ص ص **460-461**.

([36])-نفسه ، ج**7** ، ص **461**.

([37])-نفسه ، ج**7** ، ص **462**.

([38])-نفسه ، ج**7** ، ص **464**.

([39])-و هو والد الأمير عبد القادر

([40])- أبو القاسم ،سعد الله ، تاريخ الجزائر.....، المرجع السابق ، ج**7** ، ص **465**.

([41])- للمزيد حول رحلاته راجع : أبو القاسم سعد الله ، ج**7** ، ص ص **465-466**

([42])-أبو القاسم ،سعد الله ، ج**7** ، ص **465**.

([43])-نفسه ، ص**466**.

([44])-نفسه ، ص **468**.

([45])- ذكر الأستاذ سعد الله بخوص هذه الرحلة على أنها لم تحقق في الجزء **7** من كتاب تاريخ الجزائر الثقافي ، ص **468**. لكنها حققت و نشرت للمزيد حول تفاصيل هذه الرحلة راجع : العربي بن عبد الله المعسكري ، الحقيقة و المجاز في الرحلة على الحجاز ، تحقيقك مخلوفي ميلود المحفوظي ،ط**1** ، منشورات وزارة الشؤون الدينية و الأوقاف ، **2011**.

([46])-أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر.....، المرجع السابق ، ج**7** ، ص **469**..

([47])-نفسه ، ج**7** ، ص **470**.

([48])-نفسه ، ج**7** ، ص ص **471-472**.

([49])-نفسه ، ج**7** ، ص**473**.

([50])-نفسه ، ج**7** ، ص ص **474-475**.

([51])-نفسه ، ج**7** ، ص ص **476-477**.

([52])-نفسه ، ج**7** ، ص**478**.

([53])- للاطلاع على واقع الرحلات عند أبي القاسم سعد الله خاصة الرحلات الحجازية راجع : أبو القاسم سعد الله ، على خطى المسلمين حراك في التناقض ، عالم المعرفة ، الجزائر ، **2009**، ص ص **32-47**.

ملامح من الحياة العامّة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني

د/بوسليم صالح .جامعة غرداية
د/الزين محمد .جامعة سيدي بلعباس

Abstract:

This contribution shows the features of public life in Algeria through books trips, which codified a group of Moroccans travelers who have crossed Algeria on their way to the Orient during the Ottoman period, and pave the way for it is better to talk briefly about the travel literature and the most important religious and scientific motives.

Keywords:

The trip - books trips - French ships - Ottoman period - religious.

تعرض هذه المساهمة ملامح من الحياة العامة بالجزائر من خلال كتب الرحلات1، التي دوّنتها ثُلّة من الرحّالين المغاربة الذين عبروا الجزائر في طريقهم إلى المشرق خلال العهد العثماني، وللتمهيد لذلك يحسن أن نتحدث بإيجاز عن أدب الرحلات وأهم دوافعها الدينية والعلمية.

- الرحلة بين الدوافع الدينية والعلمية.

وجدير بالذكر أن الرحلة كانت معهودة في تاريخ أجدادنا الذين يقدرون ما يُجنى منها من الفوائد المتنوعة, ويتحملون في سبيل تحقيقها وعثاء

السفر ومشاقه ومتطلباته في ظروف لم تعرف بعد وسائل النقل المتطورة, وأسباب الراحة المستخدمة.

وقد تعدد مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، وهي بالجملة تعني الانتقال من مكان لآخر لتحقيق هدف معين، سواء كان ماديا أو معنويا2 وقد تنوعت الدوافع التي كانت تحدو بهم إلى القيام برحلاتهم , فكان منها الحرص على لقاء الشيوخ والاستفادة منهم و استجازتهم والرواية عنهم, وقد أكّد العلامة ابن خلدون (ت808ه/ 1406م) ذلك في مقدّمته الشهيرة في الفصل الثالث والثلاثون)أن الرحلة في طلب العلم و لقاء المشيخة مزيد كمال في التعلم(،حيث قال: (والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم و ما ينتحلون به من المذاهب و الفضائل , تارة علماً وتعليماً و إلقاءً، و تارة محاكاة و تلقينا بالمباشرة , إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاماً و أقوى رسوخاً, فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها, فالرحلة لابدّ منها في طلب العلم لاكتساب المعارف والفوائد والكمال بلقاء المشايخ و مباشرة الرجال)3.

ومن الدوافع التي تُحفّز إلى الرحلة, أداء مناسك الحج و العمرة و زيارة الأماكن المقدسة, و زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وهي لاشك فرصة لاحتكاك العلماء المسلمين بغيرهم الوافدين من كل العواصم العربية والإسلامية. ويغتنم الفرصة أصحاب الرحلات؛ لتدوين ملاحظاتهم وانطباعاتهم في مؤلفاتهم التي تُعرف بالرحلات الحجازية 4.

وقد تجاوب المغاربة مع هذا الركن من الدين وتحمّسوا له، فكانت أمنية الواحد منهم أن تحمل تكاليف الشرع الإسلامي، أن يقوم بهذه الرحلة الدينية العلمية ، و لايزال هذا الشعور فيهم قائما.

و كثيرا ما دوّن أعلامنا رحلاتهم, و ضمّنوها مُشاهداتهم وسجّلوا بها ما صادفهم في طريقهم وفي المراكز التي أقاموا بها،كما أودعوها أسماء المشيخة الذين لاقوهم و أخذوا عنهم أو الصلحاء من الأولياء الذين زاروا أضرحتهم ، و حتى أسماء الكتب التي قرأوها و درسوها, و هم بذلك يضعون حلقات جديدة في سلاسل السند و يحافظون على السنن الحميدة في نقل المعرفة, هذه السنن التي كانت من مميزات حضارتنا. و لأغلب هؤلاء المدوّنين للرحلات حرص على تسجيل ذكريات حبيبة إلى نفوسهم، ذكريات السفر إلى بيت الله الحرام و مشاهداتهم في طريقه, وما حصل لهم خلاله. وهكذا أثري أدب الرحلات وتعددت كتبه؛ ذات الأساليب المختلفة, والمادة الغنية بالإفادات والمعلومات.

و نصل إلى القول، بأن تاريخ الرحلة قديم قِدم الإنسانية ذاتها، ولعلّ البحث عن القوت كان سبباً رئيساً في حركة هجرة الأفراد والجماعات في العصور القديمة من تاريخ الإنسانية؛ بهدف البحث عن الدفء والملاذ الآمن وتوفير الاحتياجات، ولعلّ الدافعين الاقتصادي والعسكري، قد امتزجا بحوافز الكشف والمعرفة على نحو يصعب تحديده.

وقد أصبحت كتب الرحالين مصدراً هاماً للباحثين والمؤرخين تُمدّهم بما يُفيد في المجالات الجغرافية والاجتماعية, ويُعرّفهم ببعض العادات, ويصف لهم الحياة العلمية والعلاقات بين العلماء, ويُعرّفهم ببعض المظاهر التي يغفلها المؤرخون في كثير من الأحيان. وبحكم الموقع الجغرافي للجزائر، الذي جعل منها جسراً للتواصل بين المشرق و المغرب الإسلاميين ،فقد حظيت باهتمام أصحاب الرحلات ،حيث دوّنوا عنها ما عرّفنا بمسالكها ومراكزها و منازل الحجيج فيها, ونشاطهم التجاري فيها أيضا, وما رسم لنا

من ملامح عن إقامتهم بها في طريق الذهاب والإياب, واجتماع ركبهم المشرق بركبهم المغرب فيه, فالرحلات التي وصف أصحابها مدناً وقرى جزائرية وعرضوا مظاهر من حياة سكانها كثيرة.

- **الجزائر في كتب الرحلات المغربية قبل العهد العثماني:**

ومن الرحالين المغاربة الذين تحدثوا عن الجزائر ووصفوها قبل العهد العثماني، يمكن أن نذكر أبا عبد الله ابن رشيد السبتي (ت721هـ/ 1320–1321) 5، وأبا عبد الله العبدري، (ت بعد 688ه/ 1289م) 6 ، وابن بطوطة (ت 779ه/ ـ ر1377م) 7 والحسن الوزان الفاسي(ت نحو 957هـ/ نحو 1550م)8، وأبا عبد الله القيسي الشهير بابن مليح السراج9 وتمكّننا من خلال تفحص رحلة ابن رشيد السبتي ؛ معرفة جوانب عدّة تتعلق بالحياة الثقافية بالجزائر، سواء من حيث المستوى العلمي والثقافي ،أو طبيعة المؤسسات الثقافية، باعتبار أن رحلة السبتي تندرج ضمن الرحلات الفهرسية التي تتوخى لقاء المشايخ والأخذ عنهم، والحصول على علو السند، والإجازات العلمية، أما باقي الرحلات المغربية فاهتمت في الغالب بالكثير من المعلومات العامة عن المغرب الأوسط(الجزائر)، كوصف المدن والمناطق الآهلة بالسكان، والفيافي المقفرة، وكالحديث عن العادات والتقاليد، والمستوى الحضاري والعلمي، وكذكر الزوايا والمزارات، والطرق الصوفية والأوراد والوظائف، وما إلى ذلك.10

ومن البديهي،أن كل رحالة يُركّز على الجانب الذي يشُد انتباهه واهتمامه، والذي هو قريب إلى نفسه؛ باعتبار أن نصوص الرحلة ككتب الجغرافيا والمسالك والممالك وتقويم البلدان، تحاول في تجرد وموضوعية الإلمام بالمعلومات المرتبطة بالأحوال الطبيعية والبشرية والاقتصادية، ويلمس

القارئ من خلال نصوص الرحلة ذاتية الرحالة ونفسيته ، من خلال المعلومات التي تسوقها تلك النصوص عن البلدان التي يكون قد مرّ بها.

ومن خلال تفحص الرحلات المشار إليها آنفا، يمكن الخروج بملاحظتين:

أولاهما :كثرة المغاربة الوافدين على الجزائر، إما باعتبارها مرحلة مهمة في مواصلة الرحلة إلى المشرق، أو اتخاذها مستقرا ومقاما، ومن هنا نجد الكثير من علماء الجزائر يجلسون إلى دروس هؤلاء الوافدين فيحصلون منهم على علو السند والإجازة. كما يمكن رصد الملاحظة الثانية، وهي أن للكتّاب المغربي حضورا في مجالس الدرس، وفي الانتاجات العلمية، ممّا يمكن اعتباره من أهم مصادر الثقافة والعلم بالجزائر.

- **الجزائر في كتابات الرحالين المغاربة خلال العهد العثماني:**

تهتم كتب الرحلات بالوصف أكثر من الرواية، وتجعل الباحث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والفكري يهتم بدراساتها نظرا لما تمتاز به من دقة وتركيز في كثير من الجوانب، ومن أشهر كتب الرحلات المعاصرة لهذه الفترة، والتي يأتي فيها ذكر بلاد المغرب الأوسط(الجزائر)، أربعة كتب يعرفها الباحثون الذين ينصب اهتمامهم على تاريخ بلاد المغارب، خلال مرحلة العصر الحديث. وقبل الوقوف مع ما دوّنه الرحالين المغاربة عن رحلاتهم بالجزائر في ذهابهم إلى الحجاز وإيابهم منه، يحسن أن نشير إلى تلك الرحلة المعاكسة، أي قيام الكثير من الجزائريين؛ باختلاف توجهاتهم وميولهم وأهدافهم العلمية والصوفية بالرحلة إلى المناطق المختلفة من المغرب عامّة، ومدينة فاس على الخصوص كما يبدو من كتب التراجم.

ويجدر القول، بأن أغلب هذه الرحلات- التي نحن بصدد التطرق إليها- قد تمّت دراسة جوانب منها وتحقيقها ونشرها. وقد عمل بعض

الباحثين المحققين على استخراج النصوص المتعلقة بالجزائر من تلك الرحلات، ومن الأعمال العلمية التي كان لها فضل السبق في هذا الصدد؛ البحث الذي قدّمه **مؤرخ البحرية الجزائرية** الباحث مولاي بالحميسي[11]رحمة الله عليه. ورغم نشر النصوص المتعلقة بالجزائر, فإن نصوصاً كثيرة من نوعها مازالت تنتظر اهتمام الدارسين والباحثين؛ لنفض الغبار عنها والاستفادة منها. واخترت منها لهذا البحث، ما انتقاه أستاذنا المرحوم، للتركيز على بعض الجوانب أو الملامح كما أحببنا تسميتها, وتتمثل في نصوص أربع رحلات, سنجتزئ منها، وهي كالآتي:

أولا: رحلة التمقروتي[12] (ت1594-1595م):

والتي تُعرف بـــ (النفحة المسكية إلى السفارة التركية)، وقد تضمّنت معلومات عدّة عن مختلف أحوال الجزائر أثناء ذهابه و إيابه بالمدن الجزائرية الساحلية. وقد قدّم لنا صورة عن الحياة الثقافية في أواخر القرن العاشر الهجري/ السادس عشر ميلادي، أثناء سفره إلى إسطنبول في عام997 هـ/ 1589م، فقال عن الأحوال الثقافية بمدينة الجزائر:)..وطلبة العلم فيها لابأس، إلا أن حب الدنيا و إثار العاجلة والافتتان بها غلب عليهم كثيراً. والكتب أوجد من غيرها من بلاد إفريقية, وتوجد فيها كتب الأندلس كثيرا[13]). ومن خلال استقراء هذا النص , يفهم من كلام التمقروتي، أنه على الرغم من ارتفاع عدد الطلبة, وكثرة الكتب في مدينة الجزائر, إلا أن الحياة الثقافية على ما يبدو كانت مضطربة، لأنها قد تأثرت بالأوضاع السائدة آنذاك, ممّا جعل أهل الثقافة ينصرفون عنها وينشغلون عنها بأمور أخرى.

وأفاض التمقروتي في الحديث عن تاريخ مدينة بجاية الزاهر الحافل بالعلماء والصلحاء، وأبدى تحسُّره لما آلت إليه بجاية بسبب الاحتلال الإسباني، إذ هي "الآن خرابٌ هدمها النصارى... لم يَبْقَ بها إلا ديارٌ قلائل على طرف البحر، وقلعةٌ صغيرةٌ تُسمى باللؤلؤة، ينزل بها متولي تلك الناحية من الترك يمنع المرسى من العدو14".

وفي طريق العودة من اسطنبول، أمضى التمقروتي شهرين في مدينة الجزائر، فأُعجب بنظام أسواقها، ووفرة سلعها، وكثرة السفن في مرساها، كما أُعجب ببسالة رياسها وجرأتهم، حيث يقول: (مرساها عامرٌ بالسفن، ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر، يقهرون النصارى في بلادهم، فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير، وأعظم هيئة وأكثر رعباً في قلوب العدو، فبلادهم لذلك أفضل من جميع بلاد أفريقيا وأعمر، وأكثر تجاراً وفضلاً، وأنفذ أسواقاً وأوجه سلعةً ومتاعاً، حتى أنهم يسمونها اسطنبول الصغرى)15. ولاحظ التمقروتي إقبال الأهالي على طلب العلم واقتناء الكتب، فقال "والكتب فيها أوجد من غيرها من بلاد أفريقيا، وتوجد فيها كتب الأندلس كثيراً.16)

ثانيا: رحلة أبي سالم العياشي(ت1090هـ/ 1679م)17:

الموسومة بـ(ماء الموائد)،وهي تندرج ضمن الرحلات الحجازية 18, وتتضمن إفادات نافعة عن الجزائر،ووصف أسواقها ومياهها و مسالكها بالصحراء الجزائرية ومنازل الحجيج بها، وقد كتب ذلك في طريقه إلى الحج, وأثناء عودته إلى المغرب الأقصى مرورا بالجزائر.

وقدّم لنا صورة عن بعض الحواضر الصحراوية بالجنوب الجزائري سواء ما تعلّق بالحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، حيث صوّر لنا في

رحلته مدينة بسكرة وهو عائد في طريقه من الحج عن طريق تونس، وتحديدا من مدينة توزر، حيث التقى ببعض مشايخها؛ كسيدي أحمد بن عبد العاطي، الذي أدخله داره وأكرمه و أراه الكثير مما تكتنزه مكتبته من كتب ومخطوط، وهناك التقى بالكثير من علماء خنقة سيدي ناجي ببسكرة حاليا.

ويُستشف من نصوص رحلة العياشي أن صحراء الجزائر كانت تخضع لحكم الجماعة, أوما يُعرف بحكم الأمراء أو الإمارات المحلية، وكانت صحراء الجزائر حينها تعج بقوافل التجارة العابرة للصحراء ، ممّا يعكس حركية الحياة الاقتصادية بين شمال بلدان المغارب و إفريقيا جنوب الصحراء. كما شاهد العياشي انتشار الزوايا العلمية والصوفية ومقامات وأضرحة الأولياء الصالحين, وعُرفت بعض المدن الواقعة على طريق القوافل التجارية الصحراوية باسم المدينة القصر أو الزاوية، ناهيك عن انتشار أضرحة العلماء والصلحاء، مثل عريان الرأس بتسابيت (بواحات توات)،وأبي الفضل والنبي خالد (بسكرة), وقد أصبحت مزارات كبرى19.

وأثناء عودته من الحج صادف ذلك اجتياح مدينة الجزائر عام1621م عدّة أوبئة لم تنج منها المناطق الجنوبية للبلاد. وهذا ما أكّده العياشي الذي توقف بمدينة بسكرة في عام 1650م, وهو في طريقه إلى المغرب الأقصى, حيث قال: "ولما رجعت من الحجاز في سنة ستين، وجدته(سيدي بوطيب الناصري)، قد توفي بالوباء الواقع في تلك السنة. وكان وباء مفرطاً, مات به في بسكرة على ما قيل لنا نحو سبعين ألف نفس، وقد دخلنا المدينة عقبه, فوجدنا أكثر حوماتها خالية, ومساجدها داثرة"20 . وتكمن القيمة العلمية لرحلة العياشي؛ في كونها احتوت على الكثير من المعارف الجغرافية والتاريخية

والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، ممّا لا يُدوّنه غير الرحالة الملاحظ المدقّق في غالب الأحيان، نتيجة اتصاله المباشر بالطبيعة، وبالحياة أثناء رحلته21.

ويمكن القول، بأن الرحلة العياشية كانت نموذجاً بارزاً ؛خاصة عندما استوقفته بعض لطائف الفتاوى المحلية(النوازل)، وكذا بعض الغرائب التي صادفته، وضمّن كل ذلك في نصوص رحلته،ولم يُفوّت أن يُعلّق عليها، فقد كان العيّاشي بحق قد كذّب ما قبله وأعجز ما بعده.

ثالثا:رحلة ابن زاكور الفاسي22 (ت1120هـ/ 1708م):

وتسمى رحلته: (نشر أزاهير البساتين فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان)23،وقد حلّ بالجزائر عن طريق البحر في حدود سنة1093هـ/ 1683م، للالتقاء بعلمائها والاستفادة من دروسهم واستجازتهم في أغلب مؤلفاتهم ومروياتهم24.

وتعكس هذه الرحلة أبرز مظاهر التواصل والتعاون الثقافي بين الجزائر والمغرب الأقصى،حيث قدّم لنا وصفا لمدينة الجزائر وعلمائها الذين قال عنهم:)غُرَرٌ أعلام, ينجلى بهم الإظْلاَم, وشُموس أئمة, تنفرج بهم كل غمّة , وتفتخر بهم أحبار هذه الأمة, من رجال كالجبال و أحبار كالأقمار طلعوا في بروج سعودها بُدُوراً ألبسوها رَواءً ونوراً، فاهْتَدَيتُ بأنوارهم السنية،إلى قطف ما راق من أنوارهم الجنيّة ، ورتعتُ في رياض آدابهم فتمتّعتُ، ونهلت من حياض علومهم حتى تضلعت..25).

ولعل هذا الإقرار من صاحب الرحلة (ابن زاكور الفاسي المغربي) دلالة واضحة على المستوى العلمي العالي لدى أشياخه الذين تتلمذ على أيديهم, وقد ضمّن رحلته العلمية نص الإجازة26 التي منحت له من قبل شيخة أبو حفص عمر بن محمد بن عبد المومن المانجلاتي (ت1104ه/ 1693 م).

وعموما، تندرج هذه الرحلة ضمن الرحلة في طلب العلم، وهو ما تميّز به أيضا العلماء والمثقفون الجزائريون عامة ، بغية الاستزادة في طلب العلم وإثراء المعارف، وتنويع المصادر،حرصا منهم أيضا على توسيع آفاقهم العلمية والمعرفية ، وقد احتوت إجازة علماء الجزائر وتطوان لابن زاكور الفاسي المغربي ، على ثلاثة وعشرون ورقة [3].

ويندرج كتاب (رحلة ابن زاكور الفاسي) ، ضمن ما يعرف بكتب: (فهرسة الرحلة)، فهي فهرسة تكتب في شكل رحلة، يسجل المؤلف مشاهداته أثناء الرحلة، ويثبت فيها أسماء الشيوخ الذين لقيهم، وما استفاد في مجالسهم من علوم ومرويات، مع وصف جغرافي وتاريخي للمناطق والأماكن التي يمر بها، وذكر للشيوخ الذين لقيهم، ومجمل ما استفاد من رواياتهم ونصوص إجازاتهم.

ويُعد بحق كتاب(رحلة ابن زاكور الفاسي)،من أهم المصادر التي غطّت فترة من أزهى عصور العهد العثماني بالجزائر؛ فالأخبار التي ذكرها في رحلته عن أحوال الجزائر علمائها ، أمثال أبي الشيخ حفص عمر المانجلاتي الجزائري، وأبي عبد الله محمد بن عبد المؤمن الحسني الجزائري، وأبي عبد الله محمد بن سعيد بن إبراهيم بن حمودة الجزائري، وأبي عبد الله ابن خليفة، أصبحت مصدرا لمن أتى بعده من أصحاب كتب التراجم والسير ؛كمحمد بن أبي القاسم الديسي بن إبراهيم المشهور بـلقب الحفناوي ؛صاحب كتاب (تعريف الخلف برجال السلف) وغيره .

رابعا: رحلة أبو القاسم الزياني (ت1249هـ/ 1833م) .

هو أبو القاسم بن أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الزياني، رحالة وأديب ووزير مغربي، من قبيلة زيان الصنهاجية نواحي فاس، ولد سنة 1147هـ/ 1743م، درس في القرويين، اتصل بالبلاط الملكي سنة 1169هـ/ 1759م،

تقلّد الولاية على وجدة وتازة ومكناس وطنجة وغيرها27. لجأ بعد ذلك إلى المغرب الأوسط (الجزائر) بعد أن أعيته الولاية، فاستراح منها ، ونزل ضيفا بمدينة وهران على الباي محمد الكبير(1779 م – 1797 م) 28. وتُعرف رحلة الزياني بـاسم:(الترجمانة الكبرى في إخبار المعمور برا وبحرا29)، وقد جمع فيها بين رحلات؛ إحداها رحلة سفارية والأخيرتان رحلتان شخصيتان. أما الرحلة الأولى، فكانت في أيام السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل العلوي (ت1169هـ/ 1759م)، حيث توجّه فيها إلى حجّ بيت الله الحرام مع والده، وقضى فيها ما ينيف على سنتين.

ويذكر المؤرخ المرحوم مولاي بلحميسي، أنه في طريق العودة مرّ بمدينة ليفورن بايطاليا التي مكث بها أربعة أشهر ينتظر مركبا ، ثم أُرغم هو وأهله على السفر براً ماراً بمرسيليا وبرشلونة، إلى أن دخل المغرب30. ولم يكن لهذه الرحلة أثر فيما سجّله في كتابه من حيث دراسة المسالك والممالك، ولا من حيث الاهتمامات العلمية العامة.

أما رحلته الثانية، فكانت في سنة 1200هـ/ 1786م ، حيث عُيّن لسفارة اسطنبول، وهي إحدى الرحلات التي تضمّنها كتابه الترجمانة الكبرى، وهي رحلة سفارية تدخل ؛ تندرج في إطار الرحلات الدبلوماسية31 وقد وصف الزياني مدينة وهران، حيث قدّم لمحة بسيطة عن تاريخها من فترة ما قبل دخول الإسلام إليها في عهد الرومان إلى تاريخ ضمّها من قبل الأتراك العثمانيين في عهد السلطان العثماني سليمان القانوني32

كما قدم لنا وصفا عن الحياة الثقافية بمدينة تلمسان, وهنا...كان له فرصة أن أيضا اطلع على كتب عدّة بعدما نزل جوار أبي مدين بالعباد، وانهال عليه طلبة المدينة والمدينة وفقهائها للأنس والمذاكرة، والمسامرة والمحاضرة،وأطلعوه علة تاريخ المدينة وأحوازها وغيرها من الأقاليم العربية والإسلامية. كما

أطلعه إمام مسجد العبّاد على كتاب(فتوح البلدان) للبلاذري (ت 279 هـ/ 892م)، وتاريخ العقباني(ت811هـ/ 1409م)، وكتاب المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن لابن مرزوق، وقد ذكر أن بعضها أقتني من مصر, و بعضا من تأليف علماء المدينة.

ومن الكتب التي اطّلع عليها وذكرها في رحلته كتاب (واسطة السلوك في سياسة الملوك)لأبي حمو موسى الزياني...إلخ. ولم يغفل أن يُعلّق على مستوى الطلاب المتدني، وهو ما دفعه للإقامة بها مدة سنة ونصف للإفادة والاستفادة. وأطنب بعدها في الحديث عن تاريخ المدينة.

وإذا كانت مدينة الجزائر قد تعافت من الوباء الذي ذكره العياشي, نجد أن مدينة تلمسان قد تضررت به. وهذا ما لاحظه الزياني المغربي، أثناء مروره بالمدن الجزائرية في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد, إذ قال: (ثم بعد إقامتنا بها (تلمسان)، سنة ونصف , خرجنا منها إلى مدينة الجزائر ، فراراً من الوباء الذي حلّ بها ، وكان عاما في العمائر التي بينها و بين الجزائر، فما نزلنا منزلا،إلا وجدنا أهلها يدفنون موتاهم.33) وأثناء إقامته بمدينة قسنطينة التقى ببعض علمائها وصلحائها ، ولعل من أبرزهم الفقيه العلامة الصوفي أبي الحسن علي بن مسعود الونيسي، والفقيه القاضي أبو عبد الله سيدي الحفصي العلمي، والفقيه العلاّمة سيدي أبو القاسم المحتالي، والعلامة سيدي أحمد بن المبارك العلمي، والفقيه الأديب الكاتب سيدي محمد المجاري الخوجة، وقد أثنى عليهم جميعا.

ولاشك أن هذه الرحلة، هي من أهم المصادر التي تُعين الباحث على تتبّع مظاهر الحياة الثقافية ببعض الحواضر الجزائرية عن كثب ، حيث نجد أن صاحب الرحلة كان يبدي توجّهه الثقافي وآراءه العامّة في مختلف المشاكل، وتدل هذه الرحلة في الوقت ذاته على ما لصاحب الترجمانة الكبرى من

مشاركة عملية في تسجيل كثير من الملاحظات حول التاريخ العلمي وحول التطور الفكري والعقائدي في الجزائر وغيرها من الأقاليم التي زارها .

هذه أربع رحلات ، تمكّنا في بداية الأمر من التعرف والاطلاع عليها، من خلال كتاب المؤرخ المرحوم مولاي بلحميسي الموسوم بـ:)الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني(، ثم تمكنا رويدا رويداً من الاطلاع على نصوصها في مظانها الأساسية.

وقد مرّ أصحابها بالجزائر وتحدّثوا عنها و رسموا لنا ملامح من حياتها ووصفاً لمعالمها، وعرّفونا ببعض علمائها وأعلامها. وقد تكرّرت في هذه الرحلات عدّة أشياء، ودلّتنا على وحدة مشاعر مؤلفيها وسُموّها، ممّا خفّف وطأة وعثاء السفر و مشتقاته. كما احتوت نصوص هذه الرحلات على معلومات متفاوتة عن موضوع بحثنا، بحكم حجمها المتباين، ومكانة أصحابها العلمية المتفاوتة، لكنّها جميعا تُجسّد التعلّق بالدين الإسلامي، الذي ترجمته الرغبة في أداء مناسك الحج وزيارة قبر النبي عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، والتردّد على أولياء الله الصالحين الذين قضوا نحبهم، أو الأحياء منهم، بالزيارة والاتصال المباشر، أو بالزيارة عن بُعد حسب الحال والمقام.

وكان أصحاب الرحلات يُنوّهون ما كانوا يلقون من أهل الجزائر من حسن القبول، و يحذرون من غدر بعض الأعراب في الطريق، ويرشدون إلى مواطن الماء، و إلى الأسواق التي يتوفر فيها ما يحتاجه الحجيج. و ممّا استفدناه من هذه الرحلات، أن الجزائر كانت تجمع وفود الحجيج المشرقين القادمين من نواحي المغرب و مختلف بلدانه، و العائدين من البقاع المقدسة مُيمّمين مواطنهم في ربوع المغرب الأقصى. وهم جميعا في وجهتيهم يقبلون على اقتناء زادهم وتوفير كل ما يحتاجونه في سفرهم، وذلك باعث لازدهار

الحركة التجارية و نفاق بعض الأسواق الجزائرية، ومحرك لنشاط اقتصادي في هذا الموسم.

وكانت الرحلة لأداء فريضة الحج فرصة لاحتكاك العلماء المسلين المتوافدين، إذا كان يحدث هناك تبادل ثقافي و علمي فيما بينهم. وهكذا تتيح الرحلات تواصلاً بين إخوة في دين الله تناءت ديارهم وتباعدت مواطنهم، فحقّق الحج تعارفهم و تعاونهم و دعّم أواصر المحبة بينهم،ومدّ أسباب التناصر والتضامن بينهم.

الإحالات:

1. الرحلات هي جمع كلمة (رحلة)، وقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن الرحلة تعني (الترحيل والرحال ، يقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورحل رحول وقوم رحل : أي يرتحلون كثيراً، ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له). وورد لفظ رحلة عند ابن منظور بمعنى الانتقال من مكان لأخر" والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة، والرحلة اسم للارتحال للمسير" والرحلة بالضمّ الوجه الذي تأخذ فيه وتريده، كما تعني السفرة الواحدة" الرحلة السفرة الواحدة." ينظر: أبو الفضل جمال الدين المعروف بابن منظور : لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون،المجلد**03**، دار المعارف القاهرة(د.ت)،ج**18**،ص**1609**.

2. عبد الحكيم عبد اللطيف الصعيدي: الرحلة في الإسلام : أنواعها وآدابها، مكتبة الدار العربية للكتاب، ط1 ، القاهرة،**1992** م، ص **05**.

3. عبد الر حمان ابن خلدون :مقدمة ابن خلدون، الجزء الأول من كتاب العبر.. , دار إحياء التراث العربي , بيروت لبنان ,(د.ت)، ص **542**–**541**.

4. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وأرآء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت**1998**م،ج**1**،ص**177**. ولم يقتصر التأليف في الرحلة الحجازية ، على المغاربة والعرب المشارقة ، بل ألّف علماء شعوب إسلامية كثيرة في هذ النوع من الكتابة، نذكر منهم بعض الأتراك مثل إيليا جلبي (حجة عام **1631**م)، ويوسف نابي (حجة سنة **1678**م)، وعبد الرحمن حبري، ومحمد أديب الذي حج سنة **1779**م)،

5. يراجع :بنحادة عبد الرحيم: العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب،ط**1**/ **1429**ه–**2008**م، ص ص **245** – **250**.

6. رحلة ابن رشيد الفهري السبتي (ملء العيبة بما جُمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة و طيبة) المعروفة بـ : رحلة ابن رشيد السبتي (ت **721** ه) الجزء الثاني تحقيق : الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة ، طبعة الدار التونسية للنشر ، **1402** هـ – **1982**م . كما قام الدكتور أحمد حدادي بدراستها وتحليلها، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية **1424**هـــــ/ **2003**م.

7. يُعد محمد العبدري الحاحي من أهم الرحالة المغاربة في القرن السابع الهجري، وهو معاصر لابن رُشيد السبتي، والتّجيبي السبتي الرحال، وقد دَون العبدري مشاهداته في رحلة جليلة الفوائد، عظيمة القدر، هي (رحلة العبدري) أو "الرحلة المغربية"، وقد طبعت بالرباط سنة **1968** م

8. يراجع: ابن بطوطة محمد بن عبد الله: تُحفة النُظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروف أيضاً باسم رحلة ابن بطوطة هو كتاب يصف رحلة ابن بطوطة،دار صادر للطباعة والنشر، بيروت**1384**هـــــ/ **1964**م.

9. يراجع: الحسن الوزان: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي،بيروت**1983**م.

10. محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن محمد القيسي، الشهير بالسراج الملقب بابن مليح ،هو رحالة من مغربي من أهل مراكش . لا يعرف شيء من تاريخ ميلاده و لا وفاته إلا مخطوط رحلته الحجازية و المسماة "أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم و الأعارب**1040**-**1042**هـــــ/ **1630**-**1633**م "، تحقيق محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، المغرب**1968**م..

11. مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني, ط**2**، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر**1981**م، ص **12**.

12. بلحميسي مولاي (ت**2009**م)، من مواليد سنة **1930** بمدينة مازونة (ولاية غليزان حاليا) ، وقد تتلمذ سنوات الاستعمار بالمدارس القرآنية كغيره من أبناء الجزائر آنذاك ليواصل دراساته بعد ذلك حتى حصوله على شهادة ليسانس في الآداب عام **1958**م، واصل مشواره العلمي في فرنسا، حيث تحصل على شهادة دكتوراه دولة سنة **1986**م عن جامعة "بوردو" بفرنسا، له العديد من المؤلفات العلمية ، قام – رحمه الله– مشكورا بانتقاء أربع شخصيات من المغرب الأقصى تحدثوا عن الجزائر بعد أن زاروها و أقاموا بها مدة, مكّنتهم من الكتابة عنها، وأضافوا إلى الدراية النزاهة و الإعجاب أحياناً.وضمّن ذلك في كتابه المذكور آنفا، والذي يحتوي على**206**صفحة.

13. أبو علي بن محمد التمقروتي المغربي ولد حوالي سنة **1560**م للاستزادة ينظر: التمقروتي علي بن محمد الجزولي: النفحة المسكية في السفارة التركية، طبعة حجرية (دون تاريخ)،ص **12-19-28** و ص**76-86**.

14. المصدر نفسه , ص**28**.

15. المصدر نفسه، ص **16**.

16. التمقروتي: المصدر نفسه، ص **139**.

17. المصدر نفسه،ص**139**.

18. العياشي: هو أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي المالكي, من أهل فاس،ونسبته إلى آيت عياش:قبيلة بربرية من أحواز سجلماسة،ولد بقبيلة آيت عياش قرب تافيلالت في شهر شعبان **1037**هـ / ماي **1628**م.كان أبوه شيخ زاوية، و هو الذي أشرف على دراساته الأولى، ثم تتلمذ على يد شيخه محمد بن الناصر في وادي درعة(جنوب المغرب)، ثم عاد إلى فاس؛ حيث أكمل تعلمه على يد مشايخ، مثل عبد الرحمان بن القاضي و عبد القادر الفاسي، الذي أجازه سنة **1063**هـ / **1653**م. انتقل إلى المشرق طلباً للعلم، المرة الأولى سنة **1059** هـ/ **1649**م، و المرة الثانية سنة **1064**هـ / **1653**م و المرة الثالثة سنة **1073**هـ/ **1661**. توفي بالمغرب الأقصى سنة **1090**هـ/ **1679**م بسبب الطاعون.

19. ينظر ترجمته في: أبوسالم عبد الله بن محمد العياشي: الرحلة العياشية, تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القريشي, دار السويدي للنشر والتوزيع, أبو ظبي, الإمارات العربية المتحدة, ط**1**, **2006**م, ص**29**. ينظر أيضا: الأعلام للزكلي :ج**4**، ص**273**

20. مولاي بلحميسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة ،مرجع السابق ص **12**.

21. مولاي بلحميسي: المرجع السابق, ص **28** و مايليها.

22. المرجع نفسه, ص**102**.

23. حسني محمود حسن: أدب الرحلة عند العرب, دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع, المملكة العربية السعودية, ط**1**, دت, ص**16**.

24. هو محمد بن قاسم بن محمد بن عبد الواحد بن أحمد، أبو عبد الله بن زاكور الفاسي، وكنيته: أبو عبد الله، ولقبه عُرف بابن زاكور، ونسبته الفاسي نسبة لمدينة فاس. ينظر ترجمته في: محمد بن الطيب القادري: التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر، تحقيق: هاشم العلوي القاسمي، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط**1**، بيروت لبنان**1983**م،**304**.عبد الله كنون:النبوغ المغربي في الأدب العربي،مكتبة الرسالة ودار الكتاب اللبناني، بيروت**1975**م،ج**1**،ص**313**.

25. ينظر: العلامة الشيخ محمد بن قاسم بن زاكور الفاسي: رحلة ابن زاكور الفاسي المسمّاة :نشر أزاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، تحقيق: محمد ضيف ومحفوظ بوكراع،(طبعة خاصة)،دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر**2011**م،**134**صفحة.وهي في الأصل تقع في حدود تسعة وستون (**69**)صفحة. مولاي بلحميسي: المرجع السابق،ص**19**.

26. المرجع نفسه،ص**19**.

27. ابن زاكور الفاسي: المصدر السابق، ص**40**–**41**.

28. الإجازة في الأصل من طرق نقل الحديث و تحمله, ولها أنواع مفصّلة في كتب العلم،وقد تساهلوا فيها فيما بعد و توسعوا في استعمالها في سائر العلوم، وضعفت مصداقيتها الأولى, ومنحت بالمراسلة دون لقاء ولا مدارسة ولكنّها ظلّت تُعبّر في الغالب عن كفاءة المجاز للدخول في عِداد العلماء، واحتفظت بعض الإجازات بقيمتها العلمية العالية.

حول الإجازة ينظر: ابن الصلاح أبو عمر عثمان بن عبد الرحمان الشهروزي: علوم الحديث، حقّقه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه: نورالدين عتر،ط**02**، المكتبة العلمية، المدينة المنورة**1972**م، ص ص**134**–**146**. صلاح الدين المنجد:إجازات السماع في المخطوطات القديمة، في مجلة معهد المخطوطات العربية، مج**01**،القاهرة نوفمبر**1955**م، ص ص**232**–**251**. وهو بحث خاص بنوع معين من الإجازات العلمية.

29. ناصر الدين سعيدوني وبوعمران الشيخ وآخرون: معجم مشاهير المغاربة، منشورات جامعة الجزائر، **1995**م، ص **271**.

30. مولاي بلحميسي: المرجع السابق،ص**21**.

31. ينظر : الترجمانة الكبرى هي رحلة إلى اسطنبول وفهرسة ومختصر جغرافية وموسوعة صغيرة، حقّقها عبد الكريم الفيلالي سنة **1387**هـــ/ **1967**م.

32. مولاي بلحميسي: مرجع سابق،ص **20**.

33. المرجع نفسه،ص**11**.

34. المرجع نفسه، ص **156**.

35. المرجع نفسه، ص **168**.

الورثلاني: مقدمة عن رحلته و ملاحظات عن فضل علم التاريخ و الأخبار

د. عبد القادر صحراوي
جامعة يدي بلعباس

:Abstract

This research deals with observations that without Al – Warthilani on his journey .

Al – Warthilani record all observations and views which he lived during his trip and gave it the character of mysticism.

:Keywords

Al – Warthilani – history-Flight- Mysticism- Algeria- Ottoman era

تعددت مفاهيم الرحلة كثيرا ، غير أنّها تعني لغويا ركوب الإبل أو الجياد التي يتم ترويضها حتى تصير راحلة ، وتختلف الرحلات باختلاف الأهداف التي يتوخى البشر تحقيقها . وقد بدأ الاهتمام بالرحلات في القرن **3** الهجري/ **9** الميلادي، وألفت فيها كتب ومؤلفات كثيرة حتى أصبحت فنّا أدبيا وعلما مميزا. وكان للعرب عامة والجزائريين خاصة اهتماما بالغا بالرحلات. وفي هذا السياق ندرج رحلة الحسين الورثلاني خلال القرن **12** الهجري/ **18** الميلادي ، وهي رحلة اهتمت بالوصف الجغرافي والسرد التاريخي. غير أنّ التركيز كان على علم التاريخ، وكان الورثلاني عالما برحلات الذين سبقوه خاصة الرحلة الناصرية لأحمد بن ناصرالدرعي المغربي ، و« ماء الموائد » لأبي سالم العياشي المغربي ، وسمّى الورثلاني رحلته :« **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار** » .

1. التعريف بالحسين الورثلاني:

ينتمي الحسين الورثلاني إلى أسرة علم وصلاح تعود أصولها حسب الكثير من المصادر التاريخية إلى شرفاء تافيلالت بالمغرب الأقصى. وانتقلت إلى مدينة بجاية، ثم استقرت في عهد جده على البجائي ببني ورثلان، وظهر من هذه الأسرة العديد من العلماء والفقهاء والمتصوفة. فوالده محمد السعيد عالم في التوحيد، مدرك للتصوف وفقيه محقق ويصفه بقوله(... الوالد رحمه الله لأنه أفقه زمانه وما رأيت مثله في الفقه إذ أنه في التحقيق بمكان ...) [1]. وكان يدرس بزاويته ببني ورثلان مختلف العلوم الشرعية التي أخذها عنه عدد كبير من الطلاب الذين أصبحوا فيما بعد قضاة ورجال فتوى ببجاية وغيرها من مدن الجزائر في العهد العثماني. واقتدي بأخلاقه ومثله، إلاّ أنه لم يكن ليرض بالأوضاع التي آلت إليها الجزائر خاصة بعد أن أصبحت المناصب الدينية كالإفتاء والقضاء تشترى بالمال، ووصل به الأمر إلى الامتناع عن أداء الصلاة ومنها الجمعة خلف هذا النوع من العلماء والأئمة [2]. وكان جده الحسين مدرسا ومطلعا وباحثا وحافظا لمختلف الكتب التي تتناول علوم الظاهر والباطن، كما اشتغل مفتيا. ويذكر الحسين الورثلاني أن جده هذا قد درس بجامع الأزهر بمصر، وأن (محمد بن عبد الباقي الزرقاني شارح الموطأ وشارح المواهب اللدنية) [3]، قد درس عليه. ومن أجداد الورثلاني أيضا يحيى الورثلاني الذي كان يملك خزانة من الكتب، وكان هذا الرجل فقيها ومتصوفا وعالما بالتوحيد، ومشرفا على زاوية يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء الجزائر. أما جده أحمد الشريف الذي استقر في البداية ببجاية، ثم انتقل إلى بني يعلى قد تصاهر مع محمد بن يعلى حاكم الإقليم، وقد بنى له بعد وفاته ضريح تحول إلى مزار للناس كافة [4].

وقد نسب له الورثلاني الحفيد كرامات وخوارق لا يصدقها العقل، ويتصل أحمد الشريف جد الورثلاني بنسب ينتهي عند الحسين بن علي بن

أبي طالب، واختار إثر هجرته إلى مدينة بجاية المشعة بالعلم والثقافة والحضارة. وفي هذا السياق يقول الورثلاني☹... ومنهم الولي الصالح جدنا سيدي أحمد الشريف نسبا، إذ ثبت ذلك وهو الشريف الحسني، والذي سمعناه من أعالي أسلافنا أنه من شرفاء تفيلالت. وأمّا مقره مقر أوائله فمن بجاية، وجدنا نجل الشيخ سيدي علي البكاي [5]، ويضيف في مكان آخر قائلا(هكذا ثبت بخط جدي وهو ثقة، وأصله والله أعلم من تفيلالت أي من شرفائها) [6].

وولد الحسين بن محمد السعيد بن الحسين بن محمد بن عبد القادر بن أحمد الشريف في سنة **1125**هـ/ **1713**م ببني ورثلان، وتلقى مبادئ تعلمه على يد أبيه وشيوخ بني ورثلان، وهكذا حفظ القرآن الكريم، ودرس الفقه واللغة وبقية علوم الظاهر والباطن، وانتقل بعد ذلك إلى زوايا جرجرة ودلس والجزائر [7]. ولا يزال قبر الشيخ الورثلاني يزار إلى اليوم ببني ورثلان التي كان تضم زاويته ومدرسته ومسجده، وكان الطلاب يأتونه من مختلف أنحاء الجزائر. ولقد نشأ الشيخ الورثلاني في قريته ذات التضاريس القاسية، غير أنه لم يتعرض لهذه الفترة من حياته في مؤلفاته المختلفة، ونفس الأمر تغاضى عنه معاصروه. وركز هؤلاء على حياة الورثلاني عندما بلغ مبلغا كبيرا من العلم والفقه المالكي، وعلى الرغم من ذلك ظلت تراجم هؤلاء المعاصرين ناقصة وبعيدة عن المجالات العلمية التي اخترقها. [8]

وامتدت حياة الورثلاني من **1125**هـ إلى **1193**هـ/ **1713**م-**1779**م، ولم تهتم المصادر التاريخية والذين ترجموا له بوفاته كثيرا، اللهم إلاّ الإشارة التي بينت أن وفاته كانت في شهر رمضان. في حين يقول الحفناوي(وأمّا وفاته رحمه الله فقد رأي النبي (ص) فأخبره أنّه يعيش إلى السنة العاشرة من القرن

الثالث عشر، فتكون وفاته كما أخبر به الصادق المصدوق، لأنه لا ينطق عن الهوى) [9]، ويظهر لنا هذا النص عدم الاهتمام بتواريخ الوفاة، والأمر نفسه نلاحظه في رحلة الورثلاني كما سنوضح لاحقا. وأدّى هذا العلامة فريضة الحج ثلاث مرّات، الأولى برفقة أبيه وهو ابن ثمانية عشر سنة وكان ذلك في **1153**هـ/ **1740**م، والثانية عند بلوغه سن الواحدة والأربعين أي في سنة **1166**هـ/ **1752**م، والثالثة دامت ثلاث سنوات أي أنها كانت ما بين **1179** و**1181**هـ/ **1765**–**1768**م وقد أتمها في الرابعة والخمسين من عمره [10]، وتبين هذه الرحلات بجلاء الفترات الطويلة من عمره، والتي قضاها في السفر ساعيا وراء العلم، ومدرسا لمجالاته المختلفة، ومؤلفا في مختلف علوم عصره [11].

وحرص الحسين الورثلاني على توسيع معارفه، وتنمية معلوماته وثقافته سواء كان ذلك في قريته ببني ورثلان، أو خلال تنقله بين بعض مدن الجزائر، أو حتى خلال رحلاته إلى الحج والديار المقدسة. وهكذا درس على يد مجموعة من الشيوخ، ففي بلدته أخذ العلم على يد والده خاصة ما تعلق بالفقه، وكذلك علي بن أحمد بن عبد الله، والشيخ اليعلاوي وهو تلميذ جده الحسين، إضافة إلى الشيخ أحمد زروق بن أحمد بن الشيخ العنابي. وقد نال نتيجة لذلك حظا كبيرا من العلم والمعرفة، إلا أن تلهفه إلى المزيد جعله يتوجه نحو مراكز علمية أخرى خارج وطنه الجزائر، وهكذا استفاد من حجاته المتعددة إلى أرض الحجاز للاتصال بعلماء في تونس، وليبيا أو طرابلس كما كانت تسمى، إلى جانب مصر والأراضي المقدسة [12].

ففي تونس درس على يد محمد بن عبد العزيز، وعبد الله السوسي ويحيى بن حمزة. وذكر العلماء الذين التقى بهم في مصر من أمثال الشيخ محمد الحفناوي مقدم الطريقة الخلوتية وأستاذ محمد بن عبد الرحمن الأزهري

مؤسس الطريقة الرحمانية، والشيخ البليدي محمد، والعمروسي وخليل المغربي الأزهري، إلى جانب بعض الطلبة الجزائريين كأحمد بن عمار مفتي الجزائر [13].ونذكر من شيوخه أيضا الجوهري والنفزاوي والملوي وخليل الأزهري [14]، وحتى نبرز تأثره الشديد بأذكار الطريقة الشاذلية، نشير إلى تتلمذه على يد الشيخ عبد الوهاب العفيفي مربي المريدين على الطريقة الشاذلية الذي أخذ عنه الأذكار. وهناك شيوخ آخرين أجازوه في مختلف العلوم الشرعية مثل الشيخ أبي القاسم الربيعي القسنطيني، وعلى الصعيدي، وعمر الطحلاوي، والزياتي، وأحمد الاشبيلي وهو تلميذ الخفناوي، والصباغ الإسكندري، والهاشمي المغربي، وإبراهيم بن علي شعيب التونسي، ومحمد الكردي تلميذ الحفناوي، الذي أصبح مقدم الطريقة الخلوتية أيضا، ويؤمن الورثلاني بكراماته، والشيخ المنور التلمساني

ويقول الحفناوي بعد عرضه لأسماء شيوخ الورثلاني ما يلي(... ثم رجع من المشرق بعد أن امتلأ وطابه، وفاض عبابه، فعلم وأفاد، وألف وأجاد، ودعا إلى الله العباد، وقهر الجهلة أهل التعصب والعناد(، وعندما يعرّفه يقول: (هو الإمام العامل العلاّمة الكامل الأستاذ الهمام شيخ مشايخ الإسلام الورع الزاهد الصالح العابد، المتبع لأثر الرسول، الجامع بين المعقول والمنقول، بحر الحقائق وكنز الدقائق(، إلى أن يقول(وقدوة العلماء العاملين، وبقية السلف الصالحين، محيي السنة، الجامع بين العلمين والكامل في النسبتين، حامل لواء الشريعة والحقيقة).

وتدخل الورثلاني في الكثير من الأحيان لحسم الخلافات التي نشبت بين مشايخه، عن طريق ترجيح الصواب على الخطأ، مثل ما وقع بين شيخه التلمساني وخليل المغربي حول مسائل في (كبرى) السنوسي، وفي هذا السياق يقول الورثلاني: (فلما طال نزاعهما وقد ظهر لنا ما ظهر للشيخ

خليل، قلت الحق مع الشيخ خليل، فلما خرجنا قال لي والله لقد أساءني نصرك للشيخ المذكور فأجبته بما هو حاصله أن الحق أحق أن يتبع وما ذكره هو الحق والله تعالى أعلم) [15]، وحدث أن أقحم الورثلاني شيخه التلمساني بأسئلة في البلاغة والنحو، والفقه وحتى في الكيمياء، ويظهر لنا ذلك حبه للبحث والجدال العلمي. ومما يبرز أن الورثلاني علم من أعلام عصره، هو سعة ثقافته التي شملت مختلف ميادين المعرفة، وتمكنه من علوم متعددة مثل الفقه، والتصوف والحديث وتفسير القرآن الكريم، والتاريخ، والدراسات النحوية والبلاغية، وما يسمى حاليا بالعلوم التجريبية كالكيمياء مثلا [16]. ويذكر الورثلاني حادثة وقعت لجده الحسين عندما كان مدرسا بالأزهر، أثرت فيه كثيرا وقوت من طموحه، مفادها أن جده المدرس بالأزهر قد عجز عن إعراب جملة لتلميذه محمد بن عبد الباقي الزرقاني، ويعلق الورثلاني على هذه الحادثة بقوله(... وإنّما دأبهم الفقه وأصول الكلام –ويقصد بذلك أبناء وطنه–، وأما مسائل الإعراب والمنطق، والتصوف والبيان والأصول فعلى طرفي اللثام) [17]، هذا وآثر الورثلاني الاستقرار بقريته بني ورثلان، والاعتكاف بمسجد الأسرة للتدريس والوعظ والعبادة. وبسبب شهرته، قصده الطلاب والزوار من داخل الجزائر وخارجها طلبا للعلم والبركة، ومن الذين درسوا عليه محمد بن الفقيه، ومحمد السكلاوي الجزائري، ويحيى بن حمزة، ومحمد بن عبد الله من مدينة زمورة، ومحمد الجوادي، ومحمد خروف، وأبو القاسم بن مدور من بني عباس الذي اشتغل قاضيا ببجاية، وابن عمه الشيخ محمد الصالح [18].

وكان الشيخ الورثلاني كثير التردد على بجاية خاصة في شهررمضان، وذلك من أجل الرباط، والتدريس والقيام بالوعظ والإرشاد، وقد لقي فيها كل الحب والكرم، وفي هذا السياق يقول(... غير أنهم أكدوا علي ذهبت

معهم إلى زيارتها لأني محب فيها غاية، وذلك قبل بلوغي، وكنت كل عام أصوم رمضان ناويا الرباط مع تعليمي الطلبة، راجيا أن يكون لي حظ وافر منهم، ونصيب كامل من عندهم ...) [19] ولا شك أنّه زار تونس عدة مرات للتدريس والتعلم والتوجه إلى الحج، وحدث أنه أقام بها خمسة أشهر، وخلالها تعرض بالدرس لكتاب الرازي المسمى (المعالم) والفتوحات المكية (لابن العربي)، وغيرها كثير، وتنقل بين مختلف مدن تونس بما في ذلك صفاقس وقابس. كما قوّى أواصر العلم مع مجموعة من العلماء مثل الهادي السوسي، والغرياني، والمفتي ابن محجوبة، وعدد من شيوخ جامع الزيتونة [20]. إلاّ أن غيرة وحسد الكثير ممن لقيهم قد دفعه إلى ترك تونس غاضبا وناقما على أهلها، وربما يعود ذلك إلى النزاعات المتكررة بين إيالتي الجزائر وتونس، ذلك أن الورثلاني يشير إلى هدم القوات الجزائرية لأسوار مدينة الكاف التونسية. ولم تثنه هذه الأحداث عن التفكير في العودة إلى تونس ومواصلة رسالته المعرفية، ثم عقد الحلقات العلمية بمدن وطنية أو خارجية [21].

ولا يمكننا الانتقال إلى الحديث عن مختلف كتبه ومؤلفاته، من دون التعرض إلى حياته الأسرية. وهكذا كانت له علاقة مصاهرة مع آل المقراني، وآل يحيى العيدلي [22]. ويمكننا القول أيضا أنه تزوج حوالي خمس مرات على الأقل، وقد اصطحب بعض أزواجه إلى الحج مثل عائشة بنت الشيخ السعدي بن المسعود بن عبد الرحمن، وعويشة بنت عبد الله بن رحاب من أولاد دراج، ويتمي هؤلاء إلى قبيلة عربية قطنت المنطقة بين جبل بوطالب وشط الحضنة، وتزوج أيضا من بنت الشيخ سيدي بركات من بني يعلى. ولعل مصاهراته المتنوعة هذه قد أكسبته شهرة ووسعت من نفوذه الديني والاجتماعي [23]. وما يظهر صدق ووفاء الورثلاني الأوصاف الطيبة التي

يصف بها أصهاره، وفي هذا السياق يقول(... فالشيخ بركات كان ناصرا للأمة، ناصحا للجماعة) [24]. أمّا صهره وصهر ابنه محمد، الشيخ عبد الله بن رحاب فهو شريف النسب وفقيه، وصاحبه في حجته الثالثة، ومكث معه في تونس عند العودة من الحج، كما تصدى معه للتدريس، وحضر وفاة ابنتيه. ولعلّ الأعداد الكبيرة للطلبة والزوار المترددين على زاويته من الأسباب التي جعلته يتزوج أكثر من امرأة، ولم يغفل الورثلاني أهله، فقد درس لأبنائه على الرغم من أنه لا يذكرهم بالاسم. إلاّ أنه يبرز أنّ عددهم كان كبيرا، واقتصرعلى ذكر ابنه محمد الذي زوجه من بنت متعلمة، هذا الابن الذي أجازه شيخه عبد الوهاب عفيفي رغم صغر سنه [25].

ويصف الورثلاني زوجته عويشة بنت عبد الله بن رحاب فيقول(... وهي الحرة الجليلة الكريمة الطيبة النخبة الشريفة، المتطلبة، فإنها تقرأ نحو الربع، وتحفظ بعض الأذكار، كوظيفة الشيخ زروق، وكانت تحفظ الصغرى للشيخ السنوسي، وكذا بعض الرسالة لابن أبي زيد، حاصله في غاية الأدب، والفهم، والفطانة) [26]، ولا ريب أن هذا وفاء كبير من الورثلاني، الذي لم يمنعه ذلك من ترك آثار ومؤلفات عديدة، لعل رحلته أعظمها وأكثرها شهرة.

2. آثاره ومؤلفاته:

ويظهر لنا مما سبق ذكره عن العلامة الورثلاني، نشاطه وجده وعمله المتواصل بفعل سفرياته المتعددة داخل الجزائر وخارجها، رغم التطورات السياسية الخطيرة التي شهدها القرن **12**هـ/ **18**م، خاصة مسألة انتشار الثورات في شرق وغرب البلاد.

وتمكن نتيجة لنشاطه العلمي من تأليف العديد من الكتب، والتعليق عليها وذلك في الفقه والتوحيد والتصوف والنحو والبلاغة وما إلى ذلك. وتعتبر

رحلته التي سمّاها: "نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار" أعظم وأشهر ما ألف، وهناك مؤلفات أخرى نذكرها أولا ثم نحاول شرحها أو تقديم بعض المعلومات عنها، على أن نركز على الرحلة الورثلانية. ويعتبر شرحه لقصيدة القدسية لعبد الرحمن الأخضري من أهم أعماله التي خصصها للتصوف، وله شرح على خطبة الصغرى للسنوسي، وحاشية على حاشية المحقق السكتاني التي وضعها على شرح السنوسي، وشرح على وظيفة الشيخ يحيى العيدلي الذي ذكر له بعض الكرامات. كما أن له وصف لمدينة برقة ضاع منه خلال إحدى رحلات حجه، وفسر لغزا صوفيا لأحمد بن يوسف الملياني عجز عن تفسيره علماء فاس، كما شرح كتابا عن الصلاة، وقد أوصاه مؤلفه الشيخ السمان القرشي المدني بشرحه [27].

وإن ما ذكرناه من مؤلفات الورثلاني، هو ما تضمنته رحلته، لكن هناك مؤلفات ذكرها مترجموه مثل عبد القادر بن محمد الصغير الذي نسخ الرحلة، ومن ذلك شرحه على وسطى الإمام السنوسي، وشرحه على محصل المقاصد لأبي العباس أحمد بن زكي التلمساني، وأشار إلى أنه مات فيه قبل أن يتمه، وذكر عبد القادر بن محمد الصغير أيضا شرح الورثلاني لصغير الخرشي. وفي نفس السياق يقول الحفناوي(فمن تآليفه السنية التي سارت بها الركبان، وقد دعا لناسخها ومالكها وناظرها، فهي حصن حصين ودرع متين، ومنها شرحه على المنظومة القدسية للشيخ عبد الرحمن الأخضري في التصوف، وحاشية على السكتاني، وكتاب (المرادين)، وقصيدة فيها خمسمائة بيت في مدح النبي (ص) [28]". ولا ريب أن عدم ذكر الورثلاني لبعض مؤلفاته مرده إلى أن تأليفها كان بعد انتهائه من تأليف الرحلة، في حوالي

1181هـ و1182هـ/ 1767 و1768م، ومن دون شك أن هناك مؤلفات أخرى في علوم مختلفة، خاصة بعد استقراره بقريته بني ورثلان [29].

وبحكم ولعه أي الورثلاني بعلم التوحيد الذي يعتبره ضروريا للتقرب إلى الله، باعتبار ذلك سمة من سمات الصوفية، قام بشرح وتحشية عمل السنوسي، كما وضع حاشية على شرح السكتاني المراكشي على صغرى السنوسي أيضا، وفي هذا يقول الورثلاني(... وأعارني الشيخ الحطاب شارح المناسك لخليل وهو شرح جليل قد سافرت به إلى مكّة أحياه الله على السنة النبوية وأعلمته بشرحي على خطبة شرح الصغرى، فلما رآه ورأى حاشيتي على المحقق المراكشي السكتاني استحسن جميع ذلك) [30]. كما وضع الورثلاني شرحا على وسطى السنوسي، مما يدل على اهتمامه الكبير بعلم التوحيد [31]. وخص الورثلاني قصيدة القدسية في التصوف لعبد الرحمن الأخضري بالشرح، وهي عبارة عن قصيدة في آداب السلوك وتهذيب النفس، ورفض المحدثات والبدع، وسمّى شرحه (الكواكب العرفانية والشوارق الأنسية في شرح ألفاظ القدسية)، وقد استجاب الورثلاني في شرحه لمنظومة الأخضري إلى إلحاح الكثيرين ممن كانوا يترددون عليه بالزيارة، إلى جانب عدد من تلامذته. واعتمد في شرحه هذا على الرسالة القشيرية وما كتبه أحمد زروق صاحب الطريقة المعروف، ولا غرابة في ذلك باعتبار أن الورثلاني قطب من أقطاب التصوف في عهده. [32]

وقبل التعرض بالتحليل لرحلة الورثلاني، لابد أن نذكر برحلاته داخل الجزائر وخارجها، خاصة وأنه تعود على الإكثار منها، وفي هذا يقول:"... فإني قد جبلت على حبها من صغري، وقد كثرت مني شرقا وغربا، وجوفا وقبلة، لا سيما عمالة الجزائر، فإني قد خضتها، وبحثت عن أهلها، بحثا

شديدا، تاريخا، وسيرة، وطريقة ...) [33] وقد قصد من رحلاته الجهاد والحج والعلم، وهكذا زار مدن الجزائر، وتلمسان، ومليانة، والبليدة، ودلس، وجبال زواوة، والمسيلة، وبسكرة، وسيدي عقبة، وسيدي خالد بمنطقة الزيبان، وتبسة، وقسنطينة وعنابة، إلا أنه خلد في رحلته بالتفصيل مدينتي بجاية وقسنطينة فقط [34]. ولم يغفل الإشارة إلى زيارته إلى الجنوب القسنطيني حيث مرّ بطولقة، وأولاد جلال، غير أنه لم يسجل عنها الشيء الكثير، كما زار قبر عبد الرحمن الأخضري، ومر أثناء عودته بالمسيلة. هذا وزار الغرب الجزائري وبلغ مدينة تلمسان التي وقف بها على قبر أبي مدين شعيب، وغالبا ما كانت هذه الزيارة إلى الغرب قبل بدايته حركة التأليف والتاريخ. [35]

كما زار بلاد القبائل والتقى بأوليائها وعلمائها، وبعض تلامذته، وهناك أصلح بين القبائل المتحاربة، وأتم دراسة بعض الكتب. وفي بجاية وقف على قبور الأولياء، واجتمع بالقاضي أبي القاسم بن إبراهيم، قبل أن يعود إلى قريته محملا بالهدايا النقدية والعينية باعتباره صاحب زاوية وولي يتبرك به، ونشير إلى أنه خصص حوالي ثمانين صفحة لرحلاته الداخلية في رحلته [36]. أما فيما يتعلق برحلاته إلى الخارج، فقد كانت أولاها نحو تونس لاكتساب العلم، ومن ثم اتجه نحو الأراضي المقدسة للحج برفقة أحمد زروق بن الحاج صديق والده. ثم قام بثلاث رحلات نحو البقاع المقدسة، مر خلالها بالكثير من الأقطار العربية مثل تونس، وليبيا، ومصر أين اتصل بعلمائها، واقتنى منها الكتب. وصادف خلال حجته الثانية، وفاة أبي سالم النفزاوي، وحضر جنازته ووصف لنا موكب جنازته، ومن ثم فإن حجته هذه كانت في سنة **1168**هـ/ **1754**م التي تصادف وفاة هذا الشيخ، ومن

أسفاره ندرك تعلقه بالعلم والولاية، وقدرته على تحمل مشاق وأخطار السفر، وفي ذلك يقول: "إن مرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ" [37].

- **رحلة الورثلاني:**

يمكننا تقسيم الرحلات خلال العهد العثماني إلى علمية وحجازية، وضمن النوع الثاني تدخل رحلة الورثلاني المسماة (نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار)، ويبرز هذا العمل شعوره بالتاريخ، خلافا للعلماء الذين عاصرهم. وقد حز في نفسه عدم اهتمام أهل وطنه بالتاريخ وسخريتهم من دراسته ودارسيه، بينما رأى هو أن علم التاريخ يزيد في فضل الإنسان، ويبعده عن القبائح، ويرى أيضا أن مرتبة العلماء تزيد وتنقص بعلم التاريخ، وهو طموح إلى نيل مرتبة عليا علما وولاية [38].

وتضمنت مقدمة رحلته ذكر الأهداف من تأليفها، فهي عبارة عن تراجم لحياة عدد من العلماء والأولياء، الذين ذكر أوصافهم، ودعا إلى الاقتداء بهم، وتتبع آثارهم، باعتبار أن هذا النوع من الآثار منعدم في الوطن، وفي هذا يقول: "لما رأينا من وقوع الإهمال في تلك التراجم في وطننا، فرسمنا كل ذلك رسما جيدا، فحفظت من كل خلف وصف أسلافه، ونقلت من كل نوع أخبار أصله، علما مني لا يمجه السمع السليم، والطبع المستقيم، ريحانة لما يجده المتأخر بعدنا، ورحمة لما يحصل من اقتباس الأنوار في وطننا). [39] كما تعرض بالتفسير لمعالم طريق الحج الوعرة والسهلة، مما يجعله يعرف من خلالها مدى استطاعته أو عدمها على الحج، واشتهرت الرحلة منذ أن انتهى من كتابتها، وقد نسخها سعيد بن أحمد بن يدير العباسي القلعي في سنة **1182**هـ/ **1768**م، وربما يكون قد نسخها مرة أخرى. وتوجد منها حاليا بالمكتبة الوطنية في الجزائر عدة نسخ منها ثلاثة تحت رقم **2171** و**2743**

و2968. وكانت قد صدرت أول طبعة حجرية لها في تونس في سنة 1903م، ثم طبعت بمطبعة بيارفو نتانا بمدينة الجزائر سنة 1908م، بعد أن صححها محمد بن أبي شنب الذي قابل ثلاث مخطوطات، والنسخة المطبوعة بتونس، ونشرها بطلب من الحاكم العام الفرنسي جونار. وتحتوي النسخة على 713 صفحة، بالإضافة إلى خمس صفحات تشمل مقدمة الناشر والمصحح، مع ذكر ترجمة للمؤلف، وهناك 105 صفحات من الفهارس الخاصة بالأعلام، وأسماء الأماكن والقبائل والأعراش، وأخيرا أسماء المصادر التي تزيد عن 330 مصدرا في مختلف العلوم [40].

وعلى الرغم من الحشو الذي ميز الرحلة، والتكرار ونقص الترتيب، إلاّ أنها عبارة عن مؤلف عام جمع العديد من العلوم مثل التوحيد، والفقه، والتفسير، والنحو، والبلاغة، والصرف، والتصوف، ومادة تاريخية وجغرافية غزيرة. وإضافة إلى ذلك تعتبر الرحلة شهادة عن الأحوال السياسية والاقتصادية، والاجتماعية والثقافية في الجزائر والوطن العربي، أو على الأقل البلدان العربية التي مر بها أثناء رحلة الحج إلى الحجاز. واعتمد الورثلاني على مجموعة من المصادر في كتابة رحلته منها رحلة الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الجعفري، والمعروفة بالرحلة الناصرية، وكتاب (النبذة المحتاجة في ذكر ملوك صنهاجة) لأبي عبد الله محمد بن علي بن حمادة بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي، و(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة﴾ لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وكتاب)عقود الجمان في مختصر أخبار الزمان﴾ لمحمد الشاطبي، وكتاب (الأدلة السنية في مفاخر الدولة الحفصية) للشيخ ابن الشماع الحفصي، واقتبس أيضا من (عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية) لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني، و(رياض الصالحين) لعبد الرحمن الثعالبي. كما اعتمد على مصادر

أخرى في الفقه والتصوف والتوحيد، تجاوزت الثلاثمائة مصدر، منها الوغليسية لمحمد الوغليسي، وصحيح البخاري، وكتاب خليل لابن إسحاق وغير ذلك [41].

ولم يهتم المؤرخون والدارسون برحلة الورثلاني إلاّ مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر مثل شارل فيرو (Féraud) في سنة **1869**م في بحث عن مدينة بجاية، وكانت دراسته خاصة بسكان المدينة وجبال المنطقة الوعرة. ونفس الشيء قام به فايست "Vayssettes"[42] في **1869**م أيضا، إذ تناول جوانب من حياة الورثلاني وعلاقاته بالبايات. وفي مطلع القرن العشرين، وعلى إثر طبع الرحلة واهتمام الباحثين بصاحبها، ترجم أبو القاسم الحفناوي للورثلاني في القسم الثاني من كتابه (تعريف الخلف برجال السلف) الذي طبع بالجزائر في سنة **1906**م. كما اهتم مارسيي "Mercier" برحلة الورثلاني في سنة **1931**، وطالب بترجمتها إلى الفرنسية، الأمر الذي دفع الحاج صدوق إلى نشر دراسة عن الرحلة في المجلة الإفريقية سنة **1951**م. وبعد ذلك تناول حياة الورثلاني عدة مؤرخين مثل خير الدين الزركلي سنة **1927**م، ثم كراتشو فسكي من الاتحاد السوفياتي سنة **1957**م، وعادل نويهض في معجمه عن أعلام الجزائر [43].

ويبرز هذا الاهتمام برحلة الورثلاني أهميتها وقيمتها التاريخية الكبيرة بفضل ما اشتملت عليه من معلومات مهمة لها علاقة بالحياة السياسية والاقتصادية وأسلوب العيش، ومستوى الثقافة، والعادات والتقاليد، والاهتمامات الشعبية للمدن والبلدان التي زارها خلال رحلته إلى الحج انطلاقا من مجانة، زمورة، قصر الطير، أولاد موسى، وطن ريغة، أولاد دراج، بريكة، بسكرة، سيدي عقبة، الخنقة، أولاد سيدي ناجي، نفطة،

الحامة، توزر، زواوة، طرابلس، تاجوراء، لبدة، زليتن، مصراتة، بلاد السرت، ثم إقليم برقة والإسكندرية والقاهرة والمدينة ومكّة، أما في طريق عودته فقد مر بالقاهرة والإسكندرية، وطرابلس، وتونس، والكاف، وقسنطينة وزمورة قبل أن يصل إلى قريته بني ورثلان [44].

ومما يظهر القيمة التاريخية لرحلة الورثلاني اتسامها بالمميزات الآتية:

- الالتزام بالصدق في كل ما أورده من أحداث، ويعبر عن رأيه بصراحة، وينتصر للحق إذا رأى في ذلك مصلحة عامة.

- تحرى الورثلاني الحقيقة، ولم يكتف بالمشاهدة وإنما يسعى إلى تأكيد توجهاته بالعودة إلى مصادر الذين سبقوه كأبي سالم العياشي، والبكري، والغبريني وغيرهم.

- التزامه بعرض الواقع كما هو دون تحريف أو تشويه، ولذلك كانت انتقاداته لاذعة للحكام والولاة المسئولين في نظره عن انعدام الأمن، وسوء الأخلاق.

- تحلى الورثلاني بالتقوى والورع، في مدحه للناس الصالحين والعلماء، ويظهر ذلك في تقربه منهم وزيارة أضرحة الأولياء الصالحين.

- التزامه بأسلوب فيه الكثير من المحسنات البديعية والمرادفات، والاقتباسات القرآنية والنبوية [45].

ولا ريب أن رحلة الورثلاني رغم نقصها في بعض الجوانب، تعد موسوعة حقيقية عن الجزائر وأقطار العالم الإسلامي في القرن الثامن عشر. وساهمت رحلاته المتعددة إلى الحج، وإتقانه للغة العربية، ومعرفة عادات الدول التي مرّ بها إلى إصدار أحكام منصفة على العصر الذي عاش فيه وأهله [46]. كما تعد الرحلة مصدرا أساسيا من أجل التعرف على أوضاع الجزائر، وبعض الدول العربية أثناء القرن **18**م. فقد سجل الأوضاع

الاجتماعية والاقتصادية، ووصف طريق الحج المحفوف بالمخاطر وترجم للعديد من العلماء والصلحاء والمشايخ سواء الذين درس عليهم، أو أولئك الذين تقرب منهم [47]. فهو عندما يتحدث عن النخبة في رحلته، يقصد العلماء الذين يقرنهم أحيانا برجال السلطة المنتمين إلى عائلات دينية ذات تقاليد علمية معروفة [48].

ويمكن الاستفادة من المادة التاريخية الغزيرة للرحلة في إعادة صياغة تاريخ هذه الفترة للجزائر مثلا، وذلك بفضل التغطية التاريخية الشاملة للبلاد، على عكس الكثير من الرحالة الأوربيين الذين اكتفوا بالتركيز على مدينة الجزائر فقط، واعتمد الفرنسيون أنفسهم على الرحلة في التعرف على عادات منطقة القبائل، حتى يتمكنوا من فرض سيطرتهم عليهم والحد من أخطارهم، وتناول الورثلاني في رحلته مختلف الظواهر الاجتماعية والشعبية، ومن ذلك أحداث مدينة بسكرة التي كشفت عن ظلم الأتراك للرعية وتشتيتها لهم، وفي هذا يقول(... اجتمع عليها –أي بسكرة– ظلم الأتراك، بحيث انسلخت عن أوصاف الأمصار بل عن أوصاف المدن الصغار) [49].

ولا شك أن هذه المعلومات التاريخية تمثل نظرة خارجية لشخص أجنبي عن المدينة، مما جعل تقييمه للأوضاع تقييما موضوعيا لا تحيز فيه. وسادت الموضوعية التاريخية أغلب المواضيع التي تناولتها الرحلة، وذلك على الرغم من سوء الأحوال في الجزائر والدول العربية التي مرّ بها الورثلاني خلال رحلاته المختلفة، فهو يشير إلى ظلم الأتراك واستبدادهم ليس في الجزائر وحسب، وإنما في مصر أيضا [50].

وحتى المدح الذي مدح به بعض شخصيات الرحلة، والانتقادات التي تضمنتها، إنما هي معيار مهم عن موضوعية الورثلاني. وما يؤكد هذا التوجه استعراضه لطبائع وسلوك المصريين والحجاج المغاربة، وإعادته لأصل النزاع

إلى سلوك المغاربة وأعمالهم الرديئة بالإضافة إلى ما سجله من انتقادات لجزائريين مثله مثل سكان زمورة وأهل عامر. وترك انطباعات كثيرة عن ركب الحجيج من مختلف الدول العربية، بما في ذلك ركب مصر [1] [5]. ومن هنا تعتبر المعلومات التاريخية الغزيرة التي أوردها الورثلاني تكملة لما ورد في رحلات الذين سبقوه، ومنهم الدرعي والعياشي، وتساهم في إعادة بناء تاريخ الجزائر والدول العربية التي أفاض الورثلاني بالحديث عنها في رحلته. وطغى على الرحلة أيضا ذكر الصلحاء والأولياء والمرابطين ورجال التصوف، والذين يعد الورثلاني واحدا منهم.

الهوامش :

[1] الحسين، الورثلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، دار الكتاب اللبناني، بيروت، **1974**، ص. **308**.

[2] نفسه، ص. **11**، مختار بن الطاهر، فيلالي، رحلة الورثلاني، عرض ودراسة، دار الشهاب، باتنة، د.ت، ص.**10**.

[3] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **549**.

[4] Hadj Sadok, « A travers la Berberie orientale du XVIII siècle avec le voyageur Al – Warthilani », R. Af., 1951, p.317.

[5] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **73**.

[6] الحسين، الورثلاني،المصدر السابق، ص. **603**.

[7] سعيدوني، ناصر الدين، من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي، ط**1**، بيروت: دار الغرب الإسلامي، **1999**. ، ص. **418**.

[8] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **15**.

[9] الحفناوي، أبي القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، بيروت، مؤسسة الرسالة، **1982** ص. **141**.

[10] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **418**.

[11] -مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **15**.

[12] نفسه، المرجع السابق، ص. **19**.

[13] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **653، 660، 666، 292، 311**.

[14] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **419**.

[15] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **286،302**.

[16] الحفناوي، أبي القاسم محمد، المصدر السابق، ص. **139-141**.

[17] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **304**.

[18] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **21-22**.

[19] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **549**.

[20] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **23**.

[21] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **18**.

[22] نفسه، ص. **653-661**.

[23] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **668-683**.

[24] المهدي، البوعبدلي، تراجم بعض مشاهير علماء زواوة، القبائل الصغرى والكبرى، الأصالة، العدد **14** و**15**، ماي-جوان-جويلية-أوت، **1973**، ص. **274**.

[25] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص.**16**.

[26] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **80**.

[27] نفسه، ص. ص. **172-227**.

[28] الحسين، الورتلاني،المصدر السابق، ص. **529**.

[29] نفسه، ص. **108، 308، 530**؛ مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **26-27**.

[30] أبو القاسم، الحفناوي، المصدر السابق، ص. **141**.

[31] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **419**؛ مختار بن الطاهر فيلالي، المرجع السابق، ص. **27-28**؛ عادل، نويهض، المرجع السابق، ص. **70**.

[32] الحسين، الورتلاني، المصدر السابق، ص. **284**.

[33] سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ط**1**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، **1998**، ج2، ص. **97**.

[34] نفسه، ص. **130-131**.

[35] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **289**–**290**.

[36] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **37**.

[37] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **21**.

[38] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **39**–**40**.

[39] الحسين، الورثلاني، المصدر السابق، ص. **397**.

[40] نفسه، ص. **597**.

[41] نفسه، ص. **290**.

[42] الحسين، الورثلاني،المصدر السابق، ص. **52**–**53**.

[43] نفسه، ص. **57**–**58**.

[44] Vayssettes (E), Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517 à 1837, Paris, Bouchene, 2002.p. 182.

[45] مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **71**–**73**.

[46] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **419**–**420**.

[47] سعيدوني،ناصر الدين،المرجع السابق، ص. **420**.

[48] سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ص. **398**.

[49] سعيدوني، ناصر الدين، المرجع السابق، ص. **421**؛ شارف، رقية، الكتابات التاريخية الجزائرية في نهاية القرن **12**هـ وبداية **13**هـ/ نهاية **18**م وبداية **19**م، دراسة تحليلية نقدية، رسالة ماجستير، جامعة الجزائر، **1999**–**2000**.

[50] Merouche (L), Recherches sur l'Algérie à l'époque ottomane, I.Monnaies, Prix et revenus, 1520-1830, Paris, Bouchène, 2002. ,p.232.

[51] -الحسين ،الورثلاني، المصدر السابق، ص. **110**؛ مختار بن الطاهر، فيلالي، المرجع السابق، ص. **76**.

ملف الدراسات التاريخية
و الاجتماعية و الفكرية

التحليل المكاني للمستوطنات الإسرائيلية في محافظتي الخليل ورام الله-البيرة، باستخدام نظم المعلومات الجغرافية (GIS)

أ. خليل حلاحلة
أ.خليل أبوعلان
جامعة الخليل – فلسطين

Abstract:

The study is based on the spatial analysis of Israeli settlements and their impact on the reduction of urban expansion in Palestinian communities in the study area, And to identify areas where the Palestinians can create population centers and other areas are not allowed to create a demographic and urban areas, And the spread of urban random in the Hebron and Ramallah-Bireh, and other operations to control the land by the Israeli settlement of targets and closing in on the communities, It turns out that the Israeli occupation controls 80% of the territory of the Hebron and Ramallah.

Keywords:

Israeli settlements - demographic - operations - the communities - the territory.

تعتمد التجمعات السكانية في معظم دول العالم على مجموعة من العوامل التي تحدد كيفية توزيعها وشكل تلك التجمعات، إلا أن واقع التجمعات السكانية في الضفة الغربية فهو يتميز بخصوصية من حيث العوامل المؤثرة، فوقوع الضفة الغربية تحت السيطرة الإسرائيلية،

واستمرار إسرائيل في بناء المستوطنات والسيطرة على الأراضي كان له تأثير كبير على طبيعة توزيع التجمعات السكانية في الضفة الغربية.

لقد اعتمدت السياسة الإسرائيلية الاستيطانية في السيطرة على الأراضي من خلال اختيار أولا المناطق الاستراتيجية التي يتوجب حسب سياستها أن يتم سلب هذه الأراضي هذه المناطق، وثانيا، السيطرة على المناطق المحيطة بالتجمعات السكانية الفلسطينية، وذلك للحد من امتدادها وانحصار تلك التجمعات في مناطق محدود وبالتالي التضييق على السكان الفلسطينيين وهذا الأسلوب الذي نتج عنه العديد من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وقد بدأت السياسة الاستيطانية في فلسطين منذ عام 1882م مع إنشاء أول مستعمرة وهي بتاح تكفا.

وقد كانت محافظة الخليل والتي تعد أكبر محافظات الضفة الغربية والواقعة إلى الجنوب من مدينة القدس على بعد 62 كم عنها، من أكثر المناطق تعرضاُ لتوسع الاستيطاني الإسرائيلي، وبالتالي تعرض الكثير من التجمعات السكانية في هذه المحافظة إلى حدوث حالة من عدم الاستقرار المكاني وخلل في جميع النواحي التخطيطية، إذ أنه مع زيادة أعداد السكان في هذه المحافظة أصبح التوسع العمراني حاجة ملحة وضرورية، إلا أن التجمعات الاستيطانية الإسرائيلية حالت دون حدوث هذا التوسع، كما أن محافظة رام الله والبيرة كانت هي الأخرى من المحافظات الأكثر عرضا للانتشار الاستيطاني على أراضيها، بظهور حالة من الاكتظاظ العمراني في بعض المناطق وخاصة مدينة رام الله والبيرة.

تتناول هذه الدراسة تأثير المستوطنات الإسرائيلية على الامتداد العمراني للتجمعات السكانية في محافظتي الخليل ورام الله والبيرة، وعلى توزيع هذه التجمعات في منطقة الدراسة، وتأثيرها على البيئة، كما تسعى الدراسة إلى توضيح اثر المستوطنات الإسرائيلية على السكان وأهم المشاكل التي نتجت عن وجود انتشار هذه المستوطنات، أيضا دور الشوارع الالتفافية التي تربط بين المستوطنات الإسرائيلية في السيطرة على الأراضي والحد من التوسع العمراني لدى التجمعات السكانية الفلسطينية

منطقة الدراسة

تقع محافظة الخليل جنوب الضفة الغربية، على بعد **63**كم جنوب مدينة القدس، وتعتبر أكبر محافظات الضفة الغربية من حيث المساحة والسكان، حيث تبلغ مساحتها حوالي **990**كم أما عدد سكانها فيصل إلى نحو **620**الف نسمة [1] (خريطة رقم**1**)، يتميز مناخها باعتدال درجات الحرارة صيفاُ وباردا ورطباً شتاءً، وبالأخص في الجزء الشمالي والغربي منها، أما الجزء الشرقي والجنوب (على حدود النقب) فيتميز بالمناخ شبه الجاف، بالنسبة لمحافظة رام الله والبيرة فتقع في وسط الضفة الغربية والتي تحدها من الجنوب محافظة القدس، إذ تبعد عن مدينة القدس **15**كم، ويبلغ عدد سكانها **430** الف نسمة، ويسود فيها مناخ البحر المتوسط المعتدل [2] (خريطة رقم **2**).

خريطة رقم (1): تبين موقع محافظة الخليل بالنسبة للضفة الغربية

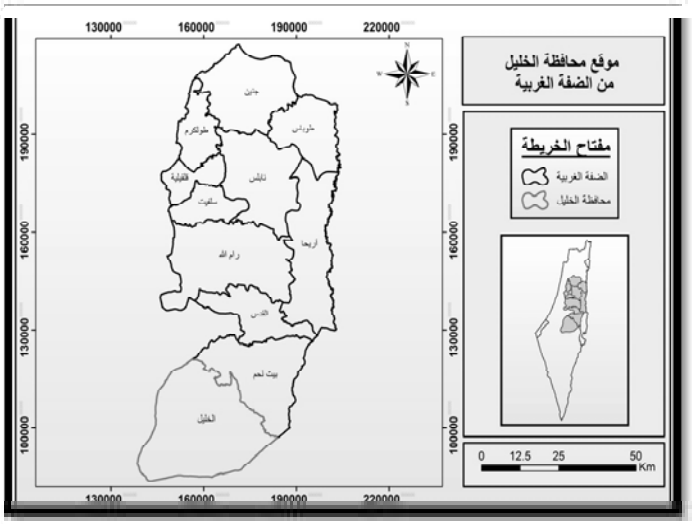

المصدر: عمل الباحثين، 2015.

خريطة رقم (2): توضح موقع محافظة رام الله والبيرة بالنسبة للضفة الغربية.

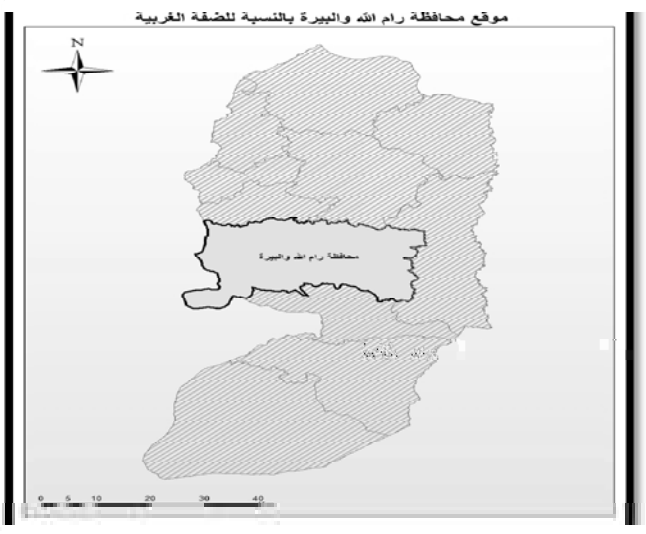

المصدر: عمل الباحثين، 2015.

واقع الاستيطان الإسرائيلي وتوزيعه في محافظتي الخليل ورام الله–البيرة

يعد المشروع الاستيطاني الإسرائيلي أحد أهم المشاريع الصهيونية، والذي يقع دوماً في مقدمة أهدافها، وبالتالي كان الاستيطاني مشروعها وعملها التطبيقي لتحقيق الرؤية الصهيونية في الاستيلاء على الأراضي، وتشريد السكان الفلسطينيين من أراضيهم، وإحلال السكان اليهود مكانهم، وقد تركز الاستيطان الإسرائيلي في بادئ الأمر على المناطق الساحلية من فلسطين، ولكن بعد حرب حزيران **1967** واحتلال إسرائيل لكامل الضفة الغربية وقطاع غزة، بدء النشاط الاستيطان بالتوسع والإسراع في إقامة مستوطنات أخرى على اغلب المناطق التي تم السيطرة عليها حتى عام **1984**، ولكن بعد هذا العام تقلص هذا النشاط بسبب العملية شبه السلمية بين الفلسطينيين والإسرائيليين لغاية العام **2000** واندلاع الانتفاضة الفلسطينية، وتجدد الاستيطان الإسرائيلي [3].

بدأ الاستيطان الإسرائيلي في محافظة الخليل منذ عام **1968**، بالتزامن مع قيام اليهود بإنشاء مستوطنة كريات أربع عام **1968** والتي تعد اكبر المستوطنات الإسرائيلي في المحافظة، على أراضي مدينة الخليل في الجانب الغربي، والسيطرة على أجزاء واسعة من البلدة القديمة فيها، وعلى الحرم الإبراهيمي [4]، وقد توزع الانتشار الاستيطاني في محافظة الخليل في أغلب أجزائها، ففي الجزء الشمالي منها يوجد مستوطنة كفار عصيون، وكرمي تسور، ومجدال عوز، في الجنوب يوجد مستوطنة تينة، وسنسانة، وشمعة، أما في الجانب الشرقي فتنشر مستوطنات بني حيفر وعتنائيل وماعون، وفي الجزء الغربي تقع مستوطنة أدورا وشيكف، نحوشاه، وتنتشر العديد من المستوطنات الأخرى على أجزاء متفرقة من

محافظة الخليل، حيث يوجد في المنطقة الوسطى وبالأخص بالقرب أو على حدود مدينة الخليل يوجد مستوطنة كريات أربع ومستوطنة حاجاي.

أما في محافظة رام الله والبيرة فقد لوحظ أن الانتشار الاستيطاني بدأ في منتصف السبعينات من القرن العشرين، ولعل أكبر المستوطنات الإسرائيلية في محافظة رام الله والبيرة هي مستوطنة بيت إيل الواقعة شرق مدينة البيرة، وهي ملاصقة للمدينة البيرة، ومستوطنة عوفرة في شرق المحافظة، كما يوجد في الغرب منها مستوطنة حلميش وعطيرت [5]، والجانب الشمالي تقع مستوطنة شيلو ومعالي ليفونا، أما الجزء الجنوب فيوجد بيت هورون ومعالي مخماس (خريطة رقم 3).

لقد أثرت العوامل الجغرافية الطبيعة في منطقة الدراسة على نوعية المستوطنات الإسرائيلية المقامة فيها، حيث لعبت تضاريس محافظة الخليل ذات المنطقة الجبلية في أغلب أجزائها دورا مهما في تحديد نوع المستوطنة الإسرائيلية المنشئة على أراضيها، فاغلب المستوطنات الإسرائيلية الموجودة في الجزء الشمالي منها وفي الأجزاء الوسطى من المحافظة فهي مستوطنات إسرائيلية مدنية لاستخدامات السكن وأغلب سكانها من اليهود المتدينين، وذات كثافات سكانية عالية، أما الواقعة في أقصى شرقها فهي مستوطنات عسكرية ومعسكرات تابعة للجيش الإسرائيلي فهي منطقة شبه جافة، وفي الجنوب من محافظة الخليل تميزت المستوطنات الإسرائيلية بكثرتها وانخفاض عدد سكانها وتراوحت أهداف إقامتها بين مناطق للسكن والجانب العسكرية، حيث يعتبر الجزء الجنوب عبارة عن الحد الفاصل بين جبال الضفة الغربية وصحراء النقب التي تسيطر عليها إسرائيل بالكامل، كما لعب العامل البشري

تأثيرا واضحا في إنشاء بعض المستوطنات في المنطقة مثل مستوطنة كريات أربع التي كان الهدف من إنشائها السيطرة الكاملة على الحرم الإبراهيمي الشريف وعلى البلدة القديمة في مدينة الخليل.

خريطة رقم (3): توضح توزيع المستوطنات الإسرائيلية داخل محافظة رام الله والبيرة.

كان لمحافظة رام الله والبيرة وضع خاص من حيث الهدف من بناء المستوطنات الإسرائيلية فيها، فبالنسبة للمستوطنات التي تقع في الجزء الشرقي من المحافظة فقد كانت أغلبها مستوطنات عسكرية لتكون هذه المستوطنات مطلة مباشرة على غور الأردن والبحر الميت، وفي الجزء الغربي فيتميز بوجود عدد كبير من الينابيع والأراضي الزراعية فقد

كانت أغلب المستوطنات في هذا الجزء هي مستوطنات زراعية، لأهداف الزراعة والسيطرة على المياه الجوفية، لكن في الجنوب من المنطقة كان الهدف الأساسي لهذه المستوطنات هو فصل مدينة القدس وقد الاتصال السكاني بين محافظة رام الله والقدس الشريف، وفي شمالها أقيمت بعض المستوطنات على مناطق سهلية زراعية، وبعضها للاستخدام الصناعي.

أثر المستوطنات الاسرائيلية على التجمعات السكانية في محافظتي الخليل ورام الله-البيرة

يبدو أن السياسة الاسرائيلية ومنذ اعلان قيام دولة اسرائيل عام **1948**- ونفس هذه العام قام اسرائيل بالسيطرة على مساحات واسعة من فلسطين التاريخية وتهجير السكان، والمجازر بحق الفلسطينين، وهو ما عرف بذلك العام بالنكبة الفلسطينية- لم تتغير [6]، فقد استخدمت اساليب اخرى في التضييق على الفلسطينيين، والعمل على تهجيرهم وترك أراضيهم، ولعل أفضل وابرز هذه السياسات والاساليب هو التوسع الاستيطاني، والحد من توسع العمراني الفلسطيني، ففي محافظة الخليل استطاعت اسرائيل من خلال المستوطنات الاسرائيلية من الحد من انتشار التجمعات السكانية فيها، فقد لوحظ أن الامتداد العمراني الفلسطيني في محافظة الخليل كان على شكل طولي، يتوزع على طول جانبي المستوطنات الاسرائيلية، ومساحات واسعة من الاراضي التي سيطرة عليها اسرائيل ومنعت الفلسطينيين من البناء فيها أو استخدامها في الجانب الزراعي في بعض الاحيان.

عمدت اسرائيل ومنذ عام **1967**، إلى إنشاء تجمعات سكانية مترابطة وقريبة من بعضها، حيث أن المستوطنات الاسرائيلية المقامة على أراضي محافظة الخليل، وبالاخص في الجزء الشرقي منها هي عبارة عن

مستوطنات ذات من امتداد طولي من حيث التوزيع (من الشمال إلى جنوب)، والحال مشابه له في الجزء الغربي، وهذا الأمر أجبر التجمعات السكاني الفلسطينية في محافظة الخليل أن تأخذ شكل أمتداد طولي من الشمال إلى الجنوب وكان على ترتيب النحو التالي، بيت أمر وحلحول ومدينة الخليل ودورا والظاهرية، وفي الجزء الجنوب الشرقي مدينتي يطا والسموع إلأ أنها محاطة بعدد من المستوطنات ومساحات واسعة من اراضيها مصنفة على انها ارضي C (خريطة رقم4) أي تتبع للسيطرة الاسرائيلية من الناحية الإدارية والأمنية، وخاصة بعد اتفاقية اوسلو، وتزايد في النشاط الاستيطاني في المنطقة.

خريطة رقم (4): توضح التقسيمات داخل محافظة الخليل بعد اتفاقية أوسلو عام 1949.

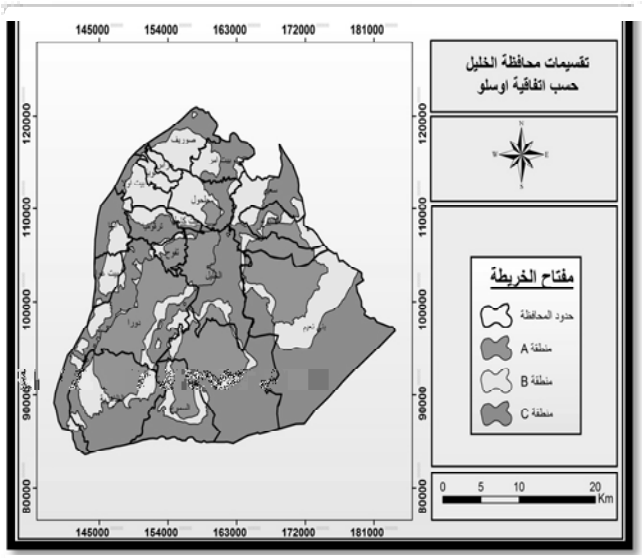

المصدر: عمل الباحثين، 2015.

تمكنت اسرائيل من خلال استخدام سلاحها الفعال (التوسع الاستيطاني)، من التحكم في تحديد اتجاه الامتداد العمراني في محافظة الخليل، فمن خلال مستوطنة كريات اربع الواقعة شرق مدينة الخليل والملاصقة للبلدة القديمة منعت اسرائيل الامتداد العمراني للمدينة باتجاه الشرق نظرا لوجود التجمع السكاني الاستيطاني الكبير (كريات اربع)، واضطر العديد من سكان المنطقة في هذا الجزء إلى الانتقال إلى مناطق أخرى من أجل البناء والسكن، وبالتالي توقف الامتداد العمراني باتجاه المدينة القديمة والمسيطر عليها من قبل اسرائيل أو باتجاه شرق مدينة الخليل، أما في الجزء الغربي من محافظة الخليل فيوجد العديد من التجمعات السكانية الفلسطينية ولكن أكبرها هي مدينة ترقوميا ومدينة إذنا، إلا أن الامتداد العمراني فيها انحصر بشكل كبير وأصبح على حساب الاراضي الزراعية في هذه المنطقة، ويعود السبب إلى وجود مستوطنتي أدورا وتيلم الإسرائيلية اللتان حدادتا من التوسع العمراني في هذه المنطقة (خريطة رقم5).

خريطة رقم(5): تظهر توزيع المراكز العمرانية الفلسطينية والمستوطنات الاسرائيلية.

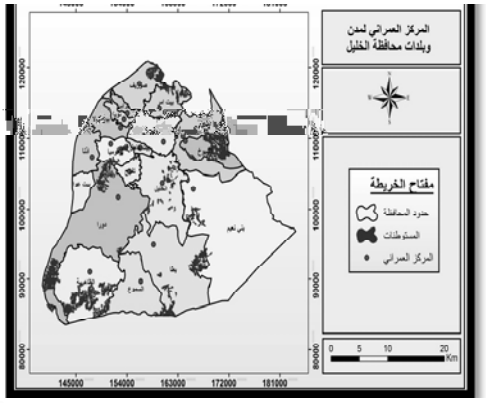

المصدر: عمل الباحثين، 2015.

لا تختلف كثيرا محافظة رام الله والبيرة عن منطقة الخليل من حيث التأثر بالمستوطنات الاسرائيلية، إلا أن التجمعات السكانية في غرب محافظة رام الله والبيرة ونتيجة لتصنيف أغلب أراضي غرب رام الله مناطق C (تابعة للسيطرة الاسرائيلية)، وانتشار المستوطنات بين قرى هذه المنطقة، حيث يلاحظ أن توزيعها عشوائي الانتشار وانتشار الكثير من المستوطنات الاسرائيلية، مثل مستوطنة الحلميش التي تفصل بين قرية بيتلو وقرية دير نظام [7].

يتضح من خلال الدراسة أن مدينة رام الله والبيرة تقلصت مساحتها العمرانية بشكل كبيرة، حيث يوجد في الجزء الجنوبي من مدينة رام الله والبيرة مستوطنة كوخاف يعقوب والتي تبين أن مساحتها توسعت بشكل كبير عما كانت عليه بالسابق، أما بالنسبة لتأثير مستوطنة بيت إيل على الامتداد العمراني في مدينة البيرة فلها التأثير الأكبر في هذه الجزء فقد منعت مستوطنة بيت إيل التوسع العمراني وامتداده نحو الشرق بالنسبة لمدينة البيرة (خريطة رقم 6).

خريطة رقم (6): تظهر توزيع التجمعات السكانية الفلسطينية في محافظتي رام الله والبيرة.

تأثير الطرق الإلتفافية الاستيطانية على التجمعات السكانية في منطقة الدراسة

تعتبر الطرق الالتفافية واحد من أهم الوسائل التي ساعدت الجانب الاسرائيلي على السيطرة على مساحات واسعة من الاراضي الفلسطينية، والتي تعرف على انها طرق تشقها سلطات الاحتلال من أجل الربط بين المستوطنات الاسرائيلية بعيدا عن المناطق السكنية الفلسطينية، بالإضافة إلى الطرق السريعة في مناطق الضفة الغربية، الأمر الذي أدى إلى تحويل التجمعات السكانية الفلسطينية إلى ثلاثة كانتونات منعزلة من شمال ووسط وجنوب الضفة الغربية محاصرة بالمستعمرات والطرق الالتفافية والمنشئات العسكرية [8].

استطاع الجانب الاسرائيلي من السيطرة على مساحات واسعة من الاراضي الزراعية التابعة للفلسطينيين من خلال استخدام الطرق الالتفافية بحجة الضرورة الأمنية (ما جعل الفلسطينيين غير قادرين على الاحتجاج ضدها)، وقد بدأ الاعلان الفعلي بالبدء بعملية شق الطرق الالتفافية عام 1983 تحت الأمر العسكري رقم (50) للطرق، وكان هذا

الاعلان مرفقا بخرائط لإقامة مجموعة من الطرق الطولية والعرضية، من أجل تقسيم الضفة الغربية إلى أجزاء صغيرة محاطة بالمستعمرات [9].

بلغ مجموع طول الطرق الالتفافية المنشئة على أراضي الضفة الغربية 880 كم، بافتراض معدل عرض الطريق 20 مترا بالإضافة إلى 120 متر لدواعي امنية اسرائيلية، لتشكل هذه الشبكة نحو 2% من مساحة الضفة الغربية، وبالنسبة لمحافظة الخليل فكان لها نصيب مرتفع من هذه الشبكة فقط قام الاحتلال الاسرائيلية بشق طرق الالتفافية تربط بين المستوطنات الاسرائيلية واخرى طريق سريعة تربط بين مناطق تصل إلى مراكز اسرائيلية ومنها الطريق الالتفافي الموجود في الجزء الشرقي من مدينة الخليل والذي يربط بين المستوطنات الاسرائيلية الواقعة في الجهة الشرقية من المنطقة كما انه يصل المستوطنات الإسرائيلية بمنطقة النقب الواقعة تحت السيطرة الاسرائيلية الكاملة منذ عام 1948، [10] حيث تمكنت اسرائيل من خلال هذا الطريق من ربط مستوطنة كريات اربع (اكبر المستوطنات الإسرائيلية في محافظة الخليل، بمدينة بئر السبع المحتلة)، ومن خلال الطرق الالتفافية الإسرائيلية دمرت اسرائيل نحو 6.500 كم2 من أراضي محافظة الخليل، كما يوجد عدد كبير من الطرق الالتفافية في لجانب الشرقي من المنطقة، والتي أدت إلى فصل التجمعات السكانية الفلسطينية عن بعضها البعض [11].

في محافظة رام الله والبيرة سيطرت اسرائيل على ما يزيد عن 5 كم2 من أراضي المحافظة، ويعد الطريق الالتفافي (حزمة – ترمسعيا) الممتد من جنوب شرق المنطقة إلى شمال شرقها، والذي يصل بين مستوطنة مخماس ومستوطنات بيت إيل (كبرى المستوطنات الاسرائيلية في محافظة رام الله والبيرة) والواقع إلى الشرق من مدينة البيرة، أما

بالنسبة للجزء الغربي من المنطقة فقد أدت الشوارع الالتفافية إلى حصر الامتداد العمراني لقرى المنطقة وجعلت منها كتجمعات سكانية صغيرة ومتقطعة، ونتيجة لكثرة الشوارع الالتفافية في هذه المنطقة وبحجة وجود محميات طبيعية يفترض حمايتها، وبالتالي السيطرة عليها وعلى عدد كبير من الينابيع في هذه المنطقة [12].

لابد من الاشارة إلى أن كل من مدينة الخليل ومدينة رام الله والبيرة محاطة بشكل كامل بشبكة الطرق الالتفافية الامر الذي أدى إلى فصلها عن القرى والبلدات الفلسطينية الاخرى المحيطة بها، وهذا الأسلوب ساعد جيش الاحتلال الاسرائيلي في سهولة محاصرة المدن الفلسطينية، وقد تجلى ذلك خلال انتفاضة الاقصى عام 2000م [13] حيث استطاع الجيش الاسرائيلي اغلاق الطرق الالتفافية ومنع الفلسطينيين من المرور من خلالها، وبالتالي اصبحت كل التجمعات الفلسطينية خلال تلك الفترة عبارة عن مناطق مغلق عسكرية وليس لها أي اتصال خارجي، ولم يكتفي الجانب الاسرائيل باستخدام الوسائل السابق ذكرها (النقاط العسكرية والمستوطنات والطرق الالتفافية) بل سعى إلى جعل المناطق الفلسطينية معزولة ليس فقط عن بعضها البعض بل معزولة ومفصولة عن العالم الخارجي، من خلال البدء بإقامة جدار الفصل العنصري والذي كان له أهداف استعمارية كبيرة لتخدم الجانب الإسرائيلي.

جدار الفصل العنصري وأثره على المناطق الفلسطينية في محافظتي الخليل ورام الله–البيرة

بدأت اسرائيل بناء الجدار الفاصل في شهر تموز 2003، من قرية سالم قضاء جنين في شمال الضفة الغربية، ليقطع مسافة بطول 620كم

من شمال الضفة الغربية لجنوبها، وتشير بعض المصادر الاسرائيلية إلى أن طول الجدار يصل إلى 728كم، حيث اتاح الجدار للاحتلال الاسرائيلي السيطرة على 47.7 [14] مساحة الاراضي التي تملكها الاسر الفلسطينية، وبالتالي يُخالف كل الاتفاقيات الفلسطينية الاسرائيلية السابقة ومنها اتفاقية اوسلو، ويثبت التجمعات السكانية الاسرائيلية في الضفة الغربية.

حقق الجدار الفاصل العديد من الأهداف التي يسعى الاحتلال الاسرائيلي إلى تحقيقها، ومن أهم هذه الأهداف: السيطرة على المناطق الزراعية الواقعة على طول خط الهدنة، والفصل بين السكان الفلسطينيين المتواجدين في الضفة الغربية والسكان الفلسطينيين المقيمين على اراضي 1948، والسيطرة على الموارد المائية في الضفة الغربية، وحصر الامتداد العمراني للتجمعات السكانية الفلسطينية، غير أن الجانب الاسرائيلي يحاول دائما اظهار أن الهدف الاساسي وراء انشاء جدار الفصل هو دافع أمني وحماية امنها، لكي تحصل على موافقة دولية والتقليل من الاعتراض على بناء الجدار [15].

ضمت اسرائيل مساحات واسعة من الاراضي الفلسطينية في محافظة رام الله والبيرة وخاصة في الجزء الغربي من الحافظة فقد سيطرت على مساحات واسعة من الاراضي قدرت بنحو (8000 دونم)، ولعل أكثر المناطق التي سيطر الجدار الإسرائيلي عليها هي بلدة نعلين الواقعة غرب رام الله، والتي سيطر الجدار على نحو 90% من أراضيها [16]، ولم يترك سوى 10% للسكان الفلسطينيين، كما سيطرت اسرائيل على نحو 60% من الموارد المائية في غرب المحافظة من اودية مائية وينابيع، وما تبقى سيطرت عليه اسرائيل عن طريق المستوطنات

الاسرائيلية [17]، أو تسمية بعض المناطق على أنها محميات طبيعية لا يسمح للفلسطينيين بدخولها أو استغلالها.

يختلف واقع وطبيعة الجدار في محافظة الخليل عن أجزائها الاخرى في المحافظات الفلسطينية، حيث أنه لغاية الان لم تجد اسرائيل طريق مناسبة لكي تسيطر على اراضي المحافظة عن طريق الجدار مثل باقي المحافظات، اذ أن مسار الجدار لم يكتمل نظر لتنوع الجغرافي لتضاريس المنطقة وطول حدود المحافظة والمحاذية للأراضي التي تسيطر عليها اسرائيل، ففي الجزء الغربي أكملت اسرائيل ما يزيد عن 95% من الجدار وفي الجزء الجنوب ما زال اجزاء منه غير مكتملة نظرا لطبيعة المنطقة شبه الصحراوية (خريطة رقم7).

خريطة رقم (7): تبين مسار الجدار الاسرائيلي في محافظة الخليل.

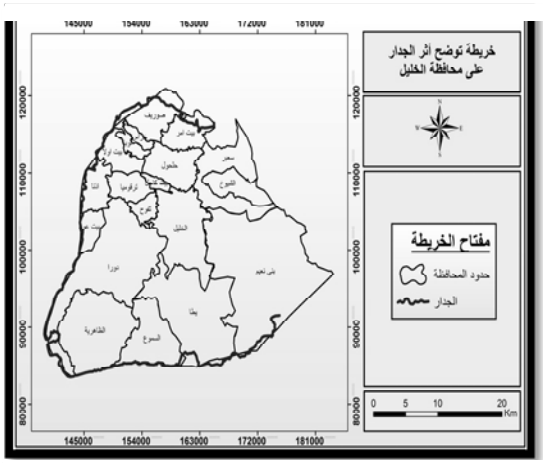

المصدر: عمل الباحثين، 2015.

أما الجزء الشرقي وخاصة برية يطا وبني نعيم وسعير والشيوخ، مع العلم أن شرق بني نعيم يصنف منطقة أ أي تحت السيطرة

الفلسطينية الكاملة، ولكن الجانب الاسرائيلي صنفها على أنها محميات طبيعية وبالتالي حد من السيطرة الفلسطينية وهي تعد واحدة من المناطق التي سيضمها جدار الفصل العنصري لحظة اكتمالها، مع أن مسار الجدار وفق الخرائط الإسرائيلية تبين أنه في حالة اكتمال الجدار في محافظة الخليل فانه سيسطر على 40% من مساحة محافظة الخليل، وباقي الاراضي تقسم على 35% اراضي مستوطنات واراضي مغلقة للجانب الاسرائيلي، و25% للتجمعات السكانية الفلسطينية ومن ضمنها ايضا الطرق الالتفافية.

الإحالات:

[1] سليمية، محمود. المستعمرات الاسرائيلية وأثرها على التطور العمراني للتجمعات السكانية في محافظة الخليل. جامعة النجاح، 2006، ص21.

[2] كتانة، محمد. الزحف العمراني وأثره على البيئة والاراضي الزراعية في مدينتي رام الله والبيرة. جامعة بيرزيت. 2009، ص27.

[3] الخطيب، رانية. تأثير المستعمرات الاسرائيلية على التوسع العمراني للتجمعات السكانية في محافظة سلفيت. جامعة النجاح، 2008، ص72.

[4] جبر، بلال. تأثير الجدار على التنمية السياسية في الضفة الغربية. نابلس، 2005، ص67.

[5] الريماوي، حسين. التطور التاريخي وتحليل التركيب الداخلي لمدينتي رام الله والبيرة. مجلة العلوم الاجتماعية، مج35،ع4، 2007، ص167.

[7] كتانة، محمد، مرجع سابق.

[8] أبو عصيدة، محمد، المستعمرات الاسرائيلية وتأثيرها على السكان في محافظة نابلس، النجاح. 2012، ص138.

[9] أبو عصيدة، محمد، مرجع سابق، ص139-140.

[10] أحمد، أبوعلان، التطور الحضري والتركيب الداخلي مدينة الظاهرية جنوب الخليل، بيرزيت، 2007، ص98.

[11] المصري، عماد، الانتهاكات الاستيطانية الصهيونية البيئية في محافظتي بيت لحم والخليل1967-2001، رام الله، 2002، ص76.

[12] عيشون، حسين. اسرائيل ومياه الضفة الغربية، مجلة آداب الكوفة، مج2، ع3، 2005، ص214.

[13] أبو الرب، جمال، الاستيطان الاسرائيلي وتأثيره على مستقبل الدولة الفلسطينية، مجلة القراءة والمعرفة، ع132، مصر، 2012، ص152.

[14] قبها، بكر، التطورات العمرانية للمناطق الفلسطينية داخل الجدار الفاصل، جامعة النجاح، 2007، ص25-28.

[15] الربيعي، ظاهر، الوزن الجيوبوليتكي للمساحة في اسرائيل، مجلة آداب البصرة، مج1، ع56، ص264.

[16] الزغير، رهام، الجدار وتأثيره على النسيج الاجتماعي والبيئي والمائي في منطقتي الرام وضاحية البريد شمال القدس، جامعة بيرزيت، 2008، ص79.

[17] بارسونز، نايجل، السياسات الحيوية الاسرائيلية: الاغلاق والتأريض، التحكم في الاراضي الفلسطينية المحتلة، مجلة عمران، مج2، ع7، ص25.

المحطات التجارية الليبية وأهميتها في نشر الثقافة العربية الإسلامية بأفريقيا خلال القرن التاسع عشر

د. سعيد عمر المدني
جامعة الجبل الغربي-
ليبيا

Abstract:

State of Tripoli occupied the West during the nineteenth century a special place and a link between the north and the south, west and east, and between Europe and the country beyond the desert, when the German traveler G Rotifs stated that it wants to control the Sudan and Chad must capturing the Tripoli He is right in saying, it represents the northern gateway to the African continent.

Keywords:

The trip - special place - African continent - northern gateway - the Grand Palace.

احتلت ولاية طرابلس الغرب خلال القرن التاسع عشر مكانة مميزة وحلقة وصل بين الشمال والجنوب والغرب والشرق، وبين أوروبا وبلاد ما وراء الصحراء، وعندما ذكر الرحالة الألماني **G Rotifs** أنه من يريد أن يتحكم في السودان وتشاد يجب عليه الاستلاء على طرابلس الغرب فهو محق في قوله، لأنها تمثل البوابة الشمالية للقارة الإفريقية [1] كما زار

أغلب المدن التجارية الواقعة في الصحراء من شرق البلاد إلى غربها ونظراً لأهمية الموضوع نحاول في هذا المقال طرح عدة تساؤلات منا :

1. أهم المحطات التجارية لتي لعبت دوراً في نشر الثقافة.
2. الدور الذي لعبه الموقع الجغرافي لليبيا في مساهمة في نشر الثقافة الإسلامية.
3. أهم الطرق التجارية التي ساهمت في ذلك.
4. أهم الروابط التي تربط هذه المحطات مع المحطات الإفريقية.

ولهذا تمتعت المراكز التجارية بأهمية كبيرة في تنشيط التبادل التجاري مع البلدان الإفريقية بالإضافة إلى نشر الثقافة الإسلامية والدين الإسلامي.

أهمية التجارة:

تفيدنا الكثير من المصادر العربية بأن الإسلام قد انتشر في أماكن وصل التجار المسلمون إليه في مطلع قدومهم إلى أفريقيا، خاصة عندما ازدهرت الحركة التجارية [2].وغير الموقع الجغرافي لمحطات التجارية، يربط المدن التجارية في أفريقيا مع المحطات التجارية ولاية طرابلس الغرب، التي تعد هي المنطلق لرحالات التجارية إلى أفريقيا[3].

وإن أهم ميزة تميزت بها المراكز التجارية من خلال الموقع الجغرافي لليبيا الذي أعطاها دوراً متنوعاً وحيوياً في نشوء حركة تجارية هامة في التبادل التجاري والاتصال الحضاري الذي تم من مناطق في غرب أفريقيا ووسطها، حيث نجد بعض المدن كونها معبراً للطرق القوافل التجارية وأحكام الصلة بين الواحات المنتشرة في الصحراء الليبية والمناطق الآخر وكانت التجارة الليبية لمحطات التجارية تمتد من الشمال عبر الطرق الآتية :

1. طرابلس- غدامس – سودان.

2. طريق جبل نفوسة- غدامس- ناواملة- كاوكاو- غات حيث يبدأ هذا الطريق من أحدالمدن الفرعية في جبل نفوسة وهي شروس، وغدامس وهي من الواحات المشهورة في الصحراء الليبية فهي أحد طرق القوافل التجارية التميزة إلى الجنوب وتأتي كل الطرق المتجه لبلاد السودان (4).

كما تعلقت علاقات جبل نفوسة مع بلاد السودان الغربي والأوسط بحكم التبادل التجاري فأتيحت ظروف الاختلاط جعلت الطرفين يتفوق على ثقافة الآخر، وكان من أهم العلماء الذين بذلوا جهود مضيفة في نشر الإسلام واللغة العربية في بلاد السودان الغربي هو بحي الفرسكاوي من الذين يتاجرون في بلاد السودان الغربي (5).

3. طرابلس – غات- أزعبين – سودان .

في هذا البحث نحاول تسليط الضوء على أهم المراكز التجارية المنتشرة في طرابلس الغرب من أهم هذه المراكز التجارية وما الدور الذي لعبته في نشر الثقافة الإسلامية مع بقية البلدان الإفريقية؟ وما دور الطريقة السنوسية في نشر الإسلام؟ هذه الأسئلة وغيرها سنحاول الإجابة عنها حسب ما توفر لدى من مصادر ومراجع، خلال سياقنا لهذا البحث.

أدى الاختلاط والتمازج لبروز عنصر بشري لا تزال ملامحه واضحة بين السكان حتى الوقت الحاضر ولعل أهم الطرق التجارية التي اعتمد عليها القرماليون في استيراد المنتوجات الإفريقية هو طريق طرابلس- تشاد الذي يخترق عدة واحات منها واحة غدامس ومرزق وغات وبالإضافة إلى الطرق الفرعية الأخرى التي تمتد إلى إقليم النيجر

عبر الواحات منها غدامس(*) [6] وطريق طرابلس – برنو، مروراً بفزان(*) والطريق الذي يبدأ من غدامس إلى بلاد السودان ن طريق غات [7]. ويعتقد أحد الباحثين أن الإسلام والتجارة يرتبطان إلى حد كبير بطرق التجارة الواصلة من بلاد المغرب، وبلادالسودان عبر الصحراء الكبرى أو على طول الساحلي الأطلسي إذ قامت هذه الطرق بدورها في نشر الإسلام من بلادالسنغال وأعالي البحر ومنطقة بحيرة تشاد [8].

هذا التأثير لم ينقطع طوال العهد الإسلامي، وكانت الجمعيات الإسلامية الجديدة التي تنشأ في السودان تقوم بدورها في نشر الإسلام في المناطق الواقعة إلى الجنوب عن طريق التجارة والطرق التجارية.

وقد أسهم التجار في امتزاج الثقافة الإسلامية مع الشعوب التي خالطوها فأثروا في نطاقتهم وعاداتهم وسلوكهم الشخصي وغالباً ما ينتهي بذلك إلى دخول كثير من الزنوج إلى الإسلام، ولذلك كاد الإسلام أن يتركز في المراكز التجارية الهامة وفي المدن الكبرى وبعض هؤلاء التجار كان يجمع من التجارة والعلم، فإذا ما استقروا في بعض الأماكن أنشاؤا فيها مدارس لتعليم القرآن الكريم وإنشاء المساجد وقاموا بمزاولة النشاط الاقتصادي [9].

ومما يجدر الإشارة إليه في هذا الصدد أن المراكز التجارية أدت دوراً مهماً في نشر الإسلام في الشمال الإفريقي، وارتباطها بالطرق التجارية التي تصل شرق أفريقيا بغربها كما هو الحال في وادي النيل الذي يرتبط بطرق شرق أفريقيا.

أهم المحطات التجارية التي ساهمت في نشر الثقافة الإسلامية في أفريقيا:

اكتسبت العديد من المناطق الداخلية في ليبيا(*) بالغة نظراً لوقعها على طرف المواصلات البرية المتجه من الشمال إلى الجنوب وبالعكس، وهي محطات تجارية لراحة الدواب واستبدالها، فالموقع الجغرافي لولاية طرابلس الغرب الذي يتوسط منطقة الشمال الإفريقي والتي عادت ما يطلق عليها بوابة أفريقيا الشمالية والمعبر الرئيسي لقارة الإفريقية نحو أوروبا عبر موانئ المطلة على البحر الأبيض المتوسط وهذا الموقع كان له دوراً بارزاً في وسط وتوثيق الاتصالات من الساحل والصحراء من جهة، ويمثل حلقة الوصل من مناطق ما وراء الصحراء وجنوب أوروبا من جهة أخرى، الأمر الذي أدى إلى ازدهار المحطات التجارية عبر الصحراء، حيث شهد استتباب الأمن كل الطرق البرية للعوامل التجارية ووجود البضائع المستوردة والتي تأتي إلى الولاية عبر الموانئ البحرية كانت أهم الطرق الصحراوية التي بين الشمال والجنوب حتى نتمكن بين هذه الطرق التي ساهمت في التبادل التجاري وكذلك في نشر الثقافة الإسلامية عن طريقها:

1. **طريق طرابلس – برنو:** ويعد هذا الطريق من أقدم الطرق المؤدية إلى بلدان ما وراء الصحراء، حيث يبدأ هذا الطريق من طرابلس ثم غريان – إلى مرزق عاصمة فزان ولذلك اتجه بني وليد – سوكنه إلى برنو ويعد هذا الطريق من أشهر الطرق وأكثرها أمناً وأشهر هذا الطريق إلى حوالي الثلث الأول من القرن التاسع عشر (10).

2. **طريق طرابلس** – تميكنتو : وتنطلق القوافل التجارية عبر هذا الطريق مارة بعدة محطات تجارية لمحضر غدامس، وسينادن وسبها إلى الأراضي الجزائر يراثون ومنه إلى سوكوتو وكاشنه ميلاد الهوسا (11).

هذه الطرق الذي ساهمت في التبادل التجاري ونحاول تسليط الضوء على أهم المحطات التي ساهمت في نشر الثقافة الإسلامية في أفريقيا [12]

محطة طرابلس:

من أهم المراكز التجارية حيث تأتي في المرتبة لأهمية التجارية منذ عهود موغلة في القدم، ومما حد المدن الثلاث التي أسسها الفبيقيون (جرانواويا – وليتس) فقد كانت ملتقى القوافل التجارية التي تتبادل فيها السلع عبر مينائها ويتم توزيعها إلى أفريقيا مع السلع القادمة من اوروبا وأيضاً إلى مواطن استهلاكها ن كما مركز للوكلاء التجاريين لدى دول العالم المتعددة من العالم عربياً وأوربياً وأفاريقياً ونظراً لكثافة الحركة التجارية يها فكثرة المشاكل الأمر الذي أدى إلى قيام محاكم تجارية فأنشئت في 1858 أول محكمة تجارية، وذلك من أجل حل المشاكل التي نشئت نتيجة للاستقلال من بعض الوكلاء التجاريين سواء عرب أو يهود من حيث الاستقلال والاحتلال عنها [13].وكانت أهم الطرق لهذه المحطة التي تعميرها القوافل التجارية، طرابلس- غات –أرغين – سودان وكذلك طريق طرابلس باتجاه مرزق ثم نيستي واواو جانقا ووادي [14].

في هذا الصدد لعبت هذه المحطة التجارية دوراً هامًا في نشر الثقافة الإسلامية عبر هذه القوافل التجارية القادمة من الجنوب الإفريقي عبر المحطات التجارية التي سنحاول ذكر أهمها.

1. محطة غات(*):

تعد غات من ضمن المراكز الت جارية التي ساهمت في نشر الإسلام في أفريقيا لوقوعها عند ملتقى الطرق البرية لتجارية المؤدية إلى أفريقيا، حيث تعد معبراً تجارياً للسودان وأفريقيا، الوسطى وتميلتو(*) إذ حمل التجار العرب المتبعون لقوافلهم شعلة الإسلام إلى المناطق الإفريقية فيما وراء الصحرء ، ونشروا معارفهم وثقافاتهم وتقدمهم الحضاري والمادي والمعنوي في كافة الميادين، لأن التاجر العربي كان يمثل التاجر والداعية للعقيدة الإسلامية في آن واحد، وسع تزايد أعداد التاجر وتزاحمهم مع السكان المحليين، قامو في تلك المناطق فأنشأت المساجد والكتاتيت والمدارس الدينية فموقع هذه المحطة على اهم طريق وهو طريق الحجيج الذين يتوافدون من المغرب الأقصى، ساهمت في نشر الثقافة الإسلامية من خلال الزيارات المتبادلة من مرور الحجيج بقصد بيت الله الحرام .

2. محطة سوكنة : (*)

تعد هذه المحطة مركزاً تجارياً هاماً للدخول مباشرة إلى بلاد السودان كما أنها تتوسط جميع المحطات التجارية المنتشرة في مختلف الأراضي الليبية.

ترجع أهمية سوكنة كواحة تتوسط مناطق الشمال والجنوب للولاية طرابلس الغرب ، الأمر الذي جعلها محطة تجارية نشطة من طرابلس وفزان، ولاحظ أحد الرحالة الأجانب عدة وجود الشبه بين سوكنة وغدامس (15)، منها: إن التجار في سوكنة كما هو في غدامس يعدون أهم حلقات سكانهما، وقد أعطى هذا الموقع المتميز لتلك الواحة سمة تجارية، ساهمت في الاتصالات بين برنو ووسط الودانن وذلك من خلال عبور الطرق التي تربطها بزويلة الواقعة مشرق فزان، كما ساهم

سكان تلك الواقعة بشكل رئيسي في نقل تجارة طرابلس إلى فزان عن طريق تجار فزان وطرابلس.وكذلك ارتبط مع سوكنة الجغرافي بمرو القوافل التجارية بها، الأمر الذي أدى إلى ارتباطها بالمرفقات التجارية داخل الولاية، مثل مرزق وزويلة وتراغن وغات وزلة، وقد ساعد ذلك لاتصال على إقامة علاقات تجارية معها [16].

وقد أعطى الموقع الجغرافي لسوكنة سمة تجارية لبعض الواحات التي تمر بها الطرق البرية ومرور القوافل التجارية بوجه عام، ومرورها بطريق برنو وسط السودان بوجه خاص، وذلك عبر الطريق البري التجاري مع برنو، فتمر على سوكنة ومنها إلى زويلة ثم إلى طرابلس، كما ساهمت هذه الواحة في نقل تجارة طرابلس إلى فزان حيث شاركهم في ذلك بعض من تجار فزان وطرابلس وذلك عبر الطريق البري المعروف عند الأهالي بالطريق العامر " التي تمر بورفلة وسوكنة كما ترجع أهميتها إلى أنها كانت مصدراً رئيسياً لتزويد القوافل التجارية التي تمر عبر الطرق البرية وغيرها [17] وتزويد القوافل التجارية بالحراس والأولة الذين لهم خبرة في المسالك الصحراوية ودروبها، فقد أدت الثورات التي اندلعت في منطقة الجبل الغربي كثورة غومة المحمودي (1850–1858) إلى فقدان الأمن وعرقلة سير القوافل التجارية عبر طريقها، الأمر الذي أدى إلى نقص في السلع وكذلك احتلال التوازن من العرض والطلب، مما أسهم في ارتفاع الأسعار خطراً لعدم استتباب الأمن، لقد تأثرت هذه الواحة بالظروف لسياسية وعرقلة سير القوافل على الطرق البرية الت تمر عبر واحة سوكنة مما أدى إلى ارتفاع الأسعار داخل المدن، إلا أن أهلها كانت لهم طرق وأساليب في كيفية التعامل ومعرفة الطرق التي لم تنقلها تلك

الظروف السياسية وخير دليل على ذلك هو تعاون أحد التجار وبعض الأدلاء مع الرحالة هنري يارث الألماني والرقاص المصاحب له [18].

وقد وجد الطريقة السنوسية منطلقاً لها من الواحات الليبية كواحة الجغبوب والكفرة في نشر الإسلام في المناطق الإفريقية وخاصة تشاد فكانوا يوقدون السكان لمنطقة وادي للتعلم في زاوية الجغبوب ثم يعودوا كدعاة في بلادهم الأصلية، ونشأ من ذلك أن أهل وادي صاروا يترددون في الزوايا ووجد سلطان وادي من مصلحته أن يكون أحد أكثر إتباع المحصلين للطريقة التي احتكرت تجارة القوافل التي كانت تتخذ من طريق بنغازي الكفرة أيشه تحت شعار التضامن الإسلامي [19].

ومما يؤكد على نشر الثقافة عن طريق هذه الواحة أن الحاج عمر السنوسي العزالي كان في مكتبه ما زيد عن ثمانين مجلد في ذلك يريد بها أعمار أسواق برنوح (برنو) على سبيل المثل لا لحصر تفسير القرآن الكريم خمسة أجزاء مثل البخاري **110** جزاء مسائل للشيخ عليشي جزاءات وغيرهم كثر [20].

3. محطة غدامس (*) :

تشتهر هذه المحطة التجارية لكونها ملتقى للعديد من الطرق التجارية حيث تصلها القوافل التجارية من أربعة اتجاهات عبر الصحراء كطريق وطرابلس وطريق غات . تعد محطة غدامس من أقدم المحطات التجارية، حيث يذكر بأن الدراسات الاكتشافية فإن التواصل والتفاعل بين الصحراء والأقطار المتخامة لها يعود إلى عهود غابرة في التاريخ، وزاد هذا التفاعل بعد الفتح الإسلامي مناطق الشمال والجنوب عبر الصحراء [21].

كانت مدينة غدامس الطريق المفضل القادم إلى الصحراء وهي محطة رئيسية لاهالي المدن الساحلية للتوغل في الصحراء الكبرى وكانت هذه المحطة بمثابة مناء يرى تأتي إليه القوافل محملة بالمنتجات الإفريقية فيفرغ هذه البضائع وتستفيد بها بضائع أخرى وهي منتجات قادمة الشمال عبر البحر الأبيض المتوسط [22]. وتعد من أهم الواحات في بلاد المغرب الأدنى ، وكانت تسمى سيد موسى .

تقع هذه الواحة على الطريق المؤدي إلى غدامس وتمثل غدامس شريان هاماً ليس بتدفق التجارة بحسب بل هي أداة لنقل الثقافة والمفاهيم الحضارية وسط الحمادة الحمراء، عند ملتقى أودية ميمون، تاناروت، مغرغر، وهي محطة لاستراحة القوافل التجارية، وذلك لوجود الماء في حوضها صيفاً وشتاءاً ، وقد قام الرحالة الألماني غيرها ردرولفس، في رحلته من طرابلس إلى غدامس **1865–1867** استبدال الإبل التي استعملها في رحلته فيها، ولواحة غدامس أهمية بالغة كموقع يربط بين الساحل ودول السودان وذلك لاهتمام الأهالي بالتجارة [23].حيث أخذ تدفق التجار على هذه المحطة من جهة وغنيكت بمالي من جهة أخرى، في الغروب الوسطى، الأمر الذي يؤكد أن الصحراء لم تكن بوقاً حاجزاً أمام التواصل والاتصالات وهذا ما أوضحته الدلالات التاريخية.

وهذا الموقع الجغرافي المتميز جعلها تلعب دوراً هاماً من الناحية التجارية لمنطقة غرب أفريقيا، حيث نالت شهرة وثروات كمركز تجاري متقدم في قيادة تجارة القوافل من الشمال والجنوب، وكذلك كمركز لملتقى الطرق البرية لتجارة القوافل، وتعد غدامس من المعاير الهامة لتلك القوافل التجارية فلا فترة موغلة في القدم، إذا اعتمدت غدامس على

حياتها الاقتصادية علي التجارة وزارها العديد من الرحالة من بينهم الرحالة الإنجليزي الكسندر جوردن لينج في أول رحلة له عام 1825م، خلال العهد العثمانيين حيث قال عنها (إنهم شعب تجاري عقبى الكلمة، بارعون في استخدام الحوالات والكمبيالات ويتحملون الربح والخسارة وتمتد تجارتهم إلى مراكش والجزائر- تونس- طرابلس- مصراته في الشمال وإلى السودان وتنيكت وحتى مالي في الجنوب [24]. ومن أسسها مات غدامس في نماذج الثقافة هو وقوعي على الطرق الصحراوية المارة بها، ومن بينها الطريق الرابط بين القيروان- ورفلة- غدامس – ثوات- غات- مرزق- بلما – النجيمي [25].

ومن مفيد القول أن هذه الطرق ساهمت مساهمة مقال في نشر غاز الثقافة العربية الإسلامية وكان لها دور كبير في توثيق العلاقات والصلات من العرب والسودان الأوسط سواء كان ذلك لنقل حضارته أم لتعزيز الروابط التجارية أم بإمداد شعوب المنطقة بدماء جديدة نتيجة للتجهيزات البشرية المتعاقبة والتي أخذت هذه الطرق المشار لها لمنافذ منها: ولا شك فيه أن هذه الطرق لم تكن من ابتكار قوافل القرون الوسطى، بل كانت توجد منذ فترة موغلة في القدم ، كما أن الصحراء أو الفيافي لم تكن بلا ماء ؟أو عشب بل توفرت فيها المياه، في بعض الواحات التي تعد مراكز تجارية ومن هنا تطرح تساؤلاً مفاده ماذا كانت تحمل القوافل التجارية المتجهة مع هذه الطرق وماذا كانت تجلب إلى البلاد؟

للإجابة على هذا التساؤل نحاول للرجوع إلى بعض الكتب التاريخية يتبع الصلات عبر العصور التاريخية ولوقوع هذه المحطة على الطرق الصحراوية، حيث جعلت الصحراء جسراً للروابط بين الشمال

والجنوب، ولتدفق هذه الهجرات المتبادلة، حيث غت وازدهرت هذه الحياة وكانت العلاقة من ليبيا حالياً، والتي كانت تسمى ولاية طرابلس الغرب أذبان الحكم العثماني أكثر من غيرها لوقوعها في ملتقى الطرق التجارية ، كما أسلفت وخاصة غدامس التي تعد محطة لتجميع وتوزيع القوافل التجارية المتبادلة ، وازدادت عملية الاتصالات بدخول الإسلام إلى دول الجنوب واعتناقهم الدين الإسلامي مما أسهم في كثرة الوقود شمالاً وجنوباً، الأمر الذي جعل هذه المنطقة (غدامس) بوابة مفتوحة للتبشير بالدين الإسلامي ونشره في أفريقيا، ومنذ نشأتها قامت بدور فكري وثقافي رائد (26).

مما تجدر الإشارة إليه في منطقة غدامس كانت طرقها أمنة مما شجع الرحالة الأجانب في الإقامة والاستقرار بها وسهل لقوافل العلماء والكتب غيور هذا البحر الرملي، الذي لولا القوافل لم يستطع أحد عبوره إلا أن القوافل التي سهلت عبوره وأصبح معبراً بعيرة التجار مع بضاعتهم والعلماء والكتب والتيارات الفكرية من الشمال إلى الجنوب والعكس، وأصبح التاجر هو الداعي وبيده اليمنى مصحفه الشريف، واليسرى سلعته، ويصاحب العلماء ويسهل لهم الإقامة، لوجه الله تعالى، ليسهل لهم بلوغ مرامهم وهو نشر الدين الإسلامي وثقافته عن طريق التعليم والوعظ والإرشاء والفتاوي الدينية (27)..ومن يفيد قوله أن انتشار الإسلام في ليبيا بعد الفتح الإسلامي مباشرة هو اختفاء المسحية لم تكن عميقة الجذور في نفوس سكان الصحراء الكبرى.

فكان إسهامات طريق غدامس في تأثيره في مدى نتيكت يبشر اللغة العربية خير دليل على ذلك، اشتهار العلماء الذين ألقوا كتبهم

باللغة العربية ووصلت إلى إيادينا كأمثال أحمد بابا التنيكتي- السعدي- وغيرهم كثر ... حيث وصف الرحالة أهمية طريق غدامس –نتيكت في نشر الثقافة الإسلامية (28)

وبهذا نجح العرب في توطيد علاقاتهم بأفريقيا سواء كان ذلك في شرق القارة أو غربها أو وسطها ومع توطيد العلاقات الاقتصادية والثقافية انتقلت الحضارات العربية الإسلامية إلى عدد من الشعوب الإفريقية انتقالاً مباشراً وكان ذلك عن طريق الاحتكاك التجاري غير المباشر.

4. محطة فزان :

تعد فزان من أهم المحطات التجارية ومعبراً للحجاج القادمين مع طريق الحجيج وللحاج القادم من بيت الله الحرام بمكة لأداء المناسك في وقت معلوم من السنة المعروفة، فكانت فزان تمثل ملتقى الطرق العابرة إلى مكة المكرمة، التي أعزها الله سبحانه وتعالى.

وتتميز هذه الطرق من شمال غرب افريقيا والسودان الغربي، والسودان الأوسطن فكانت فزان من المناطق الحيوية بالنسبة للتجارة والحجاج المسافين على طول الخط هذا الطريق فالطرق التجارية التي تربطها أفريقيا ما وراء الصحراء بشمال القارة وشرقها هي المعابر الحقيقة التي تسرب منها الإسلام وحركة البحرات والمتبالات التجارية ومن ثم انتقلت المؤثرات والأفكار والثقافات بين الشعوب والمناطق المختلفة وهذا جعل العديد من الكتاب والباحثين يربطون بين حركة التجارة وانتشار الإسلام في أفريقيا (29)

انتشار الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا :

ازدادت الأوامر والعلاقات وترسخت عبر الإسلام إلى القارة الإفريقية: فأجتاز الإسلام الصحراء، واتجه صوب الغرب والشرق في وهلة سريعة اذهلت المؤرخين واعتنقه الأهالي بسرعة، فأقت تصور المراقبين، فقد انتشر الإسلام في غرب القارة، وكان أول وجود الإسلام في مناطق كانو –برنو–يعود إلى 666م وهي السنة التي وصلت فيها طلائع عقبة بن نافع إلى قادا، وأغلب الظن أن الطريق سلكه عقبة بن نافع وجنوده، كان يربط من طرابلس وكانوا دكان هذا الطريق فيما بعد يمثل قناة يتدفق من خلال التأثير الإسلامي من كانو– برنو إلى مناطق أخرى من السودان الوسط(30).

ولكن من أهم الأسباب التي ساعدت على انتشار الإسلام وترسيخ التواصل الثقافي من المسلمين بعضهم ببعض وبين أهل الديانات الأخرى هي المبادئ الإسلامية التي يؤمن بها المسلم، ويلزم نفسه بتطبيقها فعلاقة الإخوة والمساواة والاهتمام بشئون الآخرين والعمل على مساعدتهم تأتي في المقدمة المبادئ الإسلامية وهذه المبادئ تساوي بها المسلمون جميعاً.(31)

وبانتشار الإسلام ثم انتشار اللغة العربية لغة الحديث والمخاطبة والكتابة ومن المورث قبل الإسلام كانت الزعامة الثقافية في جزيرة العرب تنازعها الفنن اللغة العربية الجنوبية واللغة العربية الشمالية، وإن هذا التنافس انتهى باضمحلال لغة الجنوب بعد أن اضمحل الدول العربية الجنوبية في ميدان السياسة والاقتصاد وانتقلت زعامة الشمال وإنها تعرضت منطقة الشمال الإفريقي إلى موجات من الهجرات البشرية المتتالية منذ قرون عديدة قبل الإسلام وقد انطلقت هذه البحيرات من

شبه الجزيرة العربية وهذا يؤكد على أن الوجود العربي في المنطقة الشمالية من أفريقيا يرجع ما قبل الإسلام (32).

وكان للهجرات الفنيقية من بلاد الشام والذين استوطنوا شمال أفريقيا ، وفي قرطاج بالتحديد بداية الأمر، ثم توسعت هجراتهم إلى بقية الجوار، وكان هناك اتصالات بين غرب شمال أفريقيا والصحراء حيث عبر القرطاجيون الصحراء بحثاً عن التجارة واستوطنوا هناك ونزوجوا بقاء محليات وهذا ما يؤكد، المؤرخ الفوتس ديلافوس delafossc لدعم هذا الاستدلال حول تأثير اللغات السامية على اللغات السودانية لفترة تعود ما قبل الإسلام إلا أن هذا التأثير وفعاليته تأكد دعمه بعد انتشار الإسلام واللغة العربية في بعض المناطق ما وراء الصحراء (33).

وبعد اللغة العربية أقدم لغة حية في العالم وتحتل المرتبة السادسة من بين لغات المتحدثين بها، وتؤكد كتب التاريخ أن اللغة العربية كانت أحد لغتين في العالم القديم الذي يمثل أفريقيا وآسيا وأوروبا وأصبحت لغة الشمال لغة الآداب والخطابة والفكر الراقي (34). ولكن يثار هنا سؤال مقادة لماذا نترث اللغة العربية في منطقة الشمال الإفريقي بكل سهول ويسر وتأثير بها شعوب المنطقة

كما توطدت العلاقات الثقافية بين المغرب العربي دولة مالي، وبكفى أن نذكر هنا إنه كان يجمعها مذهب ففهي واحد ، وهو المذهب المالكي ، وكان فقها العرب دائماً على اتصال بفقها السودان الغربي، لتبادل الفتاوي والتأليف والرحلات، كما أن اتصال غدامس بالمغرب العربي كان لغدامس دوراً كبيراً في نشر الثقافة الإسلامية واللغة إلى بلدان السودان الغربي (35).

وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ازادت المراكز الدينية للحركة السنوسية حيث عمت وساعدت على نشر الثقافة الإسلامية في دول الصحراء حيث وصل عدد المراكز الدينية المتمثلة في الزوايا في ولاية طرابلس الغرب وبالتحديد بطرابلس 45 زاوية وفي فزان والكفرة على أقصى الحدود النوبية بحوالي 21 مركز حيث وصل مجموعها إلى 146 زاوية للتعليم الديني بما في ذلك زوايا في تونس ومصر والسودان (36).

في هذا الصدد حاول الولاة العثمانيون بأن يتصدوا للردود الفعل من قبل تنافي الحركة التبشيرية التي أقامتها الدول الأوروبية وخاصة فرنسا وإيطاليا التي كانت تنوي احتلال تونس وليبيا، فأقامت عدة مدارس تعليمية دينية يدرس فيها الطلاب القرآن الكريم والحساب والجغرافيا وذلك لتصدي لهذه الرحلة الخطيرة من قبل المستعمر (37). فكان دور القبائل دوراً في عروبة تشاد (38)

ومما سبق ذكر يتضح أن الطرق البرية التجارية لم تكن حلقة وصل تربط العرب والأفارقة اقتصادياً فحسب وإنما كانت بوابة عبور الثقافات، إذ توافد من خلال شتى العلوم والمصارف، وعن طريقها عبر الإسلام، من ديار العرب ليستقر في داخل أفريقيا والثقافات وتلاحمت الأفكار وتبادلت الأمم موروثها الثقافي الاجتماعي، بل وتظاهرت للنتائج جيلاً يحمل خصائص العرب والأفارقة ويتسلح بالثقافة العربية أفريقية.

ومن مفيد قوله أن انتشار اللغة العربية في معظم أفريقيا ساعد ذلك بدخول الإسلام إليها، فأينما حل الإسلام حلت اللغة العربية لأنها لسانه وأداته في مخاطبة الآخرين، علاوة على كونها لغة العلم والحضارة

والتاريخ. (39) ونشير أيضاً إلى أهم الروابط التي تربط بلدان المغرب العربي والمشرق العربي هي اللغة الواحدة والجغرافيا الرابط الطبيعي لهذه البلدان والتاريخ المشترك والرابطة الثقافية والاجتماعية التي ربطت ولا تر الترابط أقطارها ببعضها لبعض (40)

الإحالات:

[1] – رولفس ، رحلة عبر أفريقيا رحلة من البحر المتوسط، إلى بحيرة تشاد وإلى خليج غيتا، ترجمة: عماد غانم، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، سبها، **1974**م، ص**90**.

[2] – سامية أبوعجيلة العجيلي، دور المؤسسات الثقافية في مجتمع ولاية طرابلس الغرب خلال العصر العثماني الثاني، جامعة طرابلس، **2007**، رسالة ماجستير غير منشورة.

[3] – حسن الشيخي، الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي من القرنين الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين، مملكة مالي الإسلامية أنموذج، رسالة ماجستير جامعة طرابلس **2003**م، ص**47**.

[4] – محمود كردي، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيراتها على السودان الغربي، منشورات دار الكتب الوطنية، **2008**م، ص.

[5] – المرجع السابق نفسه، ص**263**.

(*) غدامس: تقع هذه الواحة في الحدود الجنوبية الغربية لليبيا حالياً " وقد دخلها الإسلام مبكراً، واشتهرت بموقعها الاستراتيجي الهام كطريق للقوافل التجارية ومواكب الحج بين بلاد السودان الغربي والأوسط والمشرقي والجنوبي وقد وضعها كل من صاحب الاستبصار والحق الوزان لمزيد من الإيضاح ينظر : الاستبصار في الأمصار، تعليق: سعد زعلول، الدار البيضاء، دار النشر المغربية، ص**985**.

[6] – حسين أحمد محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، **1986**م، ص**210**.

(*) فزان: تقع وسط ليبيا حالياً إلى الجنوب من مدينة طرابلس، وقد كانت مركزاً تجارياً وحضارياً هاماً ، وقد ارتبط بعلاقات مختلفة مع السودان الغربي، وقد وصفها الوزان بأنها منطقة كبيرة جداً مكونة، فيها قصور كثيرة، ينظر: سعد غيث ، الثقافة

العربية الإسلامية في مجتمع السودان الغربي، خلال القرنين العاشر والحادي عشر الهجري، السادس عشر والسابع عشر للميلادي، دراسة في التواصل الحضاري العربي الإفريقي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد البحوث والدراسات العربية، قسم البحوث والدراسات التاريخية ، القاهرة، **2003**، ص**48**.

[7] – بروشين، تاريخ ليبيا في العصر الحديث، ترجمة: عماد حاتم، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، **1991**م، ص

[8] – توماسأرنولد، الدعوة إلى الإسلام ، القاهرة، **1957**م،

[9] – تيسير بن موسى، المجتمع العربي في العهد العثماني الثاني، الدار العربية للكتاب ، **1988**م، ص**81**.

[*] طرابلس الغرب: تجدر الإشارة إلى أن اسم ليبيا قد أطلق منذ البداية للاحتلال الإيطالي، **1911**، أما قبل ذلك فتسمى طرابلس الغرب

[10] – حسن المدن كريم: علاقة ليبيا ببلدان ما وراء الصحراء في عهد يوسف باشا القرمانلي فيما بين **1795**–**1832**، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة قاريونس، **2005**، ص**23**.

[11] – المرجع السابق نفسه.

[12] – المختار الجدال، طرق تجارة القوافل في ولاية طرابلس الغرب خلال العهد العثماني الثاني **1835**–**1911**، رسالة ماجستير غير منشورة، قسم التاريخ ، جامعة صنعاء، اليمن، **2003**، ص**40**.

[13] – تيسير بن موسى، مرجع سابق ، ص**170**.

[14] – سامية أبوعجيلة العجيلي، مرجع سابق ذكره، ص**31**.

[*] غات: تقع في الجهة الجنوبية الغربية من ليبيا حالياً وعلى حدود الجزائر ، وهي تعد محطة تجارية هامة للقوافل التجارية القادمة من غدامس إلى السودان الأوسط والغرب،.

[*] تقع تنيكت في الجهات الشمالية من دولة مالي، وفي إطار التأصيل المفاهيم في تاريخ هذه المنطقة فإن تنبكت هي التسمية الصحيحة لهذه المدينة وليس تمبكتو Timboctou كما وردت في كتابات الغربيين والميم مثل توماس أرنولد، ودبيوا، وبارث وغيرهم نبط انظر: أمطير عيب مرجع سابق، ص**139** وبعدها.

[*] سوكنة: هون وودان واحة منخفضة وتعتبر واحة الجفرة الثلاثة أجزاء مع مجموعة واحدة خط عرض **290** والتي تمتد من غدامس جنوباً حتى الجغبوب شرقاً وإلى الجنوب الشرقي من طرابلس والركن الشمال الشرقي لأطراف فزان، لمزيد الإيضاح:

ينظر: مختار عفيف، سوكنة خلال العهد العثماني الثاني، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، **2002**، ص**25** وما بعدها.

[15] – المختار الجدال، مرجع سابق، ص**90**.

[16] – رحلة عبر ليبيا، فردبك هورغان، الرحلة من القاهرة إلى مرزق، **1817**-**1898** ، مكتبة الفرجاني ، ليبيا، **1968**م، ص

[17] – ألكسندر مولدن، رحلتان عبر ليبيا، ترجمة دار الوفاء، طرابلس، **1974**م، ص

[18] – أعمال الندوة العلمية، مرجع سابق، ص**85**.

[19] – محمد بشير سويسي، غدامس من خلال كتابات الرحالة والمؤرخين، تقديم نورالدين الثني، أعمال الندوة العلمية التاريخية حول تاريخ مدينة غدامس، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، **2003**، ص**118**.

[20] – عبدالسلام أبوسعد، العلاقات الثقافية بين الشعوب الإفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها، أعمال الندوة العلمية ندوة التواصل الثقافي الاجتماعي من الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، كلية الآداب انطوان، كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس، منشورات الدعوة الإسلامية.ص.

(*) غدامس: يفتح أوله ويضم أخره، وهي عجمية بربرية، فيما أحسب، وهي مدينة بالمغرب ثم في جنوبه ضاربة في بلاد السودان، بعد بلاد زعوان، تزيغ فيها الجلود، القداسية وهي منأجود أنواع الدباغ لا شي فوقها في الجودة كأنها بنات الخزنى النعومة لإشراف في وسطها عين أغلبها نبات عجيب رومي بغض الماني بها وبقسمة اهلها أقساط معلومة، المدني سعيد عمر، مدينة غدامس ودورها التاريخي خلال القرن التاسع عشر، بحث في المؤتمر الدولي السابع من التجارة والتجارة المنستير، **2014**، ص**2**.

[21] – محمود حسن كرودي، الحياة العلمية في جبل نفوسة وتأثيرها على بلاد السودان الغربي من القرن(**2**-**8**هـ/ **8**-**14**م) بنغازي **2008**م، ص**260**.

[22] – حسن أحمد محمود، الإسلافة والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، **1986**، ص**20**.

[23] – المدني سعيد عمر، مدينة غدامس ودورها التجاري، المجال المؤتمر الدول السابع ، الجمعية المتوسطية بتونس حول التجارة والتجار، المنير **2014**، ص**6**.

[24] – عماد غانم، غدامس في رحلة رولفس الأول إلى ليبيا أواخر **1864**م، أعمال الندوة العلمية التاريخية ، تقديم : نورالدن الثني، منشورات مركز جهاد الليبين للدراسات التاريخية، **2003**، ص**241**.

[25] – المرجع السابق، نفسه.

[26] – محمد سعد الطويل، مرجع سابق ، ص**89**.

[27] – المرجع السابق نفسه.

[28] –مصطفى البابور، غدامس التحضر والقاعدة الاقتصادية ، منشورات جامعة قاريونس ، بنغازي، **1975**م، ص**60**، وكذلك : بشير بوشع، غدامس وثائق تاريخية واجتماعية، منشورات مركز جهاد الليبيين، **1982**، ص**25**.

[29] – أحمد محمد كان، مظاهر الاتصالات الفكر والثقافة في شمال إفريقيا من ليبيا ووسط السودان، مجلة البحوث التاريخية ، العدد **1**، السنة الثالثة، **1981**، ص**16**.

[30] – مرايل أبوبكر علي، طرق القوافل وأثرها في تقوية الثقافية من ليبيا وجيرانها في الجنوب الصحراوي ﴿أعمال الندوة العلمية التي عقدت في المغرب، تطورات مرجع سابق، ص**85**.

[31] –نفسه.

[32] – محمد علي عيسى، التواصل الثقافي من شمال أفريقيا وبلدان ما وراء الصحراء خلال العصر الوسيط ، التواصل الثقافي من ضفتي الصحراء الكبرى في أفريقيا، تأليف محمد عيسى وآخرون، منشورات الجامعة المغاربية ، دار الوليد، **2004**، ص**25**.

[33] –بروشين ، مرجع سابق، ص**344**.

[34] –المرجع السابق، ص**360**.

[35] محمد الضوء، دور القبائل الليبية واليمنية في عروبة تشاد، التواصل الثقافي ، مرجع سابق، ص**291**.

[36] نفسه.

[37] نفسه.

[38] نفسه

[39] – حسن علي الشيحي، الثقافة العربية الإسلامية في السودان الغربي من القرنين الثالث عشر والخامس عشر ، مملكة مالي الإسلامية نموذجاً ، رسالة ماجستير ، جامعة طرابلس، **2002**، ص**136**.

[40] –عمر التومي الشيباني، وقائع الثقافة الصوفية في شمال أفريقيا ، أعمال ندوة التواصل الثقافي من الأقطار العربية، منشورات الدعوة الإسلامية ، طرابلس، **1998**، ص**111**–**113**.

الإعلام الجديد وتحديده لاتجاهات الأستاذ الجامعي نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل.

(دراسة وصفية تحليلية لعينة من أساتذة جامعتي مستغانم وسيدي بلعباس)

د. العربي بوعمامة.
أ. أوسامة عمر
جامعة مستغانم

Abstract:

New media has become part of New media, and a part of people's lives After having proved his leading role in the treatment of events and keep up with local issues, also became its influence and power in the industry views and trends on various international issues an order does not raise suspicion, so it is this new media has affected in the acquisition process public knowledge and information, and influencing trends in his audience, especially when much of crisis becomes public more hungry for news and more in an effort to get the information.

Keywords:

New media - New media - public knowledge - information

يعتبر دور الإعلام من بين أكثر الأدوار خطورة إذا تعلق الأمر بتشكيل الاتجاهات والآراء حول مختلف الأحداث العالمية والقضايا المعاصرة، وهو ما استحوذ على اهتمام الباحثين في حقل الإعلام والاتصال، خصوصا في وسائل الإعلام التقليدية، إلا أن هذا الاهتمام ما لبث أن أصبح في تزايد مستمر خصوصا مع وسائل الإعلام والاتصال

الحديثة ،التي تخطى بثها عامل المكان واختصر في المقابل عامل الزمان، فأصبح التدفق ألمعلوماتي من دون قيود خاصية من خصائص هذه الأخيرة، (الإعلام الجديد) أو (الإعلام البديل) أو(النيوميديا)،كلها تسميات تطلق أو مفاهيم تم إلصاقها بكل الوسائل الإعلامية الحديثة، وتحديدا بمختلف الوسائط الإعلامية باختلاف أشكالها.

وقد بات الإعلام الجديد اليوم يشكل أهم مظاهر التطور في الحياة الاجتماعية، خصوصا مع تطور أشكاله، كل هذه العوامل جعلت منه مصدر رئيسي للحصول على المعلومة حتى بالنسبة للقنوات الفضائية والإعلام التقليدي، وهذا ما ينطبق على عديد القضايا التي لعب فيها الإعلام الجديدة الدور البارز في نقل الأحداث وتوفير التغطية الإخبارية لها ما شكل تحديا حقيقيا لهذا الإعلام الذي حمل على عاتقه إبراز الأحداث رغم تضاربها في الكثير من الأحيان وجعل التفاعل مع ما يقدمه من مادة إعلامية يساهم كثيرا في تشكيل وتحديد اتجاهات جمهوره ، ومنه يمكن تلخيص مشكلة هذه الدراسة في السعي إلى معرفة دور وسائل الإعلام الجديدة في تشكيل اتجاهات الأساتذة الجامعين في الجزائر نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل من خلال الكشف عن المصادر الاتصالية التي يعتمد عليها الأكاديميون في متابعة أخبار هذه المنطقة ، ومدى اهتمامهم بمتابعة أخبار هذه القضية ذات البعد الاستراتيجي وتطوراتها وعلاقة ذلك باتجاهاتهم نحوها، ودراسة العوامل المؤثرة في ذلك. ومنه يمكننا طرح سؤال الإشكالية التالي:

ما هي اتجاهات الأساتذة في كل من جامعة مستغانم وسيدي بلعباس نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل انطلاقا من متابعتهم للأحداث عبر وسائل الأعلام الجديدة ؟

I- أهمية الدراسة :

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تحاول دراسة الإعلام الجديد الذي أصبح له تأثير كبير في السياقات الاجتماعية أكثر مما هو عند الإعلام التقليدي وهذا التأثير تجاوز الأفراد ليصل إلى النخب في المجتمع حيث تم تطبيق هذه الدراسة في جانبها الميداني على فئة مهمة وحساسة في المجتمع الجزائري وهي فئة النخب الأكاديمية (الأساتذة الجامعين) وهي فئة مهمة كونها تعبر عن الاتجاه الحقيقي والواعي للأحداث والقضايا التي تحدث حيث أن القضية المعالجة في هذه الدراسة حساسة ومهمة وتتمثل في التدخل الأجنبي في منطقة الساحل كمادة إعلامية يتم تداولها في هذا الإعلام بين مؤيد لهذا التدخل ومعارض له.

II - أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على الدور الذي تحدثه وسائل الإعلام الجديدة في تحديد الاتجاهات للأستاذ الجامعي نحو واحدة من أهم القضايا وهي قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل وكيف ينظر الأساتذة الجامعيون إلى هذه التحولات السوسيوسياسية والعسكرية في المنطقة هذا وتهدف أيضا إلى معرفة اتجاه الأساتذة الجامعيين نحو قضية التدخل الأجنبي ومدى علاقة متغير التخصص العلمي لهؤلاء المبحوثين بقوة هذا الاتجاه وضعفه و معرفة مدى اهتمام الأستاذ الجامعي بمتابعة أخبار منطقة الساحل الصحراوي وتطوراتها وما هي أهم المصادر الاتصالية في الإعلام الجديد التي يلجأ إليها الأساتذة الجامعيون لاستقاء المعلومات أثناء الأحداث والتطورات التي تمس القضية وأخيرا التعرف عادات وأنماط استعمال وسائل الإعلام الجديد وما هي الأدوات الأكثر استعمالا من قبل الأساتذة الجامعيين في متابعة هذه الأحداث.

III- تساؤلات الدراسة وفروضها:

ستجيب هذه الدراسة على مجموعة من التساؤلات التي تم وضعها بنا ءا على الأهداف السابقة وتم أيضا اختبار عدد من الفروض وهي كالتالي:

التساؤلات:

• ما هي اتجاهات الأساتذة الجامعين نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل من حيث ظروف نشوبها، وها هي أهدافها، وكيف ستكون نتائجها ؟

• ما مدى اهتمام الأساتذة الجامعين بمتابعة أخبار التدخل الأجنبي في منطقة الساحل وتطوراتها؟

• ما مستوى تعرض الأساتذة الجامعين لوسائل الإعلام الجديدة من خلال متابعة أخبار التدخل الأجنبي في المنطقة ؟

• ما هي أهم المصادر التي يستقي منها الأساتذة الجامعيون معلوماتهم عن قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل؟

الفرضيات:

• كلما زاد تعرض المبحوثين لوسائل الإعلام الجديدة زاد المستوى المعرفي الذي يساهم في تحديد اتجاههم نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل.

• التدخل الأجنبي في منطقة الساحل هو نتيجة أسباب خفية غير تلك المعلن عنها.

• هناك توافق واضح للأساتذة الجامعيين حول فشل التدخل العسكري في منطقة الساحل وشمال مالي .

IV- منهج الدراسة :

تصنف هذه الدراسة ضمن الدراسات الوصفية التحليلية التي تهتم بجمع الحقائق عن موقف ما ودراستنا هذه تهدف إلى وصف دور وسائل الإعلام الجديدة في تحديد اتجاهات الأساتذة الجامعين نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل انطلاقا من مدى التعرض الذي هو مرتبط بهذه النخبة ومعرفة التخصصات وتأثيرها على بناء الاتجاه لذا فالأنسب هو اختيار منهج المسح بالعينة (المنهج الوصفي) الذي هو من أساليب التحليل المرتكزة على جمع المعلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع محدد من خلال فترة أو عدة فترات زمنية وذلك للحصول على نتائج علمية يتم تفسيرها بطريقة موضوعية ، وبما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة.

V- مفهوم الإعلام الجديد:

لا يمكن إعطاء تعريف واحد وجامع للإعلام الجديد، حيث لا يمكن أن يحدد مفهوم الإعلام الجديد بدقة وذلك لعدة أسباب أهمها حداثة الوسائل المستخدمة فيه إلا أن هذا الأخير له عدة مسميات مثل (الإعلام الجديد) أو (الإعلام البديل) أو (النيوميديا) وكلها تسميات تطلق أو مفاهيم تم إلصاقها بكل الوسائل الإعلامية الحديثة ،وتحديدا بمختلف الوسائط الإعلامية باختلاف أشكالها وسنركز في هذه الدراسة على مفهوم واحد أو بالأحرى على تسمية واحدة وهي الإعلام الجديد كمقابل للإعلام التقليدي.

حيث يحيل الإعلام الجديد إلى ظاهرة متعددة الإبعاد كما أن استخداماته الاصطلاحية تتسم بالتنوع الشديد، ولعل المعنى الأكثر ارتباطا بالإعلام الجديد يتعلق ببعد الجدة والحداثة كمقابل لبعد القدم وعلى هذا النحو يحيل مصطلح الإعلام الجديد إلى معنى الحركة- من إعلام قديم إلى

إعلام جديد – أي من حالة إلى حالة أخرى وفي بعض الأحيان إلى معنى النهاية (فناء الإعلام القديم) وولادة (إعلام جديد) ويرى البعض في هذا الاتجاه أن دلالات التحول هذه مرتبطة بسياق حضاري أضحى فيه التغير سمة من سمات المجتمعات الحديثة.(1)

ويمكن القول أن الإعلام الجديد أيضا هو مصطلح يضم مختلف تقنيات الاتصال والمعلومات الرقمية التي جعلت من الممكن إنتاج ونشر واستهلاك وتبادل المعلومات التي نريدها و في الوقت الذي نريده وبالشكل الذي نريده من خلال الأجهزة الالكترونية و الوسائط المتصلة أو غير المتصلة بالإنترنت والتفاعل مع المستخدمين الآخرين كائناً من كانوا وأينما كانوا. (2)

هذا وسنتعرض إلى جملة من المفاهيم التي ساهمت في ظهور مفهوم الإعلام الجديد وهي تساهم ألان في انتشاره:

الوسائط أو الشبكات الاجتماعية: الشبكات أو الوسائط الاجتماعية هي من ابرز تقنيات الإعلام الجديد وهي مصطلح واسع يقصد به تبادل المضامين عبر الانترنيت وذلك من اجل الدردشة وتبادل الأفكار وطرح الاتجاهات إلا أن أهم الشبكات الاجتماعية اليوم وأكثرها انتشارا هي شبكة التويتر والفيسبوك، والويكي و المدونات بجانب مواقع عديدة التي قدمتها الشركات الكبرى لدعم الفكر الاجتماعي في التفكير والمشاركة مع مستخدمي المواقع مثل غوغل والياهو ،وكذلك مواقع التفاعل مثل ماي سبيس ومواقع تخزين الصور وإعادة عرضها وإرسالها للغير مثل فليك ونشر مقاطع الفيديو مثل اليوتيوب وغيرها من الخدمات والتقنيات .(3)

فيما يلي سنتطرق إلى أهم الوسائط أو الشبكات الاجتماعية الالكترونية.

1- الفايسبوك: facebook

عبارة عن شبكة اجتماعية يمكن الدخول إليها مجانا ، وتديره شبكة فيسبوك محدودة المسؤولية كملكية خاصة لها فالمستخدمون بإمكانهم الانضمام إلىً الشبكات التي تنظمها المدينة أو جهة العمل أو المدرسة أو الإقليم و ذلك من أجل الاتصال بالآخرين.(4)

2- التويتر: twitter

موقع" تويتر "**twitter** هو شبكة اجتماعية يستخدمها ملايين الناس في جميع أنحاء العالم للبقاء على اتصال مع أصدقائهم وزملاء العمل من خلال أجهزة الكومبيوتر والهواتف النقالة، وتسمح واجهة توتير "بنشر رسائل قصيرة تصل إلى 140 حرفا. (5)

3- موقع فليكر:flickr

موقع" فليكر "هو موقع اجتماعي خاص بتبادل الصور ومقاطع الفيديو على الإنترنيت، ويستخدم الموقع بشكل كبير في تبادل الصور الشخصية بين الأصدقاء، وكذا من طرف الخبراء أو الهواة الذين يرغبون في نقل الصور التي التقطوها إلى العالم. (6)

4- موقع اليوتيوب: youtube

هناك اختلاف حول موقع" يوتيوب " **youtube** هل هو موقع شبكة اجتماعية أو لا، حيث تميل بعض الآراء إلى اعتباره موقع مشاركة الفيديو **vidéo sharing site** غير أن تصنيفه كنوع من مواقع الشبكات الاجتماعية نظرا لاشتراكه معها في عدد من الخصائص جعلنا نتحدث عنه كأهم هذه المواقع نظرا للأهمية الكبير ة التي يقوم بها في مجال نشر الفيديوهات واستقبال التعليقات عليها ونشرها بشكل واسع . (7)

VI- أهم أشكال الإعلام الجديد الأخرى:

صحافة المواطـن أو الصحافة البديلة:

هو مصطلح يشير إلى ذلك النشاط الذي يقوم من خلاله المستعمـل (أو المواطن العادي) كفـرد من أفراد جمهور وسائل الإعلام ، بإنتاج مضمون إعلامي و معالجته و نشره عبر تقنيات اتصاليـة متعددة ،و يمكن لهذا المضمون أن يكون نصيا أو مسموعا أو سمعيـا بصريـا ، أو يكون متعدد الوسائط و صحافة المواطن تختلف عن الصحافة التقليدية في كونهـا "تشاركية " أي يشارك في مضمونها مواطنون متطوعون من عـدة أماكن ،لأهداف غير ربحيـة و غير تجاريـة في الغالب ، ولا يتقاضون أجـورا باعتبارهم صحفيين يمتهنون الصحافة كما هو الحال في الصحافة التقليدية ،و لذلك يستخدم مصطلح " صحافة المواطن " كمقابل للصحافة المهنيـة التقليديـة السائـدة. (8)

المدونات الإلكترونيـة :(les blogs)

هي مواقع إلكترونية ملك لأفراد (غالبا) ومؤسسات وجماعات ، يتم التدوين فيها بطرق واسالب مختلفة يقترب معظمها للأسلوب الصحفي ، فهي تحاول دائما إيجاد سبق صحفي ، والكتابة في المواضيع و القضايا المثيرة للجدل ، وهذا بفضل الحرية المطلقة وانعدام الرقابة ،و هذا ما جعل البعض يسميها بالسلطة الخامسة ،ويتم فيها نشر المقالات و التسجيلات بشكل ترتيبي كرونولوجي ،ويمكن للقراء و المستعملين التعليق عليها.

المواقع الإخبارية التساهميـة:

و هي مواقع شبيهة جدا بالصحف الإخباريـة ، لكن يشارك في محتواها و يحـرر مضمونها مواطنون عاديـون من مختلف الأماكن ، و هم في الغالب متطوعون و ناشطون حقيقيـون و هواة لمهنـة الصحافة . (9)

وتجدر الإشارة إلى أن معظم هذه المواقع والشبكات الاجتماعية تهتم بمختلف القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في حياة رواد هذه الأخيرة لما تتمتع به من حرية مطلقة في التعبير عن الآراء والاتجاهات.

الإعلام الجديد والرهانات الجيوسياسية في المنطقة : - VII

إن الإعلام التقليدي لأي بلد يمارس دوره المنوط به داخل مجتمع هذا البلد وبأساليب مختلفة للحفاظ على توازن هذا الأخير حيث يكون عمل هذا الإعلام هو خدمة للصالح العام خصوصا الإعلام العمومي، الذي تراه في العديد من المرات يهيأ الرأي العام بما يتناسب مع السياسة الداخلية أو الخارجة للحكومات والسلطة التي تحكمه وبالتالي فانه يتعذر على المواطن وفي الكثير من الأحيان أن يقدم قراءة صحيحة لما يجري من أحداث لان عرض القضايا يكون من طرف وجهة رأي واحدة الأمر الذي لا يخول له أن تكون له نظرة مقارنة تسمح له بتكوين رؤية نقدية لمختلف الحالات المعروضة إعلاميا إلا انه ومع التطور التكنولوجي الحديث وظهور وسائل الإعلام الجديدة تغيرت المعطيات مما اثر في مختلف القضايا وأصبحت الحقيقة ليست واحدة حيث أفرزت هذه المظاهر الإعلامية الجديدة

مضامين ومحتويات مختلفة وأراء تتسم باختلاف الأفكار والايدولوجيات ما سمح بإظهار جانب من الحقيقة لمختلف القضايا ومنها

قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل حيث ساهمت وسائل الإعلام الجديدة باختلاف أشكالها أن تبرز مخاطر هذا الانفلات الأمني الذي يضرب المنطقة وخطورة الوضع الذي زاده التدخل العسكري فيها تدهورا لتطرح عدة نقاشات جريئة في مختلف مواقع التواصل الاجتماعي عن حقيقة وسبب التدخل العسكري الفرنسي (المباشر قوات على الأرض) و الأمريكي (قصف لمواقع بطائرات بدون طيار) في المنطقة أسببه الجماعات الإرهابية حقا ؟ أو أن التاريخ السياسي وخصوصية المنطقة له دور في ذلك.

«حيث يشير باحثون في التاريخ السياسي إلى إن الحرب الباردة قد أثرت في المنطقة العربية وحتى إفريقيا منذ مدة مبكرة، وانه رغم من انشغال قطبي الحرب الباردة في المواجهة حول جنوب شرق آسيا، والتي أخذت منحى المواجهة العسكرية المباشرة في فيتنام، إلا أن المنطقة العربية وإفريقيا لم تغب عن اهتمامها، لما تمثله من أهمية اقتصادية واستراتيجية للغرب».(10)

وبالتالي، فان أشكال الإعلام الجديد ساهمت على مستويات عدة، أولها إن هذه التغيرات والاختلافات في طرح القضايا سوف تصب في موضوع (القناعات)،أو بالأحرى الاتجاهات التي كان يؤمن بها الأفراد اتجاه بعض القضايا ففي السابق كانت وسائل الإعلام التقليدية تسهم إسهاماً فعالاً وكبيرا في تكوين الرأي العام، لان هذه الوسائل كانت من أكثر المصادر أهمية وهي المحركة للأفراد إلا إن الإعلام الجديد اليوم ساعد على تقليل درجة الاعتماد على القنوات الفضائية والإذاعات والصحف الكبيرة، وهو يقوم اليوم بإنجازات اتصالية مهمة. (11)

الأزمة في الساحل الصحراوي... القضية المنسية إعلاميا ؟؟ VIII-

إن المتابع للأحداث الجارية وقائعها في منطقة الساحل الإفريقي لا يحتاج لجهد تحليلي ليدرك الدارس أن الأزمة في هذه المنطقة أريد لها أن تسير بهذه الوتيرة المترنحة والمتعثرة في الكثير من الأحيان ، للوهلة الأولى يظهر جليا أن الأزمة وبالرغم من خطورتها على بلدان المنطقة والتهديدات التي تمس دول الجوار ووجود إمكانية أن تصل حتى للضفة الأخرى من المتوسط إلا أننا لا نشاهد تلك التغطية الإعلامية الكبيرة والاهتمام المتزايد بهذه القضية مقارنة بقضايا اقل أهمية إن لم نقل قضايا اقل شانا من هذه الأخيرة إذا هناك عدة تساؤلات تطرح حول أسباب هذا التقصير الإعلامي نحو هذه القضية لعلّ من بين الأمور الغامضة في الحرب على مالي، هو (التعتيم) الإعلامي على الأحداث في الأرض وأولى عمليات الإنزال للقوات، فلم نرى في الساعات الاولى للتدخل ، أيّة صور أو مشاهد مباشرة وهو ما يضع اكثر من علامات استفهام، حول ما إذا كانت فرنسا لا تركز على ﴿الحرب الإعلامية﴾ لحسم تواجدها بالأراضي المالية عمدا ؟ أم أن هناك توجه آخر وسياسة غير معلنة حول التواجد في هذه المنطقة من إفريقيا

فإبعاد وسائل الإعلام أو عدم اهتمامها بالحرب فان هذا الأمر يفتح الباب للإشاعات والدعايات والتأويلات وبالتالي فان الحاصل في مالي، أو الساحل أو الصحراء الكبرى، يبقى رهينة الإبهام والغموض، طالما أنه مازال محصورا في تدخل عسكري، تقوده القوات الفرنسية (بطلب من مالي)، وطالما أن هذه الحرب ترفض مرافقة الطائرات الحربية بوسائل

إعلام بوسعها نقل الحقيقة بكلّ صدق ومصداقية، فان باب التأويل أيضا يأبى أن يغلق حول النوايا الحقيقية لهذا التدخل .

فمن البديهي أن تثار المخاوف وتتوفّر مبررات الهلع والخوف، فعندما تغيب (الشفافية) عن ظروف إعلان الحروب وإدارتها، تتنامى المخاوف فمن الأسباب والأهداف الحقيقية لأيّة حرب تقودها قوات أجنبية داخل أراض من المفروض أنها سيّدة ومستقلة فهذا انتهاك صريح لشرعية الدولية تحت مظلة السلم والأمن في المنطقة .(12)

فالتعتيم الإعلامي في مالي أعاد إلى الأذهان ما حصل خلال عمليتي غزو العراق الأولى والثانية من قبل الجيش الأميركي وفرضه حظراً إعلاميا ورقابة مسبقة على مختلف أجهزة الإعلام بل تهديد أمن الصحافيين المتواجدين هناك في حال تسريب أي معلومة من خارج المنظومة الموضوعة. (13)

إلى هنا كان لابد من ظهور منابر إعلامية تستطيع نقل ولو جزء من الحقيقة بدل التعتيم عليها وتناسيها وعدم إبرازها لتظهر التكنولوجيا الحديثة متمثلة في الإعلام الجديد وخصوصا وسائل التواصل الاجتماعي و المواقع الالكترونية التي أولت القضية اهتماما بالغا وكانت في الكثير من المرات المصدر الرئيسي للمعلومة وإظهار ما هو حاصل في الأراضي هناك حيث اخذ هذا النوع الجديد من الإعلام على عاتقه إبراز العديد من الأمور التي كانت مبهمة ويشوبها اللبس حيث من مميزات هذه الأخيرة عرض القضايا بدون تحيز والهدف الأول والأسمى هو إبراز الحقيقة وبمختلف توجهاتها

معالم المقاربة الأمنية الجزائرية لحل الازمة في الساحل وشمال مالي

أولاً :كانت البداية سنة 2009، من خلال تسهيل عمل الجيوش النظامية في المنطقة ما يتيح لها امكانية مطاردة الإرهابيين وراء الحدود، والعمل على ضرب معاقل الارهابين، والحد من منابع الدعم والإمداد التي تمول هذه الجماعات بالسلاح والأموال ، والسيطرة على المنطقة بالجيوش النظامية ومراقبة كل جيش لحدوده وتم الاتفاق على على إنشاء أول قاعدة بيانات محلية موحدة، فيها جميع المعلومات حول الارهابين والمنتمين الى التنظيمات الارهابية في المنطقة لتضيق الخناق عليهم ومنع تنقلهم بسهولة ، مع الالتزام بتجديد ككل مرة للمعلومات والمعطيات الجديدة التي تظهر.

ثانيًا :اتفاق كل من الدول التالية (الجزائر وليبيا وموريتانيا ومالي والنيجر) على السماح للجيوش الخمسة التابعة لها، بالمطاردة المستمرة للخلايا الارهابية المسلحة مع السماح لها بعبور الحدود في منطقة الساحل والصحراء بعد إبلاغ الدولة التي تجري المطاردة داخل إقليمها،

ثالثًا :اتفاق بين الجيوش النظامية في المنطقة ومقاتلي القبائل من الطوارق والقبائل العربية والزنوج وغيرها، وضمان حياد الطوارق في الحرب الدائرة بين القوات العسكرية المالية وتنظيم القاعدة

رابعًا :العمل على تقليص مصادر وتجفيف منابع تمويل الإرهاب ومراقبة المهربين، والحد من التهريب لأنه المصدر الرئيسي لتدعيم الإرهابيين وإقامة مشاريع اقتصادية شمال مالي والنيجر، وتحسين الأوضاع المعيشية للسكان والتعهد بحفر آبار المياه للسكان المحليين؛ بهدف حصر تحركات الإرهابيين.

خامسًا : مراقبة منطقة الصحراء، و مناطق الأودية والمرتفعات التي يسهل فيها التحرك سرا من طرف الجماعات الإرهابية وإخفاء السيارات و الاختباء، وهي منطقة تمتد من جبال أدغاغ أفوغارس شمال مالي وجبال أكادس إير شمال النيجر، مرورًا بوادي زوراك الذي يصل إلى جنوب الجزائر.

ويعتبر الجنوب الجزائري منطقة تمتاز بتضاريس وعرة وهي منطقة تمتد لآلاف الكيلومترات ، وليس من السهل ضبطها بالاعتماد فقط على قوات حرس الحدود النظامية، وتعد خطورة هذا الامتداد ان التهديد الأمنيّ للعمليات الإرهابية المسلحة في هذه المنطقة هي تقريبا نفسها التهديدات في المناطق الجبلية الوعرة شمال الجزائر، ومع خطر الإرهاب هناك الهجرة السرية حيث تم إحصاء وجود أكثر من 40 جنسية لمهاجرين أفارقة متواجدون بالجزائر معظمهم متورط بقضايا مثل الاتجار بالسلاح وتهريب الذهب وغيرها .

مع كلِّ هذه الأخطار والمخاوف ، فان الجزائر تعتبر من أكثر الدول التي لها من الحجج الدامغة لتبرير موقفها من مكافحة الإرهاب، فقد عانت من هذه الظاهرة على مدار عشرية كاملة في محاربة هذه الظاهرة، وسط انتقادات كبرى من الدول الغربية التي كان اغلبها يأوي أفرادًا من الجماعات الإسلامية المسلحة، ممن كانوا يتمتعون باللجوء السياسي ويساهمون في تلطيخ صورة البلد والتخطيط للعديد من العمليات داخل الجزائر. ومن هنا، فإنَّ موقف الجزائر كان نتيجة معانات ونضال وجدت الجزائر نفسها وحيدة تقاوم في ظاهرة اقل ما يقال عنها أنها أن ضريبتها كانت غالية وقدرت ب 30 مليار دولار خسائر للاقتصاد الوطني و200

ألف قتيل من ضحايا الإرهاب، إضافة إلى انعزال على كافة الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية، وتحديدًا بمنعها من التسلح لمكافحة خطر الإرهاب.(14)

هذا وتعتبر مقاربة الجزائر كدولة ذات سيادة لما يجري في مالي انه شان داخلي وانه يخص دول الجوار التي تتقاسم الحدود مع هذه المنطقة وأي تدخل خارج هذا المحور فهو غير مرغوب فيه بل انه يهدد أمن المنطقة برمتها وينسف الجهود المبذولة وذلك لخبرة الجزائر بهذا الأمر لذلك رفضت الجزائر في العديد من المرات إقامة قواعد عسكرية على أراضيها مستندة في ذلك إلى عقيدة جيشها النظامي الرافض لأي تدخل أجنبي لان تضحيات الجزائر من أجل الانعتاق من الاستعمار (الفرنسي)، لا يتوافق مع قبولها إقامة قواعد عسكرية أجنبية على أرضها وفي نفس الوقت هي لا تعارض فكرة التنسيق الامني في المنطقة من خلال إمدادها بالتكنولوجيات الحديثة لمراقبة حدودها وحدود البلدان المجاورة بالإضافة إلى التعاون الاستخبارات (15)

IX- عرض وتحليل النتائج الميدانية:

لقد تم إجراء الدراسة الميدانية بجامعة مستغانم وجامعة سيدي بلعباس وتحديدا بالاقسام التالية: قسم العلوم السياسية وقسم علوم الإعلام والاتصال وقسم العلوم الاجتماعية حيث تم اختيار عينة مشكلة من 120 مبحوث وهم يمثلون أساتذة في هذه الأقسام حيث شملت العينة الذكور والإناث وقد كانت العينة موزعة مثلما هو موضح في الجدول أدناه :

الخصائص		التكرار	النسبة المئوية	المجموع
الجنس	ذكر	89	% 74.16	100%
	أنثى	31	% 25.83	
السن	اقل من 25 سنة إلى 35سنة	53	% 44.16	100%
	من 35سنة إلى 45سنة	42	35%	
	من 45 سنة إلى 55سنة فاكثر	25	% 20.83	
التخصص	علوم الإعلام والاتصال	40	33.3%	100%
	العلوم الاجتماعية	40	33.3%	
	العلوم السياسية	40	33.3%	
عينة الجامعة	جامعة سيدي بلعباس	60	50%	100 %
	جامعة مستغانم	60	50%	

جدول رقم (1) الخصائص الديموجرافية لعينة الدراسة.

نلاحظ من خلال قراءتنا للجدول رقم (1) أن عينة الدراسة تتوزع بين الذكور والإناث كما يلي : **74.16** % ذكور و**25.83** % إناث هذا وتمثل الفئة العمرية – اقل من **25** سنة إلى **35**سنة – الفئة الأكثر تمثيلا لعينة الدراسة حيث بلغت النسبة **44.16**% بينما مثلت نسبة**35** % الفئة العمرية من **35**سنة إلى **45**سنة أما الفئة الأخيرة فكانت من **45** سنة إلى **55**سنة فأكثر وهي الفئة التي أخذت اقل نسبة تمثلت ب**20.83** % وهذا ما يدل على العنصر الشبابي الذي أصبح له مكانة في التعليم العالي بالجزائر

هذا من جهة أما من جهة ثانية فان الباحثان تفاعلا بشكل جيد مع جميع أفراد العينة خصوصا الأساتذة الشباب منهم.

X- عادات وأنماط استخدام الأساتذة لوسائل الإعلام الجديدة.

الاختيـارات	التكرارات		النسبة		المجموع
	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى	%
كأحد المصادر الأساسية لمعرفة الأخبار	50	20	% 41.66	% 16.66	58.33%
كأحد المصادر الثانوية لمعرفة الأخبار	10	2	8.33%	1.66%	10%
مصدر للأخبار في بعض الأوقات	20	6	% 16.66	5%	21.66%
مصدر أتعرض له بالصدفة ومن خلاله أتعرف على الأخبار	9	3	7.5%	2.5%	10%
المجموع	120		100%		% 100

الجدول رقم (2):توزيع العينة حسب اعتمادهم على وسائل الإعلام الجديدة

- يمثل هذا الجدول اعتماد عينة الدراسة على وسائل الإعلام الجديدة لاعتبارها وكما هو موضح في الجدول أعلاه كأحد المصادر الأساسية لمعرفة الأخبار حيث مثلت هذه الإجابة ما نسبته بالنسبة لذكور **41.66**% أما الإناث فكانت النسبة **16.66**% لنحصل في الأخير ما نسبته **58.33**% ممن يعتبرون أن وسائل الإعلام الجديدة كمصدر أساسي بالنسبة لهم لمعرفة التطورات وأخر الأنباء هذا ويمكن أن نعلل هذه النسبة لعدة أسباب:

– أولها الخصائص التي تمتلكها وسائل الإعلام الجديدة من خلال التغطية للأحداث

– ثانيا فان الاعتماد على وسائل الإعلام الجديدة كمصدر رئيسي وأساسي لانتقاء الأخبار هو أنها تقدم معلومات وتفسيرات للعديد من الأحداث و استطاعت أن تعرض وجهات نظر وآراء متنوعة

أما ثاني اكبر نسبة تم تسجيلها هي 21.66% وهي نسبة أفراد من العينة الذين يعتبرون وسائل الإعلام الجديدة مصدر للأخبار في بعض الأوقات باعتبار هؤلاء لازالوا يأخذون معلوماتهم من مصادر أخرى كالتلفزيون والراديو والجرائد بالإضافة إلى وسائل الإعلام الجديد بمعنى هناك مزاوجة إلا أن الاعتماد يكون في بعض الأوقات على وسائل الإعلام الجديدة ويمكن تبرير ذلك أن المحتوى الذي تبثه وسائل الإعلام الجديد تقريبا هو نفسه ما تبثه وسائل الإعلام التقليدية

أما آخر نسبة فكانت مناصفة ومثلت 10% لكل من اعتبر وسائل الإعلام الجديدة مصدر ثانوي للإخبار وهو مصدر يتم التعرض له بالصدفة وهذا الأمر له ما يبرره باعتبار هؤلاء يتعاملون مع وسائل الإعلام الجديدة إلا أن المعلومات والأخبار ليس بالضرورة تكون مستسقاة من هذه الوسائل بما انه يوجد وسائل أخرى متوفرة بتكلفة اقل حسب تعبير احد أفراد هذه العينة . ومن جهة أخرى فان الإعلام الجديد بحاجة إلى التحديث والتطوير من خلال تحسين المضمون فالإعلام الجديد لازال في بداياته ومصادر المعلومات التي يتغذى منها أصبحت تتزايد يوما بعد يوم مما ساهم في تقديم

بعض الأخبار والمعلومات الغير الصحيحة والمنقولة دون الإشارة إلى مصدر المعلومة

الاختيارات	التكرارات		النسبة		المجموع
	ذكر	ثنى	ذكر	أنثى	%
السرعة في نقل الأخبار وعرضها	44	4	% 36.66	% 11.66	% 48.33
مصداقيتها في تقديم الأخبار	11		% 9.16	% 3.33	% 12.5
الانفراد ببعض المعلومات والحقائق	25		% 20.83	% 4.16	% 25
تقدم معلومات مقنعة وصورة واضحة للأحداث	9		% 7.5	% 6.66	% 14.16
المجموع	120		100%		% 100

الجدول رقم(3):توزيع عينة الدراسة حسب أسباب اعتمادهم على وسائل الإعلام الجديدة

من خلال هذا الجدول يتبين ان هناك تعدد في أسباب الاعتماد على وسائل الإعلام الجديدة ويظهر لنا في الجدول أعلاه

أن أول سبب رئيسي للاعتماد على هذه الوسائل هو السرعة في نقل الأخبار وعرضها حيث مثلت نسبة 48.33% هذا الاختيار من طرف أفراد العينة وتعتبر السرعة في نقل الأخبار خاصية تميز وسائل الإعلام الجديدة مثلما ذكرنا سابقا حيث في عصرنا لحالي ليس المهم هو وفرة المعلومات وتنوعها بقدر أهمية السرعة في نقلها

أما ثاني سبب وثاني أعلى نسبة فكانت 25% وتتعلق بالانفراد الذي تتمتع به هذه الوسائل في المعلومات والحقائق حيث أن هذا العنصر أيضا متعلق بالسرعة بنقل الحدث يجعل الوسيلة تنفرد به وتصبح مصدرا للمعلومة

ثالث نسبة تمثلت في 14.16% وكانت متعلقة بان سبب الاعتماد على وسائل الإعلام الجديدة هو تقديمها لمعلومات مقنعة وصورة واضحة للأحداث والملاحظ هو أن هذا السبب لم يتم الإشارة إليه بكثرة من قبل أفراد العينة والنسبة توضح ذلك وهناك عدة أسباب أهمها ما كنا نعتبره ميزة لدى هذه الوسائل تحول إلى نقطة سلبية حيث أن السرعة في نقل الأحداث في البداية دون مراعاة تفاصيل الحادث ينجم عنه نقل تفاصيل ناقصة ومبهمة

آخر سبب لاعتماد أفراد العينة على وسائل الإعلام الجديدة هو مصداقيتها في تقديم الأخبار حيث مثلت نسبة 12.5% هذا السبب حيث يرى أفراد العينة هؤلاء أن هذه الوسائل لديها مصداقية أكثر من غيرها بسبب اعتمادها مثلا على المكتوب في نقل الحدث مدعوما بالمسموع أو السمعي البصري

الاختيارات	التكرارات		النسبة		المجموع
	ذكر	أنثى	ذكر	أنثى	%
الأخبار السياسية	60	12	50%	10%	60%
الأخبار الاقتصادية	10	6	8.33%	5%	13.33%
الثقافية	19	13	15.83%	10.83%	26.66%
مواد أخرى	/	/	/	/	/
المجموع	120		100%		100%

الجدول رقم (4):يبين توزيع افراد العينة حسب أكثر المواد متابعة في وسائل الإعلام ا لجديدة

يعطينا هذا الجدول بيانات عن أكثر المواد متابعة من قبل المبحوثين حيث نلاحظ مايلي :

تأخذ الأخبار السياسية النصيب الأكبر من المتابعة بما نسبته 60 % مقسة كالتالي 50% ذكور و 10% إناث باعتبار الذكور لديهم أكثر ميل للسياسة منهم للإناث حتى ولو تعلق الأمر بالنخبة ويمكن تفسير هذه النسب انطلاقا من الأهمية التي تكتسيها الأخبار السياسية في منطقة تتميز بالتوترات أما الأخبار الثقافية فقد تمثلت نسبتها ب 26.66% أما آخر نسبة فكانت حول الأخبار الاقتصادية وأخذت ما نسبته 13.33% حيث لم تنل اهتماما من طرف أفراد العينة

XI- اتجاهات عينة الدراسة حول قضية التدخل الاجنبي في منطقة الساحل

	موافق						أوافق إلى حد ما						لا أوافق					
	التكرار			النسبة			التكرار			النسبة			التكرار			النسبة		
	ت	ب	ج	ت	ب	ج	ت	ب	ج	ت	ب	ج	ت	ب	ج	ت	ب	ج

- التدخل العسكري سببه انتشار الجماعات السلفية الجهادية التي ترى فرنسا أنها تشكل خطر	30	18	29	25	15	24.16	8	14	7	6.66	11.66	5.83	2	8	4	1.66	6.66	3.33
- التدخل العسكري هو لأسباب تتصل بالمصالح القومية في المنطقة لدو ل المتدخلة	30	20	25	25	16.66	20.83	7	12	10	5.83	10	8.33	3	8	5	2.5	6.66	4.16

- التدخل العسكري هو محاولة إصلاح للأخطاء التي ارتكبتها فرنسا في ليبيا	32	17	23	26.66	14.16	19.16	5	11	12	4.16	9.16	10	3	12	5	2.5	10	4.16
- التدخل العسكري هدفه اقتصادي بالدرجة الأولى من اجل دفع عجلة التنمية في فرنسا	15	10	17	12.5	8.33	14.16	12	10	13	10	8.33	10.83	13	20	10	10.83	16.66	8.33

- التدخل العسكري هو استعادة الأسلحة الفرنسية التي كانت في ليبيا ووقعت في أيدي الجماعات المتطرفة	9	11	14	7.5	9.16	11.66	5.83	20	15	19	16.66	11.66	9.16	7	14
- ضعف التنسيق بين دول المنطقة فتح المجال للتدخل الأجنبي الخارجي	5	9	7	4.16	7.5	5.83	7	11	10	5.83	9.16	8.33	28	20	23	16.66	23.33	19.16
- التدخل العسكري سببه مساعدة الجيش المالي في استعادة السيطرة على مناطق الشمال	8	12	6	6.66	10	5	11	14	9	11.66	9.16	7.5	22	14	35	11.66	18.33	29.16

التدخل العسكري كان سيكون عاجلا أم أجلا لا محال نظرا لتزايد نشاط الإرهابي في المنطقة	22	19	25	18.33	15.83	20.83	11	15	10	9.16	12.5	8.33	7	6	5	5.83	5	4.16

الجدول رقم (5) يبين توزيع أفراد العينة حسب اتجاههم نحو أسباب التدخل الأجنبي في منطقة الساحل.

تشير نتائج الجدول السابق الخاص بمعرفة اتجاهات المبحوثين وتصوراتهم نحو التدخل الأجنبي في منطقة الساحل على مقياس(ليكرت) الثلاثي إلى وجود اتجاه عال مؤيد لجملة من العبارات خاصة ما تعلق منها بالمصالح الاقتصادية في المنطقة للدول المتدخلة وهذا ما دلت عليه النسبة المؤوية للعبارة رقم 2 والمتعلقة بالأهداف والأسباب الرئيسية للتدخل في المنطقة وذلك بنسبة **62.49** % ما يدل أن التدخل الأجنبي حسب العينة انطلاقته كانت للسيطرة على الموارد الاقتصادية كهدف أولي . وكذلك نجد جملة :التدخل العسكري هو محاولة إصلاح للأخطاء التي ارتكبتها فرنسا في ليبيا قد حظي بنسبة كبيرة من التاييد ممن يوافقون على هذه العبارة ذلك أن فرنسا حسب أفراد العينة هي تجني ثمار أخطائها المرتكبة في ليبيا وإجمالا هناك تأكيد من أفراد العينة أن الأسباب التي بموجبها تم التدخل في المنطقة هي غير تلك المعلن عنها .

الجدول رقم (6) يبين توزيع أفراد العينة حسب اتجاههم وتقييمهم لنجاح التدخل العسكري أو فشله

	موافق						أوافق إلى حد ما						لا أوافق					
	التكرار			النسبة			التكرار			النسبة			التكرار			النسبة		
	غ ب ا	غ ب ج	غ ب س	غ ب ا	غ ب ج	غ ب س	غ ب ا	غ ب ج	غ ب س	غ ب ا	غ ب ج	غ ب س	غ ب ا	غ ب ج	غ ب س	غ ب ا	غ ب ج	غ ب س
- التدخل العسكري قضى على الإرهاب وحقق الأمن في منطقة الساحل	5	9	3	4.16	7.5	2.5	8	12	9	6.66	10	7.5	27	19	28	22.5	15.83	23.33
- التدخل العسكري زادت من تأزم الأوضاع وعدم استقرار المنطقة	29	20	30	24.16	16.66	25	7	12	7	5.83	10	5.83	4	8	3	3.33	6.66	2.5
- التدخل العسكري منح المنطقة الأمن الذي كانت تطمح اليه والاستقرار	10	12	7	8.33	10	5.83	10	14	11	8.33	11.66	9.16	20	14	22	16.66	11.66	18.33
- التدخل العسكري أدى إلى انتشار الفوضى وغياب الأمن فيما بعد	26	15	33	21.66	12.5	27.5	5	8	4	4.16	6.66	3.33	9	17	3	7.5	14.16	2.5
- التدخل العسكري أطاح بالمجموعات الإرهابية وأسست لدولة مالية قوية	12	15	10	10	12.5	8.33	11	14	9	9.16	11.66	7.5	17	11	21	14.16	9.16	17.5
- التدخل العسكري لم يحقق أهدافه الأساسية التي أعلن عنها في البداية	20	19	30	16.66	15.83	25	6	8	9	6.66	5	7.5	12	15	1	10	12.5	0.83

- التدخل العسكري كان ايجابيا في مجمله لانه حقق الأهم بغض النظر عن السلبيات	10	14	8	8.33	11.66	6.66	11	14	7	9.16	11.66	5.83	18
- التدخل العسكري أدى إلى زيادة انتشار الجماعات الارهابية و الأفكار الراديكالية في المنطقة	28	24	34	23.33	20	28.33	10	8	4	8.33	6.66	3.33	2
- التدخل العسكري حافظ على الاستقرار السياسي الذي يريده الشعب في المنطقة	8	6	7	6.66	5	5.83	5	7	9	4.16	5.83	7.5	27
- التدخل العسكري أدى إلى خراب المنطقة وزيادة التوتر	25	20	30	20.83	16.66	25	5	9	5	4.16	7.5	4.16	10
- التدخل العسكري حقق كل ماكان مخطط له وهو القضاء على المتمردين	7	10	5	5.83	8.33	4.16	10	14	8	6.66	11.66	6.66	23
- التدخل العسكري كان لفائدة ومصلحة الدول المتدخلة دون مراعات للمصلحة العامة لشعب المالي	6	10	8	5	8.33	6.66	20	16	12	16.66	13.33	10	14
- التدخل العسكري فتح المجال إلى التدخل الأجنبي في لشؤون الداخلية لبلدان هذه المنطقة مستقبلا.	7	12	9	583.	10	75.	8	10	6	666.	833.	5	25
	10	15	12	5.83	11.66	6.66	11	14	7	9.16	11.66	5.83	18
	28	24	34	23.33	20	28.33	10	8	4	8.33	6.66	3.33	2
	8	6	7	6.66	5	5.83	5	7	9	4.16	5.83	7.5	27
	25	20	30	20.83	16.66	25	5	9	5	4.16	7.5	4.16	10
	7	10	5	5.83	8.33	4.16	10	14	8	6.66	11.66	6.66	23
	6	10	8	5	8.33	6.66	20	16	12	16.66	13.33	10	14
	7	12	9	583.	10	75.	8	10	6	666.	833.	5	25

تشير نتائج الجدول السابق رقم (6) الخاص بمعرفة اتجاهات المبحوثين وتصوراتهم وتقييمهم نحو نجاح أو فشل التدخل العسكري في منطقة الساحل الي ما يلي :

ان التدخل العسكري في هذه المنطقة زادت من تأزم الأوضاع وعدم استقرار هذه المنطقة ككل و البلدان المجاورة لها فهذه النسبة المرتفعة لهذه العبارة بعد الموافقة عليها يدل على أن عينة الدراسة تقر بفشل التدخل العسكري وأن هذا الأخير زاد في تأزم الأوضاع داخل هذه البلدان حيث مثلت العبارة رقم 2 ما نسبته 65.70% من المؤيدين لها والمؤيدين لفكرة أن التدخل زاد من تأزم الأوضاع نفس الشيء نجده في العبارة الأخرى وهي أن التدخل العسكري أدى إلى خراب المنطقة وزيادة التوتر حيث كانت نسبة المؤيدين لهذه العبارة هو 62.66% من مجموع الإجابات ويرى أفراد العينة الذين أجابوا بهذه الإجابة أن التدخل العسكري فتح المجال إلى التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية لبلدان هذه المنطقة مستقبلا. وانه كان الأولى والدعوة إلى وجود وتغليب لغة الحوار والمفاوضات قبل أي تدخل لان القضية في المنطقة يمكن حلها سلميا حسب افراد العينة.

من جهة أخرى كان الرفض واضحا لبعض العبارات التي تعلقت بنجاح هذا التدخل وما يدل على سلبيته مثلما عبرت العينة هو أيضا موافقتهم على العبارة الأخرى القائلة بان التدخل العسكري أدى إلى التدخل الأجنبي في الشؤون الداخلية لتلك البلدان الان ومستقبلا

XII – النتائج العامة :

بعد إجراء الدراسة الميدانية حول وسائل الإعلام الجديدة وتحديدها لاتجاهات الأساتذة الجامعيين نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل وشمال مالي تم التوصل إلى النتائج التالية:

1- اعتماد عينة الدراسة على وسائل الإعلام الجديدة كمصدر رئيسي للاطلاع على الأخبار والأحداث وذلك بنسبة بلغت 58.33% .

2- جاء في مقدمة الأسباب التي تدفع المبحوثين إلى التعرض لوسائل الاتصال كونها تتميز بالسرعة والآنية بنسبة48.33%، ثم الانفراد ببعض المعلومات والحقائق بنسبة25% ومن ثم أنها تقدم معلومات مقنعة وصورة واضحة للأحداث 14.16% وأخيرا كونها تتمتع بالمصداقية .

3- احتل الفيس بوك المرتبة الأولى في اختيارات العينة باعتباره احد أهم الشبكات الاجتماعية التي تعتمد عليها العينة في معرفة الأخبار والاطلاع على المعلومات بنسبة 35% في حين هناك من لديه أكثر من شبكة لمعرفة الأخبار وكانت نسبة المجيبين بذلك 28.33%.

4- أخذت الأخبار السياسية النسبة الأكبر من اهتمام العينة بنوعية المحتوى الذي تفضل متابعته على هذه الوسائل الإعلامية الجديدة وذلك بنسبة قدرت ب 60% من المجموع الكلي.

5- أكثر الأوقات إقبالا على متابعة وسائل الإعلام الجديدة هي أوقات الفراغ باعتبار أفراد العينة أكثر انشغالا طول الفترات فأوقات الفراغ فرصة للاطلاع على هذه الأخيرة وكانت نسبة الإجابة ب35% لتليها الفترة المسائية كأحسن ثاني وقت بنسبة 28.33%.

6- جاءت المدة المقدرة ما بين ساعة إلى ساعتين كأكثر مدة يقضيها أفراد العينة مع وسائل الإعلام الجديدة كأقصى تقدير وذلك بنسبة من الإجابات بلغت 66.66%.

7- الاتجاه العام الذي يحمله الأكاديميون نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل يغلب عليه الاتزان والتساوي إلا في بعض العبارات

التي كانت فيها الخيارات واضحة فيما تعلق الأهداف الخفية لهذا التدخل الأجنبي والفوضى التي أحدثها إلا انه هناك إقرار بوجود جماعات تهدد أمن المنطقة ككل

8- الاتجاه العام الذي يحمله الأكاديميون نحو قضية التدخل الأجنبي في منطقة الساحل« وأسبابه عبر عنه المبحوثين في أهم عبارتين في الجدول واللتين أخذتا اكبر نسبة وهما أن التدخل العسكري زادت من تأزم الأوضاع وعدم استقرار المنطقة والعبارة الثانية هي أن التدخل العسكري أدى إلى انتشار الفوضى وغياب الأمن فيما بعد.

9- في الأخير أقرت عينة الدراسة بتأزم الأوضاع وفشل التدخل العسكري في منطقة الساحل وشمال مالي ما زاد من المشاكل التي كانت تعيشها المنطقة ما يدل على عدم تحقيق التدخل للأهداف التي قام من اجلها.

XIII – الخاتمة :

من الواضح أن من أهداف التدخل في منطقة الساحل و الحملة العسكرية التي قادتها القوات الفرنسية على الأرض سببه بالدرجة الأولى هو حماية المصالح الاقتصادية للدول الغربية على اعتبار أن المنطقة تعتبر من أهم المناطق التي تتوفر على ثروة باطنية تقدر بمليارات الدولار من مناجم للذهب واليورانيوم وغيرها من الثروات الباطنية بالإضافة إلى القضاء على النفوذ الإرهابي وتنظيم القاعدة في المنطقة وهو السبب الذي يروج له إعلاميا إن تاريخية المنطقة (منطقة نفوذ فرنسية)، سابقا جعل من هذه الأخيرة تتبنى التدخل العسكري لحماية مصالحها.

لذلك فان الانفلات الأمني في المنطقة وما وقعت فيه الدول الغربية من أخطاء في ليبيا وإغراق المنطقة بالأسلحة كان لا محال سيعود على المنطقة ككل بالسلبية وحتى الضفة الأخرى من المتوسط لن تسلم منه ما دفع فرنسا على وجه الخصوص إلى المسارعة في تدارك الأخطاء . إلا أن المصالح الاقتصادية تعتبر الهدف الأول للتدخل العسكري حيث أن فرنسا كقوة سابقة في إفريقيا، لن تقبل أن تفقد مناطق نفوذها السابقة لصالح قوى أخرى ورأت أن كل الظروف مهيأة للتدخل والرجوع إلى المنطقة من بوابة القضاء على الإرهاب. ، بالإضافة إلى ذلك فان الأوضاع الهشة في مالي فتحت الباب على مصرعيه للتدخل في شؤون هذا البلد الذي تأثرها بعدة عوامل داخلية وخارجية، بالإضافة إلى الضغوطات الخارجية والسياسية على حكومة باماكو التي ما كان لها إلا أن تقبل مكرهة بهذا التدخل وان جميع التجارب السابقة والتدخلات العسكرية في المناطق المختلفة بالعالم قد أثبتت هذه الأخيرة أن هذا الأمر يغذي الأزمات ويزيدها تعقيدا ولا يجد لها حلا . وما حالة أفغانستان والعراق إلا خير دليل على ذلك فلم تسلم الدول المتدخل في شؤونها فقط بل اتسعت بؤرة التوتر لتشمل المنطقة ككل وحتى دول الجوار لذلك فان اختصار الحلول في التدخل العسكري هو وجهة نظر قاصرة تمت على براغماتية وأنانية تلغي بها الدول الأوروبية جميع شعاراتها التي تمجد فيها الديمقراطية والحرية والسلم والأمن لأنها تصنع صورة مغايرة للخطاب الإعلامي الذي تبثه إلا أن وسائل الإعلام الحديثة كانت ولا تزال كفيلة بإظهار الحقائق من عدة زوايا مهما حاول البعض إخفائها وتوضح الصورة الحقيقية لتجار الحرب.

الإحالات:

الهوامش:

(1)- الصادق الحمامي، **الإعلام الجديد والإعلام الكلاسيكي بين الاتصال والانفصال. التلفزيون العمومي نموذجا** المجلة المصرية لبحوث الإعلام العدد 33، القاهرة، 2009،ص

(2)- رياض شتوح، **الإشكالات القانونية المترتبة عن استخدام وسائط الإعلام الجديد**، ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر الدولي الثاني(الإعلام الجديد وقضايا المجتمع المعاصر)الفرص والتحديات، بسكرة،2014،ص3.

(3)- محمود الفطافطة ، **علاقة الإعلام الجديد بحرية الرأي والتعبير في فلسطين** ، المركز الفلسطيني للتنمية والحريات الإعلامية ، ط1،فلسطين،2011، ص20

(4)- مختار جلولي **استخدام مواقع التواصل الاجتماعي في الجزائر(:دراسة ميدانية لعينة من الطلبة المستخدمين لموقع الفايسبوك بجامعات سعيدة ،مستغانم وتلمسان)**،مجلة جيل العلوم الإنسانية والاجتماعية العدد 04،الجزائر،ديسمبر 2014،ص147.

(5)- Bernardo A. Huberman and al (2008)**: Social networks that matter: Twitter under the microscope,** Social Computing Lab, Cornell University,pp2,3. http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstract_id=1313405&http://papers.ssrn.com/sol3/papers.cfm?abstrac t_id=1313405

(6)- عباس مصطفى صادق، **الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات**، مكتبة الشروق، جلة،2008 ، ص 22.

(7)- عبد الرزاق محمد الدليمي **الإعلام الجديد والصحافة الالكترونية**، دار وائل للنشر، ط 1،الأردن 2011، ص 194.

(8)- عباس مصطفى صادق، **مصادر التنظير وبناء المفاهيم حول الإعلام الجديد**، ورقة بحثية مقدمة في المؤتمر الدولي للإعلام الجديد، البحرين، 2009، ص34.

(9)- إبراهيم بعزيز ، **دور وسائل الإعلام الجديدة في تحول المتلقي إلى مرسل وظهور صحافة المواطن**، مجلة الإذاعات العربية ، العدد 3 ،الجزائر،2011، ،ص48.

(10)- موسى جواد الموسى وآخرون ،**الإعلام الجديد تطور الأداء و الوسيلة والوظيفة** ،سلسلة مكتبة الاعلام والمجتمع ،بغداد،2011،ص12.

(11)-اسعيداني سلامي، **استراتيجية الإعلام الجديد في دعم و تنمية الفكر الاجتماعي.... رؤية استشرافية في المضامين الإعلامية الاجتماعية**، ورقة بحثية مقدمة في مؤتمر الإعلام الجديد وقضايا المجتمع المعاصر(التحديات والفرص)، بسكرة،2014،ص ص،4.3.

(12)- جمال لعلامي ،**حرب بلا شهود!**، مقال الرأي ،جريدة الشروق ،.**2013/01/15**

الموقع:

http://www.echoroukonline.com/ara/articles/154022.html
Accessed: 08/03/215 2h17

(13)- السيد حجاج ،**حرب مالي بلا صور بلا مبادئ بلا قوانين**، جريدة نافذة اليوم الكترونية، 19/01/2013. الموقع:

http://www.fayoumwindow.net/News/1488/Default.aspx
Accessed: 18/03/2015/ 18h33.

(14)-بوحنية قوي،**الجزائر والهواجس الأمنية الجديدة في منطقة الساحل الإفريقي المخاوف من استنساخ داعش في الساحل الأزماتي** مركز الجزيرة للدراسات،قطر،2014،ص.ص 5-6.

(15)- بوعلام غمراسة، "لسنا معنيين بمشروع قيادة القوات الأميركية في الساحل الإفريقي: وزير الخارجية الجزائري ينفي وجود قواعد عسكرية لواشنطن في بلاده"، الشرق الأوسط، الرياض، في الموقع:

http://www.aawsat.com/details.asp?section=4&article=408977&issueno=10323 Accessed: 23/04/2015/ 20h43.

السلوك الصوفي بين السلمية والاستسلام

د. دريس بن مصطفى
جامعة سعيدة

Abstract:

Noon mysticism as a result of deviation behavior among some Muslims who have distanced themselves from what Islam promotes moderation and centrism and move away from the negligence and excessive behaviors and life balance between spirit and matter, which has necessitated the emergence of a stream opposite tendency of a spiritual nature, calls for asceticism and asked Naim afterlife was mysticism which found a lot of the Islamic commitment to moderate behavior.

Keywords:

mysticism - Islam promotes - the Islamic commitment - negligence.

ظهر التصوف كنتيجة لانحراف سلوكي لدى بعض المسلمين الذين ابتعدوا عما يدعو إليه الإسلام من اعتدال ووسطية وابتعاد عن التفريط والإفراط في السلوكات الحياتية والموازنة بين الروح والمادة، وابتدعوا فتسابقوا على عرض الدنيا و بهارجها وملذاتها، الأمر الذي استدعى ظهور تيار ونزعة معاكسة ذات طابع روحي، تدعو إلى الزهد وطلب نعيم الآخرة فكان التصوف الذي وجد فيه الكثير ضالتهم للالتزام بالسلوك الإسلامي المعتدل.

نحن هنا لا نتحدث عن من تصوفوا نتيجة لحالة أفول أصابت الفكر الإسلامي -كما هو الحال في الوقت الحاضر فغرقوا في التصوف

وفي المبهم وفي المشوش، وفي النزعة إلى التقليد الأعمى كما أشار إلى ذلك -مالك بن نبي([1])، وإنما عن أولئك الذين اكتفوا بحسن الخلق والزهد في الدنيا والتأدب بآداب الشّرع، فلقّبوا بالنساك والقراء والزهاد والعباد، والذين أقبلوا على دراسة النفوس وآفاتها، وحرصوا على الصيغة المذهبية فلقّبوا بالصوفية، أو بمعني السلوك الإسلامي وترقيق القلوب والزهد في الدنيا لا تلك التي ابتدعت فابتعدت عن خط أهل السنة والجماعة، لأن التصوف أسمى من ذلك، فهو أكبر تيار روحي يسرى في الأديان جميعها، وبمعنى أشمل يمكن تعريفه بأنه إدراك الحقيقة المطلقة سواء سميت هذه الحقيقة حكمة أو نورا أو عشقا([2])،لأن التصوف كفكرة ظهر بظهور الإنسان من خلال محاولاته الأولى للتطلع إلى معرفة الغيب واستشراف عالم ما وراء الطبيعة([3]).

إن الدارس لتاريخ التصوف يدرك بأن الطرق الصوفية قامت بدور هام وفعال في إرساء دعائم وأسس السلم في المجتمعات الإسلامية والعربية لدرجة أنها وصفت من طرف البعض بصفات عديدة تخرجها من إطار ونطاق السلم إلى الاستسلام والخضوع والخنوع وغير ذلك من الصفات التي حاول البعض إلصاقها بها.

فإلى أي مدى استطاعت الطرق الصوفية إشاعة السلم بين مريديها وأتباعها أولا، وفي المجتمعات المحيطة بها ثانيا ؟ وهل كان سلوك المتصوفة سلبيا مسالما في كل الحالات، أم كان عنيفا في الحالات التي يتطلب فيها الأمر ذلك؟ وهل كان سلوك المتصوفة المتمثل في العزلة والنأي عن التطاحن الحزبي والديني تغطية لعجزهم في مواجهة تحديات الحياة والقيام بالمسؤولية التي خص الله بها الإنسان المسلم خاصة في هذه الأرض وهي

إقرار المصالحة بين الأخوين المتخاصمين أو محاربة الباغي إذا رفض المصالحة؟ كل هذه التساؤلات سنحاول الإجابة عنها من خلال مقالنا.

نزل القران الكريم على المصطفى صلعم الذي تأدب بأدب القرآن فاجتباه الله ليبلغ رسالة السماء، ليصلح بها الإنسان كي يصلح به الكون، ومن هنا يشمل الدين الإسلامي –والأديان السماوية الأخرى – ضمن مفاهيمها تكريم هذا الإنسان والحرص على استقامة السلوك البشري وتهذيب معاملاته مع ربه من ناحية، ومع بني جنسه من ناحية أخرى ليقوم بنيان الأمة الإسلامية على أساس متين ولبنات صلبة متماسكة([4]).

إذن هناك أناس ينتسبون إلى التصوف، وأخذوا بجانب الصوفية لظنهم أنها الطريق الوحيد لتربية النفس، فهم لا يتعمقون في التصوف المنحرف المؤدي إلى الضلالة أو الكفر([5])، فلم يكونوا من أولئك الكسالى المتواكلين، والمتشائمين البعيدين عن أوامر الله ومنفعة المجتمع الذين أنتجهم التصوف الخاطئ، أو أولئك الذين اعترفوا بالعجز والتسليم وبالضعف وقلة الحيلة فأعرضوا عن الأرض التي بذل الصحابة والمؤمنون أرواحهم في سبيل الاحتفاظ بها، وتركها الصوفية وشأنها لمن يستولي عليها، وهيئوا بهذا السلوك الانهزامي الفرصة لأعداء الإسلام أن ينالوا ما نالوه من أرض الإسلام([6]).

–معالم الدعوة إلى السلم لدى الصوفية:

إن السلم أو الأمن كما يعرفه البعض هو عدم توقع مكروه في الزمان الآتي، وأصله طمأنينة النفس وزوال الخوف، والسلم أيضا هو الصلح والمسالمة([7])، ففيما تجلّت معالم السّلم في سلوك المتصوفة والدعوة إليه في المجتمعات المحيطة بهم؟

كان أهل التصوف أكثر الناس دعوة لنبذ كل شيء من شأنه أن يؤدي إلى التصادم والعنف، فنجد الأمير شكيب أرسلان يروي عن أحمد الشريف السنوسي أن عمه الأستاذ المهدي كان يقول له:((لا تحتقرن أحدا لا مسلما ولا نصرانيا ولا يهوديا ولا كافرا، لعله يكون في نفسه عند الله أفضل منك، إذ أنت لا تدري ماذا تكون خاتمتك))([8]) ولأن مثل هذا التعصب الديني هو الذي يؤدي إلى نشوء الفتن والمصادمات، ومن ثمة تأتي حالة عدم الأمن وعدم الاستقرار التي تهدد السّلم الاجتماعي رغم أن البعض يرى في هذا الكلام خطأ لأن المسلم يحتقر الكافر لكفره وعندما يسلم يحترمه لإسلامه ([9]).

وفي نفس السياق نجد ابن منازل يقول لابن حمدون:((أوصني))، فقال: ((إن استطعت ألا تغضب لشيء من الدنيا فافعل))، وقال أيضا: ((إذا رأيت سكرانا فتمايل لئلا تنعى عليه فتبتلى بمثل ذلك)) [10]، فكان يدرك جليا بأن الدنيا ومتاعها ومحاسبة الناس وفقا لهوى النفس لا يؤدي إلى الصلاح وإنما يتأتي ذلك بالطرق السلمية والحوار والمجادلة الحسنة، وسئل الحارث بن أسد المحاسبي(بغداد)صاحب كتاب الرعاية لحقوق الله عن حسن الخلق فقال: ((حسن الخلق هو احتمال الأذى وقلة الغضب وبسط الوجه وطيب الكلام)) ([11])، فبهذا نجده يشير إلى أهم الركائز التي قد تساعد على إرساء السلم أوعلى الأقل توقف من حدة التصادم واتساع نطاقه .

أما أبو بكر الدّلائي([12]) المتوفى عام 1021هـ/ 1612م والذي كان يعقد في زاويته مجالس للوعظ والإرشاد فيفتتحها دائما بقوله: ((روى الحسن بن الحسن عن جده الحسن إن أحسن الحسن الخُلق الحسن))

([13]) وذلك لما كان يدركه من أثر الأخلاق الحسنة في نفس صاحبها ونفس المحيطين به.

لعبت الطرق الصوفية أو بالأحرى الربط إلى جانب دورها الدفاعي والعسكري دورا علميا أكدت من خلاله سلميتها ولجوئها إلى العقل والمجادلة الحسنة في مواجهة المخالفين والخصوم وخاصة في بلاد المغرب، حين بدأت التيارات الفكرية والمذهبية تتبلور بعد أن كانت قد عصفت بالمشرق، فقد دفعت تلك الأحداث بالمقيمين بتلك الربط أو المحارس إلى التفقه في الدين لا لشيء إلا لمواجهة تلك التيارات الخارجية بدل اللجوء إلى القوة والعنف، خاصة وأن علماء وفقهاء المالكية بدؤوا في تثبيت أقدامهم في منطقة بلاد المغرب.

حاول المتصوفة من خلال تصرفاتهم مع ذويهم وإيمانهم الراسخ بقدرة الله إنصاف المظلوم والانتقام له من الظالم أن يؤسسوا لثقافة السلم داخل مجتمعاتهم، وهذا ما نلحظه في القصائد المنظومة لبعضهم كعبد الكريم الفكون المشهور بمؤلفه (منشور الهداية) الذي ألف قصيدة في التصوف يتذلّل بها إلى الله سماها ((سلاح الذليل في دفع الباغي المستطيل)) مطلعها.

بأسمائك اللهم أبدي توسلاّ فحقق رجاءي يا الهي تفضلا

و يبدو أن الفكون استعمل هذه القصيدة عند الشدة التي لحقته من بعض البغاة، كما أن أحد تلامذته وهو محمد وارث الهاروني قد نسخها منه، واعتمدها ضد عمه الذي بغى عليه واشتكى إلى الفكون منه([14]). كما كان ابن معزة ([15]) أيضا من المشتغلين بالعلم والشعر، وكان

يستعمل شعـــــــره كأداة ووسيلة للدفاع عن شيخه أحمد بن يوسف ضد خصومه([16]) دون اللجوء إلى التعنيف أو رد الأذية بمثلها.

أما حاتم الأصمّ فقد جعل شرطا لأتباعه بقوله: ((من دخل مذهبنا هذا فليجعل في نفسه أربع خصال من الموت، موت أبيض وموت أسود وموت أحمر وموت أخضر، فالموت الأبيض الجوع ـوالموت الأسود احتمال أذى الناس، والموت الأحمر مخالفة النفس، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض))([17]).

إن في هذا الكلام حكمة تحمل في طياتها تنبيها إلى كل ما من شأنه أن يبعد الإنسان عن ربه ودينه ويفسح له المجال أمام شهواته التي تكون دوما سببا في تعاسته من جهة وسببا في تصادم وتقاتل الناس، فالصبر على الجوع وأذى الناس ومخالفة النفس كلها أمور تصب في هذا الإطار.

هذا ولقد كان للمتصوفة المغاربة دور إيجابي في مساندة الأهالي ضد مظالم الحكام الذين كانوا يستجيبون لهم لما كان لهم من مكانة كبيرة في قلوب العامة ورهبة الحكام إياهم اعتقادا منهم في أنهم مستجابو الدعاء، وهذا ما كان له أثره في إقبال المغاربة على المتصوفة وميلهم إلى التصوف([18])، فكانوا بذلك درعا حاميا للأهالي وسندا يضمن لهم نوعا من الأمن والطمأنينة .

امتاز أهل التصوف بكل الشمائل والّسلوكات التي تؤدي إلى التآلف ونبذ الخلاف والشقاق، ففي المغرب نجد محمد بن ناصر الدرعي الأغلاتي الذي ينسبه البعض إلى الصحابي الشهير المقداد، والذي كان متصدقا وصولا للرحم، فما كان أوصل منه([19]) تأسيا بالرسول (ص) الذي يقول: ((تصافحوا فان التصافح يذهب غل الصدور وتهادوا فان التهادي يجلب المحبة))([20]).

ويبين لنا الشيخ الحبيب عبد الله بن علوي الحداد الحضرمي الشافعي في كتابه -رسالة آداب وسلوك المريد-كيف يكون المريد والمتصوف مع نفسه ومجتمعه بقوله: ((وليبالغ في تنقية قلبه الذي هو موضع نظر ربه من الميل إلى شهوات الدنيا، ومن الحقد والغل والغش لأحد من المسلمين ومن الظن السوء بأحد منهم، وليكن ناصحا لهم رحيما بهم مشفقا عليهم، معتقدا الخير فيهم يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير ويكره لهم ما يكره لنفسه من الشر))([21]).

وفي موقع آخر من الرسالة نجده يقول: ((احذر الدعاء على من آذاك ولا تقل إذا أصابته مصيبة هذا بسبب أذاه لي، وأفضل من الصبر على الأذى العفو عن المؤذي والدعاء له، وذلك من أخلاق الصديقين ....))([22]).

وفي خاتمة الكتاب -التتمة -والتي يورد فيها بعض أوصاف المريد الصادق فيقول((إن ظلم تاب واستغفر، وان ظلم عفا وغفر...ولا يؤذي من أذاه ولا يجفو من جافاه، كالنخلة ترمى بالحجر فترمي بالرطب، وكالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح)) ([23]).

لا شك أن التزام المتصوف أو المسلم بهذه الأخلاق -رغم ما تبدو عليها من مثالية قد تفوق الإنسان العادي لأنها من صفات وشيم الأنبياء والصحابة- يغلق الباب أمام كل أسباب القلق والتوتر والتصادم مع الغير التي قد تفسد الأمن والسّلام بين المسلمين.

إن التصوف لم يحل بين أهل المغرب ومذاهبهم إلا الشّاذة منها، فالتيار السّني والتيار الصوفي في بلاد المغرب كانا متداخلين تداخلا شديدا، إلى الدرجة التي يجمع فيها كثير من العباد المغاربة بين التصوف

والسنة في آن واحد، وكان كثير من أعلام التصوف المغربي هم في نفس الوقت من أعلام المالكية أو السنية المغربية على وجه العموم ([24]).

كان للتصوف دور كبير في الضبط الاجتماعي في كثير من الأقاليم، وخاصة تلك التي يتشر فيها عادة الأخذ بالثار، فكلمة طيبة بسيطة من رجل صوفي ملهم لها فعل السحر في النفوس، تقضي على دواعي الشر والفتنة، فإذا بالمتنازعين جميعا إخوة متحابون متآلفون يسعون في سبيل الخير والوئام والصالح العام، وبذلك كان للشيخ تأثير ايجابي ودور فعال في فض النزاعات وإقامة السلام وتحقيق الأمن والقضاء على التشاحن والتباغض وحل المشاكل على اختلافها، سواء كانت دينية أو دنيوية، وكل هذه الأمور تكون مقومات الأثر الفعال للتصوف والطريقة الصوفية على المجتمع في دفع عجلة الحياة إلى الحركة والتسامي والتقدم، لذلك قد يكون ضرورة لا بديل لها في مكافحة الجريمة ومقاومة الانحراف وإيقاظ الضمير وتحقيق الضبط الاجتماعي وتدعيم القيم وترسيخها، إذ الطريقة تتغلغل في حياة أعضائها الدينية والاجتماعية والعلمية والتربوية والفكرية مما يجعلها ذات أثر فعال على كافة أنماط سلوكهم مع مختلف الأفراد الذين يتعاملون معهم ([25])، ويتضح من ذلك أن تغيرا واضحا وملحوظا في المتصوف يبدو أساسا في تغيره معنويا وهذا ينعكس في سلوكه الذاتي الناتج عن بعض الإشعاعات الفردية المترتبة على بعض التغيرات التي تصيبه في بداية الطريق كالهدوء النسبي عوضا عن العصبية والمودة والرحمة في المعاملة بدلا من الشدة وغيرها من الصفات الذاتية ([26]).

-مظاهر السلوك السلمي لدى الحركات الصوفية :

إذا عدنا إلى العهود الأولى للإسلام نجد الميول إلى السلم والابتعاد عن كل صدام قد ظهرت مع الفتن الأولى التي عرفتها الأمة الإسلامية،

والتي بدأت بمقتل الخليفة عثمان بن عفان بعد محاصرته في بيته وعدم تمكن كبار الصحابة وعلى رأسهم علي بن أبي طالب- كرم الله وجهه - من التصدي لهذه الفتنة، ثم معارك علي كرم الله وجهه (أزهد الناس في الدنيا) ([27]) مع مخالفيه المجتمعين تحت لواء عائشة بنت أبي بكر، ثم كان ما حدث بين علي ومعاوية بعد أن عزله عن ولاية الشام، فكانت موقعة صفين سنة 37هـ إذ اقتتلا مائة وعشرة أيام، قتل فيها من الفريقين عدد كبير، فانتهى الاقتتال بتحكيم أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص وبين علي والخوارج في النهروان([28]) سنة 38هـ بعد أن نقموا على الإمام علي رضاه بالتحكيم، ثم الحروب بين معاوية وأولاد علي رضي الله عنه(الحسن والحسين)، كل هذه الحوادث أثرت في نفوس المتدينين الحقيقيين من المسلمين بحيث تركت في نفوسهم أثرا عميقا يحمل نوعا من التشاؤم ودعتهم إلى ترك المتحاربين وعدم مشاركتهم في حروبهم، ففروا بدينهم حفاظا عليه([29])، وعلى رأسهم الحسن بن علي الذي أشار عليه أهل العراق بالمسير إلى الشام لمحاربة معاوية بن أبي سفيان، وعندما تقارب الجيشان في موضع (مسكن) بناحية الأنبار لم يستشعر الحسن الثقة بمن معه وهاله اقتتال المسلمين، فكتب إلى معاوية يشترط شروطا للصلح، ورضي معاوية فخلع الحسن نفسه من الخلافة وسلم الأمر لمعاوية في بيت المقدس سنة41هـ، فسمي هذا العام بعام الجماعة لاجتماع كلمة المسلمين فيه.

وبهذا تكون قد ظهرت في هذه الحوادث التي ألمت بالمسلمين أولى تجليات التصوف الإسلامي الحقيقي الداعي إلى نبذ العنف وإعمال العقل والحلول السلمية بدل القوة، رغم التواجد في موقع القوة، وذلك امتثالا للشرائع الدينية الإسلامية لأن الإسلام أمر بالتدخل في مثل هذه الحالات

بإصلاح ذات البين حفظا لأرواح ودماء المسلمين مصداقا لقوله تعالى:((وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله.....)) ([30]).

وبعد أن تجذر التصوف وأصبحت له طرقه ومريدوه ازدادت تجليات السلوك السلمي، فقد لعبت الزوايا والطرق الصوفية خاصة في المناطق الريفية أين يغيب القضاء الرسمي، دورا هاما في الحفاظ على الأمن والسلم،لأن السلطة في الزاوية كانت بيد مجلسها الذي كانت مهمته هي النظر في مشاكل الأهالي وفض المنازعات، أو بيد شيخ الزاوية الذي يطلق عليه اسم –المقدّم– وهو كما يقول أرسلان القيّم على الزاوية الذي يتولى أمور القبيلة ويفصل الخصومات ويبلغ الأوامر الصادرة من رئيس النظام .

كان فض المنازعات في الزاوية يتم باتخاذ رئيس الزاوية مجلسا من الشيوخ والأعيان، فيدرسون القضية من كل الوجوه، فما كان يفض منها بطريقة شرعية يصدر رئيس الزاوية التي يتولى فيها منصب القضاء الحكم في القضية، وما كان يفض بطريقة التقاليد المتبعة والعادات فيحسم أيضا بذلك، ومنها ما يفضّ بطريقة الصلح فيتفق المجلس على ما يجب إجراؤه ويصبح الأمر نافذ المفعول، وكل مشكلة عويصة تحدث بين القبائل ويخشى بسببها وقوع الفتن والفساد يتعاون رئيس الزاوية والقبائل وأعيانها ورؤساء الزوايا أو الزاوية المتاخمة له، ويضرب لذلك موعدا يحدد زمانه ومكانه وهناك يحسم بدون عناء وما صعب من ذلك وتشعبت المداولة فيه والأخذ والرد بين رؤساء الزاوية والشيوخ يرفع إلى الزاوية الرئيسية أو الأم في المنطقة حيث يصدر القرار النهائي ([31]) ومن ذلك ما قامت به –الزاوية السنوسية– بليبيا.

مثل الخصام الذي وقع بين أهالي هون وسوكنه، واستطاعت زاوية –هون– السنوسية أن تزيله، فاستطاعت بذلك أن تجعل من القبائل في الصحراء الكبرى مجتمعا متماسكا كالجسد الواحد، وهذا مطلب من مطالب الشّرع الإسلامي الذي يدعو إلى التآخي ونسيان الأحقاد، فالزاوية السنوسية اهتمت بالقضاء على المنازعات والخصومات بين عشائر البدو في ليبيا وخاصة في برقة، واهتمت بعقد الصلح وتوطيد أركان الإسلام والإخوة بين شعوب الصحراء المتطاحنة خاصة وأن بعض الحروب كانت سببا في قتل عدد كبير من الناس وإيجاد الفتن، لذلك فالسنوسية تمثل وظيفة تحقيق الصلح والتراضي بين الشعوب المتنازعة كعامل من عوامل الضبط الاجتماعي([32]).

لا خفاء أن تامين السبل وتمهيد الطرق يعد من أفضل الأعمال، كما أن إخافة السبل يعد من أقبح المعاصي، وهذا مما لا يحتاج إلى تمهيد الدلائل عليه، ولهذا رأى أبو الحسن المريني أن يؤمن الطرق وذلك بتعمير طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبتة وغيرها من البلاد بالرتب(وهي خيام) يأمر بسكناها على مقدار اثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم على ذلك إقطاع من الأرض يعمرونها على قدر الكفاية ثوابا على سكنى المواضع المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم على اختلافها والمرافق التي يضطرون إليها هم وبهائمهم، ويحرسونهم ويحوطون أمتعتهم فان ضاع بينهم شيء تضمنوه فلا يزال المسافر كأنه في بيته وبين أهله في ذهابه وإقباله ،وقد جرى هذا النمط واستمر والحمد لله في بلاد المغرب ([33]).

ولما قامت الفتنة في المغرب بين أبناء المنصور الذهبي واسود أفق المغرب وانقطعت السبل وتغلب الأقوياء على الضعفاء وكثر السلب والنهب لانعدام السلطة التي تسهر على حفظ النظام، كان الشيخ أبو بكر الدلائي بما له من المنزلة الرفيعة عند القبائل البربرية يكف أيدي الجناة عن الجرائم وينصف المظلوم من الظالم ويدفع بالتي هي أحسن، فكان بذلك ملاذا آمنا لكل من خشي نوائب الدهر وسطو الأقوياء والظَّلمة([34]).

كما عملت بعض الزوايا والطرق الصوفية على نشر السلام والأمن بين أهل البلد وذلك من خلال الّرباطات الداخلية التي وفرت الأمن والاستقرار في المواضع المخوفة فأمنت الطرق ووفرت الطمأنينة للمسافرين والتجار في مواضع كانت فيما مضى مأوى لأهل الفساد وقطاع الطرق فتواجدت على طول الساحل المغاربي جملة من الرّباطات نذكر منها في افريقية (تونس) رباط المونستير([35]) ورباط سوسة الذي أقامه زيادة الله الأغلبي 206ه/ 822 م وعموما فقد كانت هذه الرباطات تمتد إلى أقصى المغرب الأقصى وكانت تمثل في عمومها قوة صدام تذود عن المسلمين وتوفر لهم الأمن والسلام ويأوي إليها أهل تلك المناطق إذا غزاهم الروم فهي مفزع لهم وغوث للمسلمين([36])، أما بالمغرب الأوسط (الجزائر) فتواجدت مجموعة من المحارس منها مرسى بونة-عنابة-المنيع الذي كانت تخرج منه السفن لتغزو بلاد الروم وجزر سردانية وكورسيكا وما والاها وشرشال التي تواجدت بها جملة من الربط التي يجتمع إليها خلق كثير في كل عام ورباط ساحل تلمسان مثل تانكرامت وحصن مرنية البير وحصن الوردانية وحصن هنين وغيرها([37])،زيادة على هذا فقد وفر سكان الربط الأمن والاستقرار في الديار الصحراوية النائية، فأصبح بإمكان القوافل عبور تلك الطريق بأمن وسلام دون أن

يتعرض لها أحد بسوء، الأمر الذي أدى إلى ازدهار التجارة ([38])،لأن السلم والأمن والاستقرار أساس وشرط لكل انتعاش اقتصادي.

لعبت الطرق الصوفية دورا هاما في ترسيخ قيم السلم والمصالحة وخاصة في بلاد المغرب بدءا من يوسف بن تاشفين الذي دفعت أعماله وصفاته المؤرخ الألماني أشباخ إلى الاعتراف له بما قام به من توحيد الصفوف وزرع السلام بين القبائل والأمم الأفريقية الممزقة: ((انه أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذي يلوّح أن القدر اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ، فهو الذي جعل من افريقية الممزقة شر تمزق مملكة عظيمة موحدة وهو الذي بث روحا قوية في القبائل والشعوب التي يحكمها وقد أفضت هذه الروح إلى تحقيق العجائب))

قامت الزوايا بدور اجتماعي مهم ألا وهو ما ضمنته للقبائل من أمن وطمأنينة ومصالحة بينها، وتشجيعها على الاستقرار، إذ بحكم استقرار هذه الزوايا اضطرت كل قبيلة لأن تحافظ على صلتها الدائمة بزاويتها الخاصة بها، وقد اقتضى منها هذا الموقف عدم البعد عنها حتى يسهل لها الاتصال بها كلما دعت الضرورة إلى ذلك، وبمرور الزمن تعودت القبيلة نوعا من حياة الاستقرار والإقامة بعد أن كانت لا تعرف لذلك سبيلا.

كانت زاوية الجوف (واحة الكفرة) التي كان ابن السنوسي قد عهد ببنائها إلى بعض المشايخ عقب إجلاء قبائل التبو البربرية بضغط من قبائل زاوية العربية يوم ذاك مأوى للدعارة واللصوص ومعقلا حصينا لقطاع الطريق، وكان يتناوب على غزوها ثلاث قبائل كل منها يدعي ملكيتها، وهي قبائل الجهمة من مصر وقبائل التبو من شمال السودان وقبائل زوية من برقة، وبذلك فقد كونت خطرا على السابلة وقوافل التجارة إلى أن

أنشئت بها الزاوية السنوسية، فأصبحت دار أمن وسلام ومشرق الهداية والعرفان، وفي وصفها قال العلامة محمد عبد الله السني من قصيدة عصماء امتدح بها محمد المهدي السنوسي.

طابت وطاب بها المأوى لذي شجن دار السلامة للإسلام مهتجر
تأوي الوفود لها من كل ناحية مأوى الحجيج إذا ما جاء يعتمر

مثلت الزوايا نبراسا للتائهين وموطن سلام وأمن لمن تقطعت بهم السبل نهارا وليلا، لأن الزاوية السنوسية كانت تتكون من بيت خاص لإسكان الشيخ وبيوت خاصة بالضيوف أين يتم إطعامهم إلى جانب الفقراء والمساكين([39]) فالزاوية السنوسية على سبيل المثال لا الحصر كانت مسجدا ومضيفة وخلوات لسكنى الأتباع ومقرا لإيواء اللاجئين، وهي بمثابة محط رحال للقوافل([40])، وفي هذا المجال نجد الربط قد أدت خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق [41]،فكان رباط السنغال الذي أقامه عبد الله بن ياسين في الحوض الأدنى لنهر السنغال بالقرب من مملكة غانا الوثنية وغير بعيد عن ديار الملثمين الذين قد يلجأ إليهم في حالة الخطر، منارة شع نورها في ظلمة الصحراء على حد تعبير المالكي([42]).

وكان إذا التجأ شخص أو مجموعة من الأشخاص إلى إحدى الزوايا لسبب ما فعلى الزاوية والحالة هاته حمايته والسّعي لإزالة السبب الذي دفعه للالتجاء إليها بموجب نصوص الشريعة أو ما يتفق عليه من العرف والتقاليد المتبعة .

أصبحت الزوايا بعد تأسيسها تسير من طرف شيوخ الصوفية – المرابطين– وقد حظي هؤلاء المرابطون في أوساط الجماهير الشعبية

بالاحترام والتقدير نظرا لما كانوا يقومون به من نشر للعلم ومحاربة الجهل وإصلاح بين الناس وإطعام للفقراء والمساكين وعابري السبيل ونشر آداب الإسلام وأخلاقه من رحمة وأخوة وتسامح وتعاون وتضامن، فنجد الطريقة العقادية الشاذلية بمصر رغم دورها الذي كان ضئيلا تغرس في نفوس أتباعها المودة والرحمة من خلال القول المأثور الذي جعلت منه شعارا لها ((تحابوا كالأقارب وتعاملوا كالأجانب))([43]).

امتاز أهل التصوف بكل الشمائل والسلوكات التي تؤدي إلى التآلف ونبذ الخلاف والشقاق، ففي المغرب مثلا نجد محمد بن ناصر الدرعي الأغلاتي([44]) وكذا أحمد بن إبراهيم الدرعي الذي كان في العطاء والكرم بحرا، ويسارع نحو كل ما يؤلف بين القلوب ويبتعد عن كل ما يقسي القلوب، حتى أن حساء العدس لم يكن يفارقه لما روي في الحديث أن نبيا من الأنبياء اشتكى إلى ربه قسوة قلوب أمته فأمرهم بأكل العدس فأكلوه ورقت قلوبهم، وكان حسن الخلق ودودا مسالما ما جالسه أحد إلا ظن الجليس أنه المستبد بصحبته ومحبته دون جميع الناس([45]).

إذن فقد امتاز أتباع الطرق الصوفية ولا يزالون بالتسامح والمسالمة وخاصة أتباع الطريقة القادرية متأثرين في ذلك بأقوال شيخ طريقتهم عبد القادر الجيلاني المتوفي عام 561ه/ 1166م وتعاليمه ومواعظه مثل قوله لهم "اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واتحدوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا واجتمعوا على الذكر ولا تتفرقوا وتطهروا من الذنوب ولا تتناطحوا، وعن باب مولاكم فلا تبرحوا "([46]) وهنا أيضا نلاحظ دعوة صريحة إلى السلم والمصالحة ونبذ الصدام العنف.

كثيرا ما تقلد رجال الصوفية مناصب القضاء التي تعتبر من أكثر المناصب حساسية، لما لها من أثر إما في استتباب الأمن أو انتشار الفوضى

وظاهرة الثأر والانتقام للنفس، ولهذا فقد كانت مهمة أولئك الصوفية القضاة صعبة ودقيقة جدا، سواء فيما حكموا به بين الناس بطريقة رسمية داخل المؤسسات القضاء،أو بطريقة غير رسمية تتم خارج المحاكم بطريقة ودية وحبية يرتضي فيها الطرفان بحكم ذلك الرجل، ومن بين من ولي هذه المهمة الفقيه الصالح القاضي سيدي عبد المؤمن بن محمد الذي كان فقيها صالحا ناصحا ورعا، ولي القضاء بالزاوية البكرية وكان أعدل قضاة زمنه، ومن أولئك أيضا سيدي محمد الرقاد بن أحمد الفيرم بن سيدي عمر الشيخ الكنتي الولي الصالح العابد المتنسك الذي كان يأتيه القوم لحل معضلاتهم وما كانوا فيه يختصمون، ففي ذات مرة أتاه قوم يختصمون في معضلة فوجدوه نائما فقضى بينهم وهو نائم، ولهذا سمي بالرقاد([47])، وكذا علي بن محمد المربي الشريف المتوفى سنة1053 الذي ولي قضاء فاس لما كان معروفا عنه من علم ونباهة ([48]) .

إذا كانت الطرق الصوفية قد استعملت القوة في مواجهة الغزو الصليبي للبلاد الإسلامية والعربية باعتبار ذلك أمرا مشروعا، فإنها جنحت إلى السلم في نشر الإسلام، مثل الطريقة القادرية والطريقة التيجانية التي استعملت وسيلة التجارة في ذلك، ووصل مبعوثوها ورسلها إلى بلاد السودان والسنغال والغابون والكونغو وبعض أجزاء آسيا مبدين ومقدمين الإسلام على أحسن وجه كما فعل المسلمون الأوائل حينما قاموا بنشر الإسلام في أقاصي الأرض عن طريق الأخلاق الفاضلة والأمانة والصدق في المعاملات التجارية والمالية، فنجد ابن السنوسي يتبع أسلوبا دعويا مستمدا من الكتاب والسنة، وقد نجح في إرشاد الطرق الصوفية المنحرفة وتعامل مع الرقيق من الأفارقة بأسلوب

سلمي رفيع،فاشتراهم واعتقهم وعلمهم ثم أرسلهم دعاة إلى قبائلهم([49]).

إذن من هنا نخلص إلى القول بأن للتصوف وجهان: تصوف عملي ساهم في تكريس القيم الإسلامية الحقّة داخل المجتمعات الإسلامية بداية وانطلاقا من المريدين والأتباع ، فانتشرت معها قيم السلم والمصالحة ، وتصوف بدعي حاد عن جادة الدين وانغمس في الشطحات والّسلوكات غير السوية والتي يرفضها الكثير ويرفضون معها التصزف جملة وتفصيلا وفي مثل ذلك التصوف قال أبو بكر الجزائري((إن كان التصوف من الإسلام فالإسلام يكفينا، وإن كان غير الإسلام فهو لا يعنينا)).

الإحالات:

---

[1]. انظر، محمد العبده وطارق عبد الحليم، الصوفية نشأتها وتطورها،ط2،دار الأرقم ،الكويت، 1417ه/ 1997م، ص5.

[2]. أنا ماري شيمل، الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، ط1، ترجمة محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب، منشورات الجمل، كولونيا،ألمانيا -بغداد2006 .

انظر عبد الحليم محمود،المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن الشاذلي،دار الكتب الحديثة،القاهرة،ص242. [3].

[4]. عمر عطا الله أبو أصبع ،موقف الإسلام من التصوف،رسالة ماجستير ،معهد الدراسات الإسلامية ،وزارة التعليم العالي، 1398 ه-1978م،ص15.

[5].انظر محمد العبده وطارق عبد الحليم، الصوفية نشأتها وتطورها ،ط2، دار الأرقم،الكويت،1997 ،ص10.

[6].عمر عطا الله أبو أصبع،المرجع السابق،ص46.

[7]. انظر الرازي(ابن أبي بكر) مختار الصحاح،طبعة خاصة،دائرة المعاجم ،مكتبة لبنان،1986،ص132.

[8]. شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي،الجزء 2– ص164.

[9]. محمد العبده –طارق عبد الحليم، المرجع السابق، ص61 .

[10]. أبو عبد الرحمن السلمي،الطبقات الصوفية ،ط2،تحقيق أحمد الشرباصي، مؤسسة دار الشعب،1998،ص40.

[11]. نفسه ، ص22

[12]. نسبة إلى الزاوية الدلائية، يشهد له بأنه كان جميل الهدي كثير السلام خافض الطرف قليل الكلام نجد حسن العشرة شديد المحافظة على العهد كريم الأخلاق داعيا إلى المحبة والتسامح والتصافي،انظر محمد حجي، الزاوية الدلائية ودرها الديني والعلمي والسياسي،المطبعة الوطنية بالرباط، 1964، ص45.

[13]. محمد حجي ،نفس المرجع ،ص45.

ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1،ج2، –1500–1830–دار الغرب الإسلامي ،1998ص140.[14].

[15]. القلعي نسبة إلى قلعة قلعة هوارة القريبة من تلمسان المولود سنة 923 هـ هو والد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن علي الصباغ .

أبو القاسم سعد الله ،المرجع السابق،ج2،ص114.[16].

[17]. أبو عبد الرحمن السلمي، المرجع السابق، ص30.

[18]. محمد بركات البيلي، الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس، مطبعة جامعة القاهرة والكتاب الجامعي، القاهرة،1993.ص103 .

[19]. محمد بن الطيب القادري، موسوعة أعلام المغرب، القسم الثاني، تحقيق محمد حجي ،أحمد التوفيق، ط1، دار الغرب الإسلامي، 1996م، ص1412 وما يليها.

[20]. محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا تقديم محمود بوعياد،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر1981م، ص451.

[21]. ابن علوي(الحبيب عبد الله)،آداب وسلوك المريد ،سلسلة كتب الإمام الحداد،دت، ص7.

[22]. نفسه، ص107.

[23].نفسه، ص115.

[24]. محمد بركات البيلي،المرجع السابق، ص104.

[25]. منال عبد المنعم جاد الله ، التصوف في مصر والمغرب ،منشاة المعارف بالإسكندرية،ص271.

[26]. نفسه، ص267 .

[27]. حسب ما يؤثر عن عمر بن عبد العزيز -فكان وهو أمير المؤمنين يأكل الشعير الذي تطحنه امرأته بيديها وأبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثارا للخصاص التي يسكنها الفقراء وكثيرا ما كان يقدم طعامه الذي لا يملك سواه لمسكين أو يتيم.

[28]. بكسر النون ،وهي ثلاثة نهروانات :الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي، وبها كانت وقعة لأمير المومنين علي مع الخوارج. انظر،ياقوت الحموي، معجم البلدان،د ار صادر بيروت لبنان،1977 م، ج5، ص124-125.

[29]. عمر عطا الله، المرجع السابق،ص112-113.

[30]. سورة الحجرات،الآية 90.

[31]. علي محمد الصلابي، الحركة السنوسية في ليبيا-الإمام محمد بن علي السنوسي ومنهجه في التأسيس التعليمي والحركي والتربوي والدعوي والسياسي ،ج1،ص132-133.

[32].انظر منال عبد المنعم جاد الله ، المرجع السابق، ص273.

[33]. ابن مرزوق، المصدر السابق، ص429.

[34]. محمد حجي، الزاوية الدلائية- ودورها الديني والسياسي-،المطبعة الوطنية بالرباط، المغرب، 1384ه/ 1964م، ص45.

[35]. أقدم محارسها وأبعدها صيتا وأعلاها شانا والذي توجد به عدة محارس او قصور منها القصر الكبير الذي بناه هرثمة بن اعين الوالي العباسي سنة179/795م،وفي هذا الشأن يقول أبو عبيد الله البكري((وقدم هرثمة بن أعين القيروان مستهل ربيع الأخر سنة سبع وسبعين ومائة ،فامن الناس وسكنهم واحسن اليهم وهو الذي بنى القصر الكبير بالمنستير وذلك سنة ثمانين ومائة على يدي زكرياء بن قادم))انظر الرقيق القيرواني، تاريخ افريقية والمغرب،ط1، تقديم وتحقيق ،محمد زينهم ومحمد عزب،دار الفرجاني للنشر والتوزيع،1994، ص124.

[36]البكري،المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، نشره دي سلان، الجزائر1857، ص57.. .

[37]. نفسه ،ص79-80-82-83.

[38]. سعدون عباس نصر الله، دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص28.

[39]. صلاح مؤيد العقبي،الطرق الصوفية والزوايا بالجزائر -تاريخها ونشاطها-ط2، دار البصائر،الجزائر 2009، ص277.

[40].صلاح مؤيد العقبي،المرجع السابق،ص271.

[41]. سعدون عباس نصر الله، المرجع السابق،ص26

[42]. المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وافريقية وزهادهم ونساكهم ،ج1،تحقيق حسين مؤنس،ا لقاهرة 1951، ص172.

[43]. منال عبد المنعم جاد الله ،نفس المرجع، ص273.

[44]. ينسبه البعض إلى الصحابي الشهير المقداذ "علما بان المقداد لا عقب له. انظر محمد بن الطيب القادري موسوعة أعلام المغرب ،القسم الثاني تحقيق محمد حجي ،أحمد التوفيق،ص1412.

[45]. أبو عبد الله محمد بن الطيب، نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني، مخطوط،رقم2500 – بالمكتبة العامة لمحافظة الرباط ورقة رقم183 وما يليها.

[46]. صلاح مؤيد العقبي، المرجع السابق، ص98.

[47]. العباس بن إبراهيم السملالي، الإعلام بمن حل مراكش و أغمات من الأعلام،ط2،مراجعة عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية بالرباط 1993،ج2، ص242.

[48]. محمد بن الطيب القادري ، المرجع السابق،ص1418.

[49]. محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص256.

فعالية برنامج علاجي مقترح لمساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي"ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات

(دراسة تجريبية على عينة مكونة من 877 تلميذ و تلميذة من تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي) من أصل 115 مدرسة ابتدائية بولاية سيدي بلعباس

إيمان واري
جامعة تلمسان

:Abstract

This study seeks to detect the most serious problems that can be faced by the mathematics education of the students is the problem of learning difficulties in mathematics, and apparent learning difficulties landmarks in mathematics through the student's performance to the question of arithmetic and in advanced stages of sports issues, where it is used methods is suitable in the solution , which makes displays for everything related to mathematics and its subsidiaries.

Keywords:

problems - mathematics education - learning difficulties - arithmetic

تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن اخطر المشاكل التي يمكن أن يواجهها تعليم الرياضيات لدى الطلاب هو مشكلة صعوبات التعلم في الرياضيات، و تتضح معالم صعوبات التعلم في الرياضيات من خلال أداء الطالب بمسألة حسابية و في مراحل متقدمة بمسائل رياضية، حيث يستخدم طرقا غير مناسبة في الحل، الأمر الذي يجعله يعرض عن كل ما يتعلق بالرياضيات و فروعها . **(1)**

و تزداد صعوبات التعلم في الرياضيات خطورة في العصر الحالي مع تركيز المناهج الحديثة في الرياضيات على تنمية مهارات حل المشكلات الحياتية الواقعية، و لذلك فإن الطلبة ذوي صعوبات التعلم بحاجة إلى التدريب على كيفية حل المشكلات سواء أكانوا يمتلكون القدرة على استخدام العمليات الحسابية أم لا يمتلكونها، و كذلك هم بحاجة إلى التدريب على التعامل مع المهارات الرياضية الدنيا، كما أنهم بحاجة إلى التدريس الذي يركز على المعنى و على كيفية اتخاذ القرارات، والتدريب على الحساب العقلي و استخدام الحاسوب و التخطيط. (2)

و لكن المتتبع لمسيرة البحث في مجال صعوبات التعلم في الرياضيات يجد تركيز العديد من الدراسات على جانب القدرات (كالإدراك و الذاكرة و التفكير والانتباه) و دراسة مدى تأثيرها و تأثرها بصعوبات التعلم في الرياضيات، كما نجد أيضا في نفس الوقت العديد من الدراسات التي تتناول الجوانب السلوكية والنفسية لهؤلاء الطلاب، ولكن هناك القليل من الدراسات التي اتجهت إلى دراسة الأساليب كمتغير قد يلعب دورا هاما في مجال العمل مع الطلبة ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات سواء على الصعيد الدراسي أو الاجتماعي أو المهني. (3)

و من خلال منطلق بناء أو تصميم برنامج علاجي للتلاميذ ذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات للطورين الثاني و الثالث ابتدائي كان الهدف الأسمى محاولة تخفيض من الصعوبة و كذا تحسين الاكتساب الأولي المعلوماتي ورفع مستوى التحصيل في مادة الرياضيات ارتأت الطالبة وضع التساؤلات التالية:

تساؤلات البحث:

هل هناك فروق دالة إحصائيا في درجة تحصيل تلاميذ (ذكور وإناث) السنة الثانية و الثالثة إبتدائي في الرياضيات قبل تطبيق البرنامج العلاجي

المقترح (القياس القبلي) و بعد تطبيق البرنامج العلاجي المقترح (قبلي و بعدي).

-ما مدى فعالية برنامج علاجي مقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية والسنة الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات من خلال بطاقة التقييم النوعي لفعالية البرنامج العلاجي المقترح؟

-ما مدى فعالية برنامج علاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات تعزي إلى متغير الجنس حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي و البعدي.

-ما مدى فعالية برنامج علاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير تكرار السنة (معبدين و غير معبدين).

ما مدى فعالية برنامج علاجي مقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية والثالثة من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير الجنس حسب نتائج بطاقة التقييم النوعي لفعالية البرنامج العلاجي بعد تطبيق البرنامج.

-ما مدى فعالية برنامج علاجي مقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية والثالثة من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير إعادة السنة حسب نتائج بطاقة التقييم بعد تطبيق البرنامج.

-فرضيات البحث:

-توجد فروق دالة إحصائيا في درجة تحصيل تلاميذ (ذكور و إناث) السنة الثانية والثالثة ابتدائي في الرياضيات قبل تطبيق البرنامج العلاجي المقترح (القياس القبلي) و بعد تطبيق البرنامج العلاجي المقترح (القياس البعدي).

-توجد فعالية البرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات من خلال بطاقة التقسيم النوعي لفعالية البرنامج بعد تطبيق البرنامج العلاج المقترح.

-توجد فعالية البرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير الجنس حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي و البعدي.

-توجد فعالية للبرنامج المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير تكرار السنة (معيدين و غير المعيدين) حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي والبعدي.

-توجد فعالية للبرنامج المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير الجنس حسب نتائج بطاقة التقييم النوعي لفعالية البرنامج العلاجي بعد تطبيق البرنامج.

-توجد فعالية للبرنامج المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير إعادة السنة حسب نتائج بطاقة التقييم بعد تطبيق البرنامج

أهداف الدراسة:

إن مجال صعوبات التعلم من المجالات الحديثة نسبيا في ميدان التربية الخاصة و قد حرصت معظم الدول على تطبيق البرامج التربوية المختلفة لفئة صعوبات التعلم، و ذلك زيادة فعالية تعليمهم، و من المعروف أن هذه الصعوبات تحد من قدرة التلميذ على التعلم من خلال طرق التدريس مما يتطلب تزويده ببرامج تربوية خاصة تتضمن أدوات الدراسة.... و مساندته له ليتمكن من تحقيق أهدافه لهذا فقد هدفت الدراسة الحالية:

- تقسيم برنامج علاجي لمساعدة تلاميذ ذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات خاص بالطور الثاني و الثالث ابتدائي.

- معرفة مدى تجاوب التلاميذ المكررين و التلاميذ الذين يعانون من صعوبات التعلم في مادة الرياضيات مع البرنامج.

- التوصل إلى أهمية البرنامج كوسيلة وقائية لإنقاص التكرارات في الأقسام.
- التوصل إلى أهمية البرنامج كوسيلة تشخيص للتلاميذ الذين يحتاجون إلى أقسام خاصة.
- استعمال البرنامج العلاجي المقترح في الأقسام العادية في حصص الاستدراك كمقترح وزاري لبرنامج حصص الاستدراك في مادة الرياضيات حسب مستوى النقاط المتدني في الفصل الأول في الأقسام العادية.

أهمية الدراسة: تهف الدراسة إلى إبراز أهمية النظر في برامج خاصة لمساعدة ذوي صعوبات التعلم، خصوصا في المواد الإنسانية (القراءة-الكتابة-الحساب) خاصة و أن النسب المؤدية لذوي صعوبات التعلم في تزايد مستمر و ذلك تزامنا مع المتغيرات الكثيرة في النظام الدراسي، وكذا الاكتظاظ في البرامج الدراسية و ازدحام الأقسام بالتلاميذ، مما يعيق على المعلم الإلمام بفهم كل تلاميذ القسم الواحد.

نظرا لكثرة التكرارات في الفصول الثلاثة الأولى من التعليم الابتدائي و بروز الاهتمامات بالبرامج الخاصة لذوي صعوبات التعلم في أقسام مكيفة فإن أهمية البحث تكمن في محاولة اقتراح برنامج علاجي في حصص الاستدراك في الأقسام العادية على مستوى ولاية سيدي بلعباس

حدود الدراسة: الجانب الميداني للدراسة الحالية يقع في الحدود التالية:

- زمنيا: من **20** فبراير إلى **10** ماي.
- جغرافيا: كل المدارس الابتدائية لولاية سيدي بلعباس الخاصة بأقسام السنة الثانية و الثالثة ابتدائي الموزعة على **32** مقاطعة مشبه في الملاحق.
- بشريا: عينة قصدية حصصية من تلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي من تلاميذ ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات من المدارس الابتدائية للولاية.
- ماديا: نظرا إلى قلة السيولة المالية في مديرية الصحة للمؤسسات الإستشفائية بولاية سيدي بلعباس و كذا كثرة الاضرابات في الأجور،

أجبرت الطالبة على تأخير توزيع الدراسات المبتكرة كبرنامج علاجي لذوي صعوبات التعلم في الرياضيات حتى 20 فبراير لعدم اقتراض مرتبها الشهري منذ 10 أشهر بعد تحولها من أخصائية نفسانية عيادية في مستشفى الأمراض العقلية المجاهد بن زايدي عبد القادر إلى منصب أخصائية نفسانية عيادية مكلفة بالصحة المدرسية بالولاية.

منهج الدراسة:

تم استخدام المنهج **شبه التجريبي** و ذلك باختيار عينة ذات المجموعة الواحدة، و تطبيق البرنامج العلاجي المقترح لذوي صعوبات التعلم في الرياضيات، و تسجيل المعدل القبلي في مادة الرياضيات، و كذا تسجيل المعدل البعدي في مادة الرياضيات بعد تطبيق البرنامج، و تحديد المتوسطات الحسابية و الانحراف المعياري . (4)

مكان الدراسة:

انحصر المكان على كل مدارس ولاية سيدي بلعباس الابتدائية على مستوى 32 مقاطعة شاملة ل 278 مدرسة ابتدائية موضحة في الملحق رقم.

– **زمان إجراؤها:** توسط زمان إجراء الدراسة بين 3 أشهر فما فوق كبداية للتطبيق شمل تاريخ 10–02–2013 كبداية الانطلاق و 24 فبراير كأقصى تاريخ للتأكد من وصول البرنامج إلى كافة المدارس و الشروع في تطبيقه.

و مثل تاريخ 10 ماي 2013 كآخر أجل لتسليم الكراسات المملوءة النتائج مع الإشارة إلى بعض التأخرات لعينة من المدارس في زمن الرجع.

مجتمع الدراسة: يتألف من جميع تلاميذ الصف الثاني و الثالث ابتدائي الذين لديهم صعوبات التعلم في الرياضيات في كل مدارس ولاية سيدي بلعباس الابتدائية ل 278 مدرسة

عينة الدراسة: اقتصرت على تلاميذ الصف الثاني و الثالث ابتدائي ممن لديهم صعوبات في مادة الرياضيات بولاية سيدي بلعباس.

محددات اختيار العينة: بطريقة (عمدية)،(قصدية).عينة(نمطية) (صعوبة في الحساب).(عينة حصصية) حسب نسبة تواجد ذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات على مستوى 278 مدرسة ابتدائية بولاية سيدي بلعباس للطورين الثاني و الثالث ابتدائي

خصائص العينة:

تفريق تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي ذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات على النحو التالي:

متغير (الجنس)		متغير (تكرار السنة)/ المعيدين		متغير(تكرارالسنة)/ غير المعيدين	
الذكور	526	الذكور	183	الذكور	343
الاناث	351	الاناث	86	الاناث	265
المجموع	877	المجموع	269	المجموع	608

متغيرات الدراسة:

– المتغيرات المستقلة: طريقة التعلم من خلال الاستراتيجيات المبتكرة في دراسة مكملة لبرنامج تدريسي جديد.

– المتغيرات التابعة: مستوى التحسن الأكاديمي في مادة الرياضيات.

أدوات الدراسة:

البرنامج العلاجي لمساعدة ذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات.

وصف البرنامج العلاجي: يتكون البرنامج العلاجي من 10 استراتيجيات مبينة كأشكال مكملة لكراسة تجد عناوين:

- إستراتيجية (السلم في عملية الجمع/إستراتيجية)الأدراج في ترتيب الأعداد".

- إستراتيجية (الربط الحسي)./ إستراتيجية)الدوائر و الأسهم في قراءة الأعداد".
- إستراتيجية (المرآة لعكس الأعداد)/ إستراتيجية)الشبكة في عملية الضرب".
- إستراتيجية (الأسهم و المربعات في عملية الضرب)./ إستراتيجية (تحليل المهارة).
- إستراتيجية (تبادل الأدوار)./ إستراتيجية) الصوت الجهري العالي).

و هي مبينة في ملاحق المذكرة

- الزمن المقترح لتطبيق البرنامج:

الزمن المقترح لتطبيق البرنامج في حدود 03 أشهر و ما فوق ذلك بمعدل حصة كل أسبوع في حصة الاستدراك و مدة الحصة بالتقريب 60 دقيقة كاملة.

- النظرية العلمية للبرنامج:

تم الاعتماد على (النظرية السلوكية) التي تفترض تحديد المشكلة و التدريب على حلها من خلال تدريب التلاميذ على البرنامج، ثم اتبع أسلوب التعليم الذاتي و التعليم في مجموعات من نفس مظاهر الصعوبة في مادة الرياضيات.

و يتماشى هذا الأسلوب مع طبيعة عملية التعلم الذي تقتضي وجود هدف أو أغراض يسعى المتعلم إلى تحقيقه، هو الوصول إلى الإجابة على السؤال الذي يعبر عن المشكلة التي تواجهه . (5)

- خطوات إعداد البرنامج:

- الاطلاع على برامج علاجية لذوي صعوبات التعلم في الرياضيات.

و ذلك من خلال قراءة التاريخ النظري للبرنامج العلاجية المجربة في مساعدة ذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات المشار إليها في الدراسات السابقة لكل من:

- دراسة (بيلي) عام 1992 . (6)
- دراسة (ألبين) سنة 1996 . (7)
- دراسة(برنس) سنة 1996 . (8)
- دراسة (وائل علي) عام 2005 . (9)
- دراسة (مكة البنا و مرفت آدم) سنة2007 . (10)
- دراسة (صالح و أمين) سنة 2002 . (11)
- دراسة (الحسن) عام 2005 . (12)
- دراسة (بدر) سنة 2006. (13)

- التجربة الشخصية للباحث في علاج ذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات

من خلال التجربة الشخصية في تبسيط بعض العمليات لمجموعة لا تقل عن 20 تلميذ و تلميذة المجالين في وحدة الكشف و المتابعة بسيدي بلعباس مقر ثانوية النجاح، بعد عدة محاولات مع الحالات في العمل بطريقة فردية و كذا جماعية (عائلية) و تم من خلال (أوراق المسودة) تبسيط العملية ثم تحديث تلك الطرق بألوان واضحة و تجريبها على 20 تلميذ و تلميذة، و لوحظ تحسن بناءا على شبكة الملاحظة المقدمة من الأولياء و ذلك لمدة 03 سنوات من العمل في الميدان كأخصائية مطبقة تغطي منصب أخصائية نفسانية عيادية في وحدة الكشف و المتابعة المدرسية، و المسجلين في الدفتر التشخيصي العلاجي بنتائج عمل وحدة الكشف و المتابعة بثانوية النجاح سيدي بلعباس و الملحق صورهم في الملاحق الخاصة بالمذكرة.

الاطلاع على آراء الخبراء في البرنامج

و تم ذلك من خلال تحكيم الاستراتيجيات 10 المبتكرة و المقترحة و تقديمها في كراسة المحكمين مع جدول تحكيم خاص بمدى ملاءمة الاستراتيجية في تعديل بعض الصعوبات في مادة الرياضيات و كان ذلك على النحو التالي:
إلى كل من– السيد عدة . – السيد داود – السيدة لوهيبي نصيرة / مع الختم و الإمضاء بالمصادقة.

الوحدات	ملائمة	غير ملائمة
طريقة السلم في عملية الجمع	04/ 05	01/ 05
طريقة الأدراج في ترتيب الأعداد	04/ 05	
طريقة الربط الحسي	04/ 05	
طريقة الدوائر و السهم في قراءة الأعداد	04/ 05	
طريقة المرآة لعكس الأعداد	04/ 05	01/ 05
طريقة الشبكة في عملية الضرب	04/ 05	
طريقة الأسهم و المربعات في عملية الضرب	04/ 05	
طريقة تحليل المهارة	04/ 05	
طريقة تبادل الأدوار	04/ 05	01/ 05
طريقة الصوت الجهري العالي	04/ 05	01/ 05

إلى كل من الأستاذين الفاضلين:
–السيد : الدكتور خلوفي .–السيدة: الشيخ فتيحة / مع الختم و الإمضاء بالمصادقة

ملائمة وحدات البرنامج لعلاج صعوبات التعلم في الرياضيات

ثبات البرنامج و تبرير فعاليته:تم من خلال البطاقة التقييمية النوعية لفعالية البرنامج المملوءة من طرف كل المعلمين المطبقين للبرنامج مع موافقة

كل من السيد (داود) و السيد (عدة) على فعالية البرنامج حسب الخبرة الشخصية لهم في تدرسي تلاميذ الأقسام المكيفية لخبرة تتجاوز 23 سنة

المعالجة الإحصائية للدراسة)

تتم الإجابة عن أسئلة الدراسة شبه التجريبية عن طريق استخدام زمرة التحليل الإحصائي برنامج **SPSS (16)** لمقارنة :

- المتوسطات - الانحرافات المعيارية.
- اختبار ت لبيان دلالة الفروق بين المتوسطات التي تخدم الدراسة في عملية التحليل و التفسير في الفصل الموالي.
- **عرض و تحليل النتائج:**
- نتائج التحليل الإحصائية المتعلقة بالإجابة من فرضيات الدراسة الحالية و تفسير لهذه النتائج التي سيتم استعراضها من خلال التحليل الإحصائي.
- **الفرضية الأولى:** توجد فروق دالة إحصائيا في درجة تحصيل تلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي في الرياضيات قبل تطبيق البرنامج العلاجي المقترح (القياس القبلي) و بعد تطبيق البرنامج العلاجي المقترح (القياس البعدي).

- و للإجابة على الفرضية تم عرض الجدول الموالي:

جدول نتائج القياس التحصيلي القبلي و البعدي لتلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات

القياس	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	الدلالة
القبلي	877	2.7906	1.45932	876	33.853	0.00
البعدي	877	3.29499	1.64464			

و عليه من خلال النتائج الإحصائية تبين أنه توجد فروق دالة إحصائيا في درجة تحصيل تلاميذ السنة الثانية و السنة الثالثة ابتدائي في الرياضيات لصالح القياس البعدي و لقد قدرت قيمة ت للفروق ب 33.85 و هي دالة عند مستوى 0.00 و عليه تقبل الفرضية

الفرضية الثانية: توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات من خلال بطاقة التقييم النوعي لفعالية البرنامج بعد تطبيق البرنامج العلاجي المقترح. – من خلال نتائج البيانات الإحصائية تم الخروج بالجدول الإحصائي لترتيب استراتيجيات البرنامج العلاجي لذوي صعوبات التعلم في الرياضيات حسب نسب تجاوب العينة الكلية الممثلة لكل تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي تحت حجم عينة مكملة ل 877 تلميذ و تلميذة على الشكل النهائي

في الجدول الموالي:

- **جدول النسب المئوية لتجاوب كل تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي مع إستراتيجيات البرنامج**

الاستراتيجيات	التكرارات	النسب المئوية حسب كل إستراتيجية	الرتبة
إستراتيجية السلم في عملية الجمع	492	%56.10	1
إستراتيجية الدوائروالأسهم في قراءة الأعداد	457	% 52.10	2
الصوت الجهوري العالي	437	%49.82	3
الأدراج في ترتيب الأعداد	431	%49.14	4
تحليل المهارة	398	%45.38	5
الأسهم و المربعات في عملية الضرب	375	%42.75	6
الربط الحسي	366	%41.73	7
الشبكة في عملية الضرب	355	%40.75	8
تبادل الأدوار	346	%39.94	9
المرآة لعكس الأعداد	301	%34.32	

فعالية البرنامج	395.8	45.203%	

- بالتالي كانت نتائج التقييم النوعي لفعالية البرنامج العلاجي متفاوتة النسب المئوية كما هو مبين في الجدول أعلاه من أكثر الإستراتيجية فعالية إلى أقلها عند كل تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات من أعلى نسبة ممثلة ب 56.10% إلى أدناها 34.32 %. و يظهر من خلال الجدول وجود فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات من خلال بطاقة التقييم النوعي بعد تطبيق البرنامج العلاجي المقترح بنسبة 45.20% للبرنامج العلاجي ككل نسب متفاوتة لتجاوب التلاميذ مع الاستراتيجيات العشر
- **الفرضية الثالثة:** توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات تعزى إلى متغير الجنس حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي و البعدي.

– فيما يلي جداول تجيب عن الوضعية المذكورة يوجد فروق دالة حول فعالية البرنامج حسب متغير الحصص من خلال مقارنة نتائج القياس التحصيلي القبلي و

البعدي تم تمثيل البيانات الإحصائية على هذا المنوال

جدول القياس التحصيلي القبلي و البعدي للإنا

القياس	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
القبلي	351	3.6598	1.70281	350	24.411	0.00
البعدي	351	4.8439	1.80032			

و بذلك نقول أنه توجد فروق دالة في القياس القبلي و البعدي عند كل إناث السنة الثانية و الثالثة ابتدائي لصالح القياس القبلي البعدي، مما يزهر فعالية البرنامج العلاجي في تحسين المستوى التحصيلي في مادة الرياضيات.

و فيما يلي عرض جدول القياس التحصيلي القبلي و البعدي للذكور

جدول القياس التحصيلي القبلي و البعدي للذكور

القياس	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
القبلي	526	2.2106	1.88210	525	24.282	0.00
البعدي	526	3.3532	1.20872			

من خلال النتائج نقول لأنه توجد فروق دالة بين القياس القبلي والبعدي عند كل ذكور السنة الثانية و الثالثة ابتدائي لصالح القياس البعدي وذلك حسب مستوى الدلالة الأصغر من **0.01** و **0.05**

كما يظهر فعالية البرنامج العلاجي المقترح في تحسين مستوى التحصيل الدراسي في مادة الرياضيات من خلال تحسين المعدل

و بالتالي يمكن القول أنه توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات تعزى إلى متغير الجنس حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي والبعدي من جهة الإناث أكثر منه عند الذكور وهذا يظهر من خلال تحسن معدل الرياضيات لصالح الإناث في القياس البعدي مقارنة بالذكور عند مقارنة المتوسطات الحسابية بمتوسط حسابي يساوي **4.8439** للإناث وبمتوسط **3.3532** للذكور. **الفرضية الرابعة:** توجد فعالية البرنامج الدراسي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يحتوي على متغير تكرار السنة (معيدين و غير معيدين) حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي والبعدي.

وتمت الإجابة عن هاته الفرضية من خلال تحليلات الإحصائية التالية:

جدول القياس التحصيلي القبلي و البعدي لكل التلاميذ المعيدين للسنة الثانية و الثالثة ابتدائي

القياس	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
القبلي	269	2.1674	1.85394	268	17.766	0.00
البعدي	269	3.4295	1.18801			

و بذلك نعلق على الجدول بوجود فروق دالة في القياس التحصيلي القبلي و البعدي عند تلاميذ المعيدين للعينة الثانية و الثالثة ابتدائي لصالح القياس البعدي، فكما يبين فعالية البرنامج العلاجي في تحسين المستوى التحصيلي في مادة الرياضيات. و ذلك حسب مستوى الدلالة الموضح في الجدول الأصغر من **0.01** و **0.05**

و في ما يلي عر ض النتائج الإحصائية للتلاميذ غير المعيدين.

جدول القياس التحصيلي القبلي و البعدي لكل التلاميذ غير المعيدين للسنة الثانية و الثالثة ابتدائي

القياس	العينة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	درجة الحرية	ت المحسوبة	مستوى الدلالة
القبلي	608	3.2381	1.58934	607	31.566	0.00
البعدي	608	4.5558	1.73123			

يظهر الجدول فروق دالة إحصائية بين القياس التحصيلي القبلي والبعدي عند التلاميذ غير المعيدين للسنة الثانية و الثالثة ابتدائي لصالح القياس البعدي. و ذلك حسب مستوى الدلالة الموضح في الجدول الأصغر من **0.01** و **0.05**

و عليه للإجابة النهائية على الفرضية تقول:

بالتالي توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات تعزى إلى متغير تكرار السنة (معيدين و غير معيدين) حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي و البعدي لصالح التلاميذ غير المعيدين بمتوسط 4.5558 عنه عند التلاميذ المعيدين بمتوسط 3.4295.

الفرضية الخامسة:

وجود فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير الجنس حسب نتائج بطاقة التقييم النوعي لفعالية البرنامج العلاجي بعد تطبيق البرنامج

- للإجابة عن هذه الفرضية تم حساب النسب المنسوبة لفعالية كل إستراتيجية من استراتيجيات البرنامج العلاجي من خلال البيانات التي تم جمعها من خلال الدراسة الميدانية الملحقة حسب ترتيبها من أكثرها فعالية في التجاوب التقييمي النوعي من وجهة نظر المعلمين في الجدول الموالي: البرنامج العلاجي بعد تطبيق البرنامج.

جدول النسب المئوية لتجاوب ذكور السنة الثانية و الثالثة ابتدائي مع إستراتيجيات البرنامج

الاستراتيجيات	التكرارات	النسب المئوية حسب كل إستراتيجية	الرتبة
السلم في عملية الجمع	311	%59.12	1
الدوائر و الأسهم في قراءة الأعداد	296	%56.27	2
الصوت الجهري العالي	284	%53.99	3

الأدراج في ترتيب الأعداد	282	%53.61	4
تحليل المهارة	264	%50.19	5
الربط الحسي	252	%47.90	6
الأسهم و المربعات في عملية الضرب	235	%44.67	7
الشبكة في عملية الضرب	231	%43.91	8
تبادل الأدوار	213	%40.49	9
المرآة لعكس الأعداد	173	%32.88	01
فعالية البرنامج	32.82	13,365.%	

نلاحظ من خلال الجدول انه يوجد تباين في النسب المقربة لمدى تجاوب كل ذكور السنة الثانية و الثالثة ابتدائي للبرنامج حسب فعالية كل إستراتيجية مرتبة وفقا للمتوسط الحسابي و النسب المئوية من أعلاها إلى أدناها حسب نتائج بطاقة التقييم الفرعي لفعالية البرنامج العلاجي المقترح من وجهة نظر المعلمين فكانت أعلى نسبة من التجاوب مقدرة ب **59.12** % و أدنى نسبة مقدرة ب **32.88** %.

– و فيما يلي عرض نتائج الإجابة عن الفرضية من ناحية إناث السنة الثانية و الثالثة ابتدائي اللاتي تستفدن من البرنامج العلاجي المقترح لمساعدة تلاميذ صعوبة التعلم في الرياضيات ، فكانت النتائج الإحصائية للبطاقة التقييمية النوعية لفعالية البرنامج.

جدول النسب المئوية لتجاوب كل إناث السنة الثانية و الثالثة ابتدائي مع إستراتيجيات البرنامج

الاستراتيجيات	التكرارات	النسب المئوية حسب كل إستراتيجية	الرتبة
السلم في عملية الجمع	181	%51.56	1
الدوائر و الأسهم في قراءة الأعداد	161	%45.86	2
الصوت الجهري العالي	153	%43.35	3
الأدراج في ترتيب الأعداد	149	%42.45	4
الأسهم و المربعات في عملية الضرب	140	%39.88	5
تحليل المهارة	134	%38.17	6
تبادل الأدوار	133	%37.89	7
المرآة لعكس الأعداد	128	%36.46	8
الشبكة في عملية الضرب	124	%35.32	9
الربط الحسي	114	%23.47	10
فعالية البرنامج	141.7	% 69.44	

من خلال الجدول يتضح وجود اختلاف في الترتيب حسب كل إستراتيجية و مدى تجاوب الإناث معها و تراوحت الفعالية بين 51.56% كأعلى نسبة و 23.47% كأدنى نسبة و بذلك يتضح أنه هناك تفاوت في مدى تجاوب إثبات الاستراتيجيات العشر، ورد تفاوت في النسب المئوية لبعض

الاستراتيجيات مع بعضها من خلال النسب المئوية المبرزة لفعالية تجاوب التلميذات معها.

كما يظهر من خلال الملاحظة أن استراتيجيات البرنامج العلاجي في ترتيب مختلف عنه عند التلاميذ الذكور المشار إليهم في الجدول السابق عنه عند الإناث بنسبة 69.44 % مقارنة بنسبة فعالية تجاوب الذكور مع البرنامج العلاجي المقدرة ب 31.36 %

الفرضية السادسة:

توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير إعادة السنة حسب نتائج بطاقة التقييم بعد تطبيق البرنامج. فكانت نتائج ترتيب استراتيجيات البرنامج العلاجي ضمن فعاليتها من خلال النسب المئوية لتجاوب التلاميذ غير المعيدين لسنوات الدراسة الثانية و الثالثة ابتدائي مرتبة ترتيبا تنازليا كما هو مدون في الجدول الموالي:

جدول النسب المئوية لتجاوب التلاميذ غير المعيدين للسنة الثانية و الثالثة ابتدائي مع إستراتيجيات البرنامج

الاستراتيجيات	التكرارت	النسب المئوية حسب كل إستراتيجية	الرتبة
الصوت الجهري العالي	345	%56.74	1
السلم في عملية الجمع	343	%56.41	2
الأدراج في ترتيب الأعداد	319	%52.461	3
الدوائر و الأسهم في قراءة الأعداد	315	%51.80	4
تحليل المهارة	312	%51.31	5
الأسهم و المربعات في عملية الضرب	273	%44.90	6

الربط الحسي	262	%43.09	7
الشبكة في عملية الضرب	256	%42.10	8
تبادل الأدوار	236	%38.8	9
المرآة لعكس الأعداد	202	%36.21	10
فعالية البرنامج	286.3	74.382%	

و من خلال الجدول الموالي يتبين أن التلاميذ المعيدين للسنة الثانية والثالثة ابتدائي كان لديهم تجاوب مع بعض الاستراتيجيات بصفة متقاربة جدا فكانت 58.73 %كأعلى نسبة مئوية،وبنسبة 36.21 % كأدنى نسبة.....حسب التقييم النوعي لاستراتيجيات البرنامج كل حسب تقييمها النوعي عند التلاميذ المعيدين و غير المعيدين المشارة باختلافات و الجدول الموالي يضم الإحصاء الكمي للبطاقة التقييمية للنوعية.

جدول النسب المئوية لتجاوب كل التلاميذ المعيدين للسنة الثانية و الثالثة ابتدائي مع إستراتيجيات البرنامج

الاستراتيجيات	التكرارت	النسب المئوية حسب كل إستراتيجية	الرتبة
الصوت الجهري العالي	345	%56.74	1
السلم في عملية الجمع	343	%56.41	2
الأدراج في ترتيب الأعداد	319	%52.461	3
الدوائر و الأسهم في قراءة الأعداد	315	%51.80	4
تحليل المهارة	312	%51.31	5
الأسهم و المربعات في عملية الضرب	273	%44.90	6

الربط الحسي	262	%43.09	7
الشبكة في عملية الضرب	256	%42.10	8
تبادل الأدوار	236	%38.8	9
المرآة لعكس الأعداد	202	%36.21	10
فعالية البرنامج	125.7	% 46.724	

تراوحت أعلى نسبة تجاوب التلاميذ المعيدين لاستراتجيات البرنامج بين 58.73 % كأعلى نسبية و بين 46.72 % كأدنى نسبة مرتبة حسب فعاليتها من خلال الجدول أعلاه و منه يمكن القول فعالية البرنامج العلاجي لمقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات كانت لصالح التلاميذ غير المعيدين بنسبة 74.38 % عنه بنسبة التجاوب المقدرة ب 46.72 ‰

- مناقشة عامة لنتائج الدراسة:

- مناقشة الفرضية الأولى:

وجود فروق دالة إحصائيا في درجة تحصيل تلاميذ السنة الثانية والثالثة ابتدائي قبل تطبيق البرنامج العلاجي المقترح (القياس القبلي) وبعد تطبيق البرنامج العلاجي المقترح (القياس البعدي)لصالح القياس التحصيلي البعدي قد يتم تفسير ذلك بوجود أخطاء في الاكتساب الأولي للمعلومات الرياضية في السنة الأولى و الثانية ابتدائي والتي تم تعديلها من خلال الاستراتيجيات المبسطة للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات ودليل أخطاء الاكتساب الأولي قد تعود في الأصل إلى ما جاء به القانون الوزاري في الجزائر بعدم تكرار أي تلميذ من تلاميذ السنة الأولى ابتدائي مهما كانت نتائجه التحصيلية متدنية،مما تتكدس

لدى المتعلم أخطاء الاكتساب التعليمية نتيجة تراكمات الكم الهائل من المعلومات الجديدة التي سيلقاها في الفصل الثاني و التي تضاف على أعبائه مع المرحلة السابقة

و نتائج الدراسة الحالية المتوصل إليها تتدعم بما جاءت بت دراسة (تشانسلر 1992) التي أظهرت تحسنا ملموسا لدى تلاميذ عينة الدراسة في مجال المسائل الرياضية التي تحتاج إلى حل المشكلة (14)

– مناقشة الفرضية الثانية:

وجود فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات من خلال بطاقة التقييم النوعي بعد تطبيق البرنامج العلاجي المقترح بنسبة 45.20% للبرنامج العلاجي ككل و بنسب متفاوتة بأعلى نسبة ممثلة ب 56.10% و34.32 % كأدنى نسبة تجاوب التلاميذ مع الاستراتيجيات العشر.و يمكن تفسير التفاوت في النسب بين الاستراتيجيات العشر باستحسان طريقة تسهيل عملية الاكتساب حسب كل إستراتيجية من خلال الشرح المبسط للاستراتيجيات و استحسان تلقين المعلمين المطبقين لها.كما قد يكون عامل التجاوب مع استراتيجيات البرنامج العلاجي المقترح هو عدم تفاعل تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي مع برنامج الوزارة المطبق في المدارس الابتدائية وعدم ملائمة طرق تدريس العمليات الحسابية بطريقة سهلة سلسة تتلاءم مع كل التلاميذ كل حسب مستواه الفكري و حسب قدرته الفعلية و معدل ذكائه، مما كان لاستراتيجيات البرنامج العلاجي المقترح في مساعدة ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات اثر إيجابي في تفكيك الحشو الكمي للمعلومات الحسابية في أمثلة مبسطة تتلاءم مع قدرة أغلب التلاميذ حسب درجتهم .و تدعم نتائج فرضية الدراسة الحالية بما جاءت بت دراسة (آن جوشا 1993) التي أظهرت وجود تحسن واضح بعد تطبيق برنامج علاجي

على تلاميذ ذوي صعوبات التعلم و التي تضيف إلى انعكاس تحسن في أدائهم الأكاديمي في كافة المولد الدراسية و حتى في التعامل مع مشكلاتهم الحياتية (15)

-مناقشة الفرضية الثالثة:

وجود فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات تعزى غلى متغير الجنس حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي لصالح الإناث أكثر منه عندالذكور بمتوسط حسابي يساوي 4.8439 للإناث و بمتوسط 3.3532 للذكور.و يفسر وجود الارتفاع في المتوسط الحسابي للإناث نتيجة وجود عدد كبير من الإناث كانت تعاني صعوبات أولية في اكتساب التعليمات الأولية في الرياضيات مقارنة بمتوسط الذكور في القياس التحصيلي القبلي ويرجع ذلك إلى منع تكرار السنة الأولى من التعليم الابتدائي التي تعد كقاعدة أولية مهمة في اكتساب المبادئ الأولية من أعداد و حروف و غيرها المساعدة في قراءة و فهم و حل التمارين الرياضية ، كما يمكن تدعيم تفاعل الإناث مع البرنامج حظي بنسبة أكثر من الذكور نتيجة بعض المتغيرات المساعدة من خضوع فطرة الأنثى إلى الانسياق مع القوانين والواجبات منذ الصغر عنه عند الذكور الذين يتسمون بالجرأة أكثر ولامبالاة و نقص شدة الخوف و التوتر مقارنة بالإناث نتيجة مترتبات تنشئوية اجتماعية .و يمكن أن يرجع السبب إلى تفاعل المعلمين مع الإناث أكثر نتيجة بروز تجاوب و سلاسة حفزت المعلمين على العطاء أكثر مع الإناث .وتدعم نتائج الدراسة بما توصلت إليه دراسة (دال هاولي 2002) في وجود فروق دالة بيت الذكور والإناث من خلال تعاملهم مع المسائل اللفظية و تحديد المعطيات و حل المسالة (16)

-مناقشة الفرضية الرابعة:

توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات تعزى إلى متغير تكرار السنة (معيدين و غير معيدين) حسب نتائج القياس التحصيلي القبلي و البعدي لصالح التلاميذ غير المعيدين بمتوسط **4.5558** عنه عند التلاميذ المعيدين بمتوسط **3.4295**. ويفسر تجاوب تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي غير المعيدين للسنة و الذين يعانون من صعوبات تعلم في الرياضيات عنه عند التلاميذ المكررين إلى سهولة تصحيح بعض الأخطاء الشائعة في المكتسبات الأولى الرياضية نتيجة التبسيط المستحسن للاستراتيجيات و قد يرجع إلى اهتمام المعلمين بالفئة الغالبة التي يرى تجاوب معها في حين أن معظم التلاميذ المكررين و لا يسع الجزم هم الفئة قليلة النصيب في جلب اهتمام و عطاء المعلمين لاستدراكها لما تتطلبه هاته الفئة من مجهودات

و إعادة تكرار الشروحات و كل ذلك يتزامن مع ضغط العمل واكتظاظ القسم و كثافة البرنامج الدراسي الملزم كل معلم بإنهائه حسب مدة معينة كما قد يرجع نقص تجاوب التلاميذ المعيدين للسنة بمتوسط أصغر منه لدى التلاميذ عير المعيدين إلى وجود مشاكل تعليمية في الأصل ترجع إلى مشاكل في الانتباه و الإدراك ترجع إلى أسباب فردية أو أسباب فسيولوجية عصبية.و تتلاءم نتائج الدراسة الحالية مع ما جاء في نتائج دراسة (السعيد محمد،**2002**)بأن درجة استفادة التلاميذ من البرنامج الاثرائي في التدريس يختلف باختلاف مستويات القدرة على التحصيل الراجعة حسب كل فرد **(17)**

-مناقشة الفرضية الخامسة:

توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات تعزى إلى متغير

الجنس حسب نتائج بطاقة التقييم النوعي لفعالية البرنامج العلاجي بعد التطبيق بترتيب متفاوت بين الذكور و الإناث السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات

يمكن تفسير فعالية البرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات عند مقارنة تجاوب الإناث بنسبة **69.44** % مقارنة مع تجاوب الذكور مع البرنامج العلاجي المقدرة بنسبة **31.36**% إلى اهتمام الإناث و التركيز في بعض الاستراتيجيات التي لقيت استحسان في مدى تبسيط المعلومات المكتسبة ومدى انضباط الإناث في الدراسة و نمو حس الخوف والانصياع للقواعد نتيجة فطرتها عنه عند الذكور وكذا اهتمام المعلمين بتلقين الإناث نتيجة الإحساس بالتجاوب و التركيز مع الاستراتيجيات الجديدة مما زاد حافزا للمعلمين في التفاعل مع هاته الفئة منها عند الذكور،و قد يمكن أن تفسر نسب تجاوب الذكور عن الإناث بقلتها إلى وجود عوامل نفسية و أخرى صحية فسيولوجية و أخرى عصبية أدت بتجاوب فئة قليلة من الذكور

و تدعم نتائج الدراسة بما توصلت إليه دراسة(بوستيلمان **1991**) والتي أظهرت فروق واضحة في أداء التلاميذ و بشكل واضح في مجال حل المشكلات ، و هذا ما ذكر عند **(18)**

-مناقشة الفرضية السادسة:

توجد فعالية للبرنامج العلاجي المقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي من ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات يعزى إلى متغير

إعادة السنة (معيدين و غير معيدين) حسب بطاقة التقييم النوعي لفعالية البرنامج بعد التطبيق بترتيب متفاوت بين تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي

ويمكن تفسير فعالية البرنامج العلاجي لمقترح في مساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات لصالح التلاميذ غير المعيدين بنسبة 74.38% عنه بنسبة التجاوب المقدرة ب 46.72 % لدى التلاميذ المعيدين بوجود اهتمام و عطاء أكثر و تركيز في شرح لمعلمين للتلاميذ غير المعيدين نتيجة التبصر بمدى تجاوبهم المستحن الذي كان نتيجة أخطاء في الاكتساب و يمكن إرجاع تدني نسبة تجاوب التلاميذ المعيدين مقارنة بالتلاميذ غير المعيدين نتيجة خجل هاته الفئة في التجاوب مع المعلمين نتيجة التهميش و كثرة الإحباطات و التكرارات ويمكن إرجاعها أيضا إلى اهتمام المعلمين بالفئة ذات التجاوب السهل عنه من إعادة وتكرار المعلومات و الشروحات نتيجة لعوامل كثيرة منها التعب والإرهاق و ضغط العمل الذي يعوق مرونة التجاوب مع فئة التلاميذ المكررين،و يمكن أن يكون لمستوى الذكاء و القدرة العقلية لدى التلاميذ المعيدين عامل أساسي في عدم تجاوب البعض منهم مع البرنامج ككل و تدعم نتائج الدراسة بما جاء في دراسة (مرضية، نور الدين 1997) و التي توصلت إلى وجود فروق دالة في نتائج تجاوب التلاميذ المعيدين مع العاديين في إستراتيجية المحسوس- شبه المحسوس- المجرد (19)

خاتمة البحث:

حوصلة هذا البحث أن يكون مفتتح لدراسات أخرى كون (فعالية البرنامج العلاجي المقترح لمساعدة تلاميذ السنة الثانية و الثالثة ابتدائي لذوي صعوبات التعلم في مادة الرياضيات.) ميدان خصب يحتاج إلى التنقيب

والتمحيص لاستخلاص النتائج المستقاة من هذا الموضوع. والصورة التي استطاعت التوصل إليها يمكن تفكيكها بجملة من النتائج أهمها:

- أن يكون برنامج تطبيق العلاج على الفئة التي تعاني من صعوبة التعلم في مادة الرياضيات أكثر تمديدا من الفترة المتاحة.
- أهمية الدراسة التتبعية للبرنامج العلاجي المقترح على هذه الفئة.
- أهمية تعديل البرنامج أو بالإضافة فيه من طرف الدراسات المقبلة.

و أخيرا أرجو أن يكون هذا البحث قد حقق الهدف المنشود و أن يكون جهدا مفيدا و لو بالقليل للتلاميذ ذوي صعوبات التعلم في الرياضيات للسنتين الثانية و الثالثة ابتدائي واقعيا في ولاية سيدي بلعباس

الإحالات:

(1) ابو فخر،غسان،**2007**: صعوبات التعلم و علاجها، دمشق: منشورات جامعة دمشق،ص **182**

(2) الخطاب، ناصر/ **2008**: تعليم التفكير للطلبة ذوي صعوبات التعلم-برنامج عملي مصور، عمان: دار اليازوري،ص**24**

(3) زيادة،خالد السيد محمد،**2006**: الفروق الفردية في بعض المتغيرات المعرفية لدى الأطفال ذوي صعوبات تعلم الرياضيات و ذوي تعلم الرياضيات و القراءة معا وأقرانهم العاديين، الكويت: مجلس النشر العلمي،ص**48**

(4) أمل، الأحمد و منصور،علي،**2006**: بحوث و دراسات في علم النفس، بيروت: مؤسسة الرسالة،ص**12**

(5) عبيدات،ذوقان و أبو السيد، سهيلة،**2007**: الدماغ و التعليم و التفكير، الاردن: دار الفكر

(6) الهمشري،فهمي و جبر،خميس،**1993**: أثر استخدام الحاسوب في تحصيل طلاب الصف الثامن في الرياضيات، القاهرة: دار جامعة الياروك،ص **90-93**

(7) شكري، محمد أحمد،**1993**: أخطاء التلاميذ الشائعة في الكسور العشرية و الاعتيادية في منهج الرياضيات بالمرحلة الابتدائية- دراسة استطلاعية- العدد **47**، السنة **14**،مكتب التربية العربي لدول الخليج،ص**93**

(8) شيرين،محمد،**1995**: صعوبات التعلم و علاقتها ببعض المهرات الأولى من النعليم الأساسي، القاهرة: جامعة الزقازيق،ص**68**

(9) زياد،خالد،**2008**: دراسة لاضطراب النشاط الحركي الزائد المرتبط بقصور الانتباه عند عينات من الأطفال يعانون من صعوبات تعلم الرياضيات، المجلة المصرية للدراسات النفسية، العدد **18** ،ص**357-361**

(**10**)خيرية، رمضان**2004**: فعالية استراتيجية تدريس الأقران في تمنية مهارات الطرح و الاتجاه نحو الرياضيات لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية لدولة الكويت، الكويت: المجلة التربوية، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، العدد **72**،ص **13-33**

(**11**) حمادة،محمد محمود محمد،**2006**: فعالية استراتيجية الأقران في تنمية مهارات تخطيط و تنفيذ و تقويم دروس مادة الرياضيات و في انتقال و بقاء أثر تعلمها لدى الطلاب المعلمين بكلية التربية-جامعة حلوان- دراسات في المناهج و طرق التدرسي،عين شمس: الجمعية المصرية للمناهج و طرق التدريس، العدد **83**،ص**173-212**

(**12**) بثينة،بدر محمد،**2006**:طرائق تدرسي الرياضيات في مدارس البنات في مكة المكرمة ومدى مواكبتها للعصر الحديث، رسالة التربية و علم النفس، الرياض: الجمعية السعودية للعلوم التربوية و النفسية، العدد **26**،ص**81-133**

(**13**) عبد الناصر،أنيس عبد الوهاب،**1993**: دراسة تحليلية لأبعاد المجال المعرفي و المجال الوجداني للتلاميذ ذوي صعوبات التعلم بالحلقة الأولى من التعليم الأساسي، القاهرة:جامعة المنصورة،ص **102**

(**14**)عبد الناصر، أنيس عبد الوهاب، نفس المرجع،ص**105**

(**15**) الطيب،عصام علي،**2006**: أساليب التفكير-نظريات و دراسات و بحوث معاصرة، القاهرة: عالم الكتب،ص**23**

(**16**) الطيب،عصام علي،نفس المرجع السابق،ص**29**

(**17**) نور الدين، محمد،**1997**: فاعلية استخدام استراتيجية المحسوس-شبه المحسوس-المجرد- على أداء التلميذات ذوات صعوبات التعلم في الحقائق الأساسية لعملية الجمع بدولة الكويت، البحرين: جامعة الخليج العربي،ص**32**

(**18**) ملحم ،سامي،**2002**: صعوبات التعلم، الاردن: دار الميسرة،ص**31**

(**19**) حامد، الفقي،**1993**: دراسات في سيكلوجية النمو،ط**5**، الكويت: دار القلم،ص**98**

آليات التفعيل المقاصدي في الفكر النوازلي
بين حركية الواقع ومرونة النص
الونشريسي أنموذجا

أ.إسماعيل نقاز
جامعة وهران

Abstract:

The Islamic legislation pride religious system that make it wise glorified street, the Almighty, a substitute in the world of the meeting and the world of souls and universes, and what was practical Islamic legislation mainly substance in this system, making the mind fundamentalist past and present, intensify research and studies for further consideration in Investigation of this legislation

Keywords:

Mind_ Challenge_ Flexibility_ Legislation_ Provisions

.

إن التشريع الإسلامي منظومة تغياها الشارع الحكيم سبحانه وتعالى لانتظام أمر البشرية في ميادين الحياة العامة، وتسيير شؤون دينهم ودنياهم، ولما كانت هذه المنظومة تمثل القانون التشريعي في كل زمان ومكان، مجيبة عن كل النوازل والأحداث، اقتضى منها أن تمتلك المؤهلات المعرفية التي توفر لها مقدرة على مواكبة الأزمان والإجابة عن نوازلها، وعلى هذا الأساس انتظمت الأحكام التشريعية تحت قاعدة جلب المصالح ودرء المفاسد.

إن هذه القاعدة المقاصدية تركزت على أهم خاصية تميز بها هذا الدين الحنيف، وهي الهيمنة التي أوحى الشارع الحكيم بها إلى البشرية معلنة ختام النزول السماوي، واحتواء كل الديانات السابقة، قولــه تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه) المائدة 48.

أمام كل هذه الخصائص الربانية للشريعة الإسلامية واجه الفقهاء وأهل الفكر أمانة ثقيلة، تمثلت في بيان أحكام الدين، والإجابة عن تساؤلات الأزمان وما تطرحه مشكلات الناس من حوادث بقدر ما أحدثوا من المعاملات والارتفاقات والنظم في مختلف الميادين والمجالات، أمام كل هذه التحديات التي لم تثن عزمهم، انبرى أساطين الفقه إلى ذلك بعد أن كللوا مساعي علم النوازل، هذا العلم الذي يعد نافذة على كل الأزمان، حيث وقفوا على كثير من الفضاءات الفقهية الواسعة، فدونوا على غرار المصنفات المقررة في الفقه الإسلامي على مختلف مجالاته ، مصنفات لقبوها بعلم النوازل حيث تعد بيانا لما أشكل مما هو مقرر في كتب الفقه، فضلا عن الإضافات الجديدة، جدة الحوادث الحاصلة التي وقفوا على بيانها وتحديد حكم الشارع الحكيم فيها.وقد شكل الفكر النوازلي عبر العصور إضافة معرفية مهمة أثبتت جدارة التشريع الإسلامي، ولهذا لم يخل عصر من كتب في الفقه النوازلي، متناولة الفقه الإسلامي في نوازله ومستجداته.

أمام هذا الحسي الفقهي من علماءنا سنقف وقفة مع أحد هؤلاء الأعلام إنه الونشريسي صاحب المعيار الذي إذا سمي لم يقصد إلا هو رحمه الله، فقد كان آية في الفقه المالكي لا سيما في الفقه النوازلي ألف في

النوازل والوثائق وغيرها من تصانيف القضاء، ونحن أمام هذه الموسوعة الفقهية لا يسعنا إلا أن نسلط الضوء عن الجانب الفكري من علم النوازل فما هي الأساسات التي ارتكز عليها ثم حديث التوظيف بعد ذلك في الفقه المالكي واختياراته في ذلك.

وقد اختلف التصنيف في هذا الفكر، خاصة في معالجة القضايا النازلة، فهنالك كتب تناولت القضايا النازلة في كل أبواب الفقه، وبعضهم أفرد أبوابا في معالجة القضايا النازلة دون غيرها من الأبواب. وإذا كان جوهر الفقه النوازلي قائم على مقاصد الشارع الحكيم، وما تغياه من أحكام في نوازل الناس ووقائعهم، فإن استصحاب هذا الأخير _ مقاصد الشريعة_ بات ضرورة في استجلاء المقصود والمعنى، وهنا

تقف المنظومة المقاصدية بآلياتها وأدواتها الإجرائية والمنهاجية لتقرأ الواقع المتحرك بوعي وتنفخ في روعه عن طريق الوقوف على النصوص واستنطاقها، وعلى هذا الأساس فتمديد النص في جوار الأحداث المستجدة عملية لا تكون ولا ينبغي لها أن تكون دون توظيف المعاني المقاصدية، فبين جدلية النص والواقع يقف بحثنا مجيبا على إشكالية هذه الجدلية ومفككا للشفرة التي تحول دون الجلاء والوضوح إلا إذا أمعنا النظر كرتين، وعمقنا الفكرة مستصحبين في ذلك ما جادت به عقول الفكر المقاصدي عبر تاريخ التشريع لنخرج بعد ذلك بآليات نجعلها وسيطا بين النص المرن ومستجدات الواقع الذي لا تنتهي مشكلاته ولا يعزب عن التحرك في ميادين الحياة التي تنبض بالحيوية والجدة.

لكن صلاحية التشريع لكل الأزمان والأمكنة المكللة بالمنظومة المقاصدية تجعل أوصاف التشريع لا تقل في أوصافها عن أوصاف الواقع،

فهي لا زالت وما فتئت تنبض كذلك بالتحرك والحيوية والجدة؛ جدة المشكلات التي تقف منها موقف المتحدي والمجيب والموجه، وهكذا نقرأ الواقع لكن بنظارة القواعد المأصولة التي تزيل أمامها كل تيه وغبش، فننشد في جوار ذلك قشيب الضبط والإحكام.

نطرح الموضوع من خلال النقاط التالية:

مبحث تمهيدي:

المطلب الأول: الإمام الونشريسي حديث النشأة والنبوغ

المطلب الثاني: الإمام الونشرسي والفكر النوازلي

المبحث الأول: الفكر المقاصدي وعلاقته بالفقه النوازلي

المطلب الأول: الإطار المفهومي لمقاصد التشريع والفقه النوازلي

المطلب الثاني: علاقة مقاصد التشريع بنوازل الأحكام

المبحث الثاني: آليات التوظيف المقاصدي بين تحدي الواقع واستجابة النص

المطلب الأول: جدلية النص والواقع بين نوازل الأحداث ومقاصد الأحكام

المطلب الثاني: أدوات النظر المنهاجية في استلهام النص وتحقيق مناطه

خاتمة : أهم النتائج التي خلص إليها البحث.

مبحث تمهيدي:

المطلب الأول:الإمام الونشريسي حديث النشأة والنبوغ

هو أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد الونشريسي التلمساني، من الفقهاء المالكية البارزين في المغرب الإسلامي، ولد في بجبل ونشريس(

غرب الجزائر)، في حوالي سنة 834هـ/ 1430–1431م، ونشأ بمدينة تلمسان في ظل سلاطين دولة بني زياد، حيث أخذ على شيوخها كالفقيه الإمام قاسم بن سعيد بن محمد العقباني.

كان الفقيه الونشريسي لا يخشى في الحق لومة لائم، ولذا غضب عليه السلطان أبو ثابت الزياني صاحب تلمسان سنة 874هـ / 1469–1470م، فأمر بنهب داره، واضطر الونشريسي للفرار إلى فاس فاستوطنها، وقام هناك بتدريس مدونة الإمام مالك، كما كان مشاركا في فنون العلم، أخذ عنه جماعة من الفقهاء منهم ابن مليح اللمطي، وأبو زكريا السوسي، والقاضي ابن الغرديس التغلبي.

له مؤلفات كثيرة منها (المعيار المعرب)، وسنقف قليلا مع هذا الكتاب، وكتاب (إيضاح المسالك في قواعد مذهب مالك)، وكتاب(الفائق في أحكام الوثائق)، وله (الفروق في مسائل الفقه)، وغيرها. توفي الفقيه الونشريسي في عام 914هـ/ 1508م–1509م، وقد بلغ نحوا من ثمانين سنة رحمه الله[1] .**المطلب الثاني:الإمام الونشرسي والفكر النوازلي**

يعتبر كتاب (المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب) من أبرز كتب الونشريسي، وقد اعتمد في فتاويه التي أوردها في كتابه على مصنفات الفقه المالكي بأصنافها المتعددة، سواء الأمهات أو المختصرات في الأصول والفروع، والنوازل والوثائق، كما اعتمد في فتاوى المغربين الأدنى والأوسط على بعض كتب النوازل المغربية، ومن أهمها نوازل الفقيه أبي القاسم البرزلي القيرواني(844هـ).

ويشتمل كتاب المعيار المعرب على مجموعة ضخمة من النوازل، والفتاوى الفقهية التي تتميز بابتعادها عن الجانب النظري، والتي تعبر عن صدق ووضوح عن واقع الحياة اليومية في المجتمع المغربي، وما يلاحظ من خلال النوازل التي عالجها أن الأجواء الاجتماعية كانت تضرب في عمق الأعراف المحلية المغربية، مما دفع بالفقيه الونشريسي إلى الاجتهاد لاستنباط الأحكام والفتاوى الشرعية الملائمة وفق الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وفي ضوء المذهب المالكي وهو المذهب السائد في بلاد المغرب والأندلس [2] .والحقيقة أن لكتاب المعيار جوانب متعددة من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في غاية الأهمية، والنوازل في نظر الفقيه الونشريسي قضايا رفعت من مختلف فئات المجتمع إلى القضاة ورجال الفتوى للنظر فيها، وهي عادة ما تذكر القضية أو النازلة كما حدثت بأشخاصها ووقائعها، فهي مرآة صادقة تعكس هموم، ومشاكل أفراد المجتمع وما يشغلهم في تلك الفترة [3]، وسنقتبس كثيرا من منهاجه في الفتوى، وكيف تعامل مع النص في جوار الواقع، كيف استطاع أن يكلل ذلك بمساعي الفكر المقاصدي.

المبحث الأول:الفكر المقاصدي وعلاقته بالفقه النوازلي

يتناول هذا المبحث مدى الوصلة المعرفية التي تجمع بين الفكر المقاصدي في جانبه التشريعي والفقه النوازلي، وقد تقرر هذا في مطلبين:

المطلب الأول:الإطار المفهومي لمقاصد التشريع والفقه النوازلي.

إن التشريع الإسلامي معلل كما قلنا في ديباجة هذا البحث بجلب المصالح ودرء المفاسد، وهذه قاعدة كبرى تمثل لنا أهم مبدإ تغيته هذه الشريعة الغراء، وأنها بهذه المعاني السامية تند عن كل أسر وإصر وسلطة

دينية مبهمة كما حدثت في الأديان السابقة المحرفة، فكل شيء في الفقه الإسلامي له حكمه ومناطاته، ومصالحه ومفاسده، فعن طريق تقرير هذا الميزان والمعيار تنسلك أحكامه من تحليل وتحريم وكراهة وندب وإباحة. ومن ثم تتقرر أصالة هذا التشريع.

وعلى هذا المعيار فإن قاعدة المصالح والمفاسد المقاصدية باتت مستصحبة دائما، لدى المنظر الأصولي والمشرع الفقيه (على سبيل المجاز، وإلا فالمشرع هو الشارع الحكيم)، في كل وقت وحين، على كر الدهور ومر السنين، فكل ما ينزل بالمجتمع المسلم في أرض الإسلام، أو أرض غير المسلمين، أو أرض الدعوة، سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات ينبغي أن يناط بقاعدة المصالح والمفاسد.

معنى مقاصد التشريع: لقد تداول هذا المصطلح عند الفقهاء المعاصرين على سبيل التأصيل والتنظير والكتابة في موضوعه بشكل يلفت الانتباه، أو نستطيع القول بأن عصرنا هذا عصر المقاصد، فقد بلوروا كثيرا من المعارف الاستدلالية في الفكر الأصولي لدى السابقين، خاصة أولئك الذين وضعوا بصمات ملموسة من لدن الإمام العز بن عبد السلام والغزالي وابن تيمية، والإمام الشاطبي الذي يعد المؤسس بلا منازع، وابن عاشور الذي أضاف ما عز عن البيان لدى السابقين.

فهذا الإمام الشاطبي وإن لم يعط مفهوما على وفق اصطلاح التعريفات، إلا أنه أصاب كبد الفكرةعندما حدد مفهوم المقاصد قائلا:« أن وضع الشرائع إنما هو لمصالح العباد في العاجل والآجل معاً »(4) .وقد أعطى الأصولي الزركشي مفهوما تحديديا كذلك فقال:« قال أصحابنا: الدليل على أن الأحكام كلها شرعية لمصالح العباد, إجماع

الأمة على ذلك، إما على جهة اللطف والفضل على أصلنا, أو على جهة الوجوب على أصل المعتزلة, فنحن نقول: هي وإن كانت معتبرة في الشرع لكنه ليس بطريق الوجوب, ولا لأن خلو الأحكام من المصالح يمتنع في العقل كما يقول المعتزلة, وإنما نقول: رعاية هذه المصلحة أمر واقع في الشرع, وكان يجوز في العقل أن لا يقع كسائر الأمور العادية»[5].

وقد قرر هذه المعاني المقاصدية العلامة ابن القيم بأن« الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد. وهي عدل كلها و رحمة كلها ومصالح كلها. فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل... »[6].

وقد عزز هذا الكلام ما قاله العلامة شاه ولي الله الدهلوي:« وقد يظن أن الأحكام الشرعية غير متضمنة لشيء من المصالح...وهذا ظن فاسد تكذبه السنة وإجماع القرون المشهود لها بالخير »[7].وعلى هذا فمقاصد الشريعة ومعرفتها ومراعاتها، ليس شيئا اكتشفه اللاحقون أو ابتكره المتأخرون، بل هو من صميم الدين، بل هو صميمه[8]، والقرآن الكريم والسنة النبوية هما أول مصرح بمقاصد الشريعة وأول منبه على أمثلتها ونماذجها الإجمالية والتفصيلية. فرغم أن أحكام الوحي لها من القداسة ومن الثقة بها والتسليم لها ما لا مزيد عليه عند المؤمنين بها، وما لا يحوجهم إلى بيان علة ولا حكمة ولا مقصد ولا مصلحة، فإن القرآن والسنة-رغم ذلك-قد بينا كثيرا من علل الأحكام ومقاصدها، في العبادات والمعاملات وسائر أبواب التشريع. كما قال الإمام ابن القيم

رحمه الله:« والقرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح...ولو كان هذا في القرآن والسنة نحو مائة موضع أو مائتين لسقناها، ولكنه يزيد على ألف موضع بطرق متنوعة»(9).

إن هذه المعاني الكبرى التي ندب إليها الفقهاء أنفسهم وبحوثهم هي التي أعطت بعد ذلك موقعا هاما في الاستدلال والتوظيف النصي، فمن دونها لن نصل أبدا إلى كبد المعاني التي تغياها الشارع الحكيم من كل حكم ونازلة. وعلى وفق هذا التصور فإن مقاصد التشريع جوهر أساس في العملية الاستدلالية التي لا تقف عند حد النص في ظاهره، بل تأخذ بنا إلى المعاني الاحتوائية المنتجة للإمكانات المعرفية في الاستدلال. وسنرى هذا جليا عند الحديث عن تجربة الإمام الونشريسي بتقرير المقاصد في نوازله، وتكليله لقواعدها وإمكاناتها.

معنى الفقه النوازلي:

إن المنظومة الفقهية قد تنوعت أساليب التصنيف فيها لدى الفقهاء وأهل المعارف الدينية، ولعل أهم أسلوب كان نتاج الثروة القانونية في التشريع هو مصنفات الفقه النوازلي، هذا النوع من التصنيف قديم قدم الأغراض والأسباب التي دعت إليه، فمنذ القديم وفقهاؤنا يترصدون للمنظومة الفقهية مصنفات على غير ما هو مقرر ومرتب فيها، ومعهود في مصنفاتها، فكانت كتب النوازل مستصحبة ومزاولة لكتب الفقه المستقر، لأن كثيرا من الصور والتخريجات النازلة والحادثة لم تكن تسعفهم في الفقه المستقر، فكان هذا يضطرهم إلى التأليف على غراره كتبا ومصنفات تكون في موقع الإضافة والإثراء على ما هو مقرر في ما عهدوه (10).

ونرى هذا واضحا من كلام الإمام عيسى بن سهل الغرناطي في مقدمة مصنفه قائلا: «ثم إني رأيت الآن ضم تلك النوازل إلى نظام وجمع تلك المسائل إلى ترسيم والتئام وجمع أشكالها بعضها إلى بعض لتكون فائدتها أمكن وأيسر ومنفعتها أقرب وأيسر وأكثر»[11]. ففي اللغة: معنى النوازل يطلق على جمع نازلة، وهي(المصيبة الشديدة من شدائد الدهر تنزل بالناس)[12]، وأصلها من الفعل نزل بمعنى هبط ووقع.

لم أقف للسابقين القدماء على تعريف محدد للفقه النوازلي، كل ما في الأمر أنهم يوظفون المعنى اللغوي للتعبير عنها في مسائل الفقه. يقول الإمام الشافعي عن مسألة في القنوت :« ولا قنوت في شيء من الصلوات إلا الصبح إلا أن تترل نازلة فيقنت في الصلوات كلهن إن شاء الإمام »[13].

وقد وضح في رسالته الأحكام النازلة من غيرها فقال:«كل حكم لله أو لرسوله وجدت عليه دلالة فيه أو في غيره من أحكام الله أو رسوله بأنه حكم به لمعنى من المعاني، فترلت نازلة ليس فيها نص حكم؛ حكم فيها حكم النازلة المحكوم فيها إذا كانت في معناها»[14]. ومعنى كلام الإمام الشافعي أن الأحكام الفرعية نوعان: أحكام ثابتة بنص الوحي عينا وواقعا، أو بفهم المجتهد، أي أنها مبتوت فيها وواضح حكمها، وهناك أحكام لم تثبت بعين الشرع، ولم يكن فيها للفقهاء حكم واضح، فيتم عن طريق الحكم الواضح والمبين، الاستدلال على الحكم النازل والواقع. يشير هنا إلى القياس الأصولي، والقياس بمعنى القاعدة العامة الثابتة بالاستقراء التي يدخل فيها ما هو في معناها، وهذا معنى قوله(... إذا كانت في معناها). يقول الإمام مالك:« أدركت هذا البلد وما عندهم

إلا الكتاب والسنة فإذا نزلت نازلة جمع الأمير لها من حضر من العلماء فما اتفقوا عليه أنفذه » [15] .وقال ابن القيم وهو يتحدث عن مشروعية تقليد العامي للعالم:« قد علم الله سبحانه أن الحوادث والنوازل كل وقت نازلة بالخلق، فهل فرض على كل منهم فرض عين أن يأخذ حكم نازلته من الأدلة الشرعية بشروطها ولوازمها؟»[16] .

ومن مجمول هذه المعاني يمكن أن نقول بأن الفقه النوازلي هو: **(المسائل والحوادث التي تنزل دون أن يكون للشرع في عينها نص، ولا للسابق فيها نظر واضح لا يستدعي اجتهادا زائدا على ما هو مقرر).** نوضح أكثر معنى هذا التعريف حتى نخرج عن النوازل بعض المشمولات التي لا تدخل في تحديده تحديدا دقيقا.

ـــــ **(المسائل والحوادث التي تنزل دون أن يكون للشرع في عينها نص)** : يدخل فيه كل حكم نص الشرع أصالة أو تبعا عليه، مثل حلية البيع وحرمة الربا، فهذا نص عليه أصالة وتبعا في نصوصه. ويخرج منه ما نص عليه الشرع في جنسه، حيث إن الحكم على النازلة فيه هو حكم عليه من حيث إن جنسه معلوم في الشرع مثل حرمة تناول الحشيش فلم يرد في نصه حكم، فالنص ورد في الخمر، فكل ما كان من جنس علة التحريم دخل فيه، ولو لم يكن من قبل. وكذلك ما ثبت فيه الحكم لكن لا على نص واحد، ولكن من مجموع نصوص مستقرأة، وقاعدة كلية تمثلت مقصدا من مقاصد التشريع، فكانت النازلة في ضمن مشمولات هذا المقصد مثل قاعدة (لا ضرر ولا ضرار)، تدلنا على حرمة ما كان فيه ضرر معتبر في الشرع، فهو محرم ولو لم ينص عليه الشرع، مثل تناول

الدخان فقد ثبتت قطعية مضرته وهي معتبرة في الشرع، إذن فيحرم على وفق القاعدة المستقرأة.

ـــــ (ولا للسابق فيها نظر واضح لا يستدعي اجتهادا زائدا على ما هو مقرر): أي أن المجتهد السابق على حدوث النازلة لم يكن له فيها من قبل نظر وحكم ثابت وواضح، وهنا مقصود الوضوح ليس في التحريم والتحليل، ولكن في تحقيق المناط؛ أي في تكييف النازلة، حيث إن المسألة قد لا تتوضح صورتها على وفق ما نزلت عليه فيما بعد، كأن كانت تشبهها، لكن تختلف من حيث التكييف، وبالتالي فهي تغاير صورة المسألة التي حكم عليها المجتهد السابق، ومن ثم أصبحت النازلة تستدعي نظرا جديدا، مثل حرمة بعض العقود المالية المعاصرة لشوبها بالربا، وقياسها على بعض بيوع العينة.

المطلب الثاني:علاقة مقاصد التشريع بنوازل الأحكام.

إن الفقه النوازلي له علاقة وطيدة بكبريات قواعد الفكر المقاصدي في جانبه التشريعي، بل إن الحكم على النازلة لن يكون أبدا بمنئ وبمعزل عن مقاصد التشريع وقواعده، وكل نظر في الأحكام النازلة دون استصحابها فهو مردود. ومعلوم أن المسألة النازلة هي مسألة خاضعة للاجتهاد والاستنباط، وهذه الآلية (الاستنباط)،تنظر إلى الأحكام النازلة بنظرين [17]:

1ـــ الاجتهاد الاستدلالي، **2** - الاجتهاد التنزيلي.

لأن الأحكام إما أن يكون منصوصا عليها أو لا، فإن كان منصوصا عليها، بحثنا عن طريق الاجتهاد الاستدلالي في مظان النصوص والقواعد المباشرة حول المسألة في جنسها، أما إذا لم يكن منصوصا عليها، أو كان

منصوصا عليها، لكن حدثت صور مختلفة عند تطبيق النازلة على بعض الحالات، فهنا نوظف الاجتهاد التنزيلي، أو ما يسمى في أصول الفقه بتحقيق المناط [18]. فقاعدة تحقيق المناط هي جوهر في مقاصد التشريع، والفقه النوازلي له تعلق كبير بتحقيق المناط، لأن غالبا ما تكون الأحكام النازلة لها جنس في الشرع يقضي إما بحرمتها أو وجوبها أو حليتها أو غير ذلك، لكن تنزيل هذه الصور والأحكام قد يختلف عند التطبيق والحدوث العملي للمسألة، فهنا يمثل تحقيق المناط الجوهر الأساس في بيان حكم المسألة النازلة.

وقد قال الإمام الشاطبي في باب الاجتهاد، عن تحقيق المناط:«كل دليل شرعي؛ فمبني على مقدمتين: إحداهما: راجعة إلى تحقيق مناط الحكم. والأخرى: ترجع إلى نفس الحكم الشرعي. فالأولى نظرية وأعني بالنظرية هنا ما سوى النقلية سواء علينا أثبتت بالضرورة أم بالفكر والتدبر، ولا أعني بالنظرية مقابل الضرورية، والثانية نقلية، وبيان ذلك ظاهر في كل مطلب شرعي، بل هذا جار في كل مطلب عقلي أو نقلي؛ فيصح أن نقول: الأولى راجعة إلى تحقيق المناط، والثانية راجعة إلى الحكم، ولكن المقصود هنا بيان المطالب الشرعيةـ»[19].

ومعنى ذلك في نظر الإمام إذا:« شرع المكلف في تناول خمر مثلا؛ قيل له: أهذا خمر أم لا؟ فلا بد من النظر في كونه خمرا أو غير خمر، وهو معنى تحقيق المناط، فإذا وجد فيه أمارة الخمر أو حقيقتها بنظر معتبر؛ قال: نعم، هذا خمر، فيقال له: كل خمر حرام الاستعمال. فيجتنبه، وكذلك إذا أراد أن يتوضأ بماء؛ فلا بد من النظر إليه: هل هو مطلق أم لا؟ وذلك برؤية اللون، وبذوق الطعم وشم الرائحة، فإذا تبين أنه على أصل خلقته؛

فقد تحقق مناطه عنده »[20]. فتحقيق المناط متعلق تمام التعلق بالأحكام النازلة لأنه كما قال الإمام الشاطبي لا ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف، أي أنه مساوق لما يحدث من المشكلات والنوزال، فهو« لا يمكن أن ينقطع حتى ينقطع أصل التكليف، وذلك عند قيام الساعة »[21].

إضافة إلى ذلك، فإن إثبات حكم المسائل النازلة كما قلنا في التعريف بأنه متعلق بما ثبت بجنس الشرع لا بعينه، فما ثبت بعين الشرع ليس بنازل، بل هو معهود، ومقصود ثبوتها (النازلة)، بجنس الشرع أي أن المجتهد ينظر في المسألة النازلة ويحدد حقيقة متعلق الحكم فيها ومناطه، أي أنه يتبين عن طريق السبر والتقسيم وعن طريق تخريج المناط؛ إلى جوهر ما تتكون عليه المسألة وتشكل فيه أساسا، فإذا تبين له حقيقتها، نظر مرة أخرى في القواعد المستقرأة على علل ومقاصد واضحة، فيحكم على المسألة النازلة على وفق هذا النسق.

المبحث الثاني:آليات التوظيف المقاصدي بين تحدي الواقع واستجابة النص

يتناول الحديث عن جدلية النص المنفتح وحركية الواقع الذي لا يتوقف من جانبيها النظري والإجرائي.

المطلب الأول:جدلية النص والواقع بين نوازل الأحداث ومقاصد الأحكام

لقد تنبه علماء الفكر المقاصدي إلى بنية النص بوصفه حمولة متخمة من المعاني، لهذا فرضوا في بنيته جملة من المكونات الداخلية التي يستدعيها النص ذاته، وتفرض عليه تمديدا، هذا التمديد هو الذي يعطيه الروح السارية التي تضمن له المواكبة الزمانية والمكانية، وعلى هذا الأساس

فليس بعيدا أن نرى في التنظير الفقهي للقواعد الفقهية أنهم يدرجون قاعدة (العبرة بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني)، في أس المباحث المقاصدية.

إن النص لا يعبر بمنطوقه ولا بمفهومه، إلا إذا كان يحتوي تلك المؤشرات التي تدل عليها النصوص إما على الإفراد في عينها، أو عن طريق الاستقراء في جنسها، ففي سياق ذكره عن المصالح المرسلة يبين الشاطبي قضية الاعتبار لجنس موارد الشرع، فقال:« أن يلائم تصرفات الشرع، وهو أن يوجد لذلك المعنى جنس اعتبره الشارع في الجملة بغير دليل معين وهو الاستدلال المرسل»(22)، أمام كل هذه المعاني يقف النص موقفا حاسما في استنطاق الواقع ومعاشرته وفهمه، حتى يستطيع الفقيه بعد ذلك أن ينظر نظر الحصيف الذي لا يعزب عنه مقاصد الشارع الحكيم من النازلة المراد كشفها، وقد عبر عن هذه المعاني الإمام الشاطبي في حديثه عن المصلحة المرسلة بقوله:«إن الأصل الكلي إذا انتظم في الاستقراء يكون كليا جاريا مجرى العموم في الأفراد»(23)، والاستقراء هنا ليس استقراءا للألفاظ فقط مجتمعة بل إنه استقراء للمعاني فهو يتسامى عن أن يبقى حبيس اللفظ والظاهر، وهذا استقراء في قلب النص وجوهره، فالحكم كما يظهر من لفظه وظاهره كذلك يظهر من معناه، والمعاني إذا اجتمعت فإنها تشكل عموما لا يقل وزنا عن العموم اللفظي؛ بل إنه يفوقه أحيانا فـــ «العموم إذا ثبت فلا يلزم أن يثبت من جهة صيغ العموم فقط... بل من استقراء مواقع المعنى حتى يحصل منه في الذهن أمر عام كلي فيجري في الحكم مجرى العموم المستفاد من الصيغة»(24).

على أن عين الشرع وجنسه يبقيان هما الأساس الذي يستند منهما الواقع موقف الشرع فيه، وهنا إيراد ضروري ذكره مصطفى شلبي في حديثه عن جدلية النص والمصلحة التي هي جوهر الواقع المدروس، حيث يقر بأنها: «إذا تعارضت معه في أبواب المعاملات والعادات التي تتغير مصالحها أخذ بها... وأما إذا كانت المصلحة المستفادة من النص لا تتغير فلا يترك النص أصلا... وأما غير المعاملات كالعبادات والمقدرات فلا سبيل إلى عمل المصلحة فيها»[25]، ولقد انطلق فضيلته من أن الأحكام تتغير بتغير المصالح؛ وهذا يقتضي تقديم المصلحة المتغيرة على النص و الإجماع.

ذلك أن الحكم الشرعي الذي شرع تحقيقا لمصلحة معينة ثابت لا يتغير ولا يتبدل، لأن المصلحة التي شرع لتحقيقها كذلك، هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن النص لا يترك بمصلحة سواء كانت ثابتة أو متغيرة، لكن هذا لا يسلم.

وتحقيق الفكرة في هذا المقام الذي نبين فيه جدلية النص والواقع أو المصلحة، أن كل دليل شرعي مبني على قاعدتين لا ينفك عنهما إحداهما راجعة إلى تحقيق المناط، والأخرى ترجع إلى نفس الحكم الشرعي، والأولى نظرية والثانية نقلية، فإذا نص الشارع الحكيم على أن (البينة على المدعي واليمين على من أنكر)، فإن هذا حكم شرعي تعين لمصلحة محددة؛ فهذا الحكم لا يلحقه التغيير ولا التبديل، لأن المصلحة التي قصد به تحصيلها ثابتة كذلك، فإذا عرض على الفقيه واقعة مضمونها أن الصانع يدعي تلف السلعة من غير تقصير ولا تعد، في حين أن صاحب السلعة لا يوافقه على دعواه، فإن الفقيه ينظر فيجد أن الغالب على طائفة

الصناع الصدق والأمانة، فيقول إن الصانع لا يضمن ويصدق في دعواه الهلاك أو التلف، وليس لرب السلعة إلا اليمين، وتؤسس الدعوى على أن المدعي هو الذي لا يشهد له الغالب، فإذا تغير الزمن، وفسدت الذمم، وضعف سلطان الدين على النفوس وغلب على طائفة الصناع الخيانة والتعدي، فإن الفقيه يحكم بتضمين الصانع لأنه يعتبر مدعيا، وقد تغيرت الفتوى في الحالتين ولم يتغير الحكم ولا المصلحة التي لأجلها شرع.

إذن فالمسألة في أساسها مبنية على تحقيق المناط، وهذا هو الذي يتغير، ولهذا :«فإنه يعتمد على العادات والتجارب والخبرات، وغير ذلك من الظروف المتغيرة، فيتغير بتغييرها»[26]، وهنا نفهم جدلية النص والواقع؛ بأن تحدي الواقع يجعل النص يستجيب لكن من حيث إنه يتغيا الوصول إلى مقصد أراده النص ذاته إما عينا أو جنسا أي باستقراء موارد الشرع، وعلى الأساس يمكن أن نقيم المخطط التالي الذي يبين حقيقة الواقع وموقف النص منه، فالنص يحتاج إلى الواقع كي يحقق مناطه، والواقع يحتاج النص كي يقف على موارد الشرع فيه.

المخطط:

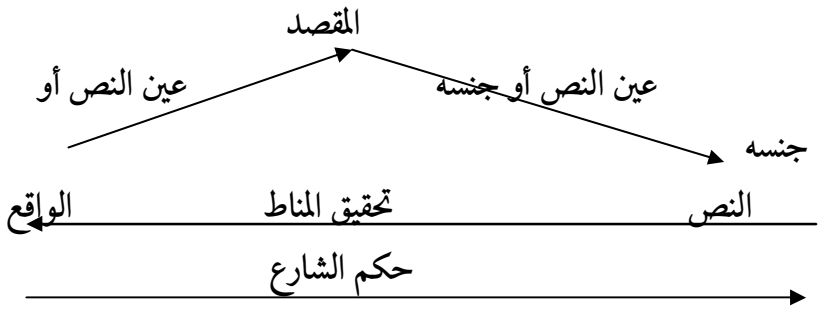

فإذا كان مقصود شلبي هو الفتوى فإن تغيير الفتوى متوقف على تغيير مناطها، أما المصلحة والحكم فلا يتغيران، ولهذا فتقسيمه المصلحة إلى متغيرة وثابتة هذا فيه نظر، إذا عرضنا المسألة في محور جدلية النص والواقع.أهم استناد يخضع له النص في بيان الواقع هو تحقيق المناط، ولهذا فإن الواقع في فهمه لا يتوقف على النص ولا على المقصد، بل في كثير من الأحيان لا يمكن للنص أن يعيه، لأن النص عبارة عن أحكام مطلقة لا تبين كل واقعة بخصوصها « ذلك أن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حِدتها، وإنما أتت بأمور كلية، وعبارات مطلقة، تتناول أعداداً لا تنحصر، ومع ذلك فلكل معيّن خصوصية ليست في غيره، ولو في التعيين نفسه، وليس ما به الامتياز معتبراً في الحكم بإطلاق.. . فلا يكون الحكم واقعاً عليها إلاّ بعد المعرفة بأن هذا المعيّن، يشمله ذلك المطلق، أو ذلك العام، وقد يكون ذلك سهلاً وقد لا يكون»(27).

وعلى هذا فتحقق الحكم في الواقع ليس طريقه النص وإنما طريقه تحقيق المناط، لأن الاجتهاد في تحقيق المناط:«لا يفتقر في ذلك إلى العلم بمقاصد الشارع، كما أنه لا يفتقر فيه إلى معرفة علم العربية؛ لأن المقصود من هذا الاجتهاد إنما هو العلم بالموضوع على ما هو عليه، وإنما يفتقر فيه إلى العلم بما لا يعرف ذلك الموضوع إلا به من حيث قصدت المعرفة به، فلا بد أن يكون المجتهد عارفًا ومجتهدًا من تلك الجهة التي ينظر فيها ليتنزل الحكم الشرعي على وفق ذلك المقتضى»(28).

وقد اصطلح عبد المجيد النجار على معنى فهم الواقع بقوله (تمثل الواقع)، ويقصد به «الاستيعاب المعرفي الشامل والمفصل للصورة الواقعية من الحياة التي يراد معالجتها بالهدي الديني، ولا يتم هذا الاستيعاب إلا

بالكشف عن حقيقة تلك الصورة، في عناصرها الظاهرة والخفية، وفي علاقتها بالصور الأخرى، التي لها بها علاقة، وفي أبعادها الفردية والاجتماعية والدولية، وفي مظاهر الخلل، التي تتأتى الأضرار منها، فتفوت مصالح الأفراد والجماعة، وكل ذلك يراعى فيه عناصر التشخيص التي تتعلق بالظرف المكاني والزماني للصورة المدروسة بعيداً عن التعميم، الذي لا يقوم على أساس من الاشتراك في تلك العناصر»[29].

إن الوعي بالواقع هو الذي يضع الفقيه أو الناظر في مقصود الشرع أن ينزل إلى الواقع أولا يسائله، يباشره، يصاحبه، ثم بعد ذلك يأتي إلى النص ليستجلي منه المقاصد العلية عن كل الإشكالات التي تبدت من هذا الواقع بمختلف مجالاته[30].

وفي هذا السياق نلفت نظرة باقر الصدر في نظره إلى جدلية النص والواقع، في مقام التأصيل لاستراتيجيات النظر التي تقوم عليها نظريته في منهاجية القراءة الجديدة للخطاب القرآني، فهو يرى أن الناظر في القرآن المجيد لا بد أن يشكل استجابة حوارية بين الواقع الذي يبدأ به ويعمق الفكرة في النظر إلى موضوعاته وإشكالاته في أي حقل من حقول الحياة الإنسانية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني من مشاكل وحلول، وما تركته من فراغات، بعدها يلوي عنان فكره إلى النص القرآني، لا ليتخذ من نفسه مستمعا أو مسجلا فحسب؛«بل ليطرح بين يدي النص موضوعا جاهزا مشرقا بعدد كبير من الأفكار والمواقف البشرية، ويبدأ مع النص القرآني حوارا، المفسر يسأل والقرآن يجيب المفسر على ضوء الحصيلة التي استطاع أن يجمعها من خلال التجارب

البشرية النافعة، وهو يستهدف من ذلك أن يكتشف موقف القرآن الكريم من الموضوع المطروح والنظرية التي بإمكانه أن يستلهمها من النص من خلال مقارنة هذا النص بما استوعبه الباحث عن الموضوع من أفكار واتجاهات، ومن هنا كانت نتائج التفسير الموضوعي نتائج مرتبطة دائما بتيار التجربة البشرية لأنها تمثل المعالم والاتجاهات القرآنية لتحديد النظرية الإسلامية بشأن موضع من مواضيع الحياة ومن هنا أيضا كانت عملية التفسير الموضوعي عملية حوار مع القرآن الكريم واستنطاق له، وليست عملية استجابة سلبية بل استجابة فعالة وتوظيفا هادفا للنص القرآني في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى»[31].

وهنا نرتقي بالخطاب الفقهي إلى أبعد من أن نحصره في النوازل الفقهية الجزئية أو الشخصية، فما دامت جدلية النص والواقع قائمة على ميزان المقاصد الإلهية، فإن ذلك يفرض علينا قراءة هذه الجدلية وتعميق النظر فيها على كل المستويات والأنحاء، لا في البقاء بها مع جزئيات الأحكام، وإنما لجعلها شاملة لنوازل الحياة الإنسانية في الأنفس والآفاق، وهذا ما تفطن له الفقيه المجدد باقر الصدر عندما طرح منظومته الجديدة في قراءة النص القراءة على النحو السنني.

المطلب الثاني:أدوات النظر المنهاجية في استلهام النص وتحقيق مناطه

بعد هذا التنظير للجدلية القائمة بين النص والواقع، ومحاولة الوقوف على فك رموزها، وبيان متعلقاتها نأتي في خطوات إجرائية نعمق معها الفكرة، لنزيد هذه الجدلية كشفا واستجلاءا، فنعرض للوسائل الإجرائية التي يمكن أن تصل ذلك الخيط الرفيع بين النص والواقع، لنثني القصد بعد ذلك إلى ملكة الإمام الونشريسي الفقهية والأصولية، فكتاب المعيار

يعد المصنف الذي تبدت وتجلت فيه للعيان العقلية الفقهية المقاصدية؛ كيف استطاع أن يستثمر ذلك الكم الهائل من الأدوات التي تربط النص بالواقع؟ ثم كيف وظفها في بحر النوازل التي تطرق لها، فنعرض لها على سبيل المثال لا الحصر.

ولما كان الإمام الونشريسي فقيها مالكيا تتفيأ نور فقاهته من مشكاة الفكر المالكي أصولا وفروعا، فإن هذا سيضفي على البحث لمسة مقاصدية لا تقل في بيانها وتألقها عن ما تميز به الفقه المالكي أصولا وفروعا، قديما وحديثا، بيانا وتألقا في سماء الإبداع المقاصدي؛ بدءا من الإمام مالك مترجما لمعنى المصالح المرسلة، مرورا بالإمام الشاطبي مؤصلا ومعمما للبحث المقاصدي، وصولا إلى ابن عاشور مراجعا ومضيفا لعناوين التألق والجدة فيه.

إن أدوات النظر المنهاجية التي تظهر فيها جدلية الواقع والنص على السواء تكاد تنحصر في مبدإ كبير قد أشرنا له سابقا ألا وهو (تحقيق المناط).

ومعناه كما نص على ذلك الإمام الشاطبي بقوله:« أن يثبت الحكم بمدركه الشرعي لكن يبقى النظر في تعيين محله ... ويكفيك من ذلك أن الشريعة لم تنص على حكم كل جزئية على حدتها، وإنما أتت بأمور كلية وعبارات مطلقة تتناول أعدادا لا تنحصر، ومع ذلك؛ فلكل معين خصوصية ليست في غيره ولو في نفس التعيين»[32].

لكن موارد تحقيق المناط ترتكز على أمرين اثنين أولهما: المصالح المرسلة والثاني: اعتبار المآل. فعن طريق هذين الموردين نقف على النازلة

المراد عن كشف بيانها، وسنلاحظ حقيقة هذين الموردين، وكيف استطاع الإمام الونشريسي توظيفهما لبيان المناط وكشفه، وتحقيق مورده.

أولا/ المصلحة المرسلة:

بعيدا عما قيل واختصارا للكلام عن المصلحة المرسلة، فإن الاستدلال المرسل كما قال الإمام الشاطبي دليل أصيل في الفكر الأصولي، وهو قطعي قد شهدت له النصوص بالاستقراء، ذلك « أن كل أصل شرعي لم يشهد له نص معين، وكان ملائما لتصرفات الشرع، ومأخوذا معناه من أدلته؛ فهو صحيح يُبنى عليه، ويُرجع إليه إذا كان ذلك الأصل قد صار بمجموع أدلته مقطوعا به؛ لأن الأدلة لا يلزم أن تدل على القطع بالحكم بانفرادها دون انضمام غيرها إليها كما تقدم؛ لأن ذلك كالمتعذر، ويدخل تحت هذا ضرب الاستدلال المرسل الذي اعتمده مالك»(33).

فالمصلحة المرسلة هي ما شهد جنس الشرع به عن الملائمة المتوفرة بواسطة الاستقراء الذي يجمع النصوص التي شهد على جنس المقصد لا عينه، وقد لاحظنا ذلك واردا في نوازل الإمام الونشريسي، فمسائل كثيرة لا تكاد تحصى كان مورد الإمام فيها قائما على المصالح المرسلة، فقد اتخذها الخيط الرفيع الذي يجمع النص بواقعه، وقاعدة العادة محكمة، أو الأخذ بالعرف مقصود معتبر شرعا، لا تستقيم إلا إذا أعرناها بهذا الأصل _ المصالح المرسلة_ ، فملاحظة الواقع واعتباره في التشريع أمر نص عليه التشريع، فهو يدخل في المصالح المرسلة، وسنذكر مثالين على سبيل التوضيح لا الحصر:

_ مسألة فرض الخراج على الأغنياء إذا نفذ بيت المال العام:

الأصل أن لا يطالب المسلمون بمغارم غير واجبة بالشرع، وإنما يطالبون بالزكاة وما أوجبه القرآن والسنة، كالفيء والركاز وإرث من يرثه بيت المال. وهذا ما أمكن به حمل الوطن وما يحتاج له من جند ومصالح المسلمين وسد ثُلَمِ الإسلام، فإذا عجز بيت المال عن أوراق الجند وما يحتاج إليه من آلة حرب وعدة، فيوزع على الناس ما يحتاج إليه من ذلك.

وقد استند الونشريسي في جواز ذلك بالمصلحة المرسلة فقال:« الذي نراه جواز ذلك عند ظهور المصلحة وإنما النظر في بيان وجه المصلحة»(34)، هنا يوظف الإمام الونشريسي أس ما يعتمد عليه تحقيق المناط، فينظر في حقيقة المصلحة وبيان وجهها، فيقول:« أولاً توظيف الخراج في عصرنا هذا، وكل عصر هذا خراجه ومنهاجه ظلم محض، لا رخصة فيه. فإن آحاد الجند لو استوفيت جراياتهم ووزعت على الكافة لكفتهم برهة من الدهر وقدراً صالحاً من الوقت، وقد شمخوا بتنعُّمهم وترفُّههم في العيش وتبذيرهم في إفاضة الأموال على العمارات، ووجوه التجمل»(35)، أما إذا كان الإمام مطاعا، وكان بحاجة إلى تكثير الجند لحماية الرقعة، وخلا بيت المال، واحتاج الجند إلى ما يسد حوائجهم :« فللإمام أن يوظف على الأغنياء ما يراه كافياً لهم في الحال، إلى أن يظهر مال في بيت المال، ثم إليه النظر في توظيف ذلك على وجود الغلات والثمار كي لا يؤدي تخصيص بعض الناس به إلى إيغار الصدور وإيجاش القلوب ويقع ذلك قليلاً من كثير ولا يُجحف بهم ويحصل به الغرض»(36)، ثم استدرك قائلا:« فإن قيل هذه مصلحة غريبة لا عهد بها في الشرع، ولا بمثلها، وحاصلها يرجع إلى مصادرة الخلق عن أموالهم

وهو محظور يعلم حظره من جهة الشرع، ولذلك لم ينقل قط عن الخلفاء الراشدين قبل أن صارت الخلافة ملكاً عضداً. وإنما أبدعها الملوك والمترفهون المائلون عن سمة الشرع. قلنا: لم ينقل عن الأولين ذلك لامتلاء بيت المال في زمانهم، واتساع وجوه الرزق على أعوانهم. وقد نقل عن عمر رضي الله عنه أنه ضرب الخراج على أراضي العراق، فأصل الضرب ثابت بالاتفاق. وإنما اختلاف العلماء في طريقه»[37]، ثم يقف على وجه المصلحة فيوازن بين المصالح والمفاسد، أي مصلحة حفظ حياض المسلمين عن طريق القيام بشؤون الجند، وبين مفسدة أن يفرض على الناس إيتاوات فوق ما فرض عليهم من الزكوات، هنا يقف الونشريسي بين مفسدتين إحداهما أعظم من الثانية، فالضرر الذي يلحق الناس من فرض الخراج أخف من الضرر الذي يقع عند انقطاع شوكة الجند، فتكون الأمة مهددة في مقاصد الدين والدنيا، فلا بد أن يرتكب أخف الضررين،« فإذا رددنا بين احتمال هذا الضرر العظيم، وبين تكليف الخلق حماية أنفسهم بفضلات أموالهم، فلا يتمارى في تعيين هذا الجانب، ولا يتمارى في حماية النفوس والحرم وأكثر الأموال الفضلات»[38]، فبعد تحقيق مناط وجه المصلحة ثم بعد ذلك جواز الحكم يختم الونشريسي تحقيق النظر في المسألة بردها إلى أصولها قائلا:«وهذا مما يعلم قطعاً من كل مقصود الشرع في حماية الدين والدنيا قبل أن يلتفت إلى الشواهد المعينة من أصول الشرع، على أنا إن حاولنا إظهار هذا من شواهد الشرع، وكشفنا عن ملائمته لنظيره، وجدناه في ذلك مضطرباً ولكن الحاجة إلى الاعتضاد بالشواهد، والملائمة في اتباع

مصلحة مظنونة تصور مخالفتها. وهذه مصلحة في الصورة التي فرضناها إن تصورت قطعية من وضع الشرع، لا تفتقر إلى شاهد من الأصول يصدقها، وينزل مثل هذه المصلحة من المصالح المظنونة منزلة المعلوم بالعيان، أو بأخبار التواتر من المعلومات بأقوال الآحاد، فإنا نشترط في آحاد العدالة. لترجح جهة الصدق على جهة الكذب. وما علم عياناً أو تواترا وانقطع التردد عنه، استغنى عن الترجيح»[39].

ثانيا/ أصل اعتبار المآل:

إن هذا الأصل قائم في تحقيق المناط على النظر في مآلات الأمور، وهذا معتبر وارد شرعا، كما نص على ذلك الإمام الشاطبي بقوله:«النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا كانت الأفعال موافقة أو مخالفة، وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو بالإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل، مشروعًا لمصلحة فيه تستجلب، أو لمفسدة تدرأ»[40]، فهذا الأصل يبنى على أن الفعل يشرع لما يترتب عليه من المصالح، ويمنع لما يؤدي إليه من المفاسد، وحاصل الأمر أن تحقيق المناط في الحكم لا يكون على الأخذ بظاهره، فنحكم بمشروعية الفعل في جميع الحالات، وتحت كل الظروف، أو بعدم مشروعيته على ذلك النحو كذلك، فهذا مردود في مقاصد الشرع وقوانين التأويل.

ذكر الشاطبي تطبيقات عديدة لأصل اعتبار المآل، فقد أرجع إليه قاعدة الاستحسان، والذرائع، والحيل، وتقييد استعمال الحقوق بما لا يضر الغير، وقصر نتائج البطلان على ما لا يسبب فسادا أكبر أو ضررا

أشد، وقاعدة تحقيق المناط الخاص... الخ، إلى غير ذلك من التطبيقات التي رآها تدخل تحت هذا الأصل، ولما كان البحث في طوله لا يسعفنا فإننا سنقتصر على قاعدتين فقط وهما الاستحسان والذرائع، ثم نثني الحديث عن بعض النوازل التي أوردها الإمام الونشريسي وكان موردها وأصلها من هاتين القاعدتين، فنبين حقيقة الاستنباط وجدلية الربط بين الواقع والنص.

الاستحسان:

اشتهر الحنفية والمالكية بالاستحسان وطفحت كتبهم بإيراده، وإن القارئ ليجد في كتبهم كثيرا استعمال أستحسن كذا ، ولا أستحسن كذا.ولقد كان الأخذ به مثار ضجة بين الفقهاء فأخذ به الحنفية والحنابلة والمالكية، حتى قال الإمام مالك رضي الله عنه (الاستحسان تسعة أعشار العلم)[41].ورفض الأخذ به الإمام الشافعي رحمه الله واشتهر عنه (من استحسن فقد شرع).لكن الشافعي نفسه إذا جئنا إلى كتابيه الرسالة والأم نجده يقول أستحسن كذا وكذا، وبالتالي فالخلاف لفظي، ومقصود الرفض عند الشافعي هو نفسه مقصود الرفض عند غيره.

وعلى هذا الأساس فالاستحسان يمثل شقا كبيرا وموردا عظيما من موارد مقاصد التشريع، لأن فلسفة الاستحسان قائمة على أن المسألة ليس منصوصا عليها في عين الشرع كتابا وسنة، لكن موارد الأحكام في استقراءها تشهد بجنس نصوص الشرع بجوازه واستحسانه.

ولهذا عرفه ابن رشد فقال:« هو أن يكون طرحا لقياس يؤدي إلى غلو في الحكم ومبالغة فيه، فيعدل عنه في بعض المواضع لمعنى يؤثر في

الحكم يختص به ذلك الموضع »[42] .ومقصدية الاستحسان تتبدى من المبنى الذي يقوم عليه، وهي موارد الشرع، وموارد الشرع معناه غاياته وأهدافه، وعلى هذا الأساس فالاستحسان قائم على تقديم مصلحة جزئية في جوار مصلحة كلية نص الشرع عليها، لكن شرود الحكم في هذه المصلحة الجزئية إلى حكم آخر، هذا لا يعفيها من كونها محاطة بسياج مصلحة كلية أخرى عززتها القواعد والأصول.

وقد وظف الإمام الونشريسي الاستحسان كثيرا فعلى سبيل المثال.

مسألة: لا يُقضى بنفقة الأبوين في غيبة ولدهما ولا تباع أصوله لأجلها.

لا يُقضى بنفقة الأبوين في غيبة ولدهما ولا تباع أصوله لأجلها، هذا ما قرره الونشريسي، لأن ذلك مبني في نظره على أن الغيبة قد تكون مظنة لموته، أو استدانته، وهي أولى بالرد من النفقة على الوالدين، لكنه استحسن بيع غير الأصول من أمواله أثناء غيبته لنفقة والديه استحسانا لأن:«بيع مال الغائب في نفقة أبويه يحمل على ما عدا الأصول استحسانًا أيضًا في غير قياس، لأن القياس على ما ذكرنا أن لا ينفق عليهما في مغيبه شيء من ماله إذ لا يؤمن أن يكون قد مات أو استدان من الديون ما هو أحق بماله من نفقة أبويه، ولهذه العلة قالوا: إنَّ الغائب لا يؤخذ من ماله الناضِّ للزكاة»[43]، ومستند الاستحسان الذي خالف به القياس هو أن حاجة الوالدين تقتضي أن نخالف القاعدة لترجح الحكم في جانب غير قليل من العناية، وهي وجوب القيام بأمر الوالدين وبرهما، وشواهد الشرع شاهدة بذلك رغم مخالفة القياس.

ـــــ سد الذرائع:

هذا دليل يعتبر موردا هاما من موارد التقصيد في التشريع، لأن مقصود الشارع الحكيم متحقق بغاياته وأهدافه، ولو تعددت وسائله واختلفت مناهله، فمتى ما تعطلت المصالح في نفسها، أو كانت هنالك مسالك مشروعة، لكن كانت سببا في تعطيلها، فما كان ذريعة إلى تفويت مقصد الشارع فهو محظور وإن جازت وسائله.

من هذه الديباجة تظهر لنا مقصدية هذا الدليل، وكونه فرعا عن أصل اعتبار المآل الذي يعرف به تحقيق المناط، وعلى هذا الأساس قال الإمام القرافي في معناها:« اعلم أن الذريعة كما يجب سدها يجب فتحها وتكره وتندب، وتباح، فإن الذريعة هي الوسيلة، فكما أن وسيلة المحرم محرمة، فوسيلة الواجب واجبة، كالسعي للجمعة والحج، وموارد الأحكام على قسمين: مقاصد: وهي المتضمنة للمصالح والمفاسد في أنفسها، ووسائل: وهي الطرق المفضية إليها، وحكمها حكم ما أفضت إليه من تحريم وتحليل، غير أنها أخفض رتبة من المقاصد في حكمها»(44).

من خلال هذا النص القرافي الذي حدد المدلول الحقيقي للذرائع وربطها بالمقاصد يتبين لنا أن مقصود الشرع حاضر في كل الصيغ التي وردت عليها المسائل والنوازل، ولا عبرة بظاهرها ولا وسيلتها إذا كانت تفضي إلى المحظور، وهذا ما نستشفه في التوظيف المقصدي لها عند الإمام الونشريسي في نوازله، فعلى سبيل المثال:

_ مسألة إحداث مساجد مجاورة لإقامة الجمعة:

مشهور المذهب أنه لا يجوز إحداث مسجد الجمعة في جوار مسجد موجود لصلاة الجمعة، وقد أعار الونشريسي المسألة، وألحقها بأصلها ودليلها، لكن قبل ذلك يلجأ إلى تحقيق المناط قبل الحكم، ثم بعد التحقيق يوظف أصل سد الذرائع، ويجعل أساسا في الحكم بعد ذلك، يعالج المسألة فيبدأ بسؤال مفاده:« فما الحكم على القول بإحداث جمعة ثانية لضرورة الضيق أو مشقة الإتيان إذا ضاق الجامعان أو بعداً ؟ هل في المذهب رخصة في إحداث ثالثة ورابعة حتى تنتفي الضرورة أم لا ؟ » (45)، بعد هذا السؤال يطرح الونشريسي أمامنا وجهتين الأولى: عدم جواز ذلك استنادا على دليل سد الذرائع لأن ذلك فيه:« إزالة التفرقة بين المسلمين في هذا المشهد العظيم, والجمع بين كلماتهم ورغباتهم وأدعيتهم حتى ينتفع بعضهم ببعض وتفيض بركة أعلامهم على أدناهم, لأن التفرقة في هذا المشهد العظيم فيها مع ما فات بها من المصالح التذرع إلى افتراق الكلمة وإثارة الفتن بين المسلمين في الظاهر والباطن. ولا شك أن هذا المعنى موجود في نازلة السؤال بل أعظم, لأن الافتراق الحسي الموجود في ذينك الموضعين بحسب المساكن إذا ضم إليه التفرقة في المحافل الدينية كالجمعة كان ذلك أفضى إلى الفتنة وفساد القلوب»(46)، فالحكم مبني على علة المفسدة القائمة، فسدا لها حكم بالمنع، لكن من الجهة الأخرى إذا اقتضى الأمر ضرورة أن تحدث مساجد أخرى لضيق المسجد العتيق، فمفسدة مظنة الفتنة يقابلها عنت يصيب الناس عند ضيق المسجد، فيحصل الإصر المرفوع على الشريعة، فتقدم مصلحة التوسيع

على المسلمين على مظنة الفتنة المرتقبة وراء تعدد المساجد، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله:«إلا أنه لضرورة الضيق وتعذر السعي في مسجد يسع الجميع تعين العمل بالقول بالتعدد»[47].

فقد رأينا كيف أعار الإمام الونشريسي نوازله بمعيار آليات التفعيل المقاصدي الذي كان حاضرا حضور المشكلات التي لا يمكن أن نجد لها حلولا نسترشد فيها مسلكا وسطا إلا بهذا الاجتهاد، والمسائل كثيرة ويطول البحث بتحليلها، فكان همنا ذكرها على سبيل المثال لا الحصر والإكمال، حتى نستشف كيف كانت المقاصد حاضرة في مغربنا، وحتى نجد تفسيرا دقيقا لسر الطاقة التي فجرها ابنا المغرب الإمام الشاطبي وابن عاشور وغيرهم، في تذليل مصاعب هذا العلم وإبداعه.

إلى هنا نكتفي بهذه المسائل النازلة التي راعى فيها فقهاؤنا الموارد المقاصدية، وأن حضورها كان فاعلا، وكيف نقف مليا مع تلك الجدلية _ النص / الواقع _ التي أسالت الحبر، وشغلت العقل الأصولي قرونا، وما زالت تشغله، وستبقى كذلك ما دامت حركية الواقع تنبض بألوان النوازل والمستجدات، فالاستصحاب المقاصدي كما قال الإمام الشاطبي وغيره لا يمكن أن يتجاهل أو يتأخر، فالشريعة كلها مقاصد وغايات، ولن ننشد التوظيف الحقيقي للعدالة الإلهية في تشريعاته، وبغية الصلاح لهم ودرء الفساد عنهم عاجلا وآجلا إلا بمراعات المنظومة المقاصدية أصولا وفروعا وموارد.

الإحالات:

(1) ابن فرحون، الديباج المذهب في أعيان المذهب، (دار الكتب العلمية، بيروت، ط بدون)، 87، المبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، (مكتبة النهضة، الجزائر، 1450هـ)، 342/ 2.

(2) الونشريسي، المعيار المعرب، نشر وزارة الأوقاف المغربية، 1981م.ج1/ مقدمة الكتاب.

(3) كمال أبو مصطفى، جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، (مركز الاسكندرية للكتاب، ط: 1996م)، 7.

(4) الإمام أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة:2 / 9 .

(5) بدر الدين الزركشي، البحر المحيط في أصول الفقه، دار الصفوة للطباعة (الكويت).

(6) ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين:3/ 3.

(7) شاه ولي الله الدهلوي، حجة الله البالغة1/ 27، وانظر كذلك تعليل الأحكام في الشريعة الإسلامية، محمد مصطفى شلبي، ص96.

(8) البحث في المقاصد نشأته وتطوره ومستقبله: أحمد الريسوني، بحث مقدم لندوة مقاصد الشريعة، التي نظمتها مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي من 1 إلى 5مارس 2005.

(9) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة:2/ 22، وانظر كذلك إعلام الموقعين:1/ 169إلى200 وشفاء العليل:2/ 537إلى 575

(10) إسماعيل نقاز، الاجتهاد المقاصدي في الفكر النوازلي﴿الإعلام بنوازل الأحكام﴾ لعيسى بن سهل الغرناطي أنموذجا، بحث قدم في الملتقى الدولي السادس للمذهب المالكي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ولاية عين الدفلى، 13/ 14 جمادى الأولى 1431هـ 28/ 29 أفريل 2010 ص467.

(11) عيسى بن سهل الغرناطي، الإعلام بنوازل الأحكام: 26.

(12) انظر معجم مقاييس اللغة ٩٨٦ ، مادة" نزل"، والقاموس المحيط ،4/ ٦٥ ، مادة" الترول"، ولسان العرب ١١-٥٧/ مادة"نزل".

(13) الشافعي، الأم: 1/ 205.

(14) الرسالة: محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد شاكر، المكتبة العلمية(بيروت). 512.

(15) تفسير القرطبي: 6/ 332.

(16) ابن القيم الجوزية، إعلام الموقعين: دار الجيل (بيروت). 2/ 205.

(17) التعليل المصلحي في الفقه المالكي بين التقصيد الاستدلالي والتقصيد الحِكَمِي وأثره في الاجتهاد المعاصر، إسماعيل نقاز المكناسي، بحث قدم في الملتقى الدولي السابع للمذهب المالكي، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، ولاية عين الدفلى، دار الثقافة،يومي 08/ 09 جمادى الثاني 1432هـ الموافق 11/ 12 ماي 2011م.

(18) إسماعيل نقاز ، الاجتهاد المقاصدي في الفكر النوازلي(الإعلام بنوازل الأحكام) لعيسى بن سهل الغرناطي أنموذجا، ص480.

(19) الموافقات 3/ 232.

(20) المصدر نفسه: 3/ 323.

(21) المصدر نفسه: 5/ 11.

(22) الاعتصام: 2/ 115.
(23) الموافقات 1/ 41.
(24) المصدر نفسه: 3/ 304.
(25) تعليل الأحكام: 321.
(26) حسين حامد حسان، نظرية المصلحة، 41.
(27) الموافقات: 4/ 17.
(28) المصدر نفسه: 4/ 165.
(29) عبد المجيد النجار، فقه التدين فهما وتنزيلا، 52.
(30) إسماعيل نقاز ، (التفسير السنني وتجربة التأصيل عند محمد باقر الصدر)، ضمن أعمال الملتقى الوطني للقرآن الكريم، حول (مجتمع القرآن وحركية النماء)، وزارة الشؤون الدينية والأوقاف بالجزائر العاصمة أيام 12/ 13 / 14 فيفري 2012م. 05.
(31) محمد باقر الصدر، (المدرسة القرآنية)، (دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط: 1401ه/ 1981).15.
(32) الموافقات، تحقيق مشهور حسن آل سلمان، 5/ 15.
(33) المصدر نفسه: 1/ 33.
(34) أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، 11/ 160.
(35) المصدر نفسه: 11/ 161.
(36) المصدر نفسه: 11/ 161.
(37) المصدر نفسه: 11/ 161.
(38) المصدر نفسه: 11/ 162.
(39) المعيار المعرب: 11/ 162.
(40) الموافقات: 5/ 177.
(41) الاعتصام: أبو إسحاق الشاطبي، مكتبة الرياض الحديثة.2/ 138.
(42) المصدر نفسه: 2/ 139.
(43) المعيار المعرب: 3/ 11.
(44) الفروق: شهاب الدين القرافي، عالم الكتب(بيروت). 2/ 22.
(45) المعيار المعرب: 1/ 320.
(46) المصدر نفسه: 1/ 324.
(47) المصدر نفسه: 1/ 324.

نظرة المستشرقين إلى مناهج كتابة التاريخ عند المؤرخين المسلمين

بن عتو حمدون
جامعة الشلف

Abstract:

There is no doubt that historiography has found fertile ground among Muslims since the beginning of Islam, and how not! God they have cut a number of stories that tell the human Nations News in past centuries, but rarely Muslims commissioned in the modern era themselves the trouble of research and investigation in this aspect, as not one of them does research in comprehensive scientific methodology in history when history scholars of Muslims.

Keywords:

Muslims - the human Nations - research - history - comprehensive scientific.

مما لا شك فيـه أنّ علم التأريخ قد وجد تربةً خصبةً عند المسلمين منذ بداية الإسلام ، وكيف لا! وقد قصّ الله تعالى عليهم عدداً من القصص التي تحكي أخبار الأمم البشرية في القرون الغابرة ، ولكن قلّما كلّف المسلمون في العصر الحديث أنفسهم عناء البحث والتحقيق في هذا الجانب ، كما لم يقم أحدٌ منهم بالبحث في المنهجية العلمية الشاملة في التأريخ عند علماء التاريخ من المسلمين ، فاكتفى عددٌ منهم بتناول مناهج

بعض علماء التاريخ من المسلمين في عصور متفرقة من غير التشمير عن ساعد الجِدّ للقيام ببحثٍ يُبرز جهود علماء المسلمين في التأريخ ، ويقوّم هذه الجهود تقويماً موضوعياً ، للخروج بصورةٍ واضحةٍ عن هذه الجهود وللإجابة عن تساؤل يطرح نفسه : هل كان علماء التاريخ من المسلمين يسيرون في تأريخهم على منهجية واضحة ؟ وهل كانت هذه المنهجية منهجيةً علميةً تضاهي مقاييس المنهجية العلمية المعاصرة في البحث العلمي ؟

ومن جانب آخر، لم يستطع المسلمون في العصر الحديث من إنتاج (موسوعة إسلامية) تسجّل جميع – أو معظم – المعارف المتعلقة بالإسلام والمسلمين ، ومن بينها المعلومات المتصلة بعلم التأريخ عند المسلمين ، وذلك على الرغم من توفّر الإمكانات العلمية والمادية لديهم[1]،فقد افتقدوا إلى الهمّة العالية والتنظيم والتعاون نتيجة تشتّتهم إلى نطاقات جغرافية وسياسية واجتماعية ، بينما قام بهذا العمل العلمي المطلوب مجموعة من علماء الغرب المعنيين بمعارف الشرق ، وهم الذين يُعرفون باسم (المستشرقين) ، ومهما كانت أغراض هؤلاء العلماء الغربيين من إنتاج ما أسمَوه (دائرة المعارف الإسلامية)[2] ، ومهما كانت هذه المعلومات التي قدّموها قابلـةً للنقد والتصحيح ؛ فإنّه ليس بمقدور أيّ مُنصِف أن يسلُبها قيمتها العلمية بصفتها خدمةً لا بأس بها لعلوم ومعارف المسلمين .

وقد اعتمد الباحث على ما تناولته هذه الموسوعة – في طبعتيها الأولى والثانية – وما كتبه مستشرقون آخرون في أبحاث مستقلة من معلومات علمية عن التأريخ عند المسلمين ، وذلك للخروج بدراسة عن

المنهجية العامة للتأريخ عند المسلمين منذ أقدم العصور ، غير أنّه لم يقبل آراء المستشرقين ومعلوماتهم من غير نقد أو تمحيص في ضوء ما جاء في بعض المصادر الإسلامية عن ملامح علم التأريخ عند المسلمين ، وما توصّلت إليه بعض الأبحاث التي قام بها المسلمون في العصر الحديث ، كما أنّه يودّ التنبيه إلى أنّ المستشرقين – وإن كانوا قد كتبوا عن معظم المؤرخين المسلمين ومناهجهم – إلاّ أنّ تناولهم لمناهج الكتابة التاريخية عند المسلمين لم يكن تناولاً صريحاً واضحاً ، ولكنّ استقراء ذلك من كتاباتهم تطلّب من الباحث الكثير من العناء والجهد ، فقد كتب عددٌ كبيرٌ من المستشرقين في دائرة المعارف الإسلامية حول التاريخ الإسلامي[3] والمؤرخين المسلمين ومؤلفاتهم التاريخية[4] ، وكلٌّ عبّر بما يكشف عن وجهة نظره الشخصية وقدراته العلمية وملكة النقد والتحقيق لديه ، وبدراسة كافة المواد المتعلّقة بالتاريخ الإسلامي في دائرة المعارف الإسلامية وغيرها من كتابات المستشرقين المستقلة – دراسةً منهجيةً – ؛ أمكن تكوين تصوّرٍ عامٍ عن آراء هؤلاء المستشرقين حول مدى التزام المؤرخين المسلمين بالمنهجية العلمية في كتاباتهم التاريخية .

وبما أنّ المستشرقين لم يتفقوا أصلاً على وجود شيء يمكن تسميته بالمنهجية الإسلامية في البحث التاريخي ، فضلاً عن محاولة رصد أو رسم ملامح هذه المنهجية اللهم إلاّ محاولة المستشرق روزنثال Rosenthal[5] القيّمة[6] ؛ فلا يسع الباحث في هذا المقام إلاّ محاولة استقراء المناهج العلمية في البحث التاريخي التي أشار إليها كلّ مستشرق فيما كتبه حول موضوع تاريخي إسلامي ورأى أنّ أحداً من المؤرخين المسلمين أو عامة المؤرخين المسلمين قد استعملها في كتابته ، ومن ثمّ يمكن تكوين ملامح

المنهجية التاريخية التي يرى المستشرقون أنّ المؤرخين المسلمين قد ساروا عليها أو خرجوا عنها في كتاباتهم التاريخية .

وبعد أن استطاع الباحث رصد هذه المناهج التي أشار إليها المستشرقون في مقالاتهم في دائرة المعارف الإسلامية ، وتحليلها وتصنيفها ؛ تبيّن أنّها عِلميّة الطابع في غالبها ، وأنّ الفحوى العام لآراء المستشرقين الكثيرة – والمتباينة أحياناً – هي : سَير المؤرخين المسلمين على منهجيةٍ علميةٍ ، وإن لم تكن محددة المعالم لديهم ، وقد عبّر كثيرٌ من المستشرقين[7] عن إعجابهم بكثيرٍ من المؤرخين المسلمين لالتزامهم بمنهجية علمية معيّنة أثناء تعريفهم بهم في مختلف المقالات[8] .وسوف يقوم الباحث باستعراض هذه المناهج المستنبَطة مع التعليق عليها ومناقشتها في فصلَين ، ويحاول تصنيف هذه المناهج حسب الأركان الأربعة التي يتكون منها البحث العلمي التاريخي الحديث .والبحث التاريخي الحديث لا يخرج أيضاً في مجمله عن الأركان الأربعة (**اختيار موضوع البحث**

أو الدراسة– جمع المادة العلمية للبحث– تأليف المادة العلمية أو عرضها– التوثيق العلمي)، ولذلك سيتمّ تصنيف المناهج المستخلصة من كتابات المستشرقين عن أشهر المؤرّخين المسلمين حسب هذه الأركان الأربعة . والدوافع الذاتية في رأي المستشرقين كثيرةٌ ، منها :

– أن يُقْبل المؤرخ على كتابة الموضوع التاريخي المتعلّق بشخصيةٍ مسلمةٍ بارزةٍ حُبّـاً في تخليد ذِكراها[9]، وهو ما حصل في بداية أمر الكتابة التاريخية عندما أقبل المسلمون على كتابة السيرة النبوية حُبّـاً في تخليد ذِكرى الرسول صلى الله عليه وسلم ، إلاّ أنّ المستشرقين رأوا فيما يخصّ أمر

الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ دافع حُبّ تخليد الذِكرى كان مقترناً بدافع تقليد الأمم والديانات الأخرى السابقة[10]. والباحث لا ينكـر أنّ تدوين السيرة المطهرة كان من دوافعه تخليد ذكرى الرسول صلى الله عليه وسلم[11]، ولكنّه يستبعد اقتران هذا الدافع برغبة تقليد الأمم أو الديانات الأخرى ، إذ لم يكن المسلمون في حاجةٍ إلى هذا التقليد وهم يعلمون أنّ ما في كتب الديانات السابقة التي اطّلعوا عليها من قصص أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ، هي في جُلّها قصصٌ مشوبةٌ بالخرافة والزيف لا تهدف إلى تخليد ذكرى هؤلاء الأنبياء بل تهدف إلى تشويه سيرهم الطاهـرة خدمـةً لأغراض أتباعهم الشخصية[12] ، هذا فيما يتعلّق باليهودية والنصرانية .

وأمّا فيما يتعلّق بأمر الأمم الأخرى فلم يتيسّر لمؤرخي الإسلام في عهد بداية كتابة السيرة المطهرة الاطلاع على (شاهنامه) الفُرس ولا سِيَر ملوك اليونان والرومان ، وذلك لأنّ مهد كتابة السيرة المطهرة كانت المدينة المنورة التي كانت في منآى عن جميع هذه المعلومات الجديدة في تلك الفترة ، وهذا الأمر وإن خفي على ليفي دالاّ Levi Della [13] ، فإنّه لم يخف على هملتون حِب H. Gibb [14] الذي دافع عن رأيـه في أنّ كتابة السيـرة (فكرةٌ عربيةٌ خالصةٌ متصلةٌ بضوابط علم الحديث العربي الصحيح)[15].

– الإحساس بالانتماء إلى إحدى الفِرَق الدينية الإسلامية[16] أو إقليم جغرافي[17]، والرغبة في تسجيل مآثر هذه الفِرقة أو هذا الإقليم .

ويرى ابعض الباحثين أنّ هذا الدافع يتمثّل في الكتابات التاريخية حول التراجم الخاصة بالفِرَق الدينية وحول فتوح بلدانٍ مخصوصةٍ أو تواريخ مدنٍ مخصوصةٍ[18].

– الرغبة في تكملة كُتبٍ تاريخيةٍ سابقةٍ ابتداءً من النقطة التي توقّف عندها مؤلّفوها ، بحيث يستغني المؤلّف الجديد عن إعادة الكتابة حول المعلومات التي كتب عنها المؤلّف السابق .

وقد وجدت الأبحاث أنّ هذا النوع من الدوافع الذاتية يمكن تلمّسه بصورةٍ ملفتةٍ عند مؤرّخي الدولة العثمانية ، حيث طال عهدها وكان المؤرّخ يجد من السهل تكملة تاريخِ تناولَ سِيَر بعض الخلفاء حتى وفاة صاحب ذلك التاريخ ، ولأنّ مصادر المعلومات تكاد لا تختلف عند المتأخّر عن مصادر المتقدّم فيما يتعلّق بالفترة التي كتب عنها المتقدّم ، فيجد المتأخّر معلوماتٍ جديدةٍ ومتنوّعةٍ عن الفترة التي لم يكتب عنها المتقدّم ، فيدفعه ذلك إلى إكمال الجهد السابق بجهدٍ جديدٍ يبرّز فيه شخصيته في التأليف ، بدلاً من تضييع الوقت في صياغة المعلومات القديمة نفسها بعباراتٍ أخرى[19].

يرتبط الحديث عن مناهج المسلمين في كتابة التاريخ الإسلامي بالحديث عن تدوين التاريخ والهدف منه، فمن المعلوم أن تقصى الرواة الحديثين أدى الى نشؤ أحد فروع التاريخ عند العرب، وهو تراجم الأشخاص وطبقاتهم، كما مهدت العلوم الحديثة لنشأة علم التاريخ نفسه على نحو إجمالي مبتدئا بتدوين السير والمغازي النبوية بحسب إتباع منهج الإسناد القائم على منهج الجرح والتعديل ولذا فإنه يمكننا القول بأن علم التاريخ قد نشأ وترعرع في أحضان علوم الحديث، حيث استعار

علم التاريخ من علم الحديث أداه نقدية عملية استخدمت في تنقية وغربلة الأخبار التاريخية منذ أن اهتم العرب بتدوين هذه الأخبار عند منتصف القرن الثاني للهجرة. وكان الهدف من تدوين التاريخ عند المسلمين، في البداية، يرتبط قبل كل شيء بمقتضيات ومتطلبات دينية صرفة.[20]

وفي ارتباط التاريخ الإسلامي بالحديث النبوي الشريف كما نرى حصانةٌ له ووقاية من عبث العابثين وضلال المضللين على مر الدهور والسنين، وقدرة على الاستمرار رغم ما يحاك ضده من مكايد ويهدده من أخطار، فُسنّة الله في كونه ماضية وُسنّة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) واقية وحامية لما حواه سجل تاريخ الإسلام حاضراً وفي العصور الخالية.

ومسألة موضوعية المستشرقين وإنصافهم للإسلام والمسلمين ليست إلا ضلال وتضليل للمسلمين وليس كما يزعم بعض المسلمين أنها من أجل خدمة العلم وحده إذ العلم في الإسلام إنما هو وسيلة، وليس غاية[21]. يقوي من ذلك سبب موضوعي واضح يحول بين المستشرقين وبين الموضوعية والأمانة العلمية، وهو عداوة وكره معظمهم للإسلام، وحقدهم الصليبي عليه وهو الحقد الذي يتغلغل في كل دراساتهم لهذا الدين. ففيما يتعلق بالإسلام لا تجد موقف الأوربي موقف كره في غير مبالاة فحسب، كما هو الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات، بل هو كره عميق الجذور، يقوم في الأكثر على صدور من التعصب الشديد. وهذا الكره ليس عقلياً فحسب، ولكنه يصطبغ أيضاً بصبغة عاطفية قوية. وإن اعتبرنا الأعمال العلمية التي أنجزها المستشرقون في شتى فروع

الدراسات الإسلامية بحر لا ساحل له، فأكثرها انتشاراً وتداولاً بين الباحثين من جميع المستويات، هي دائرة المعارف الإسلامية التي أصدرها وأشرف على تحريرها نخبة من المستشرقين، برعاية الاتحاد الدولي للمجامع العلمية. وجل موادها متعلقة بالإسلام والمسلمين، فيها كثير من الآراء والمعلومات التي تحتاج إلى المراجعة والتصحيح . و من بين النتائج:

1- مناهج الكتابة التاريخية عند المؤرخين المسلمين مصدرها الأساس القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بينما مناهج المستشرقين مصدرها كل ما من شأنه طمس معالم المنهج الإسلامي في التوثيق والتحري والضبط والدقة.

2- الموضوعية العلمية التي ادعاها ويدعيها المستشرقون بدعوى الأمانة العلمية والإنصاف ما هي إلا محاولة جادة لإيجاد أرضية يشكلها بعض علماء المسلمين يشيد عليه المستشرقون صرحاً لا أساس له إلا الأباطيل والأكاذيب، وقد أفلحوا في ذلك، وبفضل أولئك تمكنوا من الوصول إلى غاية تنبه لها علماء مسلمون تولو ا الرد عليهم بالدليل الساطع والبرهان القاطع والحجة البينة.

الإحالات:

---

(1) فجميع الموسوعات الصادرة عن الجهات الإسلامية ذات الطابع المعرفي العام ؛ إنّما تعتمد في أصولها على دوائر المعارف التي أنتجها علماء الغرب ، غير أن بعض مقالاتها وموضوعاتها قد تمّ مراجعتها من قبل لجان مكونة من المسلمين ، أو قام بعض المسلمون بإعادة الكتابة لبعض موضوعاتها ، وهي قليلة .

(2) دائرة المعارف الإسلامية هي ترجمة عربية لعنوان مؤلَّف هو باللغة الإنجليزية كالتالي Encyclopedia of Islam ، وهو يحتوي على مقالات تتعلق بجميع أنواع المعارف الإسلامية بأقلام كبار العلماء الغربيين المعنيين بالعلوم والمعارف الإسلامية ، وقد أتت فكرة هذا العمل عند المستشرقين من خلال مناقشاتهم لأفضل السُبل المؤدّية إلى التعريف بالإسلام والمسلمين – وفق

نظرتهم – تعريفاً شاملاً ، وذلك في لقاءٍ لكبار المستشرقين عام 1895م ، وترأس تحرير هذه الدائرة هوتسما Houtsma ، ثم ونسنك Wensinck منذ عام 1924م ، وتولّت نشرها دار بريل الهولندية E. J. Brill ، وجُمعت ميزانيتها من المجامع العلمية الأوربية ، وقد صدر المجلّد الأول منها في 1908م ، واستمرّ الإصدار حتى اكتمل في عام 1938م في أربعة مجلدات ضخمة وملحق يزيد عدد صفحات كلّ مجلد عن ألف صفحة على عمودين من القطع المتوسط ، وأمّا طبعتها الثانية التي لم تكتمل بعد ؛ فقد بدأت فكرتها بعد الحرب العالمية الثانية ، عندما بات من الضروري تغيير أسلوب وفحوى كثير من المعلومات الواردة في الطبعة الأولى ممّا لم يعد يتفق ومتطلّبات الاستشراق

المعاصر ، فبدأ العمل ثانيةً من أجل إصدار طبعة جديدة منقحة ، وفي 1956م تمّ اختيار شاخت Schacht لإدارة تحرير الطبعة الجديدة وتولّت دار بريل Brill أيضاً نشرها فصدر المجلد الأول منها عام 1960م تحت مسمّى (دائرة المعارف الإسلامية الجديدة) The New Encyclopedia of Islam، وهذه الطبعة يتوقع لها أن تخرج في عشر مجلدات ضخمة تزيد صفحات كلّ مجلد على ألفي صفحة على عمودين من القطع المتوسط ، كما تتميز أيضاً بمشاركة عددٍ كبيرٍ من أساتذة الجامعات المسلمين في تحرير مقالاتها ، ولكنّها بذلك فقدت أصالتها الاستشراقية التي تمتعت بها الطبعة الأولى والتي حرّر مقالاتها أئمة الاستشراق ، ومثّلت كتاباتهم مناهج استشراقية متوارثة خير تمثيل .

(3) ويعني الباحث بالمقالات التي كُتبت حول التاريخ الإسلامي : المقالات التي عالجت فنّ التأريخ عند المسلمين ، ولا يعني المقالات المتناولة للأحداث التاريخية ، فهي كثيرةٌ جداً .

(4) لقد بلغ عدد المستشرقين الذين كتبوا حول هذه الموضوعات في دائرة المعارف الإسلامية في طبعتيها (الأولى والثانية) حوالي 70 مستشرق ومستشرقة ، كما بلغ عدد المقالات حوالي 190 مقالاً .

(5) هو : فرانز روزنثال .Franz R ، مستشرق أمريكي من أصل ألماني ، ولد في برلين Berlin عام 1914م وتخرج في جامعتها في 1935 ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية .U.S.A في 1940 وعمل أستاذاً للغات السامية في كلية الاتحاد العبري ، ثم في جامعة بنسلفينيا University of Pennsylvaniaثم في جامعة ييلYale University ، اهتمّ بالشرق الأدنى في دراساته العديدة كما زار تركيا وبعض البلاد العربية . انظر : فرانز روزنثال ، مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ترجمة : أنيس فريحة ، بيروت : الدار العربية للكتاب ، ط4 : 1983 ، ص7 (بقلم المترجم أنيس فريحة) .

(6) فقد قام المستشرق فرانز روزنثال F. Rosenthal بتقرير المنهجية الإسلامية في البحث التاريخي ، ورسم ملامح هذه المنهجية في كتابَيه : 1- عِلم التاريخ عند المسلمين History of Muslim Historiography ، 2- مناهج العلماء المسلمين في البحث العِلمي .

(7) ويُلاحظ في هذا الصدد :

أنّ أكثر المستشرقين اعتناءً بموضوع التزام المؤرخين المسلمين بالمنهجية العلمية في كتاباتهم هم :

- المستشرق هوروفيتس Horovitz
- المستشرق كارل بروكلمان C. Brockelmann
- المستشرق فرانز روزنثال F. Rosenthal

ونلاحظ كذلك أنّ هؤلاء الثلاثة لهم باعٌ طويلٌ في الكتابة حول التراث الإسلامي وخاصةً التاريخ[2] كما أنّ كتاباتهم يمكن وصفها بأنّها أكثر الكتابات الاستشراقية اعتدالاً أو واقعيةً ، أو أنّها أقلّها تحاملاً .

وتجدر ملاحظة هذا التوافق بين كثرة الاشتغال بأمر التاريخ الإسلامي وبين الاقتراب من الصحة في الحُكم ، إذ أنّ هذا التوافق يدلّ على ما أشار إليه المستشرق روزنثال Rosenthal من وجود تشويهٍ متعمّدٍ وغير متعمّدٍ لصورة التراث الإسلامي في الكتابات الغربية [انظر : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، ص18،19] ، فهذا التشويه جعل قليلي الاشتغال بالتراث الإسلامي متمسّكين بالفكرة العامة السائدة في الغرب المبنية على تلك الصورة المشوهة ، أمّا الذين كسبوا باعاً جيداً في دراسة التراث الإسلامي ووقفوا على مصادر إسلامية في صورتها الأصلية تتغيّر لديه الفكرة السائدة تدريجياً إلى الاقتراب من الحقيقة على الرغم من تأثرها بمؤثراتٍ عقديةٍ وعنصريةٍ واجتماعية .

(8) انظر على سبيل المثال :

Encyclopedia of Islam (first edition) : H. Beveridge, Khwandamir, vol.IV, p. 899–900 ; F. Babenger, Selaniki, vol.VII , p. 207 ; Blachere, Al-Tulaitili, vol.VIII , p. 831 ; Brockelmann, Al-Kalkashandi, vol.IV , p. 699–700 ; Bartold, Gardizi, vol.III , p. 130–131 ; Kraimars, Munadjdjim Bashi, vol.VI , p. 722 ; E. Berthels, Nizami Hasan, vol.VI , p. 939 ; F. Babenjer, Naima, vol.VI , p. 839 ; & Encyclopaedia of Islam (new edition) : Nalino , Abu 'l Faradj al Isbahani , vol.I , p. 118 ; Rosenthal, Al-Azdi, vol.I , p. 813 .

(9) انظر :

Levi :E.J.BRILL, The Encyclopedia of Islam (First edition), Leiden, 1931 Della, Sira, VII/ 440 ; H. Gibb, Tarikh, IX/ 233–234

(10) انظر : Levi Della, Sira,VII/44 Encyclopaedia of Islam (First edition)، وقد قال بهذا الرأي مستشرقون من أمثال : شبرنجر Sprenger ونويلديكه Noldeke في كتابهما ((سيرة محمد)) [قلتُ : صلى الله عليه وسلم] المنشور في برلين Berlin عام1861م ، وتبنّاه ليفي دالاّ Levi Della في دائرة المعارف الإسلامية .

F. Babenger, Rashid Mehmed, : Encyclopaedia of Islam, (first edition) Th. Menzel, ؛ Th. Menzel, Othman-zade, VI/ 1013–1014 ؛ VI/ 1122 Walsh, Ata'i, :Muhyi 'l-din Muhammed, VI/ 703 ; & **Ibid**, (new edition) . I/ 732–733

[20] – محمد عبد الكريم الوافى: منهج البحث في التاريخ والتدوين التاريخي عند العرب. بنغازي. جامعة قار يونس، ط1، 1990م،ص1

[21] – أحمد غراب. مرجع سابق ص 79

مصير مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين
بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر

د. محمد زاهي
جامعة تيارت

Abstract:

Associated with its inception organize allocated to the Two Holy Mosques, endowments, and for the benefit of each house in the holy cities of Mecca and Medina, Muslims and attached to these places make them think in the creation of endowments serve these holy places so as to facilitate the transfer of these funds and disbursement to the beneficiaries, and have Ottomans gave great importance to these holy places.

Keywords:

inception organize - the Two Holy Mosques - Muslims - Mecca and Medina.

ارتبطت نشأتها بتنظيم الأوقاف المخصصة للحرمين الشريفين، ولصالح آل البيت في المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة1، وتعلق المسلمون بهذه الأماكن جعلهم يفكرون في إنشاء أوقاف تخدم هذه الأماكن المقدسة حتى يسهل نقل هذه الأموال وصرفها على مستحقيه2، ولقد أعطى العثمانيون أهمية كبيرة لهذه الأماكن المقدسة، حيث تعود أقدم سجلات أوقاف الحرمين الشريفين إلى سنة 884هـ/ 1479م3.

تعود أقدم معطيات المتعلقة بأحباس الحرمين الشريفين بالجزائر في الفترة العثمانية إلى بداية التواجد العثماني بها، والدليل على ذلك تلك الوقفية التي تعود إلى أوائل شعبان من سنة 935 هـ/ 1529م، وهي وقفية عبد العزيز ابن المولى الشريف الحسيني لصالح فقراء الحرمين الشريفين4.

تميزت مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) عن باقي المؤسسات الوقفية الأخرى، أهلتها لكي تصبح أهم وأكبر مؤسسة وقفية في الجزائر، دفعت كل سكان الجزائر التابعين للمذهب المالكي أو المذهب الحنفي بوقف أملاكهم لصالح هذه المؤسسة، على عكس المؤسسات الوقفية الأخرى التي كانت تعتمد إما على فئة معينة تعتمد على فئة تنتمي إلى مذهب معين (المذهب المالكي أو الحنفي) أو جماعة معينة (جماعة الأشراف، الأندلس).

تعود أهمية هذه المؤسسة لمدى قدسية الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة في نفوس الجزائريين شأنهم في ذلك شأن سائر مسلمي العالم، حيث كانت توجه إلى فقراء الحرمين الشريفين مبالغ مالية معتبرة سميت بالصرة، كانت توجه للبقاع المقدسة في موسم الحج. وقد بلغت مداخيل أوقاف المباني السكنية والأوقاف الزراعية حداً كبيراً جداً، أتيحت لها الفرصة الزمنية الطويلة للتراكم، فأصبحت تدر على مؤسسة الحرمين الشريفين أموال أكسبتها ثروة طائلة في رصيدها5، فبلغت فيه قدراً كبيراً من مجموع الثروة في الجزائر في الفترة العثمانية وفي بداية الاحتلال الفرنسي6.

والجدول التالي يوضح لنا مردود أوقاف مؤسسة الحرمين الشريفين وبعض المؤسسات الوقفية الأخرى من سنة **1836** إلى سنة **1840**.

الجدول رقم (01): جدول عام تطور مداخيل بعض المؤسسات الوقفية من سنة **1836** إلى سنة **1840** مقدر بالفرنكات[7]

السنة	أوقاف الحرمين الشريفين	أوقاف سبل الخيرات	أوقاف أهل الأندلس
1836	107462.96	10.019,33	92.22
1837	111038.46	13.408,04	3988.50
1838	127895.65	13.989,25	4098.54
1839	131941.13	14.393,78	4063.98
1840	167585.44	15.715,66	4017.85

قدر دوفو (Devoulx) عدد الأملاك الموقوفة على مؤسسة الحرمين الشريفين في بداية الاحتلال بـ 1558 ملكية، وهي تمثل أكثر من نصف نسبة الممتلكات الوقفية الموجودة في مدينة الجزائر وضواحيها، وبذلك احتلت هذه المؤسسة المرتبة الأولى وسبقت المؤسسات الوقفية الأخرى8. وقد أشار إلى هذا الأمر كلا من الطبيب فورم (Worms) ورجل القانون زايس (Zeys)، فالأول ذكر في سنة 1846 أن الإدارة الفرنسية اقتنعت أن العقارات الوقفية تمثل نسبة كبيرة من العقارات داخل مدينة الجزائر وفي خارجها9. أما الثاني فذكر أن فرنسا لما احتلت الجزائر وجدت أن نصف العقارات كانت تابعة للأحباس10

والجداول التالية توضح لنا الأملاك الوقفية ومداخيلها السنوية التابعة لمؤسسة الحرمين الشريفين على حسب جدول دوفو الذي يعود لسنة 1830م والجدول الثاني لـ جانتي دو بيسي يعود لسنة 1833م.

	نوع الملكية	جدول لوحة دوفو (1830)		جدول لوحة جانتي دو بيسي (1833)	
		عدد الملكيات	الدخل السنوي بالفرنك	عدد الملكيات	الدخل السنوي بالفرنك (ما بين قوسين لأملاك مشتركة أو محولة)
أملاك الوقف المستغلة بطريقة مباشرة	منازل	840	26653.80 ف	901 (18 منها مهدمة و7 مشتركة)	51742.48 ف (305.36 ف)
	غرفة	82			31.26 ف

	دكاناً	258			353.09 ف (10.81 ف)
	مخزناً	33			184.52 ف (4.02 ف)
	مقاهي	4			10.28 ف (1.10 ف)
	فندق	01			
	فرناً للخبز	11			6.76 ف (1 ف)
	أفران جير	3			
	طاحونات	6			4.51 ف
	حمام	1			18.50 ف
	بستاناً	51			لا يوجد معلومات
	ضيعة	62			لا يوجد معلومات
أملاك وقفية مستغلة بطريقة غير مباشرة (عناء)	عناء (مردود) مختلف الأملاك الوقفية	201	7209.25 ف	196 (55 محولة لصالح مصالح الدولة)	لا يوجد معلومات
مجموع الأملاك الوقفية		**1558**	**43222.70 ف**	**1386**	**المدخول العام 52739.28 ف**

تذكر المصادر الفرنسية مدى **اهمية** الممتلكات الوقفية التابعة للحرمين الشريفين، فقد قدرها دوفو (Devoulx)**11** بـ **1558** ملكية وقفية بمدينة الجزائر، وقدرتها لجنة **الإفريقية12** سنة **1834** بـ **2101** ملكية وقفية، أما لوحة المؤسسات الفرنسية **بالجزائر13**لسنة **1830**– **1837** تقدرها بـ **1419** ملكية وقفية، أما جانتي دو **بيسي14** (Genty De Bussy) فيقدرها بـ **1386** ملكية

وقفية سنة 1833 على حسب وكيل الحرمين الشريفين. إن ما سبق كله، يؤكد حقيقة لا يمكن نفيها، مدى غنى هذه المؤسسة الوقفية، الأمر الذي جعل السلطات العسكرية الفرنسية تخطط الاستيلاء عليها، في فترة بداية الاحتلال الفرنسي. وكان أول إجراء قامت به هو إصدار قرار 8 سبتمبر 1830، ثم تلاه إصدار قرار آخر دعما للقرار الأول في 7 ديسمبر التي قررت فيه السلطات الفرنسية في مادته الأولى مصادرة أوقاف الحرمين الشريفين وتصفيتها15 .ولقد عمل العلماء والمفتون قصارى جهدهم للتصدي بحزم للهجمة الفرنسية على أوقاف الحرمين الشريفين ورفضوا إخضاع الأوقاف إلى مديرية أملاك الدولة الفرنسية، الأمر الذي جعل السلطات الفرنسية تتراجع عن فكرتها وتترك هذه المؤسسة الوقفية تسير من طرف المسلمين لكن تحت مراقبتها16.

كما شهدت فترة بداية الاحتلال، تغييرات أساسية في طبيعة مهام مؤسسة الحرمين الشريفين أثرت على طبيعة الأوضاع الدينية، كان من أهمها منع توجيه المبالغ المالية (الصرة) إلى فقراء الحرمين الشريفين مكة المكرمة والمدينة المنورة التي كانت توجه في فترة الحج، والتي كانت تقدر بحوالي 2000 محبوب ذهبي الذي يساوي 14000 إلى 15000 فرنك فرنسي ذهبي17. أما المبالغ المالية (الصرة) الذي كان يتم توجيهها من قسنطينة نحو الحرمين الشريفين، قد واصلت السلطات الجزائرية بقيادة أحمد باي توجيهها إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة عن طريق تونس18.

كانت هذه الوضعية التي آلت إليها الجزائر بعد الاحتلال، من جراء أعمال النهب التي لم تستثن أي جانب من جوانب الحياة، انعكاساً سلبياً على مؤسسة الحرمين الشريفين، التي بدأت تعرف تراجعاً كبيراً في نسبة الفائض من المبالغ المالية، الذي بلغ سنة 1830 حوالي 71.703 فرنكاً

فرنسياً و5 سنتيما ليتراجع إلى 19.003 فرنكاً فرنسياً و39 سنتيماً سنة 1831، لينخفض في سنة 1832 إلى 11.047 فرنكاً فرنسياً و44 سنتيماً، ليتراجع أكثر إلى 6.480 فرنكاً فرنسياً و20 سنتيماً سنة 1833م19. ولعل السبب الرئيسي لتراجع فائض أوقاف مؤسسة الحرمين الشريفين، يرجع إلى استيلاء السلطات العسكرية الفرنسية على العديد من الملكيات الوقفية من مباني وحوانيت، حيث يذكر السيد بيشون (Pichon)، أن الجيش الفرنسي استولى على 55 ملكية تابعة لأوقاف الحرمين الشريفين ما بين سنة 1830 – 1832م20. بالإضافة إلى سياسة تدمير الملكيات الوقفية، حيث تؤكد المصادر الفرنسية أنه تم تدمير حوالي 188 ملكية وقفية في مدينة الجزائر، وتحويل بعضها إلى المصالح المدنية والعسكرية الفرنسية21. ويذكر دوفو (Devoulx) أن عدد العقارات التابعة لمؤسسة الحرمين الشريفين التي تعرضت لعملية الهدم والتحويل سنة 1835، بلغت حوالي 952 عقار بعدما كان يبلغ عددها في بداية الاحتلال بـ 1558 عقار22. ونظراً لبقاء هذه العقارات تحت يد الفرنسيين وإتلاف بعضها، فقد حرم عدد كبير من الجزائريين إمكانية الاستفادة من خدماتها.

عمدت السلطات الفرنسية إلى التفنن في إبداع أساليب الخداع والمكر، حيث اتهمت الوكلاء بالخيانة وسرقة أملاك الأوقاف23، فاتخذت هذه الحجة لوضع تغييرات إدارية سنة 1835 على معظم المؤسسات الوقفية وعلى رأسها أوقاف الحرمين الشريفين، فقامت بتسريح الوكيل واستبداله بوكيل آخر وضع تحت مراقبة مصلحة إدارة المالية، حيث ارتفعت مداخيل مؤسسة الحرمين الشريفين على حسب زعمهم سنة 1836 إلى أكثر من 40000 فرنك فرنسي24، حيث كانت هذه المداخيل المالية الضخمة قبل الاحتلال الفرنسي، يستخدم جزء منها في صيانة المباني الدينية والأملاك الوقفية، لكن بعد الاحتلال25 الأمور تغيرت وأهملت هذه الخدمات مما

جعل العديد من المساجد والأملاك الوقفية التي تشرف عليها هذه المؤسسة تتعرض إلى الهدم. لقد جاء في لوحة المؤسسات الفرنسية بالجزائر لسنة 1836، أنه بلغت مداخيلها السنوية سنة 1836 ما قيمته 117.858 فرنكاً فرنسياً و75 سنتيماً. وارتفعت مداخيلها سنة 1837 إلى 122.503 فرنكا فرنسياً، بينما قدرت مصاريفها إلى ما قيمته 109.895 فرنكاً فرنسياً و99 سنتيماً. وهذا ما وفر للمؤسسة فائضاً مالياً قيمته 12.607 فرنكاً فرنسياً و37 سنتيماً26.

- هل صحيح أن هذه المداخيل الكبيرة لمؤسسة الحرمين الشريفين في فترة الاحتلال الفرنسي دليل على حسن تسيير الإدارة الفرنسية لها؟

لعل الارتفاع الكبير للمداخيل السنوية لمؤسسة الحرمين الشريفين في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، يعود إلى ارتفاع أسعار العقار في هذه الفترة مما أدى إلى ارتفاع كراء (العناء) البيوت والغرف والحوانيت والأراضي والجنات، بالإضافة إلى الضغوطات التي كانت تعرضها الإدارة الفرنسية على وكيل أوقاف الحرمين الشريفين للحصول على قدر كبير من المداخيل المالية، بالإضافة إلى اهتمام السلطات الفرنسية بالمداخيل دون المصاريف التي سوف تدخل في إطار ميزانية الاستعمار الفرنسي بالجزائر.

وقد كانت أكبر المصاريف المالية لمؤسسة الحرمين الشريفين في بداية الاحتلال الفرنسي مخصصة للصدقات المقدمة للفقراء، فقد كان عددهم حوالي 2000 فقير في سنة 1837م، بعدما كان عددهم في سنة 1835م حوالي 1300 فقير فقط. وقد رصدت مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين سنة 1835م مبلغ مالي قدر بـ 78.200 فرنك فرنسي لمساعدة الفقراء من مجموع المصاريف التي قدرت بـ 130.981 فرنكاً فرنسياً و60 سنتيماً. وكان

نصيب معين من هذه المصاريف مخصص للأشخاص الذين يعود أصلهم إلى مكة المكرمة المتواجدون بالجزائر27.

والجدول التالي يوضح لنا مصاريف أوقاف الحرمين الشريفين من سنة 1836 إلى سنة 1841م.

المصاريف (بالفرنك الفرنسي)	1836	1837	1838	1839	1840	1841	المجموع
المصاريف الإدارية	364732.2	40366.79	34712.90	41631.01	45689.43	27799.45	226372.20
الصدقات	653300.05	49728.95	57281.60	75587.70	72.000	87400	407328.30
خدمات متنوعة	1570.85	780260.	6973	7043	7388.50	5934.30	36712.25
الأعمال		6457	8117	9731.82	1610.57	12305.02	53331.41
هبات للمساجد			896.30				896.30
مصاريف مؤقتة			47.05	334.25	2694.80	805	3892.10
صيانة المباني	2627.03	5529.65	1909.40	8740.84	011.95	39001.43	79820.30
تعويض للملكيات الأهلية						4013.13	4013.71
المجموع	5701.15	09895.99	09937.25	43068.62	495.25	77268.91	312367.17

يتضح لنا من استقراء جدول مصاريف أوقاف الحرمين الشريفين من سنة 1836 إلى سنة 1841م، ما يلي:

- ارتفاع المبالغ الكبيرة المخصصة للصدقات على الفقراء، ولعل هذا الارتفاع الكبير للصدقات من طرف هذه المؤسسة الوقفية، دليل على سياسة فرنسا التعسفية التي أدت إلى وقوع مظالم وجرائم ضد الشعب الجزائري، الأمر الذي أدى إلى انتشار ظاهرة الفقر في الجزائر في تلك الفترة. فحاولت تلك المؤسسة تخصيص كل مواردها المالية من أجل تقديم مساعدات لهؤلاء الفقراء الجزائريين.

- انخفاض المبالغ المالية المخصصة للمساجد وصيانة المباني الوقفية، الأمر الذي سوف يؤدي إلى تعرضها للخراب والهدم.

تؤكد المصادر الفرنسية حسب ما جاء في التقرير الذي أصدرته السلطات الفرنسية سنة 1837 حول المؤسسات الوقفية والدينية، أن هذه المؤسسات الخيرية وقعت في خسارة كبيرة منذ أن تدخلت فرنسا في إدارتها28، هذه المؤسسات الوقفية التي لم تعرف مثل هذه الخسارة طيلة الفترة العثمانية.

استغلت السلطات الفرنسية القوانين التي أصدرتها للسيطرة على كل ما يمكن السيطرة عليه من مؤسسات وقفية، حيث قرر مرسوم 31 أكتوبر 1838م في مادته الرابعة، أن لمدير المالية حق تسيير ورقابة المؤسسات الوقفية وعلى رأسها مؤسسة الحرمين الشريفين، وبالتالي لم يبق لوكيل المؤسسة الوقفية سوى جمع المبالغ المالية الخاصة بالكراء (العناء)29. وكان أخطر قرار الذي قضى على هذه المؤسسة الوقفية، هو قرار 23 مارس 1843 الذي نص

على إلحاق المداخيل والمصاريف الناتجة عن مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين بالميزانية الاستعمارية على حساب الجزائريين30.

تصفيتها:

استطاعت السلطات الفرنسية التخلص من نظام الأوقاف الإسلامية، واستبداله بنظام فرنسي سمي بالمساعدات الخيرية الفرنسية، ولكن بالاعتماد على مداخيل مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، ففي سنة 1844م تم إنشاء مكتب المساعدات الخيرية، الذي كان يتكون من أربعة أقسام31، كل قسم يمثل مؤسسة وقفية لم يتم تصنيفها نهائيا بعد هي:

1- مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، 2- مؤسسة أوقاف سبل الخيرات، 3- مؤسسة أوقاف الأندلس، 4- مؤسسة بيت المال.

ولم يبقى في سنة 1854 من مكتب المساعدات الخيرية سوى قسم واحد هو قسم بيت المال، الذي أصبح يتكفل فقط بتصفية تركة المسلمين32، وهذا دليل واضح على تصفية المؤسسات الوقفية وعلى رأسها مؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين قبل سنة 1854م.

والغريب في الأمر أن المساعدات الخيرية الفرنسية، اعتمدت في ميزانيتها على المداخيل المالية التابعة لمؤسسة أوقاف الحرمين الشريفين، باعتبارها أهم وأكبر مؤسسة وقفية بالجزائر.

وأخيرا يمكن تفسير لجوء الاستعمار الفرنسي بالجزائر إلى ممارسة هذه السياسة ضد الأوقاف الإسلامية، على أنه نوع من التعصب الديني، بالإضافة إلى الشعور بالتفوق وإنكار الحضارة الإسلامية خلال كامل الفترة الإستعمارية.

الإحالات:

[1]- عائشة غطاس، حول الوثائق المتعلقة بأوقاف الحرمين الشريفين، أعمال الوقف في الجزائر أثناء القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، مجلة دراسات إنسانية، عدد خاص، الجزائر، 2001- 2002، ص 140.

[2] –Hoexter (Miriam), Endeweements, rules and community wakfal Harameyn in Ottoman Algiers, Leiden/ Brill, 1998, p1.

[3]–Beorman Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle édition, TIII, Leiden/ Bill, 2005, p 179.

[4]- س.م.ش، علبة 34 و 82.

[5]- ناصر الدين، سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001،ص262

[6]- A.O.M. 8 H 15-16, Récapitulation général des corporations .

[7] – A.O.M. 2X 103, Rapport de la fondation de la Mecque et Médine et des établissements pieux, 12 Janvier 1834.

[7]- ناصر الدين، سعيدوني، دراسات تاريخية في الملكية والوقف...، المرجع السابق، ص 263.

[8] – Worms, Dr M., "Recherches sur la constitution de la propriété territoriale dans les pays musulmans et subsidiairement en Algérie", de la propriété rurale et urbaine en Algérie, in Revue de législation et de jurisprudence, mai 1884, p. 30.

9 – Zeys, E., Traité élémentaire du droit musulman algérien (école malikite), T. II, Alger, A. Jourdan, 1885, p. 181.

10 - Devoulx, A., Notes historiques sur les mosquées…, op.cit., p.15.

11– Procès-verbaux et rapports de la commission d'Afrique, paris, imprimerie Royale, 1834, T.1, pp. 413- 414.

12 –Tableau de la situation d'établissements français dans l'Algérie, Paris, Imprimerie impérial. T.I, 1830- 1837, p. 221.

13 – Genty De Bussy, P., De l'établissement des Français dans la régence d'Alger et des moyens d'en assurer la prospérité, 2éme édition, T.II, paris, F. Didot, 1839, tableau N°63.

14 –Recueil des actes du gouvernements 1830- 1854, op.cit., p.5.

15 –Ibid., p. 5.

16 Tableau de la situation…, op.cit., T.II, 1838, p. 221.

17- Ibid., p. 36.

18 –Ibid., p. 225.

[19]- خديجة، بقطاش، الحركة التبشيرية الفرنسية في الجزائر1830- 1871م، الجزائر، منشورات دحلب،2007، ص27.

20 – Tableau de la situation…, op.cit., 1838, p. 221.

22 – Devoulx (A), les édifices religieux de l'ancien Alger, in RA, N°4/1859- 1860, p. 475.
23 –A. O.M. 2X 103, Rapport de la fondation de la Mecque et Médine et des établissements pieux, 12 Janvier 1834.
24 –Devoulx (A), op.cit., RA, N°4/1859- 1860, p. 221.
25 – Aumerat, La propriété urbaine à Alger et le bureau de bienfaisance musulmane., p. 327.
-26 Tableau de la situation…, op.cit., T.II, 1838, p. 227.
27 –Nacereddine, Saidouni, Awqaf, N°6, third year, Rabi II 1425H/ June 2004, pp. 62- 63.
28 –Ibid, p. 66.
[29]– حمدان بن عثمان، خوجة، المرآة، (تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزيري)، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 19، ص 261.
[30] –Recueil des actes du gouvernement de l'Algérie, 1830- 1854, op.cit., p. 240.
[31] –A.O.M. 2M 184, Proposition pour le budget 1843, Blondel, Alger, le 30 Novembre 1842.
[32]– أبو القاسم، سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزائر، دار البصائر، ج5، 2009، ص 185.

حركة الجهاد البحري
و نشوء الحكم العثماني في المغرب العربي

د. سمير عبد الرسول العبيدي
الجامعة المستنصرية- العراق

Abstract:

The talk about the emergence of the Ottoman rule in the Maghreb countries must address necessarily to the beginnings of Jihad Marine, a movement that emerged mainly after the fall of the Kingdom of brown red in Granada, where subsequent exposure of Muslims in Andalusia to persecution organized by the authorities, forcing them to migrate to the coasts of the Maghreb, where they asked the victory of their brothers there.

Keywords:

the emergence - Maghreb countries - the beginnings of Jihad Marine - the Maghreb.

يسعى البحث إلى دراسة بدايات حركة الجهاد البحري وعلاقتها بنشوء الحكم العثماني في بلدان المغرب العربي، والتي ارتبطت بشكل مباشر بمأساة موريسكيي الأندلس، الذين اجبروا على تغيير دينهم أو هُجروا من ديارهم قسراً، فما كان منهم إلا أن حملوا السلاح دفاعاً عن

أنفسهم ضد عدو شرع بمهاجمة واحتلال الموانئ المغربية بقوات تفوقهم عدداً وعدةً ، وكذلك ايضاً لمساعدة إخوانهم الذين بقوا في اسبانيا متحملين ظلم ملوكها، وقد وجدوا في الدولة العثمانية ضالتهم ، بحكم انخراطها في صراع مرير ضد الممالك الأوروبية، وهو أمر ينطوي على أهمية كبرى بسبب حالة الضعف والتجزئة التي شهدها المغرب العربي، حيث كان للتدخل العثماني أهميته القصوى ، على الرغم من أن توقيته جاء متأخراً للغاية، وتحديداً لمسلمي غرناطة، في حين يتكون البحث من مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

استهل البحث بالمبحث الأول، الذي تمثل بدراسة موجزة للصراع المرير بين حكام غرناطة والأسبان، الذي تلاحقت فصوله الأخيرة، لتنتهي بسقوط حكم المسلمين في الأندلس، وخروج آخر ملوكهم، وهذا الحدث التاريخي كان على درجة من الأهمية، دفعت ببعض المؤرخين لاعتباره يمثل بداية العصور الحديثة؛ غير أن ذلك لم يعني نهاية الصراع، بل استمر بأشكال وصيغ مختلفة، تمثل أهم ملامحها بأضطهاد الحكام الجدد للأندلسيين من مسلمين ويهود، هذا الأمر الذي اتخذ صفة منهجية عبر سياسات رسمية ذات طبيعة قانونية، فلم يبقى أمام غالبيتهم سوى النزوح إلى المغرب العربي ، حيث وجدوا العون والمدد من أشقائهم في العقيدة، ليتخذ الصراع شكلاً أكثر عنفاً، لأسباب شتى حاول المبحث التطرق إليها.

سعى الأسبان لنقل حربهم إلى سواحل المغرب العربي، واحتلال الموانيء المهمة التي تنطلق منها هجمات المجاهدين على السواحل

الأوروبية والسفن المبحرة في البحر المتوسط، فظهر تحالف بين المجاهدين والدولة العثمانية، وهو ماسعى المبحث الثاني لتبيان نتائجه، والتي كان من أبرزها، أن اتخذ الوجود العثماني في المنطقة شكلاً دائمياً، وبصيغة مختلفة عن تلك التي اتخذها في مناطق المشرق العربي.

كان لذلك الأمر تبعاته المهمة على طبيعة نشوء وتطور الحكم العثماني، ذلك ماأكده المبحث الثالث والأخير، إذ تباينت نظرة مؤرخي المغرب والمشرق العربي، في تقييمهم لطبيعة الحكم العثماني، وهو ماله أهميته البالغة بسبب وجود بعض الاختلاف، بل والتباين في الآراء في كثير من الأحيان، لتلك المرحلة التاريخية الطويلة والزاخرة بالأحداث شديدة التعقيد والأهمية، في مسيرة تطور المجتمعات العربية.

اعتمد البحث على جملة من المراجع والمصادر الأساسية، تراوحت بين الرسائل الجامعية و الكتب العربية والمعربة، إضافة إلى البحوث العلمية المنشورة، بلغ عددها (24) مصدراً، وذلك لكون البحث يناقش بالأساس مسألة ذات طبيعة فكرية، مايستدعي الإلمام بوجهات النظر المختلفة حول القضية مدار النقاش.

أولاً : نهاية الأندلس ونشأة حركة الجهاد البحري.

أ. سقوط غرناطة.

أدى انهيار الدولة الأموية في قرطبة (756 – 1031) إلى انتهاء نظام الحكم المركزي في بلاد الأندلس ، فانقسمت إلى عدة دول وأمارات متنافسة عرفت (بدويلات الطوائف) ، وبالمقابل أتحدت المناطق النصرانية وشرع حكامها بتوحيد قواهم لاستعادة البلاد تدريجياً وكان أول ما استردوه مدينة طليطلة التي أحتلها ملك قشتالة الفونسو السادس

Alfonso VI (1065–1109) عام 1085[1] ، وعقب ذلك توالى سقوط المدن الأندلسية ، وأنحصر الوجود العربي بدءاً من النصف الثاني للقرن الثالث عشر بالجزء الجنوبي من الأندلس، متمثلاً بدولة بني نصر ويعرفون ببني الأحمر (1238 – 1492) بغرناطة[2] .

منيت غرناطة بنكسات متتالية ولكنها برغم ذلك تمكنت من الاستمرار، وتمتعت بفترات طويلة من السلام والازدهار الحضاري ، ويعود ذلك إلى :

1. إن قوة العدو مكنته من اقتطاع المدن والحصون الأقرب إليه وغرناطة كانت الأبعد مكاناً والأمنع موقعاً ولا يوجد ما يمنع الأندلسيين المورسكيين ( )Moriscos من الاستعانة بأشقائهم في المغرب العربي[3] .
2. هاجر لغرناطة أعداد كبيرة من سكان المناطق المحتلة ممن رغبوا في البقاء وعدم عبور العدوة (مضيق جبل طارق) ، وزاد عددهم عن 1.5 مليون أندلسي . ولم تكن هذه القوة كافية لاستعادة الأراضي التي احتلها الأسبان، إلا أنها كانت قادرة على صد هجماتهم عبر أنشاء سلسلة من الحصون المنيعة[4] .
3. دخل حكام الممالك الأسبانية في حروب داخلية استنزفت قواهم ، فاكتفوا أغلب الأحيان بأخذ الجزية من حكام غرناطة[5] .

لقد عاش المغرب العربي حالة من التجزئة السياسية في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، فأنقسم إلى ثلاث دول، هم بنو وطاس (1471 – 1553) في المغرب الأقصى ، وبنو حفص (1237 – 1573) في تونس وطرابلس الغرب وأجزاء من الجزائر التي اقتسموا حكمها مع بني

عبد الواد (1236 – 1554) ، وكانت هذه الدول في حالة صراع مستمر مع بعضها البعض[6] .

شهد العام 1479 بداية النهاية للوجود العربي في الأندلس عقب توحيد العرش الأسباني (آراغون وقشتالة) تحت حكم إيزابيلا الاولى Isabella I (1474 – 1504) وزوجها فرديناند الثاني Ferdinand I (1479 – 1516) ، لتبدأ الحرب بين الجانبين في العام 1482 ، وخلال عقد واحد نجح الأسبان في أرغام آخر حكام بني الاحمر في غرناطة أبي عبد الله الصغير (1487 – 1492) على تسليم غرناطة بموجب المعاهدة التي أبرمت بين الطرفين بتاريخ 25/ 11/ 1491 ، وتضمنت 67 بنداً وسمح بموجبها لأبي عبدالله الصغير بمغادرتها مع أسرته ، أما السكان المسلمين فنصت المعاهدة على "**تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم ، ... وإقامة شريعتهم على ما كانت ولايحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم ، ... ومن أراد الجواز للعدوة لايمنع، ...**"[7] .

ب. نشأة حركة الجهاد البحري.

كانت المعاهدة ملزمة وواضحة، لكن إيزابيلا بدأت باستفزاز مسلمي غرناطة ، وأبعدت من أستوطنها في مراحل قريبة من التسليم ، وبدأت تفرض عليهم التنصير أو الهجرة القسرية ، الأمر الذي أدى لانتفاضة حي البيازين عام 1499 ، وعقب إخمادها تقرر تعميد أبناء المدجنين قسراً ، وصدرت الأوامر في 20/ 1/ 1501 حرم بموجبها على المدجنين ممارسة كل ما يمت لعقيدتهم بصلة ، ومنعوا من حمل السلاح[8] .

أدى استخدام الشدة ضد المسلمين إلى قبول عدد منهم للتنصير . ولكن أعداداً كبيرة منهم اختارت الهجرة إلى المغرب العربي. وهنا بدأ الاحتكاك بين الجانبين ، أذ تعقبت السفن الأسبانية جماعات المهاجرين محاولة للإيقاع بهم . وكان الواصلون منهم سارعوا لطلب النجدة ، لذا أضحى من الطبيعي أن يخرج هؤلاء بسفنهم لحماية المهاجرين وتأمين عملية وصولهم[9]

وليست هجرة المسلمين من الأندلس بظاهرة جديدة ، فمنذ أن أخذت الدويلات الإسلامية بالانكماش ، وموجات المهاجرين تفد تباعاً ، واستقر معظمها في موانيء البحر المتوسط من الإسكندرية حتى موانيء المغرب على المحيط الأطلسي . وقد صبغ المهاجرون الحياة العلمية والأدبية في المغرب العربي بالصبغة الأندلسية المتميزة ، ولا تزال آثارها ظاهرة في الحياة الاجتماعية والعمرانية إلى يومنا هذا . وقد ضمت هذه الهجرات اليهود والذين عانوا كذلك من الاضطهاد . وهذا ما يفسر لنا وجود أعداد كبيرة من الجاليات اليهودية ، واحتفاظ بعضها بلغتها الأسبانية خاصة في مراكش . وقد أشتهر الأندلسيون أيضاً بالتفوق في النشاط الاقتصادي حتى أنهم سيطروا على تجارة المنطقة[10] .

أدت هذه التطورات إلى ظهور الحاجة لقيادات جديدة في الميدان . وإذا كانت الدويلات الإسلامية قد عاشت في ضعفها وانقسامها فإن الحاجة قد ظهرت إلى ضرورة توحيد القوى . وإذا كانت القيادات التقليدية تمرست في الحروب البرية ، فإن طبيعة المرحلة استلزمت وجود رؤساء بحريين يمكنهم منازلة الأعداء والدفاع عن السواحل . وعليه فأن تاريخ الفترة التالية للشمال الأفريقي يمكن تلخيصها في نشأة هذه القيادة

البحرية وجهادها ضد القوى الأوروبية، وعلاقتها بالقوى المحلية الموجودة في ذلك الوقت[11] .

تبنى المسلمون استراتيجية عسكرية تقوم على شن هجمات خاطفة على السفن والموانيء الأسبانية ، وخاصة تلك الواقعة في مناطق الجنوب ، ويعود سبب ذلك إلى التباين الشاسع في الإمكانيات بين الجانبين، ناهيك عن عدم وجود قيادة موحدة تعمل على وضع الخطط اللازمة لذلك ، الأمر الذي يجعل الدخول في مواجهة مباشرة مع البحرية الأسبانية مغامرةً غير مأمونة العواقب ، وقد أثبتت هذه الاستراتيجية جدواها ونجح المجاهدون بإلحاق خسائر كبيرة بسفن الأعداء ، ساعدهم في ذلك جملة من العوامل منها كون أسبانيا دولة بحرية تعتمد أساساً على السفن لتوفير احتياجاتها ، إضافة إلى طول شريطها الساحلي والذي لم يكن يفصله عن المغرب العربي إلا مسافة بسيطة لم تكن تتجاوز 14 كم عند أقرب نقطة في مضيق جبل طارق[12] .

أطلقت غالبية المصادر الأوروبية على هجمات المجاهدين تسمية (القرصنة) ، وتبعهم في هذا بعض الكُتاب العرب ؛ وهنا لابد من التمييز بين (القراصنة) وبين الحروب البحرية التي تقع بين الدول المتعادية ، والتي كانت الغاية منها ضرب اقتصادات العدو ، بالاستيلاء على البضائع الصادرة منه أو الواردة إليه ، وأسر من يعمل فوق ظهر تلك السفن المعادية ، وهذه العمليات ذات نظم ، وقوانين وكما ورد في دائرة المعارف الفرنسية(Eros) Encyclopédie française **(كانت الحكومات فيما سلف تسلم أوراقاً رسمية للقراصنة ، فتكسبهم بذلك صبغة مشروعة ، تميزهم عن لصوص البحر ، وتجعلهم شبه جنود متطوعين يعملون في أوقات الحروب ، بعكس اللصوص الذين يمارسون مهنتهم باستمرار ،**

وقد سلحت فرنسا عدداً كبيراً من القراصنة ، وعلى سبيل المثال فللمدة (1793 – 1815) ، ضبط القراصنة الفرنسيون 10871 سفينة تجارية إنكليزية ، منها 949 في سنة واحدة ، هي سنة 1797)[13] .

ثانياً : بدايات الحكم العثماني.

أ. الأسباب والمعطيات.

لم تبسط الدولة العثمانية نفوذها في المغرب العربي باديء ذي بدء بواسطة غزو عسكري ، كما حدث في مصر مثلاً[14] ، بل جاء نتيجة لاشتداد الصراع بين الأوروبيين والعرب في الحوض الغربي للبحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر . وقد أجتذب ذلك أعداداً كبيرة من البحارة المغامرين ، الذين نشؤا في خدمة أسطول الدولة العثمانية ، ثم أخذوا يعملون بأساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص فتظفر بالغنائم الوفيرة وتحارب أعداء الدولة في الوقت نفسه . ولذا فقد كان هؤلاء يعتبرون بنظر المسلمين أبطالاً وطنيين وفي نظر خصومهم (لصوص بحار ، لايخضعون لأي قانون أو نظام) [15] .

وفي الواقع أن التدخل العثماني في المغرب العربي لم يكن متوقعاً أبداً ، أو في حسبان أحد بما في ذلك الدولة العثمانية نفسها . فمنذ أوائل القرن السادس عشر توزعت اهتماماتها في اتجاهات متعددة : في أوروبا وبلاد فارس، أما في العالم العربي فكانت تسعى بجهد حثيث للقضاء على الدولة المملوكية ووراثة أملاكها وكانت دولة برية لعب الجيش الدور الحاسم في فتوحاتها ، ولم يكن للأسطول العثماني أي دور بارز في هذه الفتوحات ، سواء في أوروبا أو آسيا . وفي حين اتسعت فتوحات العثمانيين البرية فإن تقدمهم في المجال البحري كان بطيئاً ، وإذا كانت فتوحاتهم العربية قد منحتهم مواقع بحرية هامة في الحوض الشرقي للبحر المتوسط . فإن ممتلكاتهم البحرية اقتصرت حتى أوائل القرن السادس عشر على عدد من جزر الأرخبيل القليلة الأهمية ، في حين ظلت الجزر الهامة كرودس ومالطا وكريت وقبرص بعيدة عن متناولهم[16] .

وعلى هذا لم تورد المصادر سوى إشارات مقتضبة عن الموضوع . فخلال شهر آب 1454 ، نجد في مدينة نابولي شخصين من البلاط الحفصي ، قد أطلق سراحهما منذ مدة قصيرة بأمر من ملك أراغون الفونسو الخامس Alfonso V (1416–1458)، وكان قد ألقي القبض عليهما على متن سفينتهما في ميناء سرقسطة ، بينما كانا متوجهين للقيام بمهمة لدى السلطان العثماني محمد الفاتح (1451 – 1481) . والغالب أن السلطان الحفصي أبو عمرو عثمان (1435 – 1488) كان يود ان يوجه بواسطتهما تهانيه بمناسبة فتح القسطنطينية[17] .

ب. الدولة العثمانية وقضية المورسكيون.

لقد أجمع المؤرخون على أن الجيش العثماني وطيلة قرنين على الأقل كان أفضل جيش في العالم . وكانت الإمبراطورية العثمانية جيشاً قبل أن تكون دولة ، وقد كتب الموفدون الأوروبيون روايات مسهبة عن مدى الانضباط والالتزام الذي ميز الجندي العثماني ، إذ كان يجمع كل الخصال التي تجعل من الجيوش ظافرة لاتقهر ، وهذه الخصال هي" الطاعة ، والشجاعة والوفاء ، إلى حد التعصب" ، في حين كانت الجيوش الأوروبية لا تطيع إلا بحسب ما تمليه الساعة وتنكس على أعقابها هاربة ، في أول فرصة ، وقد ذكر الإخباري الإيطالي (باولوجيفيو(Paulo Geevio في عام 1531) **أن الانضباط في الجيش العثماني وصل درجة من الأنصاف والشدة يفوق ما عرفه قدماء اليونان والرومان ... ، ولا يفوتنا أن نلاحظ أنه في العصر الذي كانت فيه أوربا لم تعرف إلا قليلاً عبارة تزويد فإن إدارة صاحب الجلالة كانت منظمة تنظيماً محكماً..."**[18] .

ولكن برغم ما تقدم فقد امتنع العثمانيون من التدخل ونجدة غرناطة التي أرسل سكانها وفد إلى محمد الفاتح في عام 1477 طالبين منه

مساعدتهم من دون جدوى ، وقد أدى هذا الموقف السلبي إلى التعجيل بسقوط غرناطة ونقل الأسبان حروبهم لموانئ المغرب العربي[19] .

بدأ الاهتمام العثماني المباشر بالمنطقة في عهد السلطان بايزيد الثاني (1481 – 1512) ومن هنا يمكننا تحديد مرحلتين ، مرحلة أساليب الغزو والحكم غير المباشرين (1481 – 1519) ومرحلة أساليب الغزو والحكم المباشرين . ومن أساليب تنفيذ المرحلة الأولى والتي يمكن ان نسميها (بمرحلة التأسيس) التفاهم والاتفاق والتحالف مع القوى السياسية والقبلية المحلية، ومن معالمها تقديم الهدايا وأنصبة الغنائم للسلطان والدعاء بأسمه في خطبة الجمعة والقبول بقوات عثمانية كحامية أو كفرقة بين الفرق المحلية[20] .

وبحلول عام 1487 وجه سكان غرناطة نداءاً بطلب المساعدة إلى البلاطين المملوكي والعثماني . ورغب بايزيد الثاني بالحصول على مزيد من المعلومات عن الوضع الميداني، فاستدعى القبطان كمال ريس وزوده بعدد من السفن ليقلع نحو غرناطة ، وهناك حدث أول اتصال مباشر بين الطرفين ، ولم تكن لهذه البعثة تأثير يذكر على مصير غرناطة ، إلا أنها سمحت للبحارة العثمانيين بإقامة قواعد لهم في موانئ المغرب العربي ، حيث استقبلوا بالترحاب ، وقد أقام كمال ريس قاعدته في جزيرة جربه التونسية ثم في مينائي بونه وعنابة الجزائريين . وواصل نشاطاته حتى عام 1495 حينما تم استدعائه لاسطنبول . وقد سمح ذلك للعثمانيين بالحصول على المعلومات والمساندة في الوقت الذي كان فيه أسطولهم مشتبكاً مع البندقية (1499 – 1503) . ومع انتهاء الحرب هاجرت مجموعة جديدة من ملاحي شرقي البحر المتوسط إلى نفس الموانئ التي كان يتمركز فيها كمال ريس[21] .

شكل الموريسكيون عماد هذه الحركة الجديدة بحكم حجم الظلم والحيف الذي لحق بهم . وكان هؤلاء أكثر الحلفاء وفاءً ومدعاة للثقة عند الباب العالي في غرب العالم الإسلامي . إذ رأوا في العثمانيين حاميهم الوحيد من ظلم الحكام الإقطاعيين المحليين وقبائل البدو . وتحول بعض القادة البحريين العثمانيين إلى أبطال شعبيين حقيقيين وأحيطوا بهالة رومانسية كمناضلين بواسل ومدافعين عن (الشريعة الحقة) . فكانوا يستقبلون بحفاوة في الموانيء التي يقصدونها حيث اعتادوا تمضية فصل الشتاء ليصلحوا سفنهم ويبيعوا غنائمهم ويعوضوا خسائرهم البشرية لإكمال أطقم سفنهم . وكان قباطنة السفن أو كما يسميهم المغاربة "الرياس"، يدفعون عادة إلى الحكام المحليين (خُمس) غنائمهم ، وأحيانا يوزعونها على الفقراء والدراويش ورجال الدين الذين ساندوا البحارة وأقاموا الصلوات على نيتهم ، علاوة على مختلف احتفالات الترحيب بهم[22] .

لم يقتصر التحالف العثماني – الموريسكي على موانى الشمال الأفريقي ، بل تدفقت أعداد كبيرة منهم على اسطنبول بحكم كون الدولة العثمانية أكبر قوة إسلامية وتمتعت بسمعة متميزة نظراً لنجاحها في فتح القسطنطينية والانتصارات التي حققتها في أوروبا الشرقية وأخيراً حيازة السلطان العثماني لقب (حامي الحرمين الشريفين) بدءاً من عام 1517 ، ومن الملفت للنظر ان قدوم الموريسكيين لم يقتصر على المسلمين بل أمتد ليشمل اليهود الذين عانوا هم أيضاً من اضطهاد السلطات الأسبانية ، وقد أزداد عددهم بسرعة وأصبحوا حريصين على أحاطة رجال الدولة العثمانيين بالوضع المؤلم والحقائق المذهلة لكل ما يتعلق بقضيتهم ، وزيادة على ذلك فقد امتهن عدد كبير منهم الترجمة والمراسلات لصالح الباب

العالي ، ولعل هذا ما دفع ببعض القناصل الأوروبيين لتعقب نشاطاتهم ومن ثم(اتهامهم بالتجسس) [23] .

ثالثاً : الموقف من مرحلة الحكم العثماني.

إن الطريقة التي نشأ بها الحكم العثماني في المغرب العربي تفسر لنا النظرة الحالية للمغاربة تجاه هذه المرحلة المهمة من تاريخ بلدانهم ، وهي تقوم على الشكر والعرفان نظراً لأن الدولة العثمانية لم تمد نفوذها إلى مناطق المغرب العربي بواسطة غزو عسكري أو تدخل مباشر منها كما حدث مثلاً في بلاد الشام والعراق ، وإنما كان ذلك **(نتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية في حوض البحر المتوسط في القرن الخامس عشر ... فلولا ذلك لتكررت مأساة الأندلس ، ولاصبحت المدن الساحلية كلها مدناً أسبانية بحتة كمليلة وسبتة...)** [24] .

ولكن برغم هذه النظرة غير الواقعية إلى مرحلة الحكم العثماني إذا جاز لنا التعبير، والتي اسماها المؤرخ الروسي نيقولاي ايفانوف (**1886–1970**) (الحنين إلى العثمانيين) [25]، والتي أنفرد بها المغاربة من بين شعوب البلدان التي احتلها العثمانيون فإن لها ما يبررها من وجهة نظرهم الخاصة ، وهذا يقودنا للحديث عن الأثر الذي تركوه خصوصاً وأنهم احتلوا جميع مناطق الوطن العربي (باستثناء مراكش) ولعدة قرون.

أن صفات العثمانيين كانت مسؤولة إلى حد كبير عن إخفاقاتهم ، فقد انعزل العثمانيون اجتماعياً، ولم يحدث انصهار أو امتزاج بينهم وبين الشعوب المحكومة، كما لم يسهموا بشيء يذكر في الحياة الاقتصادية ، واكتفوا بأن أقاموا كطبقة حاكمة ، وكانوا أقلية عددية تميزت بالاستعلاء ، ولم يحاولوا نشر لغتهم ، فبقيت الشعوب محافظة على لغتها وثقافتها وعاداتها وغير ذلك من عناصر حضارتها، وكانت سلبية العثمانيين من

أهم عوامل الحفاظ على القومية العربية ، ويعزو بعض المؤرخين سبب ذلك إلى أنه لم يكن لهم تراث فكري يلقنونه للآخرين كما هو حال اليونان أو العرب من قبلهم ، إذ اكتسبوا عظمتهم من ساحات القتال ، وهكذا عجز العثمانيون عن ان يثبتوا جذورهم . فلما زالت دولتهم لم تترك تأثيرات تذكر، إلا فيما ندر، باستثناء بعض المنشئات العسكرية والمباني الحكومية، ومضت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب والبلدان في مسارها العادي من دون ان تشعر بقدوم أو زوال الحكم العثماني[26].

الخاتمة.

بدأ الاهتمام العثماني المباشر بالمنطقة العربية في عهد السلطان بايزيد الثاني (1481 – 1512) ، ومن هنا يمكننا تحديد مرحلتين ، مرحلة الغزو والحكم غير المباشرين (1481 – 1519) السلمية، ومرحلة الغزو والحكم المباشرين، وهي المرحلة العسكرية . ومن أساليب تنفيذ المرحلة الأولى، والتي يمكن أن نسميها (بمرحلة التأسيس) التفاهم والاتفاق والتحالف مع القوى السياسية والقبلية المحلية ومن معالمها تقديم الهدايا وأنصبة الغنائم للسلطان والدعاء بأسمه في خطبة الجمعة، والقبول بقوات عثمانية كحامية أو كفرقة بين الفرق المحلية .

كان هذا التحول يعود بالأساس لاعتبارات تتعلق بأولويات السياسة العثمانية التي اتخذت منحى جديد في عهد السلطان سليم الأول(1512–1520)، وقد أخذ الأمر طابعاً روحياً في كثير من الحالات بحكم طبيعة الصراع ، وهو مايفسر لنا بشكل كبير النظرة الحالية لسكان بلدان المغرب العربي إلى تلك المرحلة المهمة من تاريخهم ، بغض النظر عن الكثير مما جناه العثمانيون من هذا التحالف، حيث سيطروا بصورة سلمية على مساحات شاسعة أضافوها لإمبراطوريتهم المترامية الأطراف، ومقارنة ذلك بما خلفوه من تركة حضارية متواضعة، رغم مدة حكمهم الطويلة، ولأسباب محددة . وهو ماشكل ُصلب مادة البحث التي ركزت على البدايات الأولى لحركة الجهاد البحري، ثم المرحلة السلمية لتأسيس الحكم العثماني في المغرب العربي، أي مرحلة التحالف، والتي انفردت بخصائص تميزها عن المرحلة اللاحقة ذات الطابع العسكري.

لقد شكل الموريسكيون(المغاربة)، وهي تسمية ذات (صفة قدحية) مشتقة من الكلمة الاسبانية **Marruecos**(المغرب)، وقد أُطلقت

على المسلمين في الأندلس الذين تم تعميدهم قسرًا بمقتضى المرسوم الصادر من السلطات الاسبانية في 14/ 2 / 1504؛ عماد هذه الحركة الجهادية الجديدة بحكم حجم الظلم والحيف التاريخيين الذي لحق بهم من قبل الحكام الأسبان، الذين شرعوا في حروب طويلة ضد الوجود العربي الإسلامي في اسبانيا استمرت لعدة قرون، ولم تنتهي إلا بسقوط آخر معاقلهم في غرناطة العام 1492 . لذا كان هؤلاء أكثر الحلفاء وفاءً ومدعاة للثقة عند الباب العالي في غرب العالم الإسلامي.

لهذا لم تبسط الدولة العثمانية نفوذها في المغرب العربي في البداية بالغزو العسكري ، كما حدث في مصر مثلاً ، بل جاء نتيجة لاشتداد الصراع بين الأوروبيين والعرب في الحوض الغربي للبحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر . وقد أجتذب ذلك أعداداً كبيرة من البحارة المغامرين ، الذين نشأوا في خدمة أسطول الدولة العثمانية ، ثم أخذوا يعملون بأساطيل صغيرة تعمل لحسابهم الخاص فتظفر بالغنائم الوفيرة وتحارب أعداء الدولة في الوقت نفسه . فقد كان هؤلاء يعتبرون بنظر المسلمين أبطالاً وطنيين وفي نظر خصومهم (قراصنة)، لا يخضعون لأي قانون أو نظام .

نجح العثمانيون بفرض سلطتهم على الوطن العربي (باستثناء مراكش) للمدة (1516 – 1918)، لكنهم انعزلوا اجتماعياً، ولم يحدث انصهار أو امتزاج بينهم وبين الشعوب المحكومة، كما لم يسهموا بشيء يذكر في الحياة الاقتصادية ، واكتفوا بأن أقاموا كطبقة حاكمة ، وكانوا أقلية عددية تميزت بالاستعلاء ، ولم يحاولوا نشر لغتهم ، فبقيت الشعوب محافظة على لغتها وثقافتها وعاداتها وغير ذلك من عناصر حضارتها، وكانت سلبية العثمانيين من أهم عوامل الحفاظ على القومية العربية ،

ويعزو بعض المؤرخين سبب ذلك إلى أنه لم يكن لهم تراث فكري يلقنونه للآخرين كما هو حال اليونان أو العرب من قبلهم ، إذ اكتسبوا عظمتهم من ساحات القتال ، وهكذا عجز العثمانيون عن أن يثبتوا جذورهم . فلما زالت دولتهم لم تترك تأثيرات تذكر ، ومضت الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للشعوب والبلدان في مسارها العادي من دون أن تشعر بقدوم أو زوال الحكم العثماني.

لقد برز تباين بآراء المؤرخين المغاربة والمشارقة حول طبيعة الحكم العثماني، ويعود ذلك لجملة نقاط نوجزها بالاتي :-

1. ارتبط المغرب العربي بصلات وثيقة مع بلدان أوربا بحكم الموقع الجغرافي ، مع الإشارة إلى أنها لم تكن ودية في جميع الأزمنة وإنما شهدت حالات مد وجزر كثيرةً .
2. كان سكان المغرب العربي في مجملهم من المسلمين مع وجود أقليات يهودية، أما النصارى فهم من الأوربيين حصراً ، لذا ارتبطت الديانة المسيحية في ذهن المواطن العادي بأوربا ، فتكررت هذه المفردة باستمرار لدى المؤرخين المغاربة .
3. عانى المغرب العربي من الصراع في الأندلس ، بل لقد انهارت دولتا المرابطين (1056–1147) والموحدين (1130–1269) من جراء اخفاقاتهما في الأندلس ، مع العلم ان الكنيسة الكاثوليكية قدمت دعماً لامحدوداً للقوى المحلية في صراعها ضد الممالك الإسلامية مما أكسب الصراع صيغة مسيحية –إسلامية .
4. دأب العثمانيون للحفاظ على بعض المظاهر الإسلامية كالألقاب والمناسبات الدينية والشواهد العمرانية ، وحرصوا على أبراز ذلك التوجه الديني مما أكسبهم قاعدة شعبية واسعة من دون أية تبعات

سياسية أو عسكرية إلا فيما ندر ، وساعدهم في ذلك انتشار الطرق والزوايا الصوفية في المغرب العربي التي قدمت دعمها الواسع لحركة الجهاد البحري، كما تبنى العثمانيون طريقة صوفية محلية تدعى "الطريقة البكتاشية" .

5. لقد بقي العثمانيون أقلية اوتوقراطية منعزلة ولم يحاولوا فرض نمط حياتهم على أبناء المغرب العربي ، مع الإشارة إلى ان العثمانيين فقدوا جميع مواقعهم في المنطقة خلال المدة (1830 – 1911) ، أي أن هذه المناطق شهدت مجيء الاستعمار الأوربي في مرحلة تاريخية مبكرة ، والذي كان أشد وطأة وبخاصة مع سعي المستعمرين الجدد لفرض قيم وطروحات جديدة .
6. لم يعاني المغرب العربي من سياسة "التتريك" ، التي حاول العثمانيون تطبيقها في مناطق المشرق العربي حصراً ، والسبب أنهم فقدوا سيطرتهم كلياً على بعض المناطق (الجزائر وتونس) ، أو بصورة جزئية (مصر وطرابلس الغرب) .

الإحالات:

1. إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج1 ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، 1312هـ ، ص261 .
2. د. محمد كمال شبانه ، يوسف الأول أبن الأحمر سلطان غرناطة ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ص19 – 23 .للتفاصيل عن حكم بني الاحمر في غرناطة ينظر:عباس جبير طعمة التميمي، نظم الحكم والإدارة في الأندلس، عصر بني الأحمر (635–897ه)، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية، جامعة بغداد، تموز 1994.
3. د. عبد الرحمن علي الحجي ، التاريخ الإسلامي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (711 – 1492م) ، ط1 ، دمشق – بيروت ، دار القلم ، 1976 ، ص521 .
4. عادل سعيد بشتاوي ، الأمة الأندلسية الشهيدة ، ط1 ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2000 ، ص115 – 116 .

5. بطرس البستاني ، معارك العرب في الأندلس ، بيروت ، دار الجيل ، 1980 ، ص128 .
6. د.عبد الله شريط ، محمد مبارك الميلي ، مختصر تاريخ الجزائر ، ط2 ، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، 1985 ، ص115 .
7. د.محمد عبده حتاملة ، التنصير القسري لمسلمي الأندلس في عهد الملكين الكاثوليكيين (1474 – 1516) ، الأردن ، 1980 ، ص19 – 55 .
8. عادل سعيد بشتاوي ، المصدر السابق ، ص127 – 131 .للتفاصيل عن حكم إيزابيلا وفرديناند ينظر: Jean Hippoly Mariejol, The Spain Of Ferdinand And Isabella, Translated By Benjamin Keen, New Brunswickد.جلال يحيى ، تاريخ المغرب الكبير ، ج3 ، بيروت ، دار النهضة العربية ، 1981 ، ص19 .
9. د. صلاح العقاد ، المغرب في بداية العصور الحديثة ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية ، 1963 ، ص33 .
10. د.جلال يحيى ، المصدر السابق ، ص19 – 20 .
11. أندروهيس ، افتراق العالمين الإسلامي والمسيحي في المغرب والأندلس ، ط1 ، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الكويت ، منشورات ذات السلاسل ، 1986 ، ص32 – 35 .
12. أحمد توفيق المدني ، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وأسبانيا 1492 – 1792 ، الجزائر ، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر ، بلا ، ص72 – 73 .
13. نجح السلطان سليم الأول (1512 – 1520) من الإطاحة بدولة المماليك البرجية (1382 – 1517) عقب حرب خاطفة استمرت للمدة (1516 – 1517) . للتفاصيل ينظر : د.علي محمد محمد الصلابي ، الدولة العثمانية ، ط1 ، المنصورة ، مكتبة الأيمان ، د.ت ، ص179 – 184 .
14. د.صلاح العقاد ، المصدر السابق ، ص36 .
15. د.محمد خير فارس ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي ، ط1 ، 1969 ، ص12 .
16. روبار برنشفيك ، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15، ج1 – ج2 ، ترجمة حمادي الساحلي ، بيروت ، دار الغرب الإسلامي ، 1988 ، ص292 .

17. أندري كلو ، سليمان القانوني، ط1، ترجمة البشير بن سلامة ، بيروت ، دار الجيل ، 1991 ، ص45 – 46 .
18. د.عبد الجليل التميمي ، رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541 ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ، العدد3 ، يناير 1975 ، ص38 .
19. د.إبراهيم شحاته حسن ، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب 986هـ ، 1578م ، ط1 ، الدار البيضاء ، 1979 ، ص72 .
20. أندروهيس ، المصدر السابق ، ص96 – 97 .
21. نيقولاي أيفانوف ، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 – 1574 ، ط2، نقله إلى العربية يوسف عطا الله، بيروت، دار الفارابي، 2004 ، ص117.
22. د.عبد الجليل التميمي ، الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين ، المجلة التاريخية المغربية، تونس ، العدد 23 – 24 ، نوفمبر 1981 ، ص191 – 192 .
23. د.محمود أحسان الهندي ، الحوليات الجزائرية ، دمشق ، 1977 ، ص38 .
24. للتفاصيل ينظر: نيقولاي أيفانوف، المصدر السابق ، ص61–68.
25. د.عبد العزيز الشناوي ، أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج1 ، مصر ، دار المعارف ، 1969 ، ص547 – 550 .للتفاصيل عن خصائص الحكم العثماني ينظر: أ.د.زين العابدين شمس الدين نجم(جامعة الازهر)؛ تاريخ الدولة العثمانية، ط1، عمان، دار المسيرة، 2010، ص251– 266

السياسة العامة العالمية و مفهوم الحكم العالمي

أ.د. رياض بوريش
جامعة قسنطينة 3

Abstract:

I knew the political science major development especially in the field of public policy forms and types. Public policy plays an important role in every organization and within each organization, and is the government doing to develop a comprehensive action plan in order to achieve greater goals and at a specific time, so the policy as a method and as a way of work is a practical framework year for each state, but it is There are also types of this policy associated with the genesis of its inception state actors.

Keywords:

political science - Public policy - organization - government - the practical framework.

لقد عرف علم السياسية تطورا كبيرا خاصة في مجال السياسة العامة بأشكالها و أنواعها. فالسياسة العامة تلعب دورا مهما في كل مؤسسة و داخل كل تنظيم، و تعتبر فعل حكومي لوضع خطة عمل شاملة من أجل تحقيق أكبر قدر من الأهداف و في زمن محدد، بذلك فإن السياسة العامة كأسلوب و كطريقة عمل تعتبر الإطار العملي العام لكل دولة، غير أنه توجد أيضا أنواع لهذه السياسة العامة التي ارتبطت نشأتها بنشأة الدولة الفاعلة، لكن هذا لا يستثني وجود سياسة عامة في هيئات

وتنظيمات أخرى مثل المنظمات الدولية و المؤسسات العالمية و هذا ما يدفعنا إلى طرح التساؤل التالي: هل هناك سياسة عامة عالمية ؟

تؤكد جل تعريفات السياسة العامة على أنها برامج عمل حكومية تجري بلورتها و تنفيذها لغرض إحداث تعديلات إيجابية داخل مختلف القطاعات، وذلك بطريقة سلطوية آمرة، و عليه فإن الاضطلاع بهذه المسؤولية هو مظهر من مظاهر ممارسة السيادة على مستوى الدول، أما على صعيد عالمي فهناك غياب سلطة قادرة على إدارة العلاقات الدولية القائمة في الواقع على مبدأ التنافس أو التعاون لتحقيق المصلحة كما تقره أدبيات علم العلاقات الدولية، و إذا كان هذا هو الحال فكيف أمكن في الوقت الراهن الحديث عن سياسة عامة عالمية ونشأة مفهوم الحكم العالمي ؟

1- الأجندة الدولية و بروز مفهوم السياسة العامة العالمية :

أحدثت نهاية الحرب الباردة تحولا في القضايا التي تحظى بالاهتمام عالميا، إذ أدت إلى نسيان القضايا المتعلقة بالصراع الأيديولوجي بين المعسكر الشرقي و الغربي، و استحدثت أجنده للسياسة العالمية و التي يمكن تعريفها على أنها مجموع القضايا والمشاكل التي يدور حولها النشاط السياسي العالمي في إطار بحث المجتمع الدولي عن إقامة نظام عالمي جديد و معالجة التفاوت في الثروة بين الدول المتقدمة و النامية. و في نظر كل من **(برايان وايت و ريتشارد ليتل و مايكل سميث)** [1]، فالقضايا والمشاكل المطروحة على الاجندة الدولية تمثل في العادة وجها لمشكلة أو مجموعة مشاكل أكثر ديمومة تواجه السياسة العالمية، فأزمة الديون التي طرحت بقوة في الثمانينات وأوائل التسعينيات هي مظهر لمشكلة أعقد

وأبعد زمانيا وهي التفاوت في توزيع الثروة بين الشمال و الجنوب الذي تسببت فيه الحقبة الاستعمارية التي أفرزت دولا ثرية و متحكمة في النظام الاقتصادي الدولي تديره حسب منفعتها. فالمشاكل و القضايا تؤثر على الأجندة الدولية لأسباب محددة و ليس عشوائية و أبرز ما يتحكم فيها توازنات القوة و المصلحة، فكل قضية تبرز في السياسة العالمية تعبر عن مصالح أطراف معينة و تثير ردود أفعال آخرين، أي أن بروز قضية واكتسابها أهمية على المستوى العالمي يرتبط بمصالح جماعات ومؤسسات و فواعل، وكذا بمدى تأثيرها و قدرتها على الاستمرار في التأثير، فقضية التغير البيئي العالمي برزت بقوة في فترات خصوصا مع اكتشاف ثقوب في طبقة الأوزون مع وسائل الإعلام و جماعات مصالح، و توسع الاهتمام بها مع تبني القضية من طرف الحكومات و المنظمات الدولية، و ساهم هذا في تكوين وعي عالمي بهذه القضية يدعم طرحها على المدى البعيد، فطرح أي قضية مرتبط بحرص و دعم فاعلين على الساحة العالمية باستعمال موارد ووسائل أبرزها الإعلام [2].

يهدف أصحاب هذا الطرح [3] إلى تقديم دليل تحليلي للقضايا العالمية الرئيسية للعالم المعاصر وإلى الوصول إلى ما وراء وسائل الإعلام المثيرة التي إما أن تبسّط القضايا المعقدة أو تفشل في إيجاد الخلفية التي تمكّن المشاهد أو القارئ من فهمها فهما تاما. إن الاستنتاج الأولي الذي يمكن التوصل إليه يفيد بأن السياسة العالمية قد طورت إمكانية أن تصبح سياسة (معولمة)،خاصة في ظل نظام عالمي تظل فيه الدول النمط الوحيد للتنظيم السياسي القابل للبقاء. ويجب السعي هنا إلى التسليم بأن قضايا كثيرة قد لعبت دوراً هاماً في تطور السياسة العالمية خلال نهايات القرن العشرين،

وبأنها سوف تظل محل اهتمام في القرن الحادي والعشرين. لكن تبقى هناك قضايا عديدة لم تحظَ بالتغطية الكافية على الرغم من أهميتها المركزية في السياسة العالمية، فهي إنما تتم معالجتها ضمن مناقشة قضايا أخرى مختلفة قد لا تقل عنها أهمية. في هذا السياق هناك محاولة لإيجاد فهم للقضايا التي هي في صلب الاجنده الدولية المعاصرة، والتي تنبئ بالكثير عن طبيعة السياسة العالمية في بداية القرن الحادي والعشرين. فهناك تأكيد على أننا نعيش في عالم جديد مثير، حيث استمرت المشاكل القديمة تراوح مكانها، وانضمت إليها مجموعة من القضايا الأحدث، ورافق ذلك مشاكل يتنافس الزعماء السياسيون والمواطنون على الاهتمام بها. فهناك معالجة لعدد من القضايا الراهنة المطروحة على الأجندة الدولية و التي تأثرت في بروزها بعوامل أهمها نهاية الحرب الباردة كقضايا البيئة، الجريمة و الفساد، الدين، الاقتصاد، المديونية، الهجرة...، كما هناك تنويه بتداخل هذه الأجندة مع السياسات و البرامج الداخلية للدول [4].

فمع ظهور مفهوم العولمة كظاهرة متعددة الأبعاد سياسية، اقتصادية، اتصالية ومعلوماتية...، انتشرت مفردات و قضايا مرافقة لها، ففي المجال الاقتصادي أصبح هناك حديث عن اقتصاد عالمي مع ظهور المنظمة العالمية للتجارة و توسع دور الشركات المتعددة الجنسيات، و شيوع التكتلات الاقتصادية، و على المستوى السياسي أصبحت قضايا حقوق الإنسان و التحول الديمقراطي والحكم الراشد في قمة الرواج مع تصاعد دور المنظمات الحكومية و غيرها، وظهر الحديث عن أزمة الدولة القومية و انكماش مفهوم السيادة، و على المستوى الاتصالي أصبح الحديث عن

عالم شبيه بقرية صغيرة عديم الحدود كثمرة للثورة التقنية و المعلوماتية، هذه التغيرات ساهمت في صعود قضايا مواكبة لهذه التغيرات العالمية، كما أدت إلى طغيان البعد الخارجي على الداخلي حيث أصبحت قضايا ذات اهتمام عالمي تحتل أجندة السياسات العامة للدول المختلفة مثل قضايا البيئة ، الإصلاحات الاقتصادية و الخصخصة، برامج إعادة الهيكلة، حقوق الإنسان، إدارة شؤون الدولة و المجتمع ... ، و بروز هذه القضايا المتداولة على نطاق عالمي أدى إلى ظهور ما يسمى بالسياسات العامة العالمية "International Public Policy ".

وفي هذا الإطار تقدم سلوى شعراوي جمعة عاملين أساسيين لبروز السياسات العامة العالمية [5]:

1. الدور المتعاظم الذي لعبته مؤتمرات الأمم المتحدة، على سبيل المثال وضع مؤتمر قمة الأرض (بريوديجانيرو) بالبرازيل سنة **1992** قضايا البيئة على سلم الاهتمام الدولي والعالمي، كما أضاف مؤتمر المرأة العالمي في بكين سنة **1995** قضايا المرأة إلى (الأجندات) الحكومية، أما مؤتمر الأمم المتحدة للسكان و التنمية المنعقد بالقاهرة في **1994** فاستحدث قضية الصحة الإنجابية على أجندة الدول.

2. الدعم المادي والمالي المقدم من الدول و المنظمات مقابل تدخلها في توجيه السياسات الداخلية، حيث تظهر الدراسات تأثر السياسات المتعلقة بالاقتصاد بالطفل و الأمومة بوضوح ببرامج صندوق النقد الدولي، البنك العالمي، منظمة الصحة العالمية، اليونيسيف، و هيئات دولية. فالمورد المالي عامل ضاغط بفاعلية في تحديد الأولويات السياسية

بجانب الدفع العمومي أو المجتمعي لصاحب القرار نحو التعامل مع قضية أو مشكلة تحظى بالاهتمام.

ما يمكن استخلاصه مما سبق أن بروز فواعل مؤثرة فوق الدول توفرت لها إمكانية ذلك بعد نهاية الحرب الباردة، بالإضافة إلى بروز قضايا سياسية و اقتصادية و اتصالية ذات اهتمام واسع النطاق، تشترك في التأثر بها و التأثير عليها فواعل بارزة على المستوى الدولي، كل هذا شكل اللبنة و الأساس لظهور ما يعرف بالسياسة العامة العالمية.

2 – السياسة العامة العالمية: المستوى العقيم في السياسة العامة [6] ؟

إن تقصي الواقع العالمي والدولي، والرؤية لما يجري على صعيد السياسة والعلاقة بين الدول وبين المنظمات الدولية، وبين أساليب حلول الأزمات والمشكلات الكبرى يجعل حسب فهمي خليفة الفهداوي [7] انه هناك مستوى عقيم للسياسة العامة، وهذا المستوى لا يتوافق مع المستويات الثلاثة للسياسة العامة (السياسة الكلية التقليدية، السياسة الجزئية الكلية المتداخلة والسياسة الجزئية) من حيث أنها تمثل مستويات داخلية (داخل الدولة الواحدة وضمن حدودها وسيادتها الشرعية)، في حين أن هذا (المستوى العقيم) يمثل مستوى خارجيا ومفروضا، مختلفا عن طبيعة المستويات الأخرى للسياسة العامة، أملته المعطيات الراهنة على الواقع السياسي والاجتماعي دوليا ووطنيا، كنتيجة استحدثتها مفارقات القوة والهيمنة.

وعليه ينظر فهمي خليفة الفهداوي إلى هذا المستوى على انه قائم على اللاتوازن وعلى حالة التبعية، وأن آلياته تكمن في مظاهر الشرعية من حيث الشكل لفرض تغطية النوازع الجوهرية الفاقدة لأصولها

القانونية، وبالتالي خصائصه مرتبطة بأخلاقيات الهيمنة وبسط النفوذ الأحادي الجانب. وحسب المؤلف فان السياسة العامة العالمية تفقد جدواها وتخرج عن كونها تسعى إلى إيجاد فرص التعايش والقدرة على التعاون إزاء حل القضايا والمشكلات الدولية، حينما يتم استبعاد إرادة بعض الدول الرافضة لمنطق الهيمنة برغم علاقاتها مع تلك القضايا وبمستقبل حلها ومعالجتها. وإذا كان هناك اليوم ما يعرف بالسياسة العامة العالمية، فربما النقد السياسي لم يتطرق إلى هذا المستوى العالمي من السياسة العامة كمعطيات تفضيلية وتقويمية، وإنما كمستوى قائم في إطار التعريف به وبيان ضرورته في الاعتمادية وسعة المشكلات و القضايا العابرة للحدود الإقليمية والوطنية التي استدعت وجوده في الحياة المعاصرة للشعوب والأمم والدول دون الغوص في أبعاد الهيمنة والقوة الأحادية، والمعايير المزدوجة في الأحكام، والعقدة الاستحواذية [8].

فحينما يتم تحليل السياسة العامة بطريقة علمية نزيهة سوف يتم التوصل إلى أن مستوى السياسة العامة العالمية في ظل أوضاعه الحالية هو مستوى عقيم، غير عادل وغير خادم للمصالح العامة. ولأجل التأكيد على وجود هذا المستوى الذي يتجلى في الجانب الخفي والوجه السلبي لبعض السياسات العالمية، يقدم فهمي خليفة الفهداوي الحجج التي تدلل على ذلك العقم، مثلما عبرت عنه حالات الدول التي وجدت نفسها مجبرة على التعامل مع هذه السياسات العامة العالمية، من جراء أزمات وقضايا عصفت بها [9]:

- أن السياسة العامة هي ما تفعله الحكومة وما لا تفعله ضمن بيئتها ومجتمعها، وليس هي خيارات قادمة من وراء القارات والحدود. مما يعد ذلك أول خرق فاضح لمفهوم السياسة العامة.

- أن السياسة العامة المتخذة في أي مكان أو حكومة، مرتبطة بدراسات جدوى ويفترض أن تفضي إلى تنمية مقصودة أو إحلال تطويرات من حيث تزايد الرفاهية، ومستوى السياسة العامة العالمية لم يحقق هذه الأهداف الخاصة بالتنمية لمجتمعات الدول المعنية المتعاملة مع هذا المستوى.

- أن السياسة العامة هي تجسيد للمطالب المجتمعية التي يتقدم بها أبناء المجتمع نحو حكومتهم لإيجاد حلول لها، وهذا الشرط مفتقد في آلية السياسة العامة العالمية حيال المجتمعات والدول المتعاملة معها.

- أن السياسة العامة العالمية المتخذة إزاء الدول أغفلت القيم الخاصة لمجتمعاتها. فلم تلبي حاجاتها الحقيقية و لا أبعاد قيمها الاجتماعية وعقيدتها الروحية.

- أن مستويات السياسة العامة تمثل مستويات داخلية لأية دولة قائمة، مما يجعل من مستوى السياسة العامة العالمية عالة و عبئ على المستويات الداخلية.

- أن نجاح السياسة العامة يستند إلى كونها متضمنة للمستويات الكلية والجزئية والفرعية، والسياسات العامة العالمية فوتت فرصة تفعيل تلك المستويات الداخلية للدول المعنية.

- أن تلك السياسات العامة العالمية المتخذة عبرت عن تناقضها، بين الصنع والقرار وبين التنفيذ أو التطبيق، أي أنها انحصرت في تنفيذ السياسات العامة المقتصرة على تأدية الخدمات المنتقصة.

وبالتالي فان هذا كله يجعل من السياسة العامة العالمية استحصادية للقيم المفروض أن توزعها. فهذا التحليل النقدي للسياسة العامة العالمية يبين اتساع القضايا و المشكلات العابرة للحدود الإقليمية و الوطنية التي

استدعت و جود هذا النوع من السياسات في الحياة المعاصرة للشعوب والدول دون الغوص في أبعاد الهيمنة و المصلحة و ازدواجية المعايير و مع ذلك فلا نقاش حول تأثير هذه السياسات في الواقع الداخلي للدول [10].

3 – تأثير السياسات العالمية على السياسات العامة للدول :

إن عدم قدرة معظم الدول على تحقيق توازناتها في مختلف المجالات و ضرورة اعتمادها على بعضها البعض يجعل السياسات العامة المتخذة في إطار الدولة الواحدة [11] تتأثر بالمتغيرات الخارجية خصوصا مع تضاعف القضايا و المشكلات التي تحتم تضافر جهود مختلف الدول كقضايا الاقتصاد والهجرة و الإرهاب و غيرها، بل إنّه في فترة ما بعد الحرب الباردة شهدنا توجيها مباشرا للسياسات الداخلية للدول النامية في المجالات الاقتصادية و ضغطا لإحداث إصلاحات سياسية بها. فمنطلق الاعتمادية يتجلى من خلال منطلقين هامين : منطلق الأمن القومي الذي يحتم التنسيق والاعتمادية لحماية الدولة في حد ذاتها من الاعتداءات والمخاطر، و حماية مصالحها في الخارج، و منطلق الاقتصاد الذي يؤكد على أن كل الدول تحتاج إلى غيرها لتأمين احتياجاتها و هذه الاعتمادية عززتها المنظمات التي وجدت لتنظيمها كمنظمة التجارة العالمية وصندوق النقد الدولي و البنك العالمي [12].

بالإضافة للمنطلقات المعززة للاعتمادية فإن هناك قضايا باتت تطرح بقوة و مؤثرة على الساحة الدولية و من بينها :

- اللبرالية الجديدة القائمة على دعم اقتصاد السوق، الديمقراطية السياسية وحقوق الإنسان، و التأكيد على عمليات الخصخصة و تقليص دور الدولة.

- التنمية المستدامة التي تقوم على معايير أوسع لتحديد مفهوم تنمية اقتصادية و اجتماعية خصوصا و بيئية مع مراعاة حقوق الأجيال.
- حماية البيئة لصيانة مستقبل البشرية وهو رهان لا يمكن مواجهته إلا في إطار عالمي عبر التعاون.
- العولمة التي تقوم على تجاوز الحدود و الحواجز التنظيمية المتخذة من قبل الدول، وتقوم كذلك على توظيف التقنيات الحديثة لتحقيق أغراض متعلقة بالاقتصاد السياسي، و لها بعد أيديولوجي ينبع من الفكر الغربي ويرتكز على التقدم التكنولوجي في الإعلام و الاتصال في محاولة لتنميط العالم ثقافيا وسياسيا واقتصاديا .
- الحكم الراشد الذي يعبر عن نمط و طريقة مثلى في تسيير شؤون المجتمع و موارده عبر تفعيل مفاهيم و مبادئ الشفافية، المسؤولية، حكم القانون، و المشاركة لمحاربة الفساد و إشاعة الديمقراطية و التمكين من حقوق الإنسان.

كل ذلك يؤكد تأثير الأجندات العالمية على السياسات الوطنية وتوجيهها أحيانا في ميادين حساسة، و منطق الهيمنة الذي يميزها لا يجعلنا نصف هذا المستوى من السياسة بالعقم بالنظر إلى تأثيره، و هو منطق مخالف للمنطق الذي يطلق هذه الصفة – مستوى العقم – على هذه السياسات لقيامها على اللاتوازن و التبعية عديمة الشرعية، و الجدوى لاستبعادها إرادة الدول و الشعوب المعنية بها.

ما يمكن قوله كذلك أن عدم الاستقرار في النظام الدولي يؤثر بصفة مستمرة على مدخلات و مخرجات السياسة العامة العالمية، كما يؤثر أيضا على المنظمات الدولية التي تنظم أعمالها في الغالب نحو سياسات عامة

اقتصادية، سياسات عامة تنموية، و سياسات عامة في مجال المتغير الأمني والاجتماعي و الثقافي. غير أن جانب الحكم العالمي يجب أن يحظى بكم أكبر من الاهتمام، كما يلقى أكبر قدر من الصعوبات بسبب تداخل المصالح و المنافع.

4 – السياسة العامة العالمية والحكم العالمي:

إن العولمة خلقت قضايا ومشكلات يتعدى تأثيرها نطاق الدولة الواحدة، فحلها يستدعي التنسيق و التكامل بين مختلف الفواعل الدول وغير الدول، و السياسة العامة العالمية تهتم بمعالجة هذه القضايا و حل هذه المشكلات، و لما كانت هذه الشؤون عالمية يتعدى تأثيرها الدولة، فقد ظهر الحديث إلى جانب السياسة العامة العالمية عن الحكم العالمي و الذي يمكن اعتباره كإستراتيجية لتخفيض حدة مصطلح العولمة، وهناك من يرى أنّ هذا المفهوم جاء لأجل تسيير عجز الدول عن مواجهة العولمة الاقتصادية، حيث أن تزايد الاعتماد المتبادل كان له دور أساسي في تحول العلاقات من دولية إلى كونية. فمفهوم الحكم العالمي يشير إلى تشابك الفواعل الدولية التي تحدد المصالح، الحقوق، و الواجبات، وتحل الخلافات على المستوى العالمي [13].

من هذا التحليل تتبين علاقة الصلة بين مفهوم السياسة العامة العالمية و الحكم العالمي، فهي إفراز لهذا الحكم و نتيجته لا يمكن الحديث عنها دونه، و إن كان هذا الطرح في قمة التفاؤل و الطوباوية، لأن الواقع يظهر أن توازنات القوة و المصلحة هي العامل المحدد في توجيه السياسات العالمية، وهذا الواقع يبرز بشكل جلي على المستوى البنائي لتنظيمات

الحكم العالمي و بالتأكيد الإجرائي، فحق الفيتو يعطي الكلمة الأعلى للأقوياء في القضايا السياسية، و كذلك تتسيد هذه القوى على القرار الاقتصادي بفضل نفوذها داخل المنظمات الاقتصادية التي هي بعيدة من حيث الممارسة عن الديمقراطية حسب جوزيف ستيجليز Joseph (Stieglitz) [14].

انعكاسا للتحولات المجتمعية المعاصرة على صعيد الساحة الدولية، في مختلف أبعادها ومستوياتها السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية، الثقافية، الدينية والحضارية، اتضح قصور آلية الدولة–الأمة والمنظمات الحكومية في التكيف البناء مع متطلبات المجتمع المستجدة. اتجهت جهود التنظير مع بداية الثمانينيات نحو إيجاد أدوات وآليات من شأنها تغطية عجز هذه الفواعل التقليدية، حيث أخذت المؤسسات المالية العالمية المبادرة في طرح (الحكم العالمي) الرشيد كمفهوم يتبنى الربط بين جودة وفعالية وأسلوب إدارة شؤون الدولة والمجتمع، والتأكيد على أن المفهوم يذهب إلى أبعد من ذلك ليتضمن إشكاليات تفعيل المسار الديمقراطي خاصة في تلك الدول المعنية ببرامج التصحيح وإعادة الهيكلة لاقتصادياتها. مما جعل هذا المفهوم الجديد يتموقع ضمن الطرح (النيوليبرالي) في السياسات التنموية. تجد هذه التحولات على صعيد السياسة العامة العالمية مبررها الأساسي في عاملين: يتجلى الأول في نهاية الحرب الباردة وما أفرزته من موجة عدم الاستقرار الشامل ومس كافة الأصعدة بمستوياتها الأفقية والعمودية. أما العامل الثاني فلا يعدو كونه انعكاسا للأول حيث يرصد حركية الاقتصاد العالمي الذي أضحى محكوما بمسارات العولمة بمختلف أبعادها التجارية، المالية والمعلوماتية. وقد فرض هذان المتغيران على مختلف

الدول والأطراف الدولية تبني خيار الاندماج والتكامل الإقليمي، وهو ما نجحت في تحقيقه التجربة الأوروبية نسبيا وبتحفظ في إطار منظمة التعاون والتنمية في أوربا (OCDE) في الوقت الذي بقيت فيه نماذج أخرى أسيرة التفكك السياسي والاجتماعي [15].

شكلت مجموع هذه المؤشرات البيئة التي دفعت بالحكومات إلى ضرورة إعادة النظر في أجندتها السياسية، خاصة على صعيد الآليات والميكانيزمات، بهدف احتواء الخصوصية المعقدة للمجتمعات المعاصرة والتي تلخص أهم سماتها فيما يلي: ظهور الأنظمة الفرعية المفككة واللامتجانسة، أزمات التمثيل والمشاركة السياسية، تراجع شرعية الأنظمة الحاكمة،...وغيرها هي كلها مؤشرات تحتم على مختلف الأطراف تبني رؤية تقوم على توحيد الجهود بهدف التصدي للتحديات والانشغالات الجديدة على المستوى العالمي [16].

ونتاجا للأزمات التي تثيرها مسألة الحكم على المستوى عبر الوطني، طورت العديد من البحوث التي تصب في إطار مفهوم الحكم العالمي في شقه التكنوقراطي الإداري، الأمر الذي جعله محل انتقاد شديد من قبل أولئك الذين يتبنون نظرة أكثر توسعية لتنمية المفهوم، بشكل يشمل رهانات السلطة الجديدة والإصلاحات التي تشهدها المؤسسات الدولية، وهو ما يحاول التركيز عليه الآن عالميا. حيث تم تسليط الضوء على معنى الحكم العالمي أو (الرشادة العالمية أو الشاملة)، من خلال جملة من البحوث الأكاديمية التي تندرج ضمن إطار دراسات الأنظمة والمؤسسات الدولية، والتي يمكن تصنيفها ضمن إحدى الفئتين: إما التفكير من وجهة نظر تحليلية حول النظام العالمي المعاصر أو القائم، وإما

التفكير المعياري والقيمي حول نظام الحكم العالمي أو نظام (الرشادة العالمية) الذي هو قيد التشكل والبناء [17].

طرحت الدوائر السياسية العالمية و الأكاديمية مفاهيم جديدة متمثلة في السياسة العامة العالمية و الحكم العالمي. فأحدثت نهاية الحرب الباردة تحولا في القضايا العالمية، إذ ظهرت أجندة للسياسة العامة العالمية والتي تتطلب تدخلات عالمية، في إطار ما يسمى بالحكم العالمي الذي يحاول فرض و إظهار مبادئ و إجراءات جديدة للتنظيم الدولي. و من العوامل الأساسية التي أدت إلى بروز السياسة العامة العالمية الدور المتعاظم الذي لعبته المنظمات والمؤسسات الدولية، والدعم المادي والمالي المقدم من الدول و المنظمات مقابل تدخلها في توجيه السياسات الداخلية لدول أخرى. فتأثير السياسة العامة العالمية على هذه السياسات الداخلية في ميادين حساسة و بمنطق الهيمنة الذي يميزها يجعلنا نصف هذا المستوى من السياسة بالعالمي/ الداخلي.

وتحاول المقاربة النظرية الخاصة بمفهوم الحكم العالمي رصد الدور المتنامي للفواعل خارج الإطار التقليدي سواء كانت دولا أو منظمات دولية حكومية، تأتي في مقدمتها المنظمات غير الحكومية، جماعات الضغط الوطنية والدولية، النقابات العمالية، الحركات الاجتماعية والشركات العابرة للقارات التي غدت الآلية المحركة لتفاعلات المجتمع الدولي، هادفة إلى إضفاء الطابع المؤسساتي على المجتمع الدولي. هذا المفهوم جاء لأجل تسيير عجز الدول عن مواجهة العولمة الاقتصادية في إطار تحول العلاقات من دولية إلى عالمية. فمفهوم الحكم العالمي يؤكد على تشابك الفواعل الدولية و حل الخلافات على المستوى العالمي.

من خلال العلاقة الموجودة بين مفهوم السياسة العامة العالمية والحكم العالمي، يتبين بأن توازنات القوة و المصلحة هي المحدد الأساسي في توجيه السياسات العامة العالمية و إبراز الجانب الإجرائي لتنظيمات الحكم العالمي، فالمتغير الخارجي اصبح يتسيد في بعض الأحيان على القرار السياسي و الاقتصادي بطريقة بعيدة من حيث الممارسة عن (الديمقراطية الاجتماعية و الإنسانية).

الإحالات:

[1] برايان وايت ، ريتشارد ليتل ، مايكل سميث : قضايا في السياسة العالمية ، ترجمة و نشر مركز الخليج للأبحاث، الإمارات العربية المتحدة ، **2004**.

[2] نفس المرجع، ص **1-18**.

[3] نفس المرجع ، ص**1- 18**.

[4] نفس المرجع ، ص **18** .

[5] سلوى شعراوي جمعة :﴿تحليل السياسات العامة في القرن الحادي و العشرين" ،علي الدين هلال و آخرون ، تحرير سلوى شعراوي جمعة : تحليل السياسات العامة في الوطن العربي ، مركز دراسات و استشارات الإدارة العامة ، القاهرة ، **2004** .

[6] فهمي خليفة الفهداوي، السياسة العامة منظور كلي في البنية و التحليل، دار المسيرة للنشر و التوزيع و الطباعة**2001**.

[7] نفس المرجع ، ص **62**.

[8] نفس المرجع ، ص**63** .

[9] نفس المرجع ، ص**65** .

[10] نفس المرجع السابق، ص**66**

[11] نفس المرجع السابق.

[12] أرجع إلى : عامر مصباح، النظرية المعاصرة في تحليل العلاقات الدولية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، **2006**.

[13] نفس المرجع، ص **133**.

[14] Joseph Stieglitz, la gouvernance mondiale est-elle au service de l'intérêt général global ? :
www.ofce.sciences-po.fr/pdf/ebook/ebook311.pdf

[15] عامر مصباح، مرجع سابق، ص **134**.

[16] نفس المرجع، ص **135**.

[17] نفس المرجع، ص **136-138**.

شروط و إجراءات التعيين في الوظائف الدبلوماسية في ظل أحكام و قواعد القانون الدبلوماسي

د.ة. نضيرة إدريس خوجة
جامعة سيدي بلعباس

Abstract:

Diplomatic mission staff relations or foreign affairs, as the representative of the state at the external level are considered. And the aim of this topic management relations to the fullest, countries resort to selection and appointment of persons who meet the necessary conditions to secure the functions of the diplomatic mission. And those persons who are the mission's body, chosen by the state and administered freely, on the grounds that this appointment is the prerogative of the state and its sovereignty.

Keywords:

Diplomatic - management relations - the grounds - the necessary conditions.

تعتبر البعثة الدبلوماسية هيئة العلاقات أو الشؤون الخارجية، بوصفها ممثلة للدولة على المستوى الخارجي. و بهدف إدارة هده العلاقات على أكمل وجه، تلجأ الدول لاختيار و تعيين الأشخاص الذين تتوافر فيهم الشروط الضرورية لتأمين القيام بوظائف البعثة الدبلوماسية. و هؤلاء الأشخاص الذين يكونون جسم البعثة، تختارهم

الدولة بملىء إدارتها و بكل حرية، على إعتبار أن هذا التعيين هو من صلاحية الدولة و سيادتها.و بالتالي فهي حرة في تنظيم بعثتها و تعيين أفرادها، ودلك حسب ما تسنه من تشريعات و قوانين تنظم أحكام وشروط التعيين في سلكها الدبلوماسي.[1]

وبناءا عليه، فإذا كانت كل دولة سيدة و حرة في تحديد شروط وإجراءات تعيين موظفيها للسلك الدبلوماسي، فإن هده الحرية يجب أن تنسجم مع قواعد العمل الدبلوماسي التي تحددها الاتفاقيات الدولية بهذا الشأن، و خاضعة لأحكام و قواعد القانون الدبلوماسي. وعلى هذا الأساس سوف نبحث هده الشروط و الأحكام المتعلقة بتعيين واختيار أفراد البعثات الدبلوماسية في ضوء أحكام القانون الدبلوماسي، و ليس في ضوء أحكام قانون الدولة الذي يبين إجراءات التعيين والشروط الخاصة بكل منها.

أولا: الشروط الموضوعية المطلوبة في أعضاء البعثات الدبلوماسية

يقصد بالشروط المطلوب توافرها في أعضاء البعثات الدبلوماسية هي تلك الشروط التي تتعلق بصحة وحسن اختيار المبعوث والموظف الدبلوماسي مثل: سنه، ومؤهلاته العلمية والعملية، وسمعته، وسيرته الذاتية.

أما القانون الدولي الدبلوماسي، فلم يقيد الدولة بأية شروط عند تعيين مبعوثيها الدبلوماسيين، وذلك على أساس أن الأمر متروك لقوانين هده الدول الوطنية، و من بين أهم هده الشروط:[2]

1- أن يحمل المبعوث الدبلوماسي جنسية الدولة الموفدة: و هدا الشرط أمر طبيعي تتطلبه ضرورات الولاء و الإخلاص لهده الدولة من جانب هدا المبعوث الدبلوماسي، و إحساسه بالانتماء إلى هذه الدولة.

2- أن يكون هذا الشخص متمتعا بحقوقه المدنية و السياسية، و ألا يكون قد صدر ضده حكم نهائي يحرمه منها.

3- أن يكون ذا سيرة، و سمعة حسنة.

4- أن لا يكون قد سبق الحكم عليه بعقوبة جنائية، حتى و لم تم رد اعتبار إليه.

5- أن لا يكون قد سبق و حكم عليه من طرف المحاكم أو المجالس التأديبية، في جريمة مخلة بالشرف و الاعتبار، حتى و لو تم رد الاعتبار إليه، و يشترط أن لا يكون قد سبق فصله من عمله بقرار، أو بحكم تأديبي.

6- أن يكون المبعوث الدبلوماسي حاصلا على مؤهلات علمية عالية من إحدى الجامعات الوطنية أو الأجنبية.

7- أن لا يقل سن الموظف الدبلوماسي عن سن محددة، غالبا ما تكون هي سن الرشد في قوانين هده الدول.

8- أن يكون هدا المبعوث الدبلوماسي أو الموظف الدبلوماسي لديه خبرة تؤهله للعمل في هدا المجال الدبلوماسي.

بالإضافة إلى كل هذه الشروط، نجد أنه في الغالب يجب أن يكون المعينون في الوظائف الدبلوماسية من رعايا الدولة التي يتولون تمثيلها، وذلك أولا لأن المناصب الدبلوماسية من وظائف الدولة العامة التي يقتصر التعيين فيها عادة على رعاياها دون غيرهم، و ثانيا لأن رعايا الدولة بحكم رابطة الولاء التي تربطهم بدولتهم أحرص و لا شك من سواهم على رعاية مصالحها و حسن تسيير شؤونها. لذلك فغالبا ما تنص التشريعات المنظمة للتمثيل الدبلوماسي في كل دولة على التمتع

برعويتها كشرط للتعيين في وظائفها التمثيلية. و هذا هو الوضع المألوف الذي يسير عليه معظم الدول.[3]

ثانيا: الشروط الإجرائية للتعيين في الوظائف الدبلوماسية

يتم تعيين أعضاء البعثة الدبلوماسية وفقا لما يقضي به قانون كل دولة في هذا الشأن، و الغالب أن يكون ذلك بقرار من رئيس الدولة أو بمرسوم بناءا على اقتراح من وزير الخارجية بالنسبة لأعضاء البعثة الذين لهم صفة الموظفين الدبلوماسيين، و بقرار وزير الخارجية بالنسبة للموظفين الإداريين و الفنيين. و على أي حال يحسن الرجوع في هذا الشأن بالنسبة لأية دولة إلى القانون الخاص بها المنظر لجهازها الدبلوماسي لمعرفة أي الجهات تختص بتعيين أعضاء بعثاتها الدبلوماسية و ما يتبع في تعيينهم من إجراءات. شرط قبول رئيس البعثة الدبلوماسية: إن الهدف الأساسي للتمثيل الدبلوماسي هو توثيق العلاقة بين الدولتين اللتين تتبادلان التمثيل و العمل على استمرار حسن التفاهم بينهما، و لما كان ذلك لا يتحقق إلا إذا كان الممثل الدبلوماسي لكل منهما شخصا مقبولا لدى الأخرى، فقد استقر العرف على أن لا تتحقق الدولة قبل تعيين من ترشحه لتمثيلها لدى دولة أخرى من أن شخصه ليس موضع اعتراض من هذه الدولة، أي أن يكون هذا الشخص مرغوب فيه لدى الدولة الموفد إليها.

و يتم ذلك بأن تبعث الدولة الموفدة باسم مرشحها مع بعض البيانات الخاصة به للدولة الموفد إليها طالبة إبداء رأيها بشأن اعتماده ممثلا لديها، و ترد هذه الدولة على ما هو مطلوب منها في وقت مناسب، و الغالب أن يتضمن ردها الموافقة على المرشح و قبول اعتماده

ممثلا لدولته لديها، ما لم يكن هناك ما يبرر أن تتخذ موقفا آخر. و في هذه الحالة الأخيرة يحق لها أن تبدي اعتراضها على الشخص المزمع تعيينه عن طريق إبداء رغبتها في ترشيح آخر بدلا منه، و دون أن تلتزم ببيان الأسباب التي دعتها لعد قبول من تعترض عليه. وعندئذ يمتنع على الدولة الموفدة تعيين مرشحها الأول لأن إيفاده لدى الدولة المعترضة عليه يتنافى مع ما يلزم لتوطيد العلاقات الطيبة بين الدولتين، كما و أن في فرضه عليها ضد رغبتها إخلال بسيادتها و امتهان لكرامتها.[4] لذا يتعين على الدولة الموفدة اختيار شخص آخر يكون موضع قبول من الدولة الموفد إليها.

و خلاصة ذلك أنه يجب على الدولة الموفدة إرسال أسماء أعضاء البعثات الدبلوماسية إلى الموفدون إليها، عن طريق وزارة خارجيتها، حتى تستطيع الدول الأخيرة ممارسة حقها في رفض، أو قبول أعضاء هذه البعثات، أو أحد منهم، و لا تلتزم الدول الموفد إليها في هذه الحالة بإبداء أسباب الرفض، أو القبول للدولة الموفدة، كما يجب على الدولة الموفدة أن تتأكد من قبول الدولة الموفد إليها لرئيس البعثة الدبلوماسية وتجدر الإشارة إلى أهمية إخطار الدولة الموفدة للدولة الموفد إليها بأعضاء البعثة الدبلوماسية، و رئيس هذه البعثة، لأنه من تاريخ الإخطار و قبول الدولة الموفد إليها للبعثة الدبلوماسية، يتمتع هؤلاء الأعضاء بحصانات و امتيازات القانون الدبلوماسي، منذ لحظة السفر من دولتهم، و حتى وصولهم و مغادرتهم لأراضي الدول التي يعملون بها.[5]

خطاب الاعتماد: إن تعيين و قبول رئيس البعثة و أعضائها لا يعني أن باستطاعتهم مباشرة وظائفهم و ممارستها بصورة تلقائية، ودون توفر بعض الشروط و الأحكام التي نصت عليها اتفاقية فيينا لعام **1961**.

و من بين هذه الشروط نجد أن رئيس البعثة لا يباشر وظائفه إلا من تاريخ تقديم أوراق اعتماده بمعنى أن أمر تعيين هذا الأخير يجب أن يصل بطريقة رسمية و مباشرة إلى علم الدولة الموفد إليها مع كل التوضيحات اللازمة و الخاصة بصفته و مرتبته و السلطات المخولة له. و يتم ذلك عن طريق رسالة رسمية يحملها معه رئيس البعثة عند توجهه لمقر منصبه، و تعرف هذه الرسالة باسم (خطاب الاعتماد)[6].

و يتضمن هذا الخطاب كافة البيانات الخاصة برئيس البعثة من[7]:

أ- اسم السفير أو الوزير المفوض

ب- مرتبة و صفة السفير أو الوزير المفوض.

ج- الغرض العام من إيفاد السفير أو الوزير المفوض.

و يتم هذا الخطاب بعبارة (برجاء حسن قبوله، تحقيقا أو استمرارا للعلاقات بين الدولتين).

و يوجه خطاب الاعتماد من رئيس الدولة الموفدة أي دولة المبعوث إلى رئيس الدولة الموفد لديها إن كان رئيس البعثة من درجة سفير أو وزير مفوض، و من وزير خارجية الدولة الأولى إلى وزير خارجية الدولة الثانية إن كان من درجة قائم بالأعمال.

و يقوم رئيس البعثة بمجرد وصوله إلى الدولة المبعوث لديها بإخطار وزير خارجيتها بذلك وتقديم نسخة طبق الأصل عن خطاب اعتماده، و العمل على تحديد موعد لتقديم خطاب الاعتماد لرئيس

الدولة المعتمد لديها فيما إذا كان رئيس البعثة برتبة سفير أو وزير مفوض.[8] أما إذا كان برتبة قائم بالأعمال فيقدم خطاب الاعتماد مباشرة لوزير الخارجية.[9]

لكن أحيانا قد تحدث بعض الظروف أو الأحداث الطارئة في الدولة الموفد إليها تحول دون تمكين مبعوث أو مبعوثي دول معينة من تقديم خطاب اعتمادهم فور وصولهم، و هو الشيء الذي من شأنه أن يؤثر على مباشرة رئيس البعثة و أعضائها لمهامهم و وظائفهم، و هو ما تطرقت له اتفاقية فيينا بالنسبة أو فيما يخص وجود ظروف تمنع أو تؤخر تقديم خطاب الاعتماد مثلا: في حالة ما إذا كان رئيس الدولة المعتمد لديها مريضا أو غائبا في مهمة رسمية خارج بلاده، أو تنشأ أحداث تمنع رئيس الدولة من تحديد موعد قريب لتقديم خطاب الاعتماد. و بالتالي لا يعقل أن ينتظر رئيس البعثة مدة طويلة دون أن يتمكن من مباشرته لوظائفه، و أن يبقى رهينة هذه الظروف و الأحداث لاسيما و أن تقديم خطاب الاعتماد يعبر عن تلاقي إرادة الدولتين. لهذا و تفاديا لهذه الظروف التي تؤدي إلى تأخير تقديم خطاب الاعتماد و التي يمكن لها أن تؤثر على وظائف البعثة و رئيسها، فقد أدخلت اتفاقية فيينا عبارة (منذ إعلانه لوصوله و تقديم صورة طبق الأصل عن أوراق اعتماده إلى وزارة الخارجية في الدولة المعتمد لديها أو أية وزارة قد يتفق عليها) يصبح رئيس البعثة متوليا لوظائفه و يستطيع ممارستها.

1- تجديد خطاب الاعتماد: لقد جرى الفقه الدولي على اعتبار خطاب الاعتماد تفويض صادر لرئيس البعثة من رئيس الدولة الموفدة في أن يتولى نيابة عنه رئاسة هذه البعثة في الدولة الموفد إليها ولذلك

ذهب الفقه إلى القول بأن فقدان أي من الرئيسين في الدولة الموفد أو الموفد إليها لصفته لأي سبب، للوفاة، أو الاستقالة، أو لنجاح غيره في الانتخابات، من شأنه تطلب صدور خطاب من جديد من الرئيس الجديد لرئيس البعثة الدبلوماسية.

و إذا تم ترقية رئيس البعثة الدبلوماسية إلى درجة أعلى، فإن كان قائم بأعمال أو وزير مفوض، وتم ترقيته إلى سفير، فلابد من صدور خطاب اعتماد جديد بهذه الصفة الجديدة، و يستمر هذا الشخص بالطبع في رئاسة البعثة .كذلك في حالة زوال الدولة، إما باندماجها أو تجزئتها، فذلك يؤدي حتما إلى انتهاء خطاب الاعتماد و بالتالي يتطلب تجديده .أما في حالة تغيير وزير الخارجية أو وفاته، يبقى خطاب الاعتماد صالحا و نافذا و لا يحتاج إلى تجديد.

2- الإخطار بالوصول و بالرحيل: تسلم أعضاء البعثة الدبلوماسية لمهام وظائفهم يتبعه تمتعهم بالامتيازات و الحصانات الدبلوماسية في الحدود التي يقررها لكل منهم العرف الدولي حسب الوظيفة التي يشغلونها. لذا فالمهم بالنسبة للدولة الموفد لديها أن تكون على علم بأسماء أعضاء البعثة الدبلوماسية الذين يحق لهم التمتع بهذه الامتيازات و الحصانات. و يتم ذلك بالنسبة لرئيس البعثة الذي يكون وصوله إلى الدولة الموفد لديها عن طريق إخطار رسمي يبعث به لوزارة الخارجية. أما بالنسبة لباقي أفراد البعثة، فقد جرى العمل على أن تخطر الدولة الموفدين لديها بوصول أو برحيل أي عضو منهم أو أي فرد من أفراد أسرته أو خدمه حتى تكون الأمور واضحة

لدى هذه الدولة منذ البداية. و قد أقرت اتفاقية فينا هذا الإجراء ونصت عليه في المادة العاشرة كما يلي:

1-تبلغ وزارة خارجية الدولة المعتمد لديها أو أية وزارة أخرى متفق عليها:

أ- بتعيين أعضاء البعثة و بوصولهم و بسفرهم النهائي أو بانتهاء أعمالهم في البعثة.

ب- بالوصول و بالرحيل النهائي لأي شخص يتبع أسرة عضو البعثة، و كذا بحالة أي شخص يصبح عضوا في أسرة عضو البعثة أو لم يعد كذلك.

ج-بالوصول و بالرحيل النهائي للخدم الخصوصيين الذين يعملون في خدمة الأشخاص المذكورين في الفقرة أ، وفي حالة تركهم خدمة هؤلاء الأشخاص.

د- بتشغيل و تسريح الأشخاص المقيمين في الدولة المعتمد لديها سواء أكانوا أعضاء في البعثة أو خدما خاصين يتمتعون بالمزايا والحصانات.

2- يكون التبليغ مقدما بالنسبة للوصول و الرحيل النهائي في كل الحلات إذا أمكن ذلك.

و قد جرى العمل في أغلب الدول على أن تعد في وزارة الخارجية قائمة خاصة تعرف بالقائمة الدبلوماسية[10] تسجل فيها أسماء أعضاء البعثات الدبلوماسية الأجنبية الذين يوفدون للعمل لديها بناءا على الإخطارات التي تصلها بشأنهم من رؤساء هذه البعثات، و لهذه القائمة أهميتها من ناحيتين: أولا يمكن الرجوع إليها في حالة المنازعة في الصفة

الدبلوماسية لأحد الأشخاص و ما يتصل بهذه الصفة من حصانات وامتيازات خاصة، و ثانيا أنه يستعان بها في شؤون المراسم عند توجيه الدعوة لأعضاء البعثات الدبلوماسية إلى المآدب و الحفلات الرسمية.

3-اعتماد ممثل واحد لدى أكثر من دولة: الأصل أن تعيين الدولة ممثلا دبلوماسيا خاصا لدى كل دولة تريد أن تقيم معها علاقات دبلوماسية دائمة. إنما كثيرا ما يحدث أن تعهد الدولة إلى رئيس بعثة واحدة بتمثيلها لدى عدة دول في نفس الوقت. إما من باب الاقتصاد و هو الغالب، وإما لسبب آخر[11]. و هو ما نصت عليه المادة الخامسة من اتفاقية فيينا في فقرتها الأولى على أنه (للدولة المعتمدة، بعد إخطار الدولة المعتمد لديها التي يهمها الأمر، أن تعين رئيس بعثة أو عضو من الأعضاء الدبلوماسيين في البعثة حسب الأحوال لتمثيلها لدى عدة دول، ما لم تعترض إحدى هذه الدول على ذلك.)

إذا يتبين مما سبق أن مباشرة الوظائف الدبلوماسية من قبل أفراد البعثة تتطلب توافر توافر بعض الشروط الموضوعية و الإجرائية.

فالشروط الموضوعية المطلوب توافرها في أعضاء البعثات الدبلوماسية هي تلك الشروط التي تتعلق بصحة و حسن اختيار المبعوث و الموظف الدبلوماسي مثل سنه، و مؤهلاته العلمية و العملية، وسمعته و سيرته الذاتية.

أما فينا يخص الشروط الإجرائية و الشكلية الخاصة بتعيين أعضاء البعثة و مباشرتهم لوظائفهم الدبلوماسية فتبدأ من تبليغ الدولة المعتمد لديها بتعيينهم و بوصولهم سواء من قبل أو بعد دخولهم الإقليم، وذلك لتكون على علم و معرفة واضحة باسم و صفة و رتبة و فئة أي فرد في

البعثة، و بهدف إعداد اللائحة أو القائمة الدبلوماسية التي تحدد وتنظم أعضاء البعثات الدبلوماسية المعتمدة لديها، لاسيما لجهة صفة وفئة ودرجة كل عضو من أجل تحديد نظام تمتعه بالحصانات و الامتيازات الدبلوماسية، لاسيما و أن البعثة تتألف من عدة فئات تتمتع كل واحدة منها بنظام من الحصانات و الامتيازات يختلف عن الأخرى.

الإحالات:

1- د.علي حسين الشامي، الدبلوماسية (نشأتها و تطورها و قواعدها و نظام الحصانات والامتيازات الدبلوماسية)، طبعة **2009**، دار الثقافة للنشر و التوزيع (عمان)، ص **256** – **257**.

2- د.منتصر سعيد حمودة، القانون الدبلوماسي، طبعة **2011**، دار الفكر الجامعي (الإسكندرية)، ص **142**.

3- د.علي صادق أب هيف، القانون الدبلوماسي (عموميات الدبلوماسية – الجهاز المركزي للشؤون الخارجية- البعثات الدبلوماسية- البعثات القنصلية – البعثات الخاصة)، طبعة **2005**، منشأة المعارف (الإسكندرية)، ص **123**.

4- د. علي صادق أبو هيف، المرجع السابق، ص **126**.

5- أنظر نص المادة **4** من اتفاقية فيينا لعام **1961** للعلاقات الدبلوماسية.

6- هذه الوثيقة التي تعرف بخطاب الاعتماد هي ترجمة للكلمة الفرنسية (lettre de créance)، و البعض يطلق عليها تسمية كتاب اعتماد أو أوراق اعتماد.

7- د. منتصر سعيد حمودة، المرجع السابق، ص **144**.

8- في اليوم المحدد لتقديم خطاب الاعتماد أمام رئيس الدولة بحضور وزير الخارجية، يلقي رئيس البعثة كلمة موجزة يشير فيها إلى العلاقات الطيبة بين البلدين و إلى ضرورة تطويرها بما يخدم مصلحة البلدين، كما تقام مأدبة عشاء على شرف رئيس البعثة.

9- د.علي حسين الشامي، المرجع السابق، ص **266**.

10- La liste diplomatique

11-د. علي صادق أبو هيف، المرجع السابق، ص **131**.

السياسة المتوسطية للجماعة الأوروبية

د. محمد سمير عياد
جامعة تلمسان

Abstract:

Economic interests become the main behavior of individuals and groups, the strongest motivation for convergence between these groups by establishing an economic relation and overlapping among them, based on the establishment of contractual agreements and regulations in oder to achieve the economic goals between all the parties. Hence, the importance of mediterranean European countries policy comes to identify the real differences and problems between the two mediterranean shores, and then to find ways to make proposals, and strategies in order to avoid misunderstanding and balance in the inter relationship between the two shores.

Keywords:
The Mediterranee_ The mediterranean cooperation_ The European Policy_The Euro-Mediterranean Partnership

أصبحت المصالح الاقتصادية هي المحدد الرئيسي لسلوك الأفراد والجماعات وتشكل الدافع الأقوى للتقارب بين هذه الجماعات، بإقامة علاقات اقتصادية مشتركة ومتداخلة فيما بينها، مبنية على إنشاء مناطق وتنظيمات واتفاقيات تعاقدية اقتصادية

قصد تحقيق الأهداف المتبادلة المشتركة بين جميع الأطراف، فمن هنا جاءت أهمية السياسة المتوسطية للجماعة الأوروبية التي كانت عبارة عن محاولة لتحديد الاختلافات والمشاكل الحقيقية بين ضفتي المتوسط، ومن ثم إيجاد السبل وتقديم الاقتراحات ورسم الإستراتيجيات من أجل تجنب سوء التفاهم وتحقيق التوازن في العلاقة المتبادلة بين الضفتين.

هذا وتطورت العلاقة بين أوروبا ومنطقة المتوسط على مدى حوالي 40 عاما، حيث اتبعت الجماعة الأوروبية منذ إنشائها سياسة مستمرة التقدم اتجاه البلدان المحيطة بالبحر المتوسط[1]، وأساس هذه السياسة هو عقد اتفاقيات تفضيلية تربط هذه البلدان بدول الجماعة، ويمكن اختصار السياسة المتوسطية للإتحاد الأوروبي في ثلاث استراتيجيات.

1- السياسة المتوسطية الجزئية

تقوم هذه السياسة على اتفاقيات الانتساب **Association** بين الجماعة والعديد من الدول المتوسطية، وتعتمد هذه السياسة على تنشيط المبادلات التجارية والمعونات الفنية والمالية، شملت هذه الاتفاقيات دول كل من المغرب، تونس، إسرائيل، اليونان، تركيا، مالطا، قبرص، إسبانيا، لبنان، مصر[2].هذا وتقوم اتفاقيات التعاون التي عقدتها الجماعة الاقتصادية الأوروبية مع كافة الدول والتكتلات الأجنبية على أساس مادتين من مواد معاهدة روما[3]:

– **المادة 113:** التي تسمح للجماعة الاقتصادية الأوروبية في نهاية الفترة الانتقالية بوضع سياستها التجارية على أساس مبادئ موحدة ولا سيما في ما يتعلق بتغيير التعريفة الجمركية، وبعقد اتفاقيات جمركية وبتوحيد إجراءات الدفاع التجاري[4].

– **المادة 232:** التي تسمح للجماعة الاقتصادية الأوروبية بعقد اتفاقيات مع الدول الأجنبية أو منظمات دولية تخلق بموجبها علاقة انتساب إلى السوق الأوروبية المشتركة على أساس من الحقوق والواجبات المتبادلة والأعمال المشتركة[5].

وتسعى الجماعة الاقتصادية الأوروبية للحفاظ على أهدافها الإستراتيجية بعيدة المدى، بصياغة الخطوط الرئيسية لسياساتها المتوسطية التي تستهدف توطيد نفوذها بهذه المنطقة، والتي تبلورت إلى عقد سلسلة من الاتفاقيات التجارية التي وقعت في الستينيات مع مجموعة من الدول المتوسطية.فقد وقعت المجموعة الاقتصادية الأوروبية أول اتفاق للشراكة مع اليونان سنة **1961**، يهدف إلى الإزالة المتتابعة للحقوق الجمركية على المواد الصناعية، وتجانس السياسات الزراعية، كما وقعت اتفاقا مشابها سنة **1963** مع تركيا، وفي سنة **1964–1965** عقدت المجموعة اتفاقا مع كل من لبنان وإسرائيل، وفي **1969** عقدت اتفاقا مع المغرب وتونس[6].

هذا ويمكن القول بأن دول المغرب العربي بعد أن حصلت على استقلالها في نهاية الخمسينيات وبداية الستينيات، أخذت تحس بثقل المشاكل الاقتصادية الضخمة التي تواجهها فأبدت استعدادها

بإجراء مفاوضات مع المجموعة الأوروبية بغرض عقد اتفاقيات انتساب.

ولقد طالبت الجزائر في ديسمبر 1962 بالمحافظة على الوضع القائم سابقا والذي كانت تتمتع فيه بموجب المادة 227 من معاهدة روما بامتيازات مشابهة للامتيازات التي تخولها المعاهدة للدول الأعضاء، وفي ديسمبر 1963 طالبت الجزائر بإجراء مفاوضات استطلاعية لتحديد علاقاتها مع المجموعة الأوروبية لكن هذه المفاوضات ظل يشوبها التردد إلى غاية سنة 1976. أما المغرب وتونس فقد طالبتا سنة 1962 بالدخول في مفاوضات تمهيدية من أجل تحديد علاقتهما الاقتصادية مع المجموعة الأوروبية.

والملاحظ من هذا، أن دول المغرب العربي فضلت الدخول على انفراد في المفاوضات مع الجماعة الاقتصادية الأوروبية، على الرغم من استعداد هذه الأخيرة لإجراء مفاوضات معها مجتمعة[7]، ومرد ذلك إلى اختلاف أوضاعهم القانونية وتشابه صادراتهم وكذا اختلاف أنظمة حكمهم واتجاهات سياستهم الخارجية والتنموية.وقعت في مارس 1969 كل من المغرب[8] وتونس اتفاقية أولى مع المجموعة الاقتصادية الأوروبية، ينحصر مضمونها في الشؤون التجارية، وقد التزمت المجموعة الأوروبية بمنح إعفاءات جمركية لكل المنتجات الصناعية لكلا البلدين باستثناء المنتجات الصناعية التي هي من أصل زراعي، إلا أن المنتجات الصناعية

المصدرة إلى المجموعة الأوروبية عليها احترام قواعد المنشأ حتى تتمتع بإعفاء والذي تنصّ عليه المادة الخامسة[9].

كما أن على تونس والمغرب تقديم إعفاءات من الحقوق تمثل 3 % من الواردات المغربية أو التونسية القادمة من المجموعة الأوروبية، وبموجب المادة الرابعة تلتزم الدولتان المغاربيتان بمنح معاملة لمنتجات بلدان السوق الأوروبية المشتركة لا تقل بحال من الأحوال عن المعاملة التي تمنحها لمنتجات الدولة الأولى بالرعاية، كما أن الدولتان أيضا تفتح حصص شمولية لفائدة بلدان المجموعة تمثل هذه الحصص 63 % من المنتجات غير المحررة عند الإستيراد[10]، وتتضمن الاتفاقية أيضا أحكام تتعلق بمنح كل ممارسة ضريبة داخلية تميز بين منتوج داخلي ومنتوج مماثل مصدره الطرف الآخر.

أما بالنسبة للجزائر، فيمكن القول بأنها الدولة المغاربية الوحيدة التي ورد ذكرها بالاسم في معاهدة روما وهذا في المادة 227 [11] بحيث تتمتع بموجب هذا النص بامتيازات مشابهة للامتيازات التي تخولها المعاهدة للدول الأعضاء، وهذا باعتبار أن الاقتصاد الجزائري قبل الاستقلال كان مندمجا بصفة كاملة مع الاقتصاد الفرنسي، وبالتالي هو جزء لا يتجزأ من المجموعة الأوروبية على غرار ما كان يسمى بولايات ما وراء البحار. وعلى هذا الأساس، تمكنت الجزائر من متابعة الحصول على نظام الأفضليات بعد الاستقلال خاصة بالنسبة لصادرات الخمور التي التزمت فرنسا

باستيراد كل فوائضها، والتزامها بمنح الجزائر مساعدة مالية، ومتابعة استقبال اليد العاملة المهاجرة الجزائرية.

كما أن الارتفاع السريع للصادرات الجزائرية من النفط والغاز في سنواتها الأولى من الاستقلال والتقلص الكبير في القطاع الزراعي التصديري بسبب التطور السلبي للقطاع بعد الاستقلال بعد تهميشه في إستراتيجية التنمية، أدى إلى تخفيف ضغط هذا القطاع على العلاقة بين الجزائر والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، هذا ما مكنها من الحصول على مركز أكثر امتياز من القطرين الآخرين[12].

هكذا استطاعت الجزائر التملص من توقيع اتفاق الشراكة مع المجموعة الأوروبية على غرار المغرب وتونس، وفي نهاية الستينيات قررت بعض الدول الأوروبية –خاصة إيطاليا- رفض متابعة إعطاء أفضليات للمواد الزراعية الجزائرية وهذا ما جعل الجزائر تقرر انطلاقا من صيف 1972 فتح مفاوضات مع الجماعة الاقتصادية الأوروبية.

وقد تلقت الجزائر بعض الترضيات، حيث قررت المجموعة الأوروبية عرض اتفاقية عامة شاملة تتناول التعاون الاقتصادي والمالي والتقني، وليس مجرد تفضيل في الشؤون التجارية كما اقترحت تطبيق النظام التفضيلي على أربع أخماس الصادرات الجزائرية التي يجب أن تخضع للحقوق الجمركية، لكن هذا العرض لم يكن يتعلق إلا بـ 6 % من الصادرات الجزائرية غير النفطية،

ولكن مشكلة الخمور الجزائرية كانت من المشكلات الأساسية في هذه المفاوضات وموضوع منتجات النفط المكرر أيضا نقطة حساسة في سياق تبادل الترضيات[13].وعلى الرغم من الاختلاف بين الجانبين فقد عملت الجزائر من جهة والمجموعة الأوروبية من جهة أخرى على الوصول إلى نقاط اتفاق مكنت من توقيع الجزائر في أفريل 1976 اتفاقية تعاون مع المجموعة الاقتصادية الأوروبية.

وإذا حاولنا تقييم اتفاقيات التعاون الأولى الموقعة بين المجموعة الأوروبية وتونس والمغرب، يمكن القول بأنها اكتست طابعا تجاريا محضا، وهي محدودة وجزئية ليس لها طابعا شموليا، إذ تجاهلت العلاقات التقنية والمالية والعلاقات المتعلقة باليد العاملة[14]، وقد تأثر مسعى الشراكة الأوروبية مع هذه الأقطار في الستينيات بعوامل أساسية تتمثل أهمها في النمو المستمر للاقتصاد الأوروبي، وكذا توسيع الجماعة الأوروبية.

2- السياسة المتوسطية الشاملة

إن توسيع الجماعة الاقتصادية الأوروبية بانضمام كل من بريطانيا، إيرلندا، الدانمارك سنة 1973، وكذا إقرار الجماعة لسياسة انفتاح إزاء البلدان المتخلفة، تكون خطوطها الرئيسية ذات توجه شمولي، كلها كانت عوامل مساعدة على تجاوز اتفاقيات التعاون الأولى لسنوات الستينيات والانتقال إلى مرحلة في إطار سياسة أورومتوسطية موحدة شاملة لا تهتم بالجانب التجاري فقط، بل

تتعداه إلى الجانب المالي التقني[15] والهجرة أيضا، كما أنها اتفاقيات غير محدودة المدة.

وإن الاتجاه الرسمي الذي ساد سياسة الجماعة الأوروبية إثر التوسع الأول، عمل على دمج كل اتفاقيات التعاون الأورومتوسطية في إطار موحد للعلاقات بين الجماعة وباقي الأقطار المتوسطية، وفي هذا الإطار أقرت قمة باريس في 19 أكتوبر **1972** وضع خطة متابعة لسياسة شاملة ومتوازنة، تعبر عن رغبة الجماعة في تحمل إلتزاماتها اتجاه منطقة المتوسط من خلال سياسة أطلق عليها The Global Mediterranean Policy تهدف إلى تنظيم التبادل التجاري وزيادته، وفتح أسواق المجموعة لصادرات تلك الدول، والتعاون المالي، وتسهيل حركة الإنتاج الزراعي.

والملاحظ أن التعاون لم يتم في إطار التعدد الإقليمي للأطراف، لكن في إطار المفاوضات المتوازية بين الجماعة الأوروبية وكل دولة متوسطية على حدى، حيث أبرمت عدة اتفاقيات بعد هذه المفاوضات، هي اتفاقيات تعاون مع دول المغرب العربي الثلاث: تونس، الجزائر، المغرب في **25 26** و**27** أفريل **1976** على التوالي، ومع دول المشرق العربي: مصر، الأردن، سوريا في جانفي **1977**، مع لبنان في ماي **1977**، وقد استطاعت إسرائيل في ماي **1975** عقد اتفاقية هامة، تقضي بإنشاء منطقة تجارة حرة بينها وبين الجماعة الأوروبية.

وعلى هذا الأساس تمت المفاوضات بين الجماعة الاقتصادية الأوروبية ودول المغرب العربي، والتي أفضت إلى عقد اتفاقيات تعاون مع البلدان الثلاثة كل واحدة على حدة، حيث كانت ترمي اتفاقيات المغرب وتونس إلى تجديد وضعية الشراكة لسنة **1969** أما الجزائر فإن اتفاقها كان يعني اندماجها في إطار السياسة المتوسطية الشاملة.

وتجدر الإشارة إلى أن الاتفاقيات الموقعة سنة **1976** من قبل المغرب والجزائر وتونس، تبقى هي الملهمة لمختلف أنواع العلاقات بين الاتحاد الأوروبي ودول المغرب العربي الثلاث حاليا[16]، ذلك أنها تزامنت مع توقيع اتفاقية الحوار العربي الأوروبي؛ فبعد حرب الستة أيام التي خاضها العرب ضد إسرائيل، أبدى كل من الرئيسين هواري بومدين والحبيب بورقيبة أملهما في جعل الحوض المتوسط حوض سلام، وهي المبادرة التي تحمس لها كثيرا الرئيس الفرنسي بومبيدو، خاصة بعد المؤتمر الناجح لحركة عدم الانحياز في سبتمبر **1973** بالجزائر، ثم المقاطعة النفطية التي تلت الحرب العربية – الإسرائيلية الرابعة، شهرا بعد مؤتمر الجزائر، إلا أن الحوار العربي الأوروبي (**1974-1992**) لم يكتب له النجاح المرجو منه، ذلك أنه في حين كانت الدول العربية وخاصة دول المغرب العربي الثلاث: المغرب والجزائر وتونس، تحاول استثماره في القضية الفلسطينية، كانت الدول الأوروبية تركز على ضمان استقرار أسواقها وتزويدها بالنفط ومصادر الطاقة[17].

وقد تضمنت الاتفاقيات المبرمة سنة 1976 بين الجماعة الأوروبية والدول المغاربية مجالات تخص المبادلات التجارية بين الطرفين في المواد الزراعية والصناعية نصف المصنعة، أما بالنسبة للمواد الزراعية فتشمل الحوامض، الخمور، المعلبات والمواد النباتية والسمكية وهي تخضع للنظام التفضيلي، أما المنتجات الصناعية فقد سمحت الجماعة الأوروبية بالدخول الحر لأسواقها وهذا بإعفائها من الرسوم الجمركية ودون تحديد كمي لها، باستثناء الواردات الأوروبية من المواد البترولية المصفاة والفلين التي خضعت لنظام السقف الذي يرتفع بـ 5% كل سنة.

إذن يعتبر الجانب التجاري في الاتفاقيات بالجانب التقليدي حيث يمنح للدول المتعاقدة امتيازات تتعلق بالصادرات الزراعية الصناعية ونصف المصنعة، ويشمل النظام التجاري النظام التفضيلي ونظام الدخول الحرّ[18]:

1- **النظام التفضيلي**: يتعلق هذا النظام بامتيازات تمنحها الجماعة الأوروبية لصادرات المغرب وتونس والجزائر تشابه الامتيازات الممنوحة لدول أخرى من البحر المتوسط، لكن كل هذه الامتيازات كانت خاضعة لقواعد السياسة الفلاحية الموحدة، وهناك تفضيلات ممنوحة في الإطار العام، كما أن هناك تفضيلات تمتاز بالخصوصية حيث:

أ- التفضيلات العامة: يتعلق الأمر بالتخفيضات الجمركية التي تتراوح بين 40 % و100 % بالنسبة للمنتجات الفلاحية المغاربية

المصدرة إلى الجماعة الأوروبية، وقد استفادت بعض الخضروات من التخفيضات بقيمة 40%، أما بالنسبة للزيتون والطماطم فإن التخفيض وصل 60 % وحتى 80%، بينما الحوامض عرفت تخفيضات جمركية حسب طبيعة المنتوج وفي فترات معينة[19]، وقد حددتها الاتفاقية كما يلي: 60 % من 15 نوفمبر إلى 30 أفريل بالنسبة للطماطم، 50 % من 1 جانفي إلى 15 أفريل بالنسبة للبطاطس، 60 % من 1 نوفمبر إلى 30 أفريل بالنسبة للفاصولياء، 60 % من 15 فبراير إلى 15 ماي بالنسبة للبصل، 40 % للفلفل و60 % للباذنجان من 1 ديسمبر إلى آخر فبراير.

ب- التفضيلات الخاصة: كانت هذه التفضيلات تخص بعض المنتجات الحساسة التي تنافس المنتجات الأوروبية، وقد مست بعض المنتجات كالليمون وزيت الزيتون والمعلبات السمكية والخمور... وتعتبر هذه المنتجات ذات أهمية في صادرات الدول المغاربية، فالحوامض والمعلبات تهم بالدرجة الأولى المغرب، الزيوت تهم تونس أما الخمور فكانت تهم الجزائر وبالنسبة لهذه المنتجات فقد كانت مرتبطة بأسعار مرجعية وبنظام حصص لا يجب تجاوزه، وعليه فإن متابعة وضعية هذه المنتجات تكون عن طريق المشاورات الدورية بين الجماعة الأوروبية وكل دولة من الدول المغاربية لإيجاد الحلول الملائمة.

2- **نظام الدخول الحرّ**: سمحت الاتفاقيات المبرمة بالدخول الحر لصادرات المغرب العربي الصناعية إلى أسواق المجموعة

الأوروبية دون حقوق جمركية وبدون تحديد كمي[20]، وبدون معاملة بالمثل، وهذا طبقا للمادة 9 من اتفاق التعاون لسنة 1976، لكن هناك استثناءات هامة تخص منتجات الفلين والمواد البترولية المصفاة والسيارات، حيث خضعت هذه المواد لنظام السقف الذي يرتفع كل سنة بـ 5% بالنسبة للمواد البترولية و3% بالنسبة للفلين، أما المنتجات الفلاحية المصنعة فإن تحريرها يشمل جزأين[21]: الجزء الصناعي من المنتوج وهو معفى، والجزء الفلاحي من المنتوج وهو خاضع للرسوم. أما المنتجات النسيجية فتبقى خاضعة لنظام خاص.

وبتوسيع الجماعة الأوروبية بانضمام اليونان 1981 وإسبانيا والبرتغال 1986، انعكست آثاره السلبية على بلدان المغرب العربي، خاصة المغرب وتونس التي تصدر حجم مهم من المنتجات الفلاحية إلى المجموعة الأوروبية، وبفعل هذا التوسع اضطرت المجموعة الأوروبية إلى اتفاقات تكييف تسمح للمغرب وتونس خاصة من المحافظة على مصالحهم الاقتصادية والتجارية بعد توسع المجموعة الأوروبية.

إلى جانب اتفاقيات التعاون، وقعت دول المغرب العربي بروتوكولات مالية ملحقة لأجل 5 سنوات، حيث وضعت اتفاقية 1976 أربعة مبادئ أساسية للتعاون المالي والتقني بين المجموعة الأوروبية ودول المغرب العربي[22]:

أ- مبدأ التكامل: تعتبر المساهمة المالية الأوروبية كمكمل لجهود الدول المغاربية في التنمية، وقد جاء في المادة 3 من اتفاقية

التعاون لسنة 1976[23] أن المساهمة المالية وأيضا التقنية الممنوحة من طرف المجموعة الأوروبية تدخل في إطار مخططات وبرامج التنمية المنجزة بكل حرية وسيادة من طرف الدول المغاربية.

ب- مبدأ التشاور: ويتعلق الأمر بالتشاور لتحديد القطاعات التي يمكنها الاستفادة من مساعدة المجموعة الأوروبية، كما يمكن عن طريق التشاور تحديد الأهداف ذات الأولوية المدرجة في إطار المخططات الوطنية أو البرامج الجهوية والتي يمكن تمويلها عن طريق مساهمة المجموعة الأوروبية.

ج- مبدأ عدم التمييز:يسمح هذا المبدأ لكل شخص مادي أو معنوي من مجموع الدول، المشاركة في المناقصات والمزايدات، الاستشارات والصفقات والعقود... بشروط متماثلة ومتساوية، كما أن الأشخاص الماديين والمعنويين من المجموعة الأوروبية يمكنهم الحصول في الدول المغاربة على نظام ضريبي وجمركي متماثل مع ذلك المطبق في إطار الدولة الأولى بالرعاية.

د- مبدأ الشرطية: يشترط في كل المساهمات المالية الأوروبية عن طريق عقد بروتوكولات تعاون مالية، احترام البلد المتلقي لمقتضيات حقوق الإنسان، واحترام مبادئ الديمقراطية.

بالتالي تم توقيع بروتوكولات مالية مع الدول المتوسطية في شكل إعانات وهبات وفي شكل قروض مقدمة من طرف البنك الأوروبي للإستثمار[24]، وتم اعتبار الجانب المالي من أهم جوانب التعاون حيث تم التفاوض على بروتوكولات خماسية مع كل شريك

متوسطي، ويمكن توزيع المبلغ المتراكم للبروتوكلات المالية الممنوحة للدول المغاربية المتوسطية خلال الفترة (1978-1996) كما يلي:

جدول يوضح المبالغ المخصصة للبروتوكولات المالية (1978-1996)

الوحدة : مليون إيكو.

		الجزائر	المغرب	تونس	الدول المغاربية الثلاث
البروتوكول (1) (78-81)	هبات	25	16	15	56
	قروض	89	114	80	283
	مجموع	114	130	95	339
	النسبة المئوية	% 17	% 19	% 14	% 50
البروتوكول (2) (82-86)	هبات	28	67	37	132
	قروض	123	132	102	357
	مجموع	151	199	139	489
	النسبة المئوية	% 15	% 20	% 14	% 49
البروتوكول (3) (87-91)	هبات	56	173	93	322
	قروض	183	551	131	465
	مجموع	239	324	224	787
	النسبة المئوية	% 15	% 20	% 14	% 49
البروتوكول (4) (92-96)	هبات	125	278	156	559
	قروض	280	220	168	668
	مجموع	405	498	324	1227
	النسبة المئوية	% 18	% 22	% 14	% 54

Source :- Commission des communautés européennes,

Europe méditerranée, -Isabelle Bensidoune, Agnes chevalier, le parti de l'ouverture(, dans Economica, Paris : CEPII, 1996, p.135. بتصرف.

يلاحظ من الجدول أن الموارد المالية قد عرفت ارتفاعا محسوسا بالنسبة للدول المغاربية الثلاث من خلال البروتوكول الرابع فانتقلت من **324** مليون إيكو في البروتوكول الثالث إلى **498** مليون إيكو بالنسبة للمغرب[25]، أي بزيادة قدرها **114** مليون إيكو أي بنسبة **35**%، أما بالنسبة للجزائر فعرفت هي الأخرى زيادة بمقدار **166** مليون إيكو مقارنة مع البروتوكول الثالث أي بنسبة **69**%، أما تونس فقد سجلت ارتفاعا بمقدار **100** مليون إيكو في البروتوكول الرابع مقارنة مع البروتوكول الثالث، بنسبة **45**%.

والملاحظ أيضا أن البروتوكول الثالث سجل زيادة كبيرة عن سابقه، ولكن هذه الزيادة أكبر في القرض **68**% عنها في الهبات **48**%ن ثم تراجعت الزيادة في البروتوكول الرابع، مع رفع نصيب القروض ليصل إلى **61**% من المجموع بعد أن كان **57.4**% في البروتوكول الثاني، هذه الزيادات أو الانخفاضات ترجع في الأساس إلى ما يخدم مصلحة الجماعة الأوروبية[26]، فهي التي تحدد المبالغ وتخصصها إلى برامج معينة منها: البيئة، البحث، الطاقة، الاتصالات اللاسلكية، دعم موازين المدفوعات...

وإن الزيادة في البروتوكول الثالث أدى إلى رفع نسبة جملة المساعدات من **0.64**% من تكوين رأس المال المحلي الإجمالي

للدول المغاربية، إلى 1%، كما رفعت نسبتها إلى الناتج المحلي الإجمالي من 0.18% إلى 0.27% وهي نسبة ضعيفة جدّا[27]، وقد زاد من عدم كفاية هذه المساعدات تباطؤ الدول المغاربية في تنفيذ المشاريع حسب الرزنامة الزمنية المحددة، زيادة على الانتقادات الموجهة لهذه البروتوكولات كونها تفتقد إلى المساواة في التعامل، فهي تفضل دولا على دول أخرى.

وتجدر الملاحظة أن الاعتمادات التي منحتها المجموعة الأوروبية تمحورت في القطاعات التالية: 35% للهياكل القاعدية (البنى التحتية)، 26.8% للصناعة، 22.4% للفلاحة، 8% للطاقة، 3.5% للتعليم والتكوين، 1.9% للتعاون العلمي، 1.6% بالنسبة للتجارة، 0.8% للصحة والبيئة.

أما فيما يتعلق بالتعاون التقني للمجموعة الأوروبية مع دول المغرب العربي، يتمثل في شكل منح للدراسة والتكوين والتدريب وتمويل أنشطة تكوين التقنيين خاصة في مجالات الصيد بالنسبة للمغرب والنفط والغاز بالنسبة للجزائر وتونس.

والملاحظ كذلك أن البروتوكولين الأول والثاني (1977-1982) تم توجيههما أساسا لتطوير القطاع الصناعي والانفتاح نحو الخارج، أما بروتوكول سنة 1987 فتم تركيزه على الفلاحة، بينما اتفاق أو بروتوكول سنة 1992 فقد أعطى أهمية كبيرة للرأسمال البشري بالإضافة إلى تخصيص نصف موارد هذا البروتوكول للقطاع الفلاحي[28].وجدير بالذكر بأنه ليست دول المغرب العربي وحدها

معنية بالبروتوكولات المالية بل جميع الدول المتوسطية وهو ما يوضحه الجدول التالي:

جدول يوضح المساعدات الخارجية الأوروبية إلى الدول المتوسطية (بـ ملايين الإيكو)

	1986	1987	1988	1989	1990	1991	1992	1993	1994	1995	الإجمالي
دول المغرب العربي	176.1	27.1	109.1	219.7	139.1	142.2	219.6	200.4	210.2	137.9	1581
دول المشرق العربي	160.8	82.8	144.2	260.0	174.3	613.1	311.1	345.7	415.0	406.3	2913
دول متوسطية غير عربية	3.6	16.4	31.3	4.3	17.9	225.7	6.1	18.8	20.5	62.1	4066
مساعدات إقليمية	1.0	0.3	0.8	0.9	1.4	3.0	63.8	60.3	71.4	164.5	467.6
مساعدات لم تحول	15.9	22.0	19.2	18.8	45.1	24.3	46.1	38.7	12.4	64.8	307.3
إجمال المساعدات	357.3	148.6	304.7	503.7	377.8	10082.	646.7	663.8	729.5	835.7	5576

هذا وتميز هذه الإتفاقيات بين نوعين من الموارد لتمويل هذه البرامج منها موارد تقدم من طرف البنك الأوروبي للإستثمار (BEI)، وموارد تمنح من الميزانية الخاصة للمجموعة الأوروبية،

فبالنسبة للإتفاقيتين الأوليتين تم اللجوء (لتجنيد ميزانية البرنامج المالي) إلى منح قروض في ظل شروط تفضيلية أو اللجوء إلى تقديم مساعدات غير قابلة للإسترجاع، أما الإتفاق الثالث والرابع فقد قسم المساعدات المالية إلى نوعين: القروض التساهمية **Prêts participatifs** (كرأسمال المخاطرة)[29] بالإضافة إلى القروض التفضيلية والقروض غير القابلة للإسترجاع.

لكن يجب التنويه أن المبالغ المخصصة لمجمل الإتفاقيات والبروتوكولات لم تكن تعبر عن الإحتياجات الضرورية والصعوبات التي تواجهها الدول المغاربية المتوسطية على مستوى ميزان مدفوعاتها أو على مستوى التوازنات الإقتصادية الكلية الكبرى لهذه الدول أو لتمويل البرامج التصحيحية الإقتصادية التي شرعت فيها[30].

وما يؤكد قلة أو ضعف هذه المساعدات أن مستوى هذه الأخيرة لم تصل إلى نسبة **0.1**% من الناتج المحلي الإجمالي لمجموع الدول المغاربية المتوسطية[31]، وتتمثل أغلب هذه المخصصات في قروض حيث تجاوزت هذه الأخيرة نسبة **60**% في المتوسط مقابل **30**% إلى **40**% كمساعدات غير مسترجعة وهذا ما يوضحه الجدول الأتي:

جدول يوضح هيكلة الأربع بروتوكولات مالية للمجموعة الأوروبية للدول المغاربية

البيان	1977	1982	1987	1992
البنك الأوروبي للإستثمار	%49.3	%56.2	%59.1	%62.3
القروض التفضيلية	%34.2	%16.8	00	00
مساعدات غير مسترجعة	%16.5	%27.0	%38.3	%32.3
رأسمال – مخاطرة	00	00	%2.7	%5.4
المجموع	%100	%100	%100	%100

Source : Lionel Fontagne et Nicolas Peridy, L'union européenne et le Maghreb, étude du centre de développement, Paris : OCDE, 1997, p.62.

هذا ويمكن القول أنه على غرار إتفاقيتي سنة **1978** و**1982** اللتان ركزتا على تمويل البنى التحتية المتمثلة في الهياكل القاعدية الصناعية والبنائية وتمويل المشاريع الإنتاجية، فإن بروتوكول سنة **1987** ركز على تنويع القطاع الزارعي ورفع مستويات التشغيل، حيث تم تخصيص نسبة **70%** من موارده للإنفاق على هياكل الري- الفلاحي.

أما اتفاق سنة **1992** عمل هو الآخر على تنويع المحاصيل الزارعية والصادرات وكانت من أهدافه الأساسية، كما اهتم أيضا بالبيئة وذلك بتقديم مساعدات في هذا المجال، ففي إطار هذا الإتفاق (اتفاق سنة **1992**) تم فتح خط قرض **Ligne de crédit** بقيمة **300** مليون إيكو لتمويل مشاريع تتعلق بإصلاحات التعديل الهيكلي ويخص هذا القرض كل الدول المتوسطية.

والملاحظ في هذا الإتفاق هو ضعف مخصصات رأسمال-مخاطرة حيث مثلت نسبة 5% فقط من مجموع المبلغ الممنوح في إطار هذا الإتفاق، فاستفادت المغرب وتونس بنسبة 60% و50% على التوالي من البرنامج في شكل قروض من البنك الأوروبي للإستثمار، وفي حدود 45% و35%0%على التوالي كهبات، عكس الجزائر التي استفادت بـ 80% من حصتها في شكل قروض مقدمة من البنك الأوروبي للإستثمار وأقل من 15% في شكل هبات DONS[32].

جدول يوضح هيكل وتركيبة إتفاق سنة 1992 (%)

البلد	الجزائر	المغرب	تونس
البنك الأوروبي للإستثمار	80	50.2	59.2
مساعدات غير مسترجعة	14.9	44.1	35.6
رأسمال-مخاطرة	5.1	5.7	5.3
قروض تفضيلية	0	0	0

Source : Lionel Fontagne et Nicolas Peridy, L'union européenne et le Maghreb, étude du centre de développement, Paris : OCDE, 1997, p.104.

وعلى صعيد آخر يمكن القول بأنه كان من بين الآمال والتطلعات المنطقية لدول المغرب العربي هو ارتفاع نسبة تدفق الاستثمار الأجنبي المباشر من خلال اتفاقيات التعاون مع الاتحاد الأوروبي، والاندماج معه في سياسة انفتاح الاقتصاد العالمي، لكن الواقع العملي غير ذلك، فالدول المغاربية لا تلفت انتباه الاتحاد

الأوروبي في مجال الاستثمار مثلما هو مهتم باستثمار رؤوس الأموال في مناطق أخرى يعتبرها أكثر ضمانا وربحا.

إذن لم يساهم الاتحاد الأوروبي بقدر تطلعات دول المغرب العربي، وكانت حصته من رأس المال المستثمر بهذه الدول ضعيفة جدا بالمقارنة مع ما تم استثماره في مناطق أخرى من آسيا وأمريكا وأوروبا الشرقية، وكانت تبريرات الاتحاد الأوروبي لانخفاض معدلات تدفق استثمارات في الدول المغاربية كثيرة منها: عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، عدم التأكد الاقتصادي للمردودية، عدم توافر المنشآت المدعمة للاستثمار مثل النقل والاتصالات، تصدع الأسواق، عدم وجود يد عامل مؤهلة بحجم هذه الاستثمارات، التشريعات القانونية غير الملائمة، الممارسات الادارية المعرقلة مثل الرشوة والبيروقراطية.... إلخ، كل هذه الأمور من شأنها تحجيم إقبال المستثمرين، وتقلل من محاولة خلق مؤسسات وشركات اقتصادية.

وإذا كانت الأرقام المسجلة للاستثمار الأجنبي الأوروبي في المغرب العربي ضعيفة، فإن ما وجد منها فهو موجه بالخصوص إلى قطاع المحروقات وكل ما تعلق بالإنتاج الموجه للتصدير في إطار التبادل التجاري، وبإعطاء مقارنة بسيطة بين الدول المغاربية (تونس، الجزائر، المغرب) وبين تركيا لوحدها من حيث استثمارات الاتحاد الأوروبي لوجدنا ما يلي[33]:

- استفادت كل من تونس والجزائر والمغرب بمجموعها خلال سنة **1992** ما قيمته **32** مليون أورو كاستثمارات، بالمقابل استفادت تركيا ما قيمته **367** مليون أورو.
- استفادت كل من تونس والجزائر والمغرب بمجموعها خلال سنة **1993** ما قيمته **157** مليون أورو كاستثمارات، بالمقابل استفادت تركيا ما قيمته **279** مليون أورو.
- استفادت كل من تونس والجزائر والمغرب بمجموعها خلال سنة **1994** ما قيمته **264** مليون أورو كاستثمارات، بالمقابل استفادت تركيا ما قيمته **389** مليون أورو.

والمتتبع للسياسة المتوسطية الشاملة، يلاحظ أنه نتج عن تطبيقها أن رصيد المبادلات بين الجانبين استمر في التدهور على حساب الأقطار المغاربية بسبب جمود صادراته والتزايد المستمر لوارداتها، كما أن توسع الجماعة الأوروبية من **6** إلى **12** دولة سنة **1986** بانضمام كل من اسبانيا والبرتغال من شأنه أن يمس بمصالح دول المغرب العربي خاصة المغرب وتونس باعتبارهما من بين الدول المتوسطية المصدرة للمواد الغذائية، فالمغرب يعتبر أول بلد عربي مصدر للحوامض والمصبرات والمنتجات السمكية في حين تتخصص تونس في أنتاج زيوت الزيتون وهذا ما جعلها تتأثر بالسياسة الفلاحية الموحدة وبتوسيع الجماعة الأوروبية إلى الأقطار الجنوبية[34]، ذلك ما ساعد على تمكينها من ضمان الاكتفاء الذاتي خاصة في المواد الفلاحية التالية: **106** % بالنسبة لزيت الزيتون،

86 % بالنسبة للحوامض، 100 % بالنسبة للخضر والخمور[35].
وتمثل هذه القطاعات مع قطاع النسيج نسبة 80 % [36] من صادرات المغرب وتونس باتجاه الجماعة الأوروبية، الأمر الذي يؤثر على تنافسية هذه القطاعات بالنسبة لدول المغرب العربي.

وإن المقيّم لآثار اتفاقية التعاون المالي الأوروبي-المغاربي، يلاحظ أنه كان الهدف منها المساهمة في إحداث مشاريع إنمائية في الأقطار المغاربية، إلا أن الاعتمادات المالية الأوروبية لم تساير ضرورة إعادة تنظيم المبادلات التجارية، كما أن حصة المجموعة الأوروبية في تدفق المساعدات التي تلقتها الدول المتوسطية بقت جد ضعيفة، فخلال فترة 1989-1993 بلغت نسبة المساعدات الممنوحة لدول المنطقة من طرف الجماعة الأوروبية 4% من مجموع المساعدات التي تلقتها المنطقة، وبإضافة المساعدات الثنائية التي منحتها الدول الأوروبية وصلت النسبة إلى 29% [37].

وعلى صعيد الآثار التنظيمية لاتفاقيات التعاون الأوروبية يمكن القول بأن هذه الاتفاقيات تضمنت إجراءات حمائية تسمح خاصة للجماعة الأوروبية التي تتوفر إمكانية تحريك بنود الاتفاق في كل مرة تتعرض فيها جماعة اجتماعية اقتصادية في أحد البلدان الأوروبية، وتطالب بحق حماية منتجات فرعها، كما أن تأكيد السياسة الفلاحية الموحدة أدى إلى استعمال كل الوسائل الحمائية بهدف حماية المنتجات الأوروبية. من بين هذه الوسائل: الأسعار المرجعية، نظام الحصص، مبدأ بنود الاتفاق، قواعد المنشأ.

3- السياسة المتوسطية المتجددة

بداية لا بد من الإشارة إلى أنه تم عقد منتدى متوسطي أول في **25-27** فبراير **1988** بمرسيليا تحت شعار (حقائق وآفاق العلاقات بين الدول الأوروبية المتوسطية والدول المغاربية التي لها علاقات مع الجماعة الاقتصادية الأوروبية) ، حضره **70** عضوا من القطاعات الجامعية، الدبلوماسية، المالية، الصناعية وغيرها، تطرق هؤلاء المشاركين إلى ثلاث مسائل شكلت جوهر هذا المنتدى شبه الرسمي[38]

- المشاكل المالية والصناعية
- العلاقات بين الجماعة الاقتصادية الأوروبية ودول المغرب العربي
- واقع العلاقات البينية المغاربية وآفاقها.

ثم عقد منتدى ثاني بطنجة في **23-27** ماي **1989**، شارك فيه كل دول الاتحاد المغرب العربي لأنه تزامن مع تأسيسه، بالإضافة إلى دول القوس اللاتيني: إيطاليا وفرنسا وإسبانيا والبرتغال، وهذا لإعادة مناقشة القضايا التي تمت مناقشتها في منتدى مرسيليا، إذ يمكن اعتبار الوثيقة النهائية للمؤتمر كتنظيم لمسودة عمل لقاء مرسيليا[39] أين تم التأكيد على أن أمن المتوسط هو أمن كل جهاته وغير قابل للتجزئة. كما تم التأكيد على ضرورة العمل من أجل جعل المتوسط منطقة للأمن و التعاون والاستقرار، مما حذا بالجهات

الرسمية الفرنسية إلى طرح فكرة تحويل هذا المنتدى سبه الرسمي إلى منتدى رسمي ينعقد على المستوى الوزاري.

وقد نتج عن هذا الاقتراح اجتماع وزراء خارجية الدول التسع في أكتوبر **1990**، خلص ببيان مشترك جاء فيه أن هذه الدول تعمل على تحويل المتوسط إلى منطقة سلم وتعاون، هذا التجمع سمي بمجموعة **45+** ثم أصبح مجموعة **55+** بعد انضمام مالطا في **1991**[40].

إن الانطلاق الرسمي للحوار **5''5** كان خلال الندوة الوزارية الأولى التي انعقدت بروما في أكتوبر **1990**، ولقد كان من المفروض عقد اجتماع في مستوى القمة خلال سنة **1992** بتونس، إلا أن هذا الحوار قد تجمد على امتداد عشرية كاملة (**1991–2001**) لعدة أسباب أهمها[41]:

– انهيار جدار برلين الذي دفع الأوروبيين إلى الاهتمام أكثر ببلدان المعسكر الاشتراكي سابقا.

– عدم التوصل لحل مرضي لقضية الصحراء الغربية وكذا توثر العلاقات الأوروبية–الليبية عقب حادثة لوكربي وتدهور الوضع في الجزائر.

– حرب الخليج الثانية، وما أحدثته من إثارة الرأي العام المغاربي على الأوروبيين حيث أدى ذلك إلى إحداث قطيعة بين الطرفين.

هذا ويمكن ملاحظة أن منتدى كل من مرسيليا وطنجة برز خلالهما مصطلح جديد أتت به دول الضفة الشمالية للمتوسط و هو الشراكة، و كانت هذه أول مرة تقترح فيه الشراكة على دول الضفة الجنوبية للمتوسط، هذه الشراكة التي تعتبر مفهوما أوروبيا بالأساس، وتتجه إلى إعادة بناء العلاقات الاقتصادية و التجارية لأوروبا مع جيرانها المتوسطيين في ظل المتطلبات السياسية والأمنية الجديدة للاتحاد الأوروبي، إضافة إلى ذلك يمكن اعتبار الشراكة بديلا عقلانيا للتكامل من حيث العلاقة بين الكلفة و المكاسب لأنها لا تتطلب نفس التضحيات التي عادة ما تتطلبها العملية التكاملية خاصة في حالات التفاوت في المعطيات الاقتصادية بين الدول الأعضاء[42].

وتزامن طرح فكرة الشراكة بتبلور عدة مفاهيم جديدة في الدول المغاربية كاقتصاد السوق، الاعتماد المتبادل و التكامل الاقتصادي. لذلك لقي هذا الاقتراح صداه في كلا الضفتين، هذا ما ترجمه البيان الختامي للمنتدى إذ كانت كل خطوطه العريضة منصبة أساسا حول المشاركة من أجل تحقيق التعاون و الاندماج الاقتصادي، هذه الخطوط تمثلت في[43]:

1- العمل على تحقيق التعاون و الاندماج بين الدول المتوسطية

2- العمل على إعطاء صفة الشمولية لمفهوم التعاون كي يشمل المسائل الاقتصادية، الثقافية، الإنسانية، السياسية والأمنية

3- جعل الحوار و التشاور كسبيل لتطوير التعاون ووضع النزاع جانبا.

وناقشت الدول المشاركة القضايا السياسية والأمنية التي تهدد استقرار المنطقة كالوضع الأمني المتدني في الجزائر و النزاع بين المغرب و جبهة البوليزاريو، إلا أن القضايا الاقتصادية أخذت النصيب الأكبر من المناقشات و هنا ظهرت خلافات بين الضفتين، ففي الوقت الذي كانت فيه الضفة الشمالية تصب كل اهتمامها حول الحوار الاقتصادي كمقدمة لمشروع التكامل الاقتصادي، كانت دول الضفة الجنوبية إضافة إلى سوريا ومصر تطالب بمساعدات مالية واقتصادية لحل مشاكلها، هذه الأخيرة (المشاكل) التي تعتبرها الضفة الشمالية خطرا لزعزعة أمن و استقرار دولها إذ أن المشكلات الاقتصادية والاجتماعية تنجم عنها معدلات بطالة مرتفعة تؤدي بسكان الضفة الجنوبية إلى البحث عن مناصب عمل في الخارج و غالبا ما تكون الوجهة أوروبا التي تتوجس من تدفقات الهجرة، إضافة إلى أن نفس هذه الأسباب خلفت اضطرابات وتوترات في دول جنوب المتوسط كالإرهاب الذي أصبح عابرا للحدود ومهددا للأراضي الأوروبية.

وبالمقابل كان منتدى الأمن والتعاون في المتوسط يجد له أنصارا جددا، فمعاهدة هلسنكي 1 أوت 1975 جاء فيها أن الأمن في أوروبا مرتبط بصفة مباشرة بالأمن في البحر المتوسط بكامله، وهي الفكرة التي ما فتئت تدافع عنها إيطاليا منذ 1972، ثم حركة عدم

الانحياز، ثم عاودت إيطاليا طرحها في 1989، فإسبانيا في فيفري 1990، لكن المشروع أجهض بصفة خاصة في اجتماع منتدى الأمن والتعاون في أوروبا المنعقد في سبتمبر 1990 ببالما، وكانت من بين أسباب إجهاض المشروع:

1- تخوف الدول الأوروبية من الدخول عبر هذا المنتدى في لب الصراع العربي الإسرائيلي.

2- تحفظ فرنسا من أي دور أمريكي في المنتدى ومنه في المنطقة.

على هذه الخلفية، بدأت اللجنة الأوروبية منذ سنتي 1989 و1990 الإعداد لحوصلة حول السياسة الأوروبية في المنطقة المتوسطية انطلاقا من "ما أنجز و ما كان يمكن إنجازه"، وكان تقرير اللجنة الخاصة بالمتوسط التي يديرها ابرهات راين Eberhard Rhein تقييما للسياسة المتوسطية الشاملة، حيث بعده مباشرة أطلقت اللجنة الخاصة العنان للسياسة المتوسطية الجديدة التي تم تبنيها من قبل مجلس وزراء الخارجية في سبتمبر 1990، حيث جاء في تقريرها أن: (الأمن الأوروبي بمفهومه الشامل في خطر) مشيرة إلى أنها (على قناعة كاملة بأن القرب الجغرافي وكثافة العلاقات بمختلف أشكالها تجعل من استقرار الدول المتوسطية الثالثة ورفاهها عناصر أساسية لأمن المجموعة الأوروبية)[44].

إذن تيقن الاتحاد الأوروبي بأنه (لم يعد من الممكن الإبقاء على الحالة الراهنة لأنها لا تتوافق مع مصالح جنوب الجماعة، كما أنها سبب عدم رضا الدول الثالثية المتوسطية)[45] و بالتالي طرحت

المفوضية الأوروبية فكرة الشراكة الأوروبية – المغاربية وتكملة البروتوكولات المالية مع الدول المغاربية وصولا إلى منطقة تبادل حر، كما نص عليه اتصال المفوضية حول مستقبل العلاقات بين الجماعة الأوروبية و دول المغرب العربي المؤرخ في 30 أفريل 1992.

وفي جوان 1992، أكد المجلس الأوروبي من لشبونة بالغ اهتمامه بالحوض المتوسط وبصفة خاصة بدول المغرب العربي، لكنه ألح على أن التعاون جنوب-جنوب يجب أن يسبق التعاون شمال-جنوب مقترحا توحيد اقتصاديات دول المغرب العربي لكن فقط تونس والجزائر والمغرب وتوحيدا اقتصاديا محدودا، يضمن بشكل أو بآخر الاستثمارات الأوروبية وتراكم رأسمالها وهو ما سمي ببرنامج (ميدا) الذي يهدف إلى التعاون في شتى المجالات: الاتصالات والتهيئة العمرانية والتعليم العالي والاستثمارات ...الخ، إلا أنه علّق من قبل المجلس الأوروبي للمحاسبة حيث إن مديرية الشؤون العامة أوضحت أسباب التعليق في ديسمبر 1994 وهي المتعلقة أساسا بأزمة العراق ومسار السلام في الشرق الأوسط والحالة في الجزائر، حيث إنها استعملت لأول مرة مصطلح شركاء ووضعت اللجنة الأساسية للمنتدى الأورو-متوسطي(46).

هذا وظهر التطور الجذري من خلال الإطار القانوني الذي وضع لتطبيق سياسة التعاون الجديدة مع الدول المتوسطية في 29 جوان 1992، من خلال التأكيد على الأهمية المشتركة لاستقرار

منطقة المغرب العربي بالنسبة للإتحاد الأوروبي كونها تشكل الحدود الجنوبية للإتحاد وعلى إقامة إطار تعاون متعدد النواحي يؤدي تدريجيًا إلى شراكة مطورة بين الإتحاد الأوروبي ودوله والدول المغاربية[47]، ثم قام المجلس الوزاري واللجنة الأوروبية في جوان **1994** بتقييم السياسة المتوسطية والفرص المتاحة لتطوير هذه السياسة على المدى القصير والمتوسط.

وبناءا على ذلك قدمت اللجنة تقريرا للمجلس الوزاري والبرلمان الأوروبي في **19** أكتوبر **1994**، وضحت فيه أن الهدف الرئيسي من السياسة المتوسطية هو إقامة شراكة أوروبية متوسطية، تبدأ بإنشاء متدرج لمنطقة تجارة حرة، وتتطور إلى أن تصل لحد الارتباط بهدف إقامة منطقة سلام وأمن واستقرار، وجاءت بفكرة عقد مؤتمر أوروبي متوسطي في عام **1995** للاتفاق حول الإطار السياسي والاقتصادي للعلاقات المستقبلية، والذي عرف فيما بعد بمؤتمر برشلونة للشراكة الأورومتوسطية.

وفي **81** ديسمبر **1995** أقر المجلس الوزاري أهمية التعاون مع الدول المتوسطية غير العضوة في الإتحاد، في إطار سياسة سميت **The** New **Mediterranean Policy** والتي أدخلت تعديلات جديدة لتدعيم العلاقات الأوروبية المتوسطية، على رأسها: مضاعفة الموارد المالية المخصصة لمساعدات دول المنطقة بهدف برامج الإصلاح الإقتصادي المطبقة في العديد من الدول آنذاك.وقد جاءت السياسة

المتوسطية المتجددة لتحقيق جملة من الأهداف يمكن حصرها في التالي:

1- إعطاء أهمية لتنمية المبادلات التجارية بين الجماعة الأوروبية والبلدان المتوسطية عامة ومنها المغاربية لتحقيق التنمية الاقتصادية في البحر المتوسط، مما يستوجب فتح الأسواق الأوروبية أمام المنتجات الصناعية المتوسطية والمغاربية وتدعيم المبادلات الزراعية(48).

2- التمويل المشترك للاستثمارات من قبل البنك العالمي وبنك الاستثمار الأوروبي وزيادة القروض المالية بفوائد ميسرة لتدعيم التعاون المالي للدول المغاربية، وتوجيه المساعدة المالية إلى التنمية الاقتصادية للبلدان المغاربية بما يحد من الهجرة نحو دول الاتحاد الأوروبي.

3- ربط البلدان المتوسطية بعضها البعض بالمجموعة الأوروبية عن طريق التأكيد على ضرورة اشتمال التعاون مع الطرف المغاربي على قطاعات جديدة كالنقل، المواصلات، البيئة، الاتصالات.... والعمل على توفير المساعدات التقنية في القطاع السمعي البصري، وكذا التعاون في مجال الطاقة(49).

4- العمل على تقوية الاتحاد الأوروبي ليصبح طرفا فاعلا في المجتمع الدولي عن طريق تدعيم الانفتاح على دول أوروبا الشرقية لما تشكله من عمق استراتيجي للاتحاد الأوروبي(50).

وإن الملاحظ على التعاون المالي في إطار السياسة الأوروبية المتجددة أنه أدخل مجالين للتعاون هما: المجال البيئي والإصلاحات الاقتصادية، وفيما عدا ذلك يبقى التعاون في إطار التعاون التجاري التقليدي.تبنت الجماعة الأوروبية خلال السبعينيات والثمانينات خطابا متوسطيا، اعتمد على مفاهيم ومصطلحات جديدة لوضع أسس لسياسة متوسطية جديدة، انتقلت من جزئية إلى شاملة إلى متجددة، جاءت لتحقيق أهداف أهمها:

- توسيع نطاق تطبيقها لتشمل كل الجهة المتوسطية بما فيها الدول المغاربية الثلاث: تونس والجزائر والمغرب.

- سعت إلى تأسيس علاقات تعاون حاولت تجاوز منطق المبادلات التجارية البحتة، بالرغم من أنها كانت في المقام الأول استراتيجية تجارية تستند إلى علاقات ثنائية، وتستهدف تسهيل حرية انتقال المنتجات الصناعية، ولكنها بطبيعتها كان يعوزها تماسك شامل في ما يخص الدول المتوسطية.

وعكست سياسات الجماعة الأوروبية في المتوسط، رغبتها في تسخير موارد مالية تضمن تحقيق التنمية والتطور للشركاء التاريخيين حيث أن مثل تلك المساعدات حاولت أن تتناسب والنمو الكامل في كل دولة، لتسعى فيما بعد إلى تطوير سبل المعاملات بتكثيف التعاون في ميادين مختلفة (مالية، تقنية، إنسانية...) بشكل يسمح بصورة مرحلية بتقدم العملية التنموية في الدول المغاربية الثلاث: تونس والمغرب والجزائر.إلا أن السياسة المتوسطية للجماعة

الأوروبية لم تستطع من تحقيق أهدافها المسطرة، ولم تتمكن من أخذ شكل ميكانيزم للأمن الجهوي في المتوسط، نظرا لهشاشة هيكلتها وضعف وسائلها المالية المسخرة، كل ذلك دفع بالاتحاد الأوروبي إلى إعادة النظر في سياساته المتبعة، حيث تعتبر في هذا الإطار المبادرة الأورو-متوسطية في إطار مسار برشلونة كإجراء مؤسساتي أوروبي حاول من خلاله تقديم إجابة شاملة ومتجانسة وفي حجم التحديات الأمنية الجديدة التي تمثلها البيئة الأمنية المتوسطية.

الإحالات:

(1) للمزيد من التفاصيل ارجع إلى:

- نادية محمود مصطفى، أوروبا والوطن العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، **1986**.

- محمد صفوت قبيل، (السياسة المتوسطية للجماعة الاقتصادية الأوروبية)، في شؤون عربية، عدد **21**، نوفمبر **1982**.

- أديب الاجمي وآخرون، العلاقة بين الحضارتين العربية والأوروبية ، تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع، **1985**.

- عدنان عمران، "العلاقات العربية-الأوروبية في ظل التطورات الحاضرة"، المستقبل العربي، عدد **140**، أكتوبر **1990**.

(2) للمزيد من التفاصيل إرجع إلى:

Bichara Khader, Le Partenariat Euro-méditerranéen après La Conférence de Barcelone, Paris: éd. Harmattan, 1997, pp.27-29.

(3) Traité instituant la Communauté économique européenne, Dans : http://eur-lex.europa.eu/fr/treaties/dat/11957E/tif/11957E.html, Consulté le 25 Mars 2009.

(4) Traité instituant la Communauté économique européenne, Dans : http://eur-lex.europa.eu/fr/treaties/dat/11957E/tif/TRAITES_1957_CEE_1_XM_0074_x444x.pdf, consulté le 25 Mars 2009.

(5) Traité instituant la Communauté économique européenne, Dans le Site : http://eur-lex.europa.eu/fr/treaties/dat/11957E/tif/TRAITES_1957_CEE_1_XM_0152_x777x.pdf, consulté le 25 Mars 2009.

(6) René Foch, «La Communauté et la Méditerranée», dans Politique Etrangère. Vol.41, N 2, 1976, p.107 .

(7) اسماعيل العربي، فصول في العلاقات الدولية. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب، **1990**، ص.**56**.

(8)عبد الواحد أكمير، خصوصيات السياسة الأوروبية في منطقة المغرب العربي. المملكة المغربية : منشورات وزارة الثقافة. من الموقع http://www.minculture.gov.ma/index.php?option=com_content&view=article&id=337:abdelouahed-agmir-relations-maroc-europe&catid=51:etude-et-essais&Itemid=153, consulté le 25 Mars 2009.

(9) يعتبر منتوج ما من أصل مغربي أو تونسي إذا كانت نسبة مكوناته تصل **40** % إلى **50** % على الأقل.

(10) فتح الله ولعلو، الاقتصاد العربي والمجموعة الأوروبية. الدار البيضاء: دار النشر المغربية، **1982**. ص. **68**.

(11) Traité instituant la Communauté économique européenne, Dans : http://eur-lex.europa.eu/fr/treaties/dat/11957E/tif/TRAITES_1957_CEE_1_XM_0152_x777x.pdf, consulté le 25 Mars 2009.

(12) فتح الله ولعلو، مرجع سابق.

(13) حسين بومدين، مزايا وتكاليف الاتفاقيات الأورومتوسطية. (رسالة ماجستير غير منشورة)، جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان: كلية العلوم الاقتصادية والتسيير، **2002-2003**. ص.**25**.

(14) Bouchra Essebbani, La Coopération entre le Maroc et l'Union Européenne : de L'association au Partenariat. (THÈSE en vue de l'obtention du grade de Docteur en Sciences Politiques), Université Nancy2 : Faculté de Droit, Sciences Économiques et Gestion; École Doctorale des Sciences Juridiques, Politiques Économiques e t de Gestion, Présentée et soutenue publiquement le 10 Mars 2008. p.p.64-67.

(15) Mahilaine Djebaili, L'Union du Maghreb Arabe et le Projet de Méditerranée Occidentale. Paris : Fondation des études de Défense Nationale, 1992. p.p.178-179.

(16) BELKACEM Zairi ,"Quel modèle de régionalisation pour la zone euro- méditerranéenne: opportunités et limites", dans, L'espace économique de la méditerranée occidentale : enjeux et perspectives, Colloque internationale organisé par le CREAD, Bejaia, juin 2000, p535.

(17) Paul BALTA ,(Les enjeux de la conférence de Barcelone), dans, l'Annuaire de l'Afrique du Nord. France : ed. CNRS , 1995, p. 881.

(18) حسين بومدين، مرجع سابق، ص.**39**.

(19) للمزيد أكثر من التفاصيل ارجع إلى:

Mohamed Ben El Hassan Alaoui, La Coopération entre L'Union Européenne et les Pays du Maghreb. Paris : Collection Edification d'un Etat Moderne, 1994.

(20) فتح الله ولعلو، مرجع سبق ذكره.

(21) حسين بومدين، مرجع سابق، ص.**41**.

(22) Mohamed Ben El Hassan Alaoui. Op.Cit.

(23) حسين بومدين، مرجع سابق، ص.**41**.

(24) عمل البنك الأوروبي للإستثمار (BEI) خلال هذه الفترة على تقديم قروض بفوائد جد مخفضة (**1**%) وتصل مدتها إلى **40** سنة.

(25) Adam Mekaoui, Partenariat économique euro-marocain: une intégration régionale stratégique. Paris : L'Harmattan , 2000. p.19.

(26) مفيد شهاب، (نحو بلورة رؤية عربية مشتركة للشراكة الأوروبية المتوسطية)، مجلة شؤون عربية. ع**88**، ديسمبر **1996**، ص.**176**.

(27) شريط عابد، دراسة تحليلية لواقع وآفاق الشراكة الاقتصادية الأورو-متوسطية: حالة دول المغرب العربي. (أطروحة دكتوراه). جامعة الجزائر: كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، **2003-2004**، ص.**89**.

(28) Lionel Fontagne, et Nicolas Peridy, L'union europeènne et le Maghreb, étude du centre de développement, Paris : OCDE, 1997, p.61.

(29) رأسمال خطر : يتم تجنيد و توجيه رأسمال- خطر كما يلي : رسملة المؤسسات العمومية والخاصة، وخصوصا المؤسسات المدرجة في إطار التعاون مع المتعاملين الأوروبيين، وهذا الإجراء يعطي الأولوية للتعاون الصناعي ما بين دول المجموعة الأوروبية ودول المغرب العربي.

(30) Ibid, p.62.

(31) Isabelle Bensidoune, Agnes chevalier, "Europe méditerranée, le parti de l'ouverture", dans Economica, Paris : CEPII, 1996, p.10.

(32) Lionel Fontagne, op.cit, p.64.

(33) شريط عابد، مرجه سابق، ص.ص.**92**-**93**.

(34) فتح الله ولعلو، مرجع سابق.

(35) Fathallah Oualalou, La Problématique de la Coopération Maghrébine Face au Dynamisme de la Communauté Européenne, Belgique : CERMAC, 1989, p.p.51-52.

(36) Mohamed Ben El Hassan El Alaoui, Op.Cit.

(37) Jacques Ould Aoudia , « Les Enjeux Economiques De La Nouvelle Politique Méditerranéenne », Document De Travail, N° 96-5, Paris : Ministère De L'Economie Et Des Finances, Direction De La Prévision, 1996, p.p.8-10.

(38) Mahlaïne Djebaili, « L'Union du Maghreb Arabe et le Projet de Méditerranée Occidentale ». In Marie-Lucy DUMAS (dir.), Méditerranée Occidentale, Sécurité et Coopération. Paris : Fondation pour les études de défense nationale, 1992, p. 178.

(39) Azzouz Kerdoun, La sécurité en méditerrané défis et stratégies,Paris: Publisud,1995, p. 137.

(40) Paul Balta,«Les enjeux de la conférence de Barcelone», Op.Cit, p 882.

(41) Ahmed A. Ounais, « Sécurité et Partenariat en Méditerranée », Etudes Internationales. N° 79, 2001. p.p.21-25.

(42) مصطفى بخوش، حوض البحر الأبيض المتوسط بعد نهاية الحرب الباردة: دراسة في الأهداف والرهانات، القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، **2006**، ص **114**.

(43) Concentration en méditerranée occidentale : le forum de tanger, la lettre, échanges méditerranée, n 101-102-103, juillet1989, p39.

(44)Paul Balta, (Les enjeux de la conférence de Barcelone), Op.Cit, p. 884.

(45)Rapport de la section des relations extérieures, de la politique commerciale et du développement sur «La politique méditerranéenne de la Communauté européenne», in Communautés européennes, Assemblée consultative économique et sociale, La politique méditerranéenne de la Communauté européenne. Bruxelles, 1993, p. 10.

(46)Paul Balta, Op.cit. p.885.

(47)Conclusion du sommet européen de Lisbonne 26 – 27 juin 1992, in Ambassade d'Algérie à Bruxelles, Mission auprès des Communautés européennes, Déclarations et Résolutions de l'Union Européenne sur l'Algérie, le Maghreb et la Méditerranée. Bruxelles, janvier 1997, p. 4.

(48)Bichara Khader, L'Europe et le Monde Arabe, cousins, voisins. Paris : Publishud-Quorum, 1992, p.189.

(49)Isabelle Bensidoun, Angés Chevalier, Europe – Méditerranée : Le Pari De L'Ouverture, Paris : Economica, 1996 ; p.19

(50)Fustier Nathalie, « La Méditerranée. Nouveaux défis, nouveaux risques », sous la direction de Jean-François Daguzan et Raoul Girardet, Dans Politique Etrangère, Volume 61, N°1, 1996, p.222.

تأثير النفوذ اليهودي على الامتيازات الإفريقية في الجزائر خلال العهد العثماني

د ة. فاطمة درعي
جامعة معسكر

Abstract:

The study focuses on the influence of the Jewish Altafh in Algeria during the Ottoman era .

Researcher touched on this subject to economic concessions to the Jews in Algeria through their control bug African influence in the Middle choking and Algeria which have had a relationship with France.

Keywords:

Jewish influence- African franchises- Algeria During the Ottoman era -

لقد عرفت الطائفة اليهودية في الجزائر عدّة تطوّرات في القرنين 15-16م بسبب التطورات التي عرفتها منطقة البحر الأبيض المتوسط والعالم نظرا لتغيير الطرق التجارية والتوزيع الجغرافي للتجارة داخل البلاد، إضافة إلى التحوّلات التي طرأت على نوعية المبادلات[1] وأدّت هذه الظروف إلى زعزعة الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي للطائفة اليهودية، خاصّة وأنها كانت تمرّ بظروف داخلية صعبة بسبب الاضطرابات السياسية التي سادت عشية دخول العثمانيين إلى الجزائر، وتدهور الوضع الأمني أثناء عملية بسط النفوذ العثماني على البلاد حيث قام خير الدين بقمع اليهود في تلمسان بسبب مقاومتهم له.

لقد عاش اليهود الفترة العثمانية من تاريخ الجزائر بصورة عادية لم تعكّرها سوى بعض الأحداث الاستثنائية، ابتدءوها بهدوء واحترام للقواعد العامة، ثم حدث انقلاب في أوساطهم بمجيء يهود ليفورن الإيطالية الذين قادوا الجالية اليهودية بالجزائر نحو اتجاه مناقض تماما للمصالح الجزائرية وحتى مصالح الدول الأجنبية، خاصة الفرنسية منها، وسنحاول من خلال هدا المقال إبرازا تأثير اليهود على مصالح فرنسا وبالتحديد الامتيازات الإفريقية ذات الأهمية الكبرى لفرنسا في هده المرحلة ومدى تأثير دلك عليها وعلى العلاقات الجزائرية الفرنسية. استطاع اليهود السيطرة على الأسواق التي كانت محتكرة من طرف التجارة الفرنسية منذ مطلع القرن18، عندما أصبحت الشركات الفرنسية غير قادرة على مواصلة نشاطها التجاري بسبب ضعفها المالي والخطر الذي كان يمثّله الجزائريون الرافضون لوجود الفرنسيين على سواحلهم، وحتى التعامل معهم عندما حاولت فرنسا تحويل الباستيون إلى مركز عسكري لحماية تجارتها، (2) فبدأ نشاط المؤسسات الفرنسية يتعطّل لصالح التجار اليهود الذين قدّموا مبالغ ضخمة ومساعدات كبيرة لحكام الجزائر مقابل حماية تجارتهم ومساعدتهم على منافسيهم، وقد لاحظ القناصل الفرنسيون ذلك لكن لم يعودوا قادرين على حماية مؤسساتهم نظرا للطرق الملتوية التي كان اليهود يمتلكونها من أجل عرقلة سير التجارة الفرنسية.

أولا- الامتيازات الإفريقية:

تعـود جـذور الامتيـازات الإفريقيـة إلى الاتفـاق الفرنسـي العثماني الموقّع سنة 1535، والذي منح بمقتضاه السـلطان العثمـاني سليماني القـانوني امتيـازات تجاريـة واسـعة للفرنسـيين مـن بينهـا الترخيص لهم بصيد المرجان على الساحل الواقع شرق عنابة، ومنذ 1561 استقر التاجران توماس لانش وكارلين ديديي في مكان قريـب من مرسى الخرز، أي القالة القديمة أطلقا عليه اسم باستيون فرنسـا وكوّنا شركة للقيام بصيد المرجان وقد أثارت هذه التسمية الفرنسية نوعا من الفضول والتساؤل ممّا جعل البعض يتوهّم أن هناك حصنا شيّد في هذا المكان كانت تقوم فيه حامية عسكرية فرنسية، لقد أدى هذا الوهم بالقنصل دوفال فيما بعد في محاولاته لتأكيد حـق فرنسـا في هذه المنطقة، إلى الاعتقاد بأنّه قد وجد الدليل على هـذا الحـق في تسمية القالة نفسها والتي هـي في نظـره تحريـف القلعـة الـتي تعـني الحصن أي(الباستيون)[3] في اللهجة المرسيلية تعـني المنـزل الريفـي الكبير[4] lou bastidoun ثم أصبح يعرف بالموقع المحصّن أو المعقل.

وكان الهدف من إنشاء الباستيون قبل عهـد الشـركة الملكيـة هـو إسكان الموظّفين وصيادي المرجان، إضافة إلى تخزين السلع التي يـتّم شراؤها، والمرجان الذي يتّم صيده، وهو حقّ ضمنته معاهدة 1694، بعد ذلك بست سنوات أي سنة 1700 كان الباستيون في القالة يضّم 11 إلى 12 منزلا إضافة إلى طاحونة مبنية من حجـر ومحاطـة بسـور، كانت إلى جانب استخدامها العـادي في طحـن الحبـوب، تسـتعمل حامية لمنع التحرّشات التي يمكن أن يتعرّض لهـا الباسـتيون وهـدف

السرقة أو ما شابه ذلك .شهدت الامتيازات الإفريقية منذ بداية القرن الثامن عشر تحسّنا كبيرا في إدارة نشاطها واستقرار معاملاتها، حيث توالى على الإشراف عليها عدد من المسيّرين امتازوا بالكفاءة وحسن التسيير والتي انعكست على مردودية نشاطاتها من الناحية المالية واتساع دائرة معاملاتها التجارية حيث لم تعد تقتصر على السلع المحتكرة تقليديا، بل امتد ليشمل سلعا أخرى خاصة القمح الذي يزداد الطلب عليه منذ بداية القرن وبإدماج امتياز رأس شركة رأس العبد الواقعة في الأراضي الفرنسية بالامتيازات الإفريقية سنة 1707سوف يعطي دفعا قويا لنشاط الالتزام خاصة في التجارة وهو ما حفّز عددا من التجار ودفعهم إلى الاستثمار، وهو ما استوجب تكوين الشركة الإفريقية سنة 1713 لكنّها لم تحقّق ما كان منتظرا منها، حيث تحوّلت الامتيازات الإفريقية لتصبح تحت إشراف شركة الهند لكنها ستتخلّى عن استغلال الامتيازات في سنة 1730، لتعطي لمتعهّد يدعى أوريول لمدة عشر سنوات.

وقد أعطى أوريول دفعا قويا لنشاط الالتزام، فاتسع نشاطه خاصة بعد تأسيس شركة إفريقيا الملكية سنة 1741 التي تلقّت الدعم من الحكومة ومن الغرفة التجارية بمرسيليا، وقد حقّقت الامتيازات الإفريقية في عهد هذه الشركة ازدهارا حيث انضبطت العلاقات بين الصيّادين والشركة في قطاع صيد المرجان، كما طوّرت الشركة نشاطها التجاري ووسّعته ليشمل مختلف موانئ الشرق الجزائري، وكان نشاط تجارها يغطّي كل المنطقة الواقعة بين رأس العبد

بالأراضي التونسية شرقا إلى ميناء بجاية غربا، واتسّع هذا النشاط ليشمل إلى جانب السلع المحتكرة تقليديا الجلود، الشمع، الصوف، [5] كما تمكّنت من الحصول على حق احتكار تصدير الشحم والفول، وزيت الزيتون، والحبوب في مقدّمتها القمح، وقد حقّقت الشركة ازدهارا خاصة مع بداية السبعينات من القرن 18م وتضاعف رقم أعمال الشركة خلال 40 سنة الأخيرة من مليون ومائتي ألف فرنك عند تأسيسها في سنة 1741 إلى حوالي 6 ملايين و200 ألف فرنك سنة 1788 [6].

إنّ هذا النجاح الذي حقّقته شركة الملكية الإفريقية أثار قلق مسئوليها حول إمكانية الاستمرار في الانتفاع بالامتيازات الإفريقية بنفس الشروط الجاري العمل بها حتى الآن خاصة وأنّ البلدان تهيأت للبدء في مفاوضات لتمديد معاهدة الصلح المئوي من جهة ومن جهة أخرى نظرة السلطات الفرنسية للامتيازات الإفريقية فرغم ما حقّقته هذه الشركة، إلاّ أنّه لا يمكن الإبقاء على هياكل الشركة كما كانت عليه لارتباط ذلك بمبادئ يعتبرها الثوار الفرنسيون غير قابلة للتنازل لذلك صدرت قرارات ألغت كل أشكال الاحتكار في أي نشاط اقتصادي وتجاري أو صناعي وهو ما أدى إلى إلغاء الشركات الاحتكارية لتجارة ما وراء البحار وبذلك تم حلّ الغرفة التجارية بمرسيليا في 21 جويلية 1792 [7] التي كانت المحرّك الأساسي للشركة الملكية الإفريقية، هذه الأخيرة التي أبقيت لدورها في تموين مقاطعات الجنوب، وتزويدها بالمواد المعاشية

خاصة القمح، لكن حلّ الغرفة التجارية بمرسيليا سيؤدي إلى إضعاف نشاط الشركة، وإلى جانب هذه العوامل فإن الامتيازات الإفريقية ستتضرّر كذلك من الصراع الفرنسي الانجليزي، ووصلت درجة التضرّر من الأوضاع الداخلية والخارجية لدرجة عجزها عن توفير الأموال الضرورية للقيام بالعمليات التجارية وهو ما توضّحه الرسالة رقم102 [8] حيث أصبح علي باي شيخ المعزولة يعرض إحضاره للسلع إلى مدير الباستيون وهو يتمنّع عنه، وقد أدّى هذا الوضع الجديد إلى دخول تجّار أجانب من جنسيات مختلفة، حيث وجدت الشركة نفسها في منافسة معها لتؤمّن القدر القليل مما تحتاج إليه في تجارتها، حيث سمحت الجزائر في سنة1792للتجار الاسبان والانجليز واليهود وغيرهم بشراء القمح والشعير من ميناء عنابة حتى وصل ذلك إلى حدّ عدم قدرة الشركة الحصول على المقدار الذي اتفّقت عليه مع الباي، بسبب حمل جميع القمح الذي كان في مخازن الباي من طرف هؤلاء الأجانب [9] وعندما احتجّت الشركة رد عليها الباي قائلا(إن الحبوب ملك لنا ونحن نبيعها لمن نشاء) [10].

ويمكن تتبّع الظروف التي ستؤثّر على هذه الامتيازات إلى أن يتم انتزاعها من الفرنسيين سنة1806.ففي سنة 1790في مرحلة التفاوض لتوقيع معاهدة السلم المئوي برزت نوايا الحكومة الجزائرية حول الامتيازات الإفريقية حيث تبيّن أن الحكومة الجزائرية تنوي سحب الالتزام من الفرنسيين لأسباب مالية وهو ما أكّده الداي محمد بن

عثمان الذي عرض استعداده إبقاءها بيد الفرنسيين إذا قبلوا دفع مبلغ أعلى في شكل إتاوة، لأنّ المبلغ الذي كان يدفع كان قليلا مقارنة بالأرباح المحقّقة وقد كانت معاهدة **1694** قد نصّت على مقدار الإتاوة التي تدفع مقابل الحق الحصري في التمتّع بالامتيازات وتقدّر قيمتها بأربعة وثلاثين ألف دبلون ذهبي، حيث ينصّ البند 11من المعاهدة على(...بموجب هذه الامتيازات والأذونات التي منحناها للسيد هيلي**HELY** نمنع على أيّ كان أن يذهب إلى الأماكن المذكورة للشحن... وذلك مقابل المبلغ الذي يدفعه هذا الأخير للديوان والمقدّر ب34ألف دبلون ذهبي كل سنة مقسّط على ست مرات، بحيث يدفع القسط الواحد منها كل شهرين، وهو ما يجعلنا نسمح له بالاحتفاظ والتمتّع بالإقامة في الباستيون والمناطق التابعة له وكان من يتولى دفع هذه الضريبة وكيل الشركة في الجزائر[11].

ونظرا لتغيير قيمة العملات، أصبحت الضريبة تدفع بواسطة البياستر، وذلك لأنّ الدبلون الذهبي بطل استعماله وانقرض واستبدل بدبلون فضي تساوي قيمته **24** أبر أو**9** صايم[12] وقد كانت الإتاوة تعادل **1221** قرش محلي(ريال بوجو) تدفع كل شهرين واستمرت قيمتها إلى غاية سنة **1790** عندما تقّرر رفعها إلى 4500 قرش محلي (ريال بوجو) بقيمة 3بطاك شيك لكلّ ريال وهو قسط يدفع كل شهرين للداي في الجزائر وهو ما نصّت عليه معاهدة **1790**، كما أقرّت المعاهدة لباي قسنطينة مبلغ **3000** قرش محلّي تدفع للباي ويكلّف أغا النوبة بقبضها ورفعها إلى الباي كل شهرين

مقسّطة على ست مرات وحملها له إلى عنابة. ورغم دفع قيمة الإتاوة إلاّ أنّ الظروف لم تتحسّن للشركة الإفريقية بسبب الاضطرابات التي عرفتها فرنسا بسبب الثورة الفرنسية وحلّ الغرفة التجارية بمرسيليا وتقلّص الموارد المالية، كلّها عوامل زعزعت نشاط الشركة، وقد حاول القنصل الفرنسي فالبير إيجاد حلّ من خلال التلويح بالتخلّي عن الالتزام الذي قد يجعل السلطات الجزائرية تقوم بتخفيض قيمة الإتاوة حرصا منها على الحفاظ على الالتزام[13]، لكن ما حدث كان عكس المتوقّع لأنّه في سنة 1792 سيتم جلاء الإسبان عن وهران وزوال التوتّر بين الجزائر وإسبانيا فحصل الإسبان بعد التفاوض على إذن إنشاء شركة مماثلة للشركة الملكية الإفريقية في بايلك الغرب، تتولّى التجارة ولها نفس الامتيازات ونظرا لحاجة بلادهم للقمح نظرا لفقر البلاد وتزايد عدد السكان ونظرا لسيطرة عملتهم على أسواق البحر المتوسط استطاعوا رفع أسعار الحبوب، فتعسّر على الشركة الفرنسية أن تواصل نشاطها، خاصة بعد أن جرّدت من صيد المرجان وقد استغّل الإسبان فرصة وجود الخلاف بين فرنسا والجزائر بسبب مسألة مايفرن للتوسّع إلى الشرق الجزائري محمّلين بالهدايا بهدف القضاء على الشركة الإفريقية، ونجحوا في إرغامها على الانسحاب مثقلة بالديون، ولحاجة فرنسا للقمح الجزائري، عملت على تقديم ترضيات وطلب التزوّد بالأسلحة وطلبوا الحصول على جوازات للسفن الفرنسية وهو ما رفضه الداي لكن أكّد مساعدته لفرنسا من

خلال تموينها بالمواد المعاشية، لكّن رغم ذلك فإنّ الشركة الملكية الإفريقية لم تستطيع الصمود، خاصة بعد أن علم الباي أن الحسابات التي تقدّمها الشركة مغشوشة فقرّر احتكار عمليات البيع والشراء مع الأهالي مستعملا أمواله الخاصة، وقرّر السماح لليهود الجزائريين إلى جانب الإسبان بالتعامل مع فلاحي وتجار الشرق الجزائري للحدّ من نفوذ وكلاء الشركة الفرنسية وهو ما أثّر على نشاط الشركة الإفريقية، رغم أنهّا لم تعترف بأخطائها ونسبت التصرّفات إلى الباي وحقده عليها، لكن في الواقع حتى الأهالي، لم يكونوا يرغبون في وجود الفرنسيين على سواحلهم[14].

هذه العوامل هي التي أدّت إلى انهيار الشركة الإفريقية والتي ستعلن عن حلّها في 2فبراير1794(pluviose19)العام الثاني من طرف لجنة الأمن العام، وعوّضت بوكالة تابعة للحكومة وهي الوكالة الإفريقية[15].

أ – الوكالة الإفريقية: ظهرت الوكالة الإفريقية عن أنقاض الشركة الملكية الإفريقية، ولم يكتنفها أي غموض في الظهور، تكوّنت بمقتضى قرار لجنة الأمن العام في 7فيفري1794، وبقرار آخر بتاريخ 11مارس1794، [16] تّم تنظيمها نهائيا، لكن التغيير ظهر من خلال التسمية من جهة وطريقة الاستغلال من جهة أخرى وقد توّلت الدولة الإشراف على المؤسسات إشرافا مباشرا حيث تقوم بتقديم المبالغ اللازمة لمواصلة النشاط التجاري وتصدر التعليمات الخاصّة بتوجيه وتسيير الشؤون الإدارية[17]، وقد أصبحت

الوكالة تحت إشراف وزير الداخلية، وأعوانها، موظّفون يتقاضون أجورا ثابتة، وقد ورثت الوكالة الشركة الملكية بكل مؤسساتها وتنظيماتها وامتيازاتها مقابل حقوق تعوّدت المؤسسات الفرنسية أن تدفعها لديوان الجزائر ولضمان تموين فرنسا بما تحتاجه من مواد في حربها مع أوربا المتحالفة ضدّها، تّم تنظيم خدمات للسفن بين الجزائر وفرنسا تكلّفت بها الوكالة الإفريقية في 28أوت1794وبقرار من المؤتمر الوطني في 27بليفوس(Pluviose)العام الثاني تمّ تحديد الألوان الوطنية الثلاث كراية للسفن والأساطيل الفرنسية وتّم إعلام الداي عن هذا التغيير في 28مارس1794[18].

وجدت الوكالة الإفريقية نفسها بمجرّد تكوينها أمام عراقيل وصعوبات لا يمكنها النجاح بدون تذليلها والقضاء عليها، ومن أهم تلك المشاكل هي عائق التمويل لأنّها حرمت من تمويل المساهمين مع بداية1794 فهي شركة تحت إشراف النظام الجديد الذي يعاني أزمة مالية خانقة، وهو ما جعلها عاجزة عجزا كاملا عن الوفاء بالتزاماتها بشراء السلع التي تحتّكرها في شرق البلاد من المنتجين، وهو ما أدى إلى الإضرار بهم إضرارا شديدا مما أدى إلى حدوث اصطدامات بينهم وبين أعوان الوكالة مثل الذي حدث في مدينة القل سنة 1796، فمركز الفلّ كان قد اختصّ بتجارة الجلود وكانت الشركة تشتري ما يقدّمه لها المنتجون، وهناك تقاليد ارتبطت بهذه المعاملات منذ مدة طويلة فالسعر كان ثابتا لا يتغيّر ومواصفات قطع الجلد بأسعارها كذلك لكن الوكالة التي لم تعد في

حاجة إلى الكميّة التقليدية التي كانت تقتنيها لأسباب مختلفة بدأت تضع شروطا شبه تعجيزية لمواصفات قطع الجلد التي تحظى برضاها ممّا جعلها ترفض معظم ما يقدّم لها من هذه السلعة، وهو ما جعل المنتجين يقومون بالضغط على أعوان الشركة لقبول كمية الجلود التي حدّدتها التقاليد بنفس المواصفات التي كانت تراعى سابقا، فردّت الوكالة بغلق مركز الفل والخروج من المدينة وهو ما أثّر على سكان المنطقة لأنه أغلق بابا من أبواب الدخل المتواضع المتاح لهم، لذلك اتّصلوا بالمسئول الرئيسي عن الامتيازات الذي كان مقرّه عنابة، حيث قدّموا له الضمانات لحماية أعوان الوكالة، كما قبل الوفد التنازل عن السلع مقابل تسديد ثمنها بعد أجل وعدم التزام الوكالة بأخذ القطع التي لا تتوّفر فيها المواصفات المحدّدة، وهذه الحادثة تبيّن مدى الاحتياج الذي كان عليه سكان المنطقة لتشبّثهم ببقاء مركز الوكالة مفتوحا ببلدتهم(19) وتبيّن مدى الصعوبات والمشاكل التي يواجهها المنتجون عندما وجدت الوكالة نفسها غير قادرة على الوفاء بالتزاماتها الناجمة عن احتكارها لبعض السلع لعدم توّفر المال اللازم من جهة، وعدم استعدادها للتنازل عن هذا الاحتكار من جهة ثانية، كما أنّ استمرار الوضع في فرنسا بعدم الاستقرار ومطاردة كبار التجّار والمالكين الأثرياء، إذ تّم إعدام 251 من الأغنياء سنة1794(20)فلم يكن أمامهم سوى الهجرة والهروب، فهاجرت الطبقة المحتكرة لوسائل النقل بعد تعطيل أساطيلها وتركها راسية في سائر الموانئ التي لا يمكن إصلاحها إلاّ بأثمان باهظة،

بالإضافة إلى افتقار الدولة إلى الأموال الضريبية لسدّ رمق المواطنين وقد تسبّبت هذه الأوضاع في غلاء المعيشة ومطالبة البحّارة برفع الأجور.

ولم تكن هذه الأحداث في صالح الوكالة الجديدة، كان يجب عليها أن تشرع في أعمالها لتزويد الشعب الفرنسي بالحبوب، لتمّكين معامل الجنوب من الاستمرار حتى لا تغلق أبوابها وترمي بالمئات من أرباب الأسر إلى الشارع، ومن جهة أخرى كان عليها أن تبحث عن مصدر غير خزينة الدولة الفارغة وتبقى التجارة جامدة ما لم تتوّفر على الأموال، وبالإضافة إلى العجز المالي وانعدام وسائل النقل وتمرّد العمال فالوكالة اعترضها مشكل آخر وهو الخوف من ردّ فعل المهاجرين المتجمّعين في إيطاليا خاصة الذين عرقلوا مجهودات الجمهوريين، كالاستيلاء على السفن ومنع المؤن من الوصول إلى الفرنسيين. بالإضافة إلى خطر الإنجليز والإسبان الذين كانوا يحتجزون جميع السفن المتوجّهة إلى الموانئ الفرنسية وعندما رأت الوكالة أنها مستهّدفة من كل جانب، أصبحت تستعمل أسماء الجزائريين من اليهود والمسلمين وتكتري الأشخاص أنفسهم لاصطحاب الشحنات إلى مقاصدها حيث أنشأت الوكالة مؤسّسة في جنوة كلّفتها باتخاذ جميع الإجراءات اللازمة لتهريب السفن عن طريق المهاجمين على مختلف أنواعهم، واستئجار اليهود الإيطاليين واستعمالهم لمرافقة البضائع الصادرة والواردة[21].

أعطت الدولة الفرنسية لإدارة الوكالة حرّية مطّلقة من حيث العمل على إيجاد ما تحتاج إليه نظرا للأسباب الآنفة الذكر، وتّم تكليف ممثلي الهيئة الجديدة في عنابة والقالة بالاتّصال بباي قسنطينة ليقرضهم ما يمكّنهم من أداء مهمتهم، إلاّ أنّ الغشّ الذي اكتشف في المدة الأخيرة غيّر الأمور وجعل الأعيان والسلطات في المنطقة يحترسون من التجار الفرنسيين. أصيبت الوكالة بضعف لأنّ التجارة كانت موقوفة على رؤوس الأموال، وتعطّل نشاطها لحساب التجّار اليهود الذين استغلوها، وبالإضافة إلى عجزها المالي اصطدمت أيضا بموقف السكان الجزائريين المعادي لها، وعجز السلطات المحلية عن حمايتها، وإلى جانب هذه المشاكل التي لها صلة مباشرة بالتجارة، أوجد الأهالي صعوبات أخرى كانت لها تأثير بالغ على سير أعمال الوكالة حيث أنّ سكان القّل أصبحوا يفضّلون التعامل مع اليهود أو التونسيين ويحملون إليهم البضائع، هؤلاء اليهود ذووا التأثير القوّي خاصة على الداي حسن والباي مصطفى الخز ناجي الذي منحهم احتكار تصدير الحبوب وهذا راجع إلى الأسعار التي كانت أحسن من أسعار الفرنسيين وكانوا ينوّعون في المشتريات عكس التجّار الفرنسيين الذين رفضوا الجلود المحمولة من طرف القبائل المجاورة، كما تفطّن سكان عنابة إلى أهمية الأرباح التي كان الفرنسيون يجنونها من صناعة الجلد فبنو مدابغ لتلبية الحاجيات المحلية، ما دفع بصادرات الوكالة إلى التناقص خاصة في هذه المادة ما يزيد عن ربع ما كانت تنقله الشركة الملكية إلى مرسيليا.

وقد تبنّت الوكالة خطّة لتغطية عجزها، تمثّلت في المبادرة والتذمّر والشكوى من انتهاك حقوقها وخرق الاتفاقيات المبرمة معها، عندما بدأ بعض التجار الإسبان والصقليين والكورسيكيين يرتادون هذه المناطق، لعدم وجود مانع لذلك لأنّ الامتيازات الإفريقية تحتكر مواد محدّدة، وحرية التجارة مكفولة في غير المواد المحتكرة، لكنّ الوكالة اعتبرت أن مجرّد وجود بعض من هؤلاء يمثّل تعدّيا على حقوقها وانتهاكا لاحتكارها، خاصة بعد ظهور إشاعة أنّ السلطات الجزائرية تنوي انتزاع امتيازات من الفرنسيين ومنحها للإنجليز.

إنّ الوضع المتردّي الذي آلت إليه الوكالة الإفريقية والمصالح التجارية الفرنسية في الجزائر، أصبحت موضوع انشغال القنصل جانبون سانت أندري الذي حاول تسوية الأمر من خلال إقامة اتصال منتظم بين الجزائر ومرسيليا عن طريق تخصيص سفينة تكرى شهريا أو سنويا لهذا الغرض، لنقل البريد الرسمي ونقل عدد محدود من الأشخاص الموفدين من طرف الحكومة أو القنصلية في الجزائر في الاتجاهين بسعر معتدل[22] ويرى القنصل أنّ تحقيق هذا المشروع يشكّل اللبنة الأولى للنهوض بالتجارة الفرنسية في هذه البلاد وألحّ أيضا على ضرورة استئناف صيد المرجان والسلطات الجزائرية من جهتها تلّح على ذلك وإهماله سيدفع الصيادين الإيطاليين والكورسيكيين إلى الاستحواذ عليه وهو ما سيضّر بالصناعة التحويلية لهذه المادة في فرنسا من جرّاء فقدان المرجان الخام وأكدّ القنصل أنّ النهوض بهذا النشاط سيغطي تكاليف

الالتزام بما فيها مبالغ الإتاوة دون الاضّطرار إلى الاستعانة بعناصر التجارة الجزائرية الأخرى كما كان في الماضي، ويقترح لمنع الإنجليز من تهديد هذا النشاط إجبار الصيادين الكورسيكيين والإيطاليين على تفريغ محاصيلهم في مرسيليا وطلب من حكومته الترخيص له لفتح مفاوضات مع الجزائر للحصول على ترخيص صيد المرجان على سواحل غرب البلاد واقترح صيغة جديدة لاستغلال هذا الالتزام الجديد فبدل دفع الإتاوة يقسم المحصول مناصفة بين الطرفين لكنّ المقترح لم يقد م للسلطات الجزائرية لمعرفة ردّها لأنّ باريس طلبت من القنصل التريّث.

وأمام تدهور الوضع المالي للوكالة تزايد نفوذ الشركة اليهودية، حيث نجد في سنة 1796 كان بحوزة شركة بكري40 ألف قنطار من الحبوب لصالح الوكالة غير أنّ وكيل الشركة اليهودية بمرسيليا(يعقوب كوهين بكري)امتنع عن تسليم الشحنة لأنّ الوكالة تعاني من ظائقة مالية، وأمام الأحداث المتوالية في سنة 1798، وحسب موثّق القنصلية سييلف الذي تولّى الإشراف على الوكالة فإنّ أوضاع هذه الأخيرة أصبحت صعبة منذ بداية سنة 1798حيث اضطّرت لوقف نشاطها بسبب نفاذ مالها من المال ولم تحصل على موافقة لتمويلها وعملية الاقتراض محليا أصبحت صعبة وسيزيد الأمر صعوبة بعد الحملة الفرنسية على مصر خاصّة بعد إعلان الجزائر الحرب على فرنسا، وتوقّف نشاط الامتيازات الإفريقية التي ستخرّب محطاتها(القالة- القل- عنابة) [23]وإلقاء القبض على مدير

المؤسسات الفرنسية السيد بايرون(peiron) والعمال الفرنسيون البالغ عددهم 81 عاملا والطاقم الإداري الذي يضّم 15 فردا، كما تم احتجاز النقود والسلع والمواد التي كانت موجودة في المراكز التجارية الثلاث، وبعد وصول عمال الامتيازات إلى مدينة الجزائر طلب الخز ناجي موثّق القنصلية سيليف ليبلغه أنّه تّم استخلاص مبلغ أقساط اللزمة الخمسة التي تسدّد للخزينة من المال الذي تمّ حجزه في مراكز الامتيازات وما تبقى منه والسلع كذلك فقد سلّمت للتاجرين بكري وبوشناق مقابل الديون التي لهما على فرنسا، وطلب منه الاتصال بهما لضبط الاتفاق فيما بينهم، لكن بوشناق سارع برّد ما استلمه من السلطات للفرنسيين وفيها 17 صندوقا مملوءا بالمرجان، وبعض الحلّي وأعلن بوشناق أنّه لا يريد الاحتفاظ بأي شيء للفرنسيين، وتمّ جرد السلع التي استلمها التاجران وفيها القمح، والشمع، والجلود وكمية من الفول قدّرت قيمة ما تم الاستيلاء عليه بحوالي 110 ألف فرنك، لكن هذا لا يعني أنّ اليهود لم يكن لهم تأثير على الوكالة وعلى الامتيازات الإفريقية فذلك التأثير كان قوّيا على الداي حسن والباي مصطفى الخز ناجي الذي منحهم احتكار تصدير الحبوب وأصبحت الوكالة عاجزة عن تزويد الحكومة الفرنسية بمطالبهم دون وساطة يهودية[23].

ورغم تلك العقبات تمكّنت الوكالة من تصدير كميات معتبرة حسب تقرير(تانفيل) أنّ الوكالة صدّرت سنة 1798 لفرنسا 300 ألف قنطار من القمح و40 ألف من الشعير، الفول، و28 ألف قنطار من

الصوف، 880 قنطار من الشمع و80 ألف من الجلد.وبعد عودة العلاقات بين البلدين وخلال المفاوضات حاولت فرنسا إعادة الامتيازات الإفريقية لفرنسا بنفس الشروط التي كانت تستغّلها قبل القطيعة، كما حاول القنصل(ديبوا تانفيل) إقناع الحكومة الجزائرية بتخفيض مبلغ الإتاوة إلى المبلغ الذي كانت عليه سنة 1790، لكنّه لم ينجح، لكن وقع اتفاق بين الطرفين في جويلية 1800 الموافق لـ 28صفر 1215هـ بين متصرّف الجزائر مصطفى باشا والسيد ديبوا تانفيل[24] وقد حرص القنصل الفرنسي خلال المفاوضات على الحصول على التسهيلات الخاصّة بتصدير القمح إلى فرنسا، وطلب رفع حصة التصدير المرخّص بها للامتيازات من 500 إلى 1000قفّيز في السنة ومنح تسهيلات للحصول على كمية أخرى من القمح تتراوح بين 8 إلى 10 آلاف قفّيز حسب سعر السوق وتعويض حصة الالتزام التي لم تصدّر أثناء القطيعة.

ثم وقّع الاتفاق الثاني في 17 ديسمبر801 [25] ينصّ في مادته الأولى على تجديد الروابط التجارية والملكية بين الطرفين، وتضمّنت الاتفاقية 19مادة وجاء في المادة الثالثة:(تردّ الإيالة الامتيازات الإفريقية لفرنسا بنفس الوضع والشروط التي كانت تتمتّع بها فرنسا قبل القطيعة)، غير أنّ الوكالة كان عمرها قصيرا ولم تكن في مستوى الأحداث[26] على الصعيدين الفرنسي والجزائري وأمام عجزها المتزايد صدر قرار حلّها، ومحاولة إرجاع الشركة الملكية

الإفريقية التي رفضت الالتزام بتنفيذ القرار لأنّه يحرمها من استغلال وصيد المرجان الذي تستغّله الوكالة العامة المتوسطية.

ب- نشاطات الوكالة الإفريقية:

إنّ المحاولات التي بذلتها الوكالة لاسترجاع صيد المرجان باءت بالفشل فسبّبت في ذلك أضرارا كثيرة بالنسبة لمصالح فرنسا التجارية والصناعية، فبخصوص التجارة كان على المؤسسات القائمة على الساحل الشرقي أن تتّخذ من الأرباح التي يدرّها صيد المرجان رأس مال يساعدها على توسع نشاطها، [27] ويجنّبها اللجوء إلى بعض القروض المشروطة التي طلبتها من اليهود الجزائريين خاصة وكانت أحد أسباب إضعافها والتنازل عن العديد من حقوقها أما بخصوص الصناعة فالصيادين صاروا يوجّهون حمولتهم إلى مدينة ليفورن للحصول على أسعار أفضل ما أدى بمرسيليا إلى غلق المعامل الخاصة بصقل المرجان وهو ما أثّر على أوساط البطّالين وكثرة أعدادهم ومشاكلهم كما أن تجارة فرنسا مع الهنود والصين قد أصيبت بالكساد نتيجة لذلك(المرجان)، ومن هنا لم يبق للوكالة سوى ميدان الحبوب، الشموع، الصوف الجلود التي أصابها نقص في عمليات التصدير وأصبح اليهود يسيطرون على جزء كبير من النشاط الذي كان وقفا على الفرنسيين[28] في حين حاولت الوكالة استبدال المرجان وأرباحه بنوع آخر من النشاط التجاري ألا وهو تصدير المواشي والأبقار خاصة إلى فرنسا وإنشاء معمل في القالة لتصدير لحوم الخنازير وإرسالها لمرسيليا في شكل

علب وبراميل، وكان من الممكن نجاح العملية نظرا لوفرة الثروة الحيوانية وقد لاقت الفكرة في البداية رواجا ودخل المشروع حيّز التنفيذ لكن سرعان ما توقّف لقلة الإمكانيات المادية ومشاكل أخرى رغم أنهّا بذلت قصارى جهدها لنقل المواد المنتجة بالشرق إلى فرنسا وبكميات أكبر، وما يلاحظ أنّ المؤسسات حقّقت تقدّما في ظلّ تزايد طول الفترة التي امتدّ عليها نشاطها، ولكن النشاط التجاري لهذه المقاطعة بالإيالة كان متوقّفا على العلاقات التي يمكن إقامتها مع سلطات الجزائر والسلطات المحلّية في نفس الوقت بتقديم إرضاءات على شكل هدايا للأعيان وكبار الشخصيات في الدولة، أدّى توسع اليهود(بكري بوشناق) بشرق الإيالة إلى تهديد مصالح فرنسا وتمّ وضع تحت تصرّفها جميع الإمكانيات الخاصة، فالباي كان مرتبطا بولّي نعمته بوشناق وإثر هذه التصرفات ونتيجة المشاكل المتزايدة أخلت الوكالة ميناء القل في أكتوبر1795 وسعى القنصل الفرنسي لإقناع الباي بضرورة احترام مواد المعاهدة بين البلدين لكنّه لم يستمع لنداءاتهم وبالتالي فشل ممثلوا الوكالة في استرجاع النفوذ الذي كانت تتمتّع به سابقتها الشركة الملكية الإفريقية، (29) وما زاد في تعقيد العلاقات الجزائرية الفرنسية حملة نابليون على مصر وإعلان الدولة العثمانية القطيعة، وعلى الإيالة إتباع نفس السياسة والامتثال لأوامر السلطان وإعلان الحرب على فرنسا بعد محاولاتها اليائسة لإقناع نابليون بالتراجع عن فكرة المحافظة على العلاقات الودّية بين البلدين في حين أغلقت المؤسسات وهدّمت

بعض البنايات مع بداية الحرب وتم القبض على القنصل مولتيدو[30] وبذلك قضي على الوكالة قضاءا مبرما وإلغائها رسميا في جانفي 1801 على يد نابليون المتسبّب في وقف نشاطها.

ج- عودة نشاط الشركة الإفريقية:

قرّر نابليون في 17جانفي 1801 إلغاء الوكالة الإفريقية واستعادة الشركة الملكية، لكنّ المسئولين في الشركة رفضوا تطبيق القرار لأنّه يحرمهم من صيد المرجان ويعطيه لشركة جديدة جعل مقرها أجاكسيو وهو ما سيؤّثر على التجارة في ساحل الشمال الإفريقي، فحاول إنشاء شركة أخرى تكون تحت إشراف الحكومة وتكلّف بالعلاقات التجارية مع مصر والسواحل المغربية، لكنه لم يوفّق فاستؤنف النشاط التجاري بشكل فوضوي، وبقيت الامتيازات تسيّر إداريا من طرف القنصلية وفي حالة غموض إلى أن انتزعت من فرنسا عند نهاية سنة 1806، وقد زاد هذا الوضع في الخلافات بين البلدين خاصة عندما قامت فرنسا في سنة 1802 بمنح رخص لصيادي المرجان من الكورسيكيين لارتياد الامتيازات الإفريقية بدون علم السلطات الجزائرية فقامت هذه الأخيرة بوقف عدد منهم ومصادرة محاصيلهم، كما أنّ تحديد الوقت الذي يبدأ فيه دفع أقساط الإتاوة بعد انقضاء سنة الإعفاء، كان موضوع خلاف بين الجانبين فإهمال تحديد الأجل أعطى فرصة للقنصل لتأجيل دفع الإتاوة متذرّعا بكون الظروف لم تسمح للفرنسيين بالاستقرار في التزامهم، لكنّ السلطات الجزائرية تصرّفت معهم بحزم إمّا الاحتفاظ

بالالتزام وبالتالي دفع الإتاوة في آجالها أو التخلّي عنها ليتّم الاتفاق في النهاية على البدء في حساب آجال أقسام اللزم من شهر سبتمبر 1803، وتوالت الصعوبات أمام الشركة خاصة بعد هزيمة فرنسا في معركة الطرف الأغرّ في 21 أكتوبر1805، وهو أدى إلى كساد المنتجات الخاضعة لاحتكار الشركة كالشمع والجلود والصوف فطلبت السلطات الجزائرية توضيحا حول استغلال الامتياز كاملا أو التخلي عنه، فوجد القنصل الفرنسي نفسه في وضع مقلق لأن التنازل عن هذه السلع سيجعلها تقع بين أيدي آخرين من بينهم أعداء فرنسا، فتمّ إيجاد حلّ بتكليف رعية جزائرية من اليهود وهو إسرائيل سابور تيس الذي كان صنصال القنصلية الفرنسية[31] باستقبالها وكلّف نائب القنصل بعنابة بالإشراف على العملية وعلى صيد المرجان مؤقّتا لغاية تعيين هيئة تتولّى إدارة شؤون الامتيازات، لكن الإجراء لم يحلّ المشكلة، حيث تضرّر المنتجين من اختفاء التجار الفرنسيين من السوق الجزائرية، فاضطّر صيادو المرجان إلى قبول عرض الإنجليز الذي رفضه نائب القنصل في عنابة وندد به(ديبوا تانفيل) لأنّ المتعاملين الجدد من الإسبان واليهود ركزّوا على تجارة الحبوب والقمح لاشتداد الطلب عليه في أسواق أوربا وهو ما تعذّر توفيره بسبب الجفاف والمجاعة التي عرفتها البلاد وامتدت 3 سنوات بلغت ذروتها سنة 1805، وهو ما يفسّر إلحاح المسئولين على قدوم التجّار الفرنسيين إلى الجزائر، لم يظهر التجار الفرنسيون في الأسواق الجزائرية، وازدادت شؤون الامتيازات

تدهورا واتخذت السلطات الجزائرية منذ أوت 1806 إجراءات ضدّ صيادي المرجان في الامتيازات وذلك لقيام عدد من صيادي المرجان الفرنسيين بالاستيلاء على مركب جزائري مخصّص للملاحة الساحلية، وبعد نهبه تم إغراقه وبعد شهرين من الإجراءات التي اتخذتها السلطات الجزائرية لمّح الداي أحمد باشا للقنصل الفرنسي بإمكانية سحب الامتيازات منهم وأن هناك عوائد غير الإتاوة مرتبطة بها يجب مراعاتها وأداؤها في آجالها، وفي أواخر ديسمبر1806استدعى الداي القنصل تانفيل ليبلغه أنّ الإنجليز يعرضون مبلغ 40 ألف قرش إسباني للحصول على استغلال الامتيازات الإفريقية وأنه يطلب مبلغ 60 ألف قرش إسباني معلنا أنّه سيفضّل الفرنسيين إذا عرضوا مبلغا يزيد عن الذي يقترحه الإنجليز، ولم يكن متوقّعا أن تقبل فرنسا بذلك نظرا لتدهور الأوضاع المالية والشلّل الذي تعرفه التجارة البحرية الفرنسية، فلم تنتظر السلطات الجزائرية طويلا ردّ فرنسا فقرّرت سحب الامتيازات الإفريقية من فرنسا ومنحها للإنجليز في 2 جانفي1807 [32] بموجب عقد وقّع عليه الداي الحاج أحمد باشا، [33] عن الجانب الجزائري والسيد هنري بلانكي القنصل العام عن الجانب الإنجليزي، وينصّ العقد أن تتولّى إنجلترا استغلال الامتيازات في كل من عنابة والقالة وتنفرد بصيد المرجان قي مقابل دفع 50 ألف دولار سنويا وعلى قسطين [34] إلى خزينة الإيالة [35] وإذا صادف أن استبدل قنصلها في عنابة فإنّها تقدّم إلى الداي هدية قدرها 255 دولار وبعد هذا الاتفاق تقدّم لسير

الكسندر بال(حاكم مالطا) بإرسال مندوب إلى قسنطينة للتفاوض مع الباي حول إمكانية شراء الحبوب والمواشي الضرورية لتموين الجيوش الإنجليزية المقيمة في مالطا وجبل طارق، كانت اهتمامات الإنجليز هي إنشاء قواعد عسكرية في عنابة والباستيون لدعم مواقعهم في مالطا وجبل طارق لاستكمال السيطرة على البحر الأبيض المتوسط فلم يهتمّوا بالتجارة، والصيد وتركوها لعشرين تاجرا من مالطا كما سمحوا لبكري وشركائه بالقيام بالتجارة في الامتيازات ومكنّوهم من محلات الفرنسيين لما كان لهم من نفوذ لدى سلطات الجزائر يمكن استعمالها للقضاء على النفوذ الفرنسي، أمّا صيد المرجان فقد منح للبحارة الصقليّين والسردينيين والكورسيكيين والإسبان ونظرا لعدم اهتمام الإنجليز بالتجارة ولم يقدّموا المساعدة والحماية للصيادين الذين أصبحوا يسخطون على هذا الوضع فلم يتمكّن الإنجليز من الحفاظ على المستوى الذي كانت عليه التجارة في موانئ الشرق الجزائري قبل مجيئهم وحينما عجزت إنجلترا عن تحقيق هدفها بالترغيب أرسلت حملة بقيادة اللورد إكسموث في 15 مايو 1815 لإرغام الداي والديوان على قبول عروضها حول إنشاء قواعد عسكرية في عنابة والقالة وادّعت أن الغرض من الحملة هو الإفراج عن العبيد المسيحيين الموجودين في الإيالة[36] لكن السلطات الجزائرية لم تتأثّر بهذه العملية.

وخلال فترة سيطرة الإنجليز على الامتيازات الإفريقية حاول القنصل الفرنسي افتكاك هذه الأخيرة من الإنجليز مستغلاّ تقاربه

مع أقارب الداي أحمد باشا في بداية 1808واستطاع إقناع الداي أحمد باشا بتحرير عقد مختوم من طرفه أعاد فيه الامتيازات الإفريقية للفرنسيين لكن اغتيال الداي أحمد باشا في 7 نوفمبر 1808 أضاع هذه الفرصة على الفرنسيين والسلطة الجديدة لم تعترف بما أقرّه الداي السابق واتّهم القنصل في البداية بالتزّوير ولم تطرح فرنسا الفكرة إلاّ عندما لّمح وكيل الحرج لنائب القنصل بإمكانية استرداد الامتياز في سنة 1810 إذا رضيت فرنسا بدفع إتاوة أعلى قليلا ممّا كانت تدفعه في الماضي لكن العون الفرنسي لم يظهر حماسا لذلك، وحتى عند عودة تانفيل سنة1811لم يطلب منه البثّ في موضوع الامتيازات لغاية عودة أسرة أل بوربون إلى العرش فعاد الاهتمام بمسألة الامتيازات وكلّف القنصل الجديد بيير دوفال (1815-1827)بالعمل كل ما بوسعه من أجل ردّ الامتيازات الإفريقية لفرنسا، رغم أن السلطات الجزائرية في البداية كانت تحاول الاحتفاظ بالامتيازات واستغلالها لكن الداي عمر باشا تراجع عن هذه الفكرة وعرض الامتيازات على التاجر اليهودي يعقوب بكري لأخذها باسمه أو باسم الطائفة اليهودية لكنّه رفض بسبب قرب نهاية تسوية مشكل ديونه مع الفرنسيين فتخوّف أن يعتبر الفرنسيين ذلك مساسا لمصالحهم فيؤجّلون تصفية الديون، وقدّم قنصل نابولي طلبا لدخول بلاده في الالتزام لكن الإدارة الجزائريةلم ترضى بعرضه، وبعد حملة اللورد إكسموث التي ادعى من خلالها الإنجليز أنهم قدموا لوضع حد لاسترقاق البيض، (37) اتخذّت السلطات

الجزائرية إجراءا ضدّهم حيث وجّه الداي تعليماته لباي قسنطينة لوقف جميع الإنجليز العاملين في عنابة وإطلاق الرصّاص على كل من يحاول الفرار منهم وسمح للأهالي بنهب المؤسسات وقاد الأسرى البالغ عددهم 800 إلى عاصمة الشرق الجزائري وأمام تدهور العلاقات الإنجليزية الجزائرية تأتي حملة إكسموث الثانية في 27 أوت 1816 الموافق لـ3شوال 1231هـ بأسطول قوي[38] مدعّمة ببعض الوحدات الهولندية وحاولت إنجلترا استغلال الضائقة التي كانت فيها الإيالة من حيث الذخائر[39] وقد يكون ذلك السبّب الذي دفع الداي عمر إلى طلب مهلة 6 أشهر حتى تصله الإمدادات من الأستانة، فكانت هذه الأحداث سببا في وضع حدّ لمصالح إنجلترا التجارية والإستراتيجية لإقامة قواعد عسكرية بعنابة والقالة لضمان طريقها إلى مالطا وجبل طارق[40] في منطقة الشرق وتترك المجال لفرنسا، وإضافة إلى هذه العوامل التي أدّت إلى تخلّي الإنجليز عن الامتيازات الإفريقية فإنّ سكان المنطقة كانوا مرتبطين بالفرنسيين، فالأسبقية وطول مدة تعامل الفرنسيين مع الأهالي، ومحاولة فرنسا خلق مشاكل للإنجليز لإجبارهم على التخلّي عن الامتيازات بسبب قضية المنشآت والمخازن ومنزل إقامة نائب القنصل بعنابة التي ستجعل منها فرنسا قضية (شرف وطني)وأحيلت القضية على محكمة عنابة التي أصدرت حكما في مارس 1810 لصالح الوكالة الإفريقية للدوافع التالية: على أنها أملاك فرنسية منذ أمد بعيد وبحكم طول مدة الاستغلال باسم(شهرة حيازة

التصريف) والتي لم ينفذها الداي[41]، فبقي بها الوكيل الإنجليزي وفي ذات الوقت وكيل لشركة بكري لغاية1817، وبمقتضى اتفاق فرنسي جزائري وقّع في 15 مارس1817 عادت الامتيازات إلى فرنسا وتكريس احتكارها لصيد المرجان والمواد المستغلّة سابقا كان لعودة أسرة البوربون إلى عرش فرنسا بعد سقوط نابليون أثّر على علاقاتها مع الجزائر إذ اهتمّت بمسألة الامتيازات الإفريقية خاصة بعد تبديل القنصل تانفيل بالقنصل الجديد دوفال Duval الذي التحق بمنصبه في فيفري 1816 وشرع في التفاوض مع سلطات الإيالة بشأن ردّ الالتزام إلى فرنسا وأبدت الجزائر موافقتها لكن مقابل دفع إتاوة بقيمة 50 ألف قرش إسباني كإتاوة سنوية وهو مبلغ يفوق ما كان يدفعه الإنجليز بنسبة 20%فكان هذا المبلغ سببا في طول هذه المفاوضات التي ستنتهي بتوقيع اتفاق فرنسي جزائري في 15 مارس1817 أعاد الامتيازات لفرنسا مقابل الإتاوة المتفّق عليها بالإضافة إلى 18 ألف ريال بوجو لباي قسنطينة وإتاوة المرجان (قنطارين للدايلك وقنطار لبايلك الشرق)دون إثبات ذلك كتابيا.

ثانيا- النفوذ اليهودي والامتيازات الإفريقية:

عندما تمكّن اليهود من اختراق النظام العثماني ومؤسساته السياسية وطّدوا أقدامهم وأصبحت لهم طموحات لمدّ نفوذهم التجاري أكثر على حساب الامتيازات الإفريقية، فمنذ عهد الشركة الملكية الإفريقية ظهر نفوذ شركتي بكري وبوشناق حيث كانا يشتريان الصوف والحبوب من السلطات أو الفلاحين مباشرة

بأسعار منخفضة ثم يبيعانها بأسعار باهظة إلى الشركة الملكية الإفريقية[42]، لأنّ الشركة الملكية كانت تحتكر التجارة الخارجية في موانئ الشرق الجزائري وكانت تدفع الأسعار الباهظة لتتمكّن من استعمال اليهود للتوسّط لدى السلطات الجزائرية عند الحاجة في اكتراء السفن الأجنبية ومصاحبة البضائع إلى مرسيليا خوفا من تعرّضها إلى مهاجمة المهاجرين الفرنسيين أو الإنجليز الذين كانوا قد بدأوا حصارهم على سواحل فرنسا، وبذلك فالشركة الملكية لم تكن تملك تلك الشبكة من العلاقات والإمكانيات المالية التي كانت تمتلكها الشركة اليهودية في الجزائر وفي فرنسا أيضا، فالكثير من رجال السياسة كانوا مجنّدين لحماية المصالح اليهودية عامة داخل المؤسسات التنفيذية والتشريعية الفرنسية لقاء رشاوى بوشناق وبكري[43]، وبذلك تمكّن اليهود بفضل أموالهم من الحصول على امتيازات مختلفة، وتمكّنوا من تحقيق مآربهم في عهد الداييين حسن ومصطفى، في الوقت الذي كانت فيه فرنسا تمرّ بظروف صعبة فاستطاع اليهود كيف يستفيدون من الخلافات الدولية، كما كانوا ماهرين في تسويق أسوأ البضائع ومخادعة رجال الجمارك مهما كانت يقظتهم، واستطاعت شركة بكري بوشناق تصدير منتوجات الشرق الجزائري إلى ميناء مرسيليا سنة 1793مستعملة مينائي عنابة وستورة رغم احتجاجات الشركة الملكية الإفريقية التي كانت تمتلك الامتيازات، وقد ساعد هذه الشركة على النجاح معرفة اليهود باللغة العربية وكذا معرفتهم لعادات وأخلاق الجزائريين فكانوا

يخرجون بأنفسهم إلى كل أنحاء المقاطعة ويشترون ما يريدون ثم يحملون بضائعهم على متن سفن أجنبية يحمونها بالراية الجزائرية بينما كان ممثّلوا الشركة الفرنسية التي كثيرا ما كانت تتعرّض لحجز الإنجليز والإسبان أو المهاجرين الفرنسيين، وفي بعض الأحيان كان الفرنسيون يلجئون إلى بكري وبوشناق لإيصال بضائعهم إلى الموانئ الإيطالية ومنها تحمل برّا إلى فرنسا، وفي سنة 1794حصل اليهود على جميع الاحتكارات التجارية في الشرق الجزائري، وذلك بعد حلّ الشركة الملكية الإفريقية التي وجدت أمامها عدّة صعوبات وعراقيل أهمّها عدم توفر رؤوس الأموال وانعدام وسائل النقل ففرض عليها التعامل مع اليهود الذين وجدوا في النقل وسيلة لتحقيق الأرباح فأصبحت تستأجر السفن الأجنبية وتزوّدها بجوازات سفر جزائرية تكتريها للفرنسيين، وبذلك بدأ تراجع نفوذ الامتيازات الإفريقية وتزايد نفوذ الشركة اليهودية، وفي سنة 1795 عقدت مصالح التموين بباريس اتفاقية مع شركة بكري بوشناق ب200 ألف حمولة من القمح نصفها على سعر 100 فرنك للحمولة، ونصفها الآخر على سعر 120 وينصّ الاتفاق أن يكون الدفع نقدا (44) رغم أنّ الوكالة الإفريقية كانت ترسل نفس القمح تشتريه بخمس وعشرين فرنكا للقنطار الواحد أي بحوالي ثلاثين فرنكا للحمولة، وفي ظلّ هذا النفوذ المتزايد لشركة بكري بوشناق في الشرق الجزائري، اضطّرت الوكالة الإفريقية إلى التنازل عن حقوقها والانسحاب من مينائي جيجل والقل في أكتوبر 1795، ثم اعترفت

المعاهدات والهدايا[47]، وقد حاول القنصل فاليير الحدّ من نشاط الشركة اليهودية، خاصة في الشرق الجزائري، الذي كانت توجد فيه أكبر كمية من الحبوب، لكنّه يتخلّى عن فكرته بسبب المشاكل المالية التي كانت تتخبّط فيها الحكومة الفرنسية، فهي لم تعد قادرة على دفع الأموال الضرورية نقدا لشراء ما يلزمها لتغذية السكان وتشغيل المعامل التي كانت قد أنشئت من أجل صناعة الصادرات الجزائرية، وزيادة على هذه المشاكل فإنّ الحكومة لم تكن قادرة على توفير الأمن لأسطولها التجاري وحمايته من هجومات الإنجليز والمهاجرين الفرنسيين المتجمّعين في إيطاليا خاصة والذين كانوا مستعدّين للقيام بأي شيء قد يعرّقل النظام الجمهوري لإعادة النظام الملكي كالاستيلاء على السفن ومنع المؤن من الوصول إلى الفرنسيين، هذا إلى جانب الخطر الذي كان يشكّله الإنجليز والإسبان الذين كانوا يحتجزون جميع السفن المتوجّهة إلى الموانئ الفرنسية وهو ما اضطرّ الوكالة إلى استعمال أسماء الجزائريين من اليهود والمسلمين وتكتري الأشخاص أنفسهم[48] ليصحبوا الشحنات، وقد حاولت الوكالة الاتّصال بباي قسنطينة لإقراضها المال لكن الغشّ الذي اكتشف غيّر الأمور وجعل الأعيان والسلطات في المنطقة يحترسون من التجّار الفرنسيين، ونظرا لقلة رؤوس الأموال تعطّل نشاط الوكالة الإفريقية لحساب التجّار اليهود الذين استغلّوا عجز الوكالة المادّي لسيطرتهم على الأسواق التي كانت تحتكّرها التجارة الفرنسية، فأصبحت الوكالة تلعب دورا

ثانويا بالنسبة لما يقومون به، وقد زاد من اضطراب وضع الوكالة تفضيل الأهالي منهم سكان القل التعامل مع اليهود أو التونسيين وكانوا يحملون لهم البضائع، لأن أسعارهم كانت أحسن من أسعار الفرنسيين ولأنّهم كانوا يشترون منهم جميع الأنواع بدون استثناء عكس التجار الفرنسيين الذين كانوا يرفضون الجلود التي تحملها القبائل المجاورة بمناسبة الأعياد والمواسم، وحتى سكان عنابة قد قدّروا قيمة الأرباح التي يحصل عليها الفرنسيون من صناعة الجلود فأقاموا المدابغ لتلبية الحاجيات المحلّية ولتزويد تونس سنويا بحوالي 12 ألف جلد مدبوغ[49]، وبذلك أصيبت صادرات الوكالة في هذه المادة بنقصان كبير يزيد عن ربع ما كانت تنقله الشركة الملكية الإفريقية إلى مرسيليا.

وقد زاد من تدهور الأوضاع تعيين مصطفى الوزناجي بايا على قسنطينة الذي تواطأ مع شركة بكري بوشناق لتضييق الخناق على الامتيازات الفرنسية وقام بمنع التجّار الفرنسيين من تصدير القمح الذي كانت فرنسا بأشدّ الحاجة إليه وحتى السكان بدورهم ضّيقوا على الفرنسيين ومؤسساتهم وقاموا بهجومات ضدّهم وهو ما جعل الوكالة تأمر بإخلاء ميناء القل في أكتوبر1795، وتطلب من قنصلها أن يسعى لإقناع الباي بضرورة احترام مواد المعاهدة الموقّعة بين البلدين والتي تجدّدت قبل ذلك بأربع سنوات لكن الباي لم يستمع لنداءات القنصل فالير، لأن محاسبي البايلك اكتشفوا أن الوكالة لا تدفع كل الرسوم المترّتبة على عمليات التصدير والاستيراد

والأسعار التي تقدّمها غير مطابقة للأسعار المتفّق عليها وكان اليهود وراء المضايقات التي كانت تتعرّض لها الامتيازات الإفريقية لارتباطهم بحكّام البلاد، ففشل ممثلي الوكالة الإفريقية في استرجاع النفوذ، ولم تستطيع تقديم أسعار قادرة على الصمود في وجه المنافسة الأجنبية، وحتى الداي الذي أظهر رغبته في مساعدة الفرنسيين والحفاظ على صداقاتهم أصبح ينظر إليهم بعين الازدراء لرفض الحكومة الفرنسية الاستجابة لطلبه الخاص بمسألة مايفرن فلم يتدّخل لإرغام باي قسنطينة على تغيير تصرّفاته إزاء ممثلي الوكالة، حتى أنّه أصبح يشجّع السلطات المحلّية بالشرق الجزائري على تمكين اليهود من احتكار التجارة هناك(50) وبذلك استطاع اليهود بفضل صلاتهم بالحكّام العثمانيين عرقلة نشاط الامتيازات الإفريقية، ولم يتمكّن القناصل من وضع حدّ لتدخّلاتهم الخطيرة رغم مساعيهم لدى البايات والدايات لكنّهم فشلوا خاصة في الفترة التي ظهرت فيها مشكلة ما يفرن، فاستطاع بذلك اليهود فرض السيطرة على التجارة الخارجية خاصة الحبوب في أهم موانئ البحر الأبيض المتوسط وهو ما تبّرزه رسالة القنصل الفرنسي سانت أندري جانبون (1796–1798) التي يقول من خلالها(ففي جميع المدن يقوم عملاء ووكلاء اليهوديين بكري وبوشناق بأدوار مهمّة يمارسون نفوذا سياسيا يختلف قوة وضعفا باختلاف نوع الحكومات وباختلاف مصالحها وهؤلاء الوكلاء يمدّون الدولة الأوربية الصغيرة بالأسلحة...ويعدون بإقامة دعائم السلام ولكنّهم متى غضبوا

يعلنون الحرب! فإذا كانت المسألة مسألة إعادة شراء العبيد فهم يقومون بهذه العمليات بوصفهم وسطاء وإذا تدخّل تاجر أوربي في إحدى هذه العمليات منعوه وطردوه من السوق، وإذا تدخّل القناصل بنفوذهم فإن مساعيهم ستفشل حتما...إنّ سبب تضاؤل نفوذنا في إفريقيا الشمالية مرجعه ازدياد نفوذ هؤلاء اليهود! والإنجليز مدينين لهم بما حصلوا عليهم...إنّ هؤلاء اليهود لهم الآن بإعداد مشروع بكل تصميم وثبات بهدف ضمّ تونس وإخضاعها إلى الجزائر، وسيقيمون في حالة إذا ما نجحوا نظاما سياسيا جديدا ستكون نتائجه وخيمة...وكوارث بالنسبة إلينا..) (51).

ب-النفوذ اليهودي وتأثيره على العلاقات الجزائرية الفرنسية:

لم يبقى للقناصل الفرنسيين سوى الكتابة إلى المسئولين في فرنسا للتدّخل لدى السلطات في الجزائر، ولم ينحصر نفوذ اليهود في الجزائر فقط بل امتّد حتى فرنسا حيث نجد أنّ يعقوب بكري عمل على تذليل الصعوبات التي تعترض الشركة اليهودية معتمدا في ذلك على عدّة وسائل أبرزها الرشوة، حتى أنّ مدير الغرفة التجارية بمرسيليا كتب إلى القيادة رسالة يعبّر فيها عن تخوّفه وقلقه من انتشار نفوذ اليهود في مرسيليا وتذّمر من الدور الخطير الذي يقوم به التجّار اليهود في تجارة البحر الأبيض المتوسط، وكذا دعم الداي حسن لهم لتمثيلهم مصالحه رسميا لدى الحكومة الفرنسية بتعيينه يعقوب كوهين بكري المكلّف بشؤونه لدى الحكومة الفرنسية

التي طلب منها خدمة مصالحه والمصالح الخاصة بالداي، وكانت الحكومة الفرنسية في تلك الفترة تسعى للحفاظ على علاقاتها مع الجزائر كحاجتها الماسّة إلى الحبوب، لذلك حاولت إرضاء اليهود لإرضاء الحكومة الجزائرية وهو ما توضّحه الرسالة التي بعث بها دولا كروا (DELACROIX) وزير الخارجية فرنسا في جوان 1796 إلى الداي حسن والتي جاء فيها(لقد وصلتنا رسالتكم المؤرّخة في 12 جويلية 1795من التاجر اليهودي يعقوب كوهين بكري المكلّف بشؤونكم في مرسيليا فتسلّمنا بكل طيبة خاطر المعاني الخالصة لصداقتكم واعترافاتكم بالترحيب الذي ناله منذ قدومه إلى فرنسا، كن واثقا أنّه سوف يبدي رضاه كذلك من المعاملات الحسنة المتواصلة التي نعطيها له)[52].وبذلك استطاع اليهود الاستفادة من تدخّل حكام الجزائر واستغلال الظروف الدولية لخدمة مصالحهم، فاستطاعوا النفوذ إلى المحيط الرسمي والاطّلاع على أسرار الدولة وهذه المكانة مكنّت بعض اليهود من احتلال وضع ممتاز في الجزائر وفرنسا، وبذلك لم يكن بوسع سلطات الثورة الفرنسية سوى السكوت لحماية مصالح فرنسا التجارية وصيانتها رغم مطالبة الغرفة التجارية بمرسيليا بالتدّخل لوضع حدّ للنفوذ التجاري اليهودي في البحر الأبيض المتوسط، لكنّ السلطات في مرسيليا كانت ترّد قائلة(من المستحيل أن نمنعهم من ذلك..).

ومن جهة أخرى استغّل اليهود اضطراب العلاقات بين الجزائر وفرنسا بسبب الحملة الفرنسية على مصر، وإعلان الجزائر الحرب

على فرنسا بطلب من الباب العالي لتقديم خدماتهم في وقت كانت فيه فرنسا بحاجة إلى الحبوب ومواد أخرى لتزويد جيوش الحملة، وذلك بعد أن طلب تاليران وزير الخارجية الفرنسي من بكري تزويد الجيش الفرنسي بكميات كبيرة من القمح تحمل في مراكب جزائرية حتى لا تتعرّض لهجوم الإنجليز، كما تعهّدت الشركة اليهودية بإرسال شحنات من العتاد الحزبي وحملت إلى مصر بطلب من قائد الحملة مليوني زجاجة خمر، وكميات من الأقمشة والأدوية والزيوت وغيرها من المواد التي تحتاجها الجيوش أثناء الحروب.[53] وبعد وفاة الداي حسن وتولّي مصطفى باشا الحكم سنة 1798 انتزع المؤسسات من الفرنسيين في فترة القطيعة ومنحها للشركة اليهودية، وبذلك فإن الحملة الفرنسية على مصر مكّنت شركة بكري بوشناق من السيطرة على التجارة الخارجية في الشرق الجزائري على حساب الوكالة الإفريقية ونظرا لتزايد حجم الديون الناتجة عن تصدير كميات كبيرة من الحبوب إلى فرنسا وعجز الخزينة لم يكن في استطاعة السلطات الفرنسية دفع المبلغ نقدا والذي كان يقدّر بـ8. 151. 000[54] فرنك عمل بوشناق على ضرورة تحقيق السلم للحصول على أمواله، فتمّ توقيع اتفاق الصلح سنة1801 الذي تعهّدت خلاله فرنسا بدفع مبالغ الديون، ونظرا لرفض مسئولي الشركة الإفريقية القدماء استئناف نشاطهم، استغّل اليهود الوضع للحفاظ على احتكارهم للعمليات وزيادة أرباحهم.

ورغم محاولة السلطات الفرنسية تنظيم الامتيازات الإفريقية لكنّها لم تنجح في إعادة تشكيل شركة تقضي على الفوضى وتعيد الحيوية للعلاقات التجارية بين الشرق الجزائري ومرسيليا والسبب الرئيسي لذلك هو مناورات اليهود الذين استطاعوا السيطرة على نشاط الامتيازات الإفريقية مع إضافة احتكار استغلال غابات الكرستة في نواحي بجاية الذي حصلوا عليه من الداي مصطفى مقابل ضريبة مرتفعة[55]، هذه الغابات التي تستخرج منها جميع أنواع الأخشاب الضرورية لصناعة السفن الحربية والتجارية، لكن في سنة **1805**حدثت مجاعة كبيرة في الجزائر وبدل أن تقوم الشركة اليهودية بتقديم المساعدة للسلطات الجزائرية لتموين السكان بالأغذية، فإنّها كانت تقوم بجمع الحبوب من مختلف مناطق الإيالة ثمّ ترسلها إلى فرنسا وهو ما أثار الجيش الانكشاري الذي قام أحد أفراده ويدعى(يحيى) يقتل اليهودي بوشناق في 28 جوان 1805 وهو ما أثّر على نشاط الشركة اليهودية والوجود اليهودي ككّل الجزائر والذي تبعه مقتل الداي مصطفى.لقد اعتمد الداي الجديد أحمد خوجة(**1805–1815**)سياسة الضغط على الشركة اليهودية لاسترجاع المبالغ التي كانت على بوشناق للخزينة، لكن داوود بكري استطاع التقرّب من الداي الذي عيّنه في 30 جوان **1806**رئيسا للطائفة اليهودية[56] وأصبح يدافع عن مصالح اليهود، في الوقت الذي أصبح فيه الإنجليز يسعون للحصول على الامتيازات الإفريقية بعد سحبها من الفرنسيين العاجزين عن دفع الأتاوة

السنوية وتسديد الديون، وقد تدخّل بكري لمساعدة الإنجليز لعلمه بنواياهم في إقامة قواعد عسكرية في عنابة والباستيون لتدعيم مواقعهم في مالطا وجبل طارق، وفي مقابل ذلك سمح الإنجليز للشركة اليهودية بممارسة التجارة في أي مكان يشاءون، وسمح لها الداي باستغلال موانئ القل وجيجل وبجاية مقابل دفع ضريبة قريبة من التي يدفعها الإنجليز، وبذلك أصبحت فرنسا مضطّرة لشراء حبوب قسنطينة ومنتوجاتها الأخرى عن طريق الشركة اليهودية وبذلك استحوذ اليهود على جميع أنواع التجارة في الشرق الجزائري وظلّوا محتكرين عمليات التصدير نحو مرسيليا وليفورن طوال الفترة ما بين 1807–1817 (57) لعدم اهتمام الإنجليز بالتجارة وتخصيص كل وقتهم للبحث عن الوسيلة التي تمكّنهم من الحصول على إذن لبناء قاعدة عسكرية في عنابة.

وإذا استطاع اليهود السيطرة على العلاقات التجارية بين الشرق الجزائري وأوربا فإنّ ذلك يعود إلى الاتصالات التي قام بها المسئولين وكسب ودّهم ورضاهم بالهدايا الثمينة والمساعدات المالية والخدمات المختلفة وكانوا يعرّضون أموالهم وأرواحهم للتلّف والهلاك للقيام على أحسن وجه بعمليات البيع والشراء في أنحاء الإيالة أو عمليات النقل عبر البحر التي كانت عرضة للغزو البحري وعند سحب الامتيازات الإفريقية من الإنجليز وإعادتها للفرنسيين أصدر لويس الثامن عشر مرسوما لإنشاء شركة ملكية تحتكر استثمار الامتيازات الإفريقية، لكنّ شركة بكري بوشناق بقيت

تسيطر على محلاّت الفرنسيين بتشجيع من الإنجليز والداي الذي رفض التدّخل لإرغامها على الخروج وذلك بسبب الموقف السلبي للسلطات الفرنسية تجاه قضية الديون المترّتبة على فرنسا لكن رغم ذلك ستعاد الامتيازات إلى فرنسا في 15 مارس 1817 بعد توقيع الاتفاق السابق الذكر، لذلك خافت الشركة اليهودية على تجارتها وشجّعت الداي على اتخاذ إجراء يخدم مصالحها التجارية أو يحافظ عليها، واقترحت عليه فتح باب التجارة والمنافسة بالإيالة لجميع الدول لتدعيم خزينة الدولة بالأرباح والضرائب، فرحّب الداي حسن بالفكرة ونشر بيانا في سنة 1826 يسمح فيه لجميع الدول بصيد المرجان في الجزائر والتجارة في كل من القالة وعنابة وهو آخر ما بقي لفرنسا من الامتيازات الإفريقية، فحافظت بذلك الشركة اليهودية على مصالحها ونفوذها التجاري لكونها الأكثر قدرة على المنافسة من الناحية المالية والسياسية وأكثر هيكلة ودراية بأمور التجارة في الجزائر من جانب ومن جانب آخر دفعت العلاقات الجزائرية الفرنسية إلى التوتّر.

إن شركة بكري بوشناق، ضحّت بمصالح الجزائر للحفاظ على مصالحها الشخصية ولم يكن بإمكانها تحقيق كلّ هذا النجاح في مخطّطاتها ومشاريعها الاقتصادية والسياسية، وإلحاق هذه الأضرار بالجزائر إلى حد سقوطها بيد الاستعمار الفرنسي، لو لم تكن الظروف المساعدة على ذلك متوفّرة داخل البلاد والتي تجسّدت في التدهور الشامل الاقتصادي، السياسي، الاجتماعي والعسكري

للجزائر العثمانية الذي كان يمثّل جزءا من الانحطاط الذي كان يعرفه العالم الإسلامي تحت الحكم العثماني في بداية القرن التاسع عشر.

إن اليهود يجنون أموالا طائلة، متلاعبين بأقوات الشعب الجزائري واستطاعوا بسط نفوذهم بواسطة الرشوة والجوسسة على الدايات الذين مكّنوهم من السيطرة على التجارة في البحر الأبيض المتوسط ليحتكروا لأنفسهم تجارة تصدير الحبوب إلى فرنسا، وقد زاد من الوضع المعاملات التي كانت تجري مع فرنسا التي كانت تعيش أوضاعا صعبة بسبب الثورة الفرنسية وبسبب ركود النشاط الاقتصادي والحصار الذي فرضه الحلفاء الأوربيون عليها، وهو ما جعل الجزائر تقوم بدفع فواتير فرنسا من شحنات القمح لتموين الجيش الفرنسي.

وبذلك فإن اليهود ورغم المشاكل التي واجهتهم استطاعوا فرض أنفسهم في المجالين التجاري والسياسي، ورغم تعرّضهم للعراقيل، إلا أنّهم ظلّوا محافظين على مكانتهم، واستطاعوا استمالة أكبر الشخصيات في الجزائر وبلدان أخرى، واستعملوها في الوقت المناسب لخدمة مصالحهم، على حساب السكّان والامتيازات الإفريقية الفرنسية التي تضرّرت كثيرا من هذا النفوذ الكبير، وقد كان السكان يلاحظون ويتابعون نفوذ اليهود وتوغّلهم لغاية الانتقام منهم. وقد وقع الداي تحت سيطرة اليهود بسبب مصالحه المتشابكة بمصالحهم في الداخل والخارج لدرجة استصعب عليه فصل هذا

الدّين عن المسائل الأخرى، ضف إلى ذلك جهله بحقيقة وضع الشركة في فرنسا، بقدر جهله لإجراءات التسوية المعقّدة لديونه ولم يسجّل نفسه دائنا للشركة وهو ما زاد الأمر صعوبة في ظل تآمر فرنسا مع اليهود على الداي.

الهوامش:

[1] - فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ط2، الجزائر: شركة دار الأمة للطباعة والنشر، 2004، ص131.

[2] Masson, Paul, Histoire des établissements de commerce française dans-

[3] E, primaudaie, histoire du commerce et de navigation en Algérie avant - la conquête française, paris, 1861. p p 14 - 17.

[4] Anonyme, petit Larousse illustré 1990, librairie Larousse, 1989, p 125-

[5] - الزبيري، محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الجزائر :المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، ص202.

[6] Masson, histoire des établissements…Ibid. , p 18- 20-

[7]- Abel, Boutin, anciennes relations commerciales et diplomatiques de la France avec la barbarie (1515- 1830), T_1, paris, 1902, p 458.

[8] - رسالة 102، من مجموعة الوثائق التي تحمل رقم 1641، محفوظة بالمكتبة الوطنية بالجزائر.

[9] - العربي، الزبيري، المرجع السابق، ص 93 .

[10] - المرجع نفسه.

[11] Abel, Boutin,Ibid,p 36.-

[12] - الصايم عملة جزائرية تستعمل في المعاملات الحسابية ودفع الأجور، انظر سعيد وفي: النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800-1830، الجزائر : المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979، ص209.

[13] - قنان، العلاقات الفرنسية الجزائرية 1790-1830، الجزائر :منشورات متحف الجزائر، 1999، ص236.

[14] -Masson, histoire des établissements. Ibid , p453.

[15] - F. e, primandaie, "le commerce et la navigation d'Algérie" revue algérienne et coloniale, Juin 1860, p 51.

[16] - العربي الزبيري، المرجع نفسه، ص 211 .

[17] - زروال، العلاقات الجزائرية الفرنسية 1791-1830، الجزائر :مطبعة دحلب، ص 123.

[18] - Plantet ,E, correspondances des deys d'Alger avec le cour de France 1579-1833 ,T2 (1700-1833),paris,1889 ,p 438.

[19] - قنان، العلاقات الفرنسية، المرجع نفسه، ص 240.

[20] - Masson, Marseille et la colonisation française « essai d'histoire coloniale»:Berlatier , ,1906, p 497.

[21] - الزبيري، المرجع نفسه، ص214.

[22] - قنان، العلاقات الفرنسية...، المرجع نفسه، ص 242.

[23] - Esquer, ,G ,Le commencement d'une empire 1830 ,paris :Ed la rose ,1929, p. 23.

[24] - E, Mercier, histoire de Constantine, Constantine : j. marle et f. Biron, 1903, p 305.

[25] - خط همايون، علبة21، عدد 5825، السنة 1215هـ/ 1800م، تعريب فكري طونة.

[26] - خط همايون، علبة 21، عدد 5837، السنة 1216هـ/ 1801م، تعريب فكري طونة

[27] - Devoulx, A,Tachrifat ,recueil des notes historiques sur administrations de l'ancienne régence d'Alger ,Alger :Imp Gouvernement ,1952 , p 142-144

[28] -Masson, histoire…Ibid , p 545.

[29] - الزبيري، المرجع نفسه، ص 218.

[30] - الزبيري، نفسه، ص. 221.

[31] - اعتقل القنصل مولتيدو في 21ديسمبر ولم يطلق سراحه إلا في يوم 2فيفري 1799 بعد تدخّل بكري وبوشناق وأطلق سراح الموظفين الفرنسيين الذين ألقي عليهم القبض بأمر من الداي في عنابة والقالة.

[32] - الصنصال هو السمسار الذي يتخصّص في الوساطة في المعاملات التي كانت تتم بين القنصليات الأوربية وبين سكان البلاد، ويحقّ لأي قنصلية اختيار أي شخص من أهل البلاد لاعتماده في هذه المادة.

[33] -Primaudaie, le commerce…op. Cit. , p 54 .

[34] - حكم عاما واحدا ومات شنقا سنة 1808.

[35] - الدولار الإسباني يساوي5.43فرنك فرنسي.

[36] - يذكر primaudaie أنّ الإتاوة السنوية تقدّر بـ11ألف ليرة استر ليني وهو ما يعادل 275ألف فرنك: انظر. Primaudaie: ibid, p, 54:

[37] - خط همايون، علبة 24عدد، 22486، سنة 1231هـ/1815، تعريب فكري طونة .

[38] - Achille, fillias, histoire de la conquête et de la colonisation de l'Algérie 1830- 1860, paris, 1960, p 51.

[39] - Ibid. p 52,

[40] - خط همايون، علبة 24، العدد 22486، السنة 1231هـ /1816م، تعريب فكري طونة .

[41] - Primaudaie, le commerce…op. Cit. , p54

[42] - Plantet, correspondances… op. cit., p 548.

[43] - الزبيري، المرجع السابق، ص 258.

[44] - فوزي، سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، ط2، شركة الأمة للطباعة والنشر، 2004، ص 238.

[45] - P.Masson, concessions et cies d'Afrique 1800 - 1830, paris, 1909,p 57

[46] - دادة، محمد، اليهود في الجزائر في العهد العثماني، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، دمشق 1985، ص183

[47] - Esquer. Op. cit. p 22.

[48] - Masson, Marseille…op. Cit. p551

[49] - Masson, Marseille… op, cit. , p510

[50] - الزبيري، المرجع نفسه، ص216.

[51] - محمد، دادة، المرجع السابق، ص189.

[52] - Plantet, op. cit. p 455 - 456.

[53] - العربي، الزبيري، المرجع السابق، ص270.

[54] - Esquer, op. cit. p28

[55] - Ch, Féraud, « Exploitation des forets de la karasta dans la Kabylie orientale sous la domination turque » , R..A (,N°13) ,1869, p45."

[56] - Eisenbeth, « Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque1516-- 1830 », R .A (,N°96) ,1952, p171

[57] - Eisenbeth, Ibid. p589.

حلب في الأدب التركي الحديث
مؤلفات علي كمال نموذجًا

عبد الستار الحاج حامد
جامعة أولوداغ-بورصة- جامعة اسطنبول

Abstract

Ali Kamal is a Turkish politician, novlist and jounalist. He is one of the most prominent thinkers and writers in Turkish literature. Kamal was banished to the state of Aleppo in 1889 and executed in 1889 because of his political attitudes. Ali Kamal had lived in the state of Aleppo for six years. During this period, he worked in different jobs. He wrote two novels in that period, their events revolve in Syria. He had the opportunity to learn about the state and its various regions. In his compositions, he gave a good space for the state especially in his memoirs and novels. The author gave valuable information which highlights the political, social, economic and cultural life of the state of Aleppo in the last decade of the nineteenth century. He talked about the pros which he saw in the state and he didnot neglect to mention its drawbacks. Also, he gave some western tales related to its people.

Key words: Ali Kamal, The modern Turkish litrature, Aleppo state, Memoir.

أعطى الأدب التّركيّ الحديث، الذي يؤرخ لبدايته بعام **1839**م مع صدور مرسوم التنظيمات1** في الدولة العثمانيّة، مكانةً هامةً لولاية حلب، وبشكلٍ خاص في الفترة التي كانت فيها تحت سيطرة الدولة العثمانيّة. فولاية حلب كانت من أكبر وأهم الولايات العثمانية، لموقعها الاستراتيجي، وأهميتها الإقتصادية،

حيث كانت تشمل كل من إدلب والرقة ودير الزور وحماة في سورية، إضافة إلى أنطاكية وكلس وعينتاب الواقعة ضمن حدود الجمهورية التركية.

ثمة قسم لا بأس به من الأدباء الأتراك عاشوا قسماً من حياتهم في ولاية حلب، فمنهم من عاش طفولته فيها، مثل الروائيّة والكاتبة فاطمة عالية جودت، والروائي محمد جلال، ومنهم من عمل فيها فترة من الزمن، من أمثال الشاعر والطبيب المشهور جناب شهاب الدين، والروائيّة خالدة أديب أدوار، والروائيّ نابي زادة ناظم، ومنهم من نُفي إليها، مثل الكاتب والسياسيّ الكبير علي كمال، والروائيّ رفيق خالد قايا. لذلك كان من الطبيعي أن يُفرد هؤلاء الكتاب لتلك البلاد في كتاباتهم، ولا سيما في جنسي الرواية والمذكّرات، حيزاً لا بأس به.2

إن أول رواية تناولت حلب في الأدب التركي رواية(فلسفهء زنان)(فلسفة النساء) للكاتب أحمد مدحت أفندي (1844–1912)، وسبب حديث الكاتب عن حلب هو تعين أحد شخصيات الرواية محسن باشا والياً على حلب، ومرافقة بطلة الرواية زكية خانم له إلى مدينة حلب. في هذه الرواية تحدثت زكية خانم عن حلب من الناحية الجغرافية في أول رسالة أرسلتها لأهلها في إسطنبول، وتناولت في حديثها حرارة الصيف في حلب التي تجعل الناس فيها ينامون على سطوح منازلهم هرباً من الحر.2 كما تحدث الطيب والشاعر جناب شهاب الدين (1870– 1934) في كتابه (سورية مكتوبلر) (رسائل

سورية) عن مدينة حلب التي زارها بداية القرن العشرين ذاكراً قلعة حلب، ومقبرتها الكبيرة، وبيوت قراها التي ليس لها نوافذ، وفلاحي تلك القرى الذين يعملون بجد لإحياء أراضيهم.3

أما الطبيب والسياسي شرف الدين مغمومي(1860–1931) فقد أفرد صفحات عن حلب في مذكراة التي جُمعت في كتاب (بر عثمانلى دكتورنك أنلرى) (مذكرات طبيب عثماني)، حيث زار المدينة مع مجموعة من الأطباء في فترة انتشار وباء الكوليرا في أواخر القرن التاسع عشر. تحدث المغمومي عن مدينة حلب بالتفصيل مقارناً أسواقها بأسواق إسطنبول، مبدياً إعجابه بقلعتها، وبموقعها الاستراتيجي، متذمراً من ضيق شوارعها، ونمط بناء بيوتها، ذاكراً أهم منتزهاتها ومزاراتها ومعابدها ومساجدها والمركز العلمية فيها.4

ومن الروائيين الذين تناولوا حلب في رواياتهم الروائي رفيق خالد قايا (1888–1965) الذي نفي إلى حلب1922 وأصدر فيها جريدة، كما طبع بعض رواياته فيها. في رواية (المنفى) التي تجري أحدثها في إسطنبول وحلب وبيروت حيث يسافر حلمي أفندي بطل الرواية إلى بيروت تاركاً ابنته وزوجته في إسطنبول بعد صدور قرار نفي بحقه، لينتقل بعد فترة من الزمن من بيروت إلى حلب التي جاءت إليها ابنته للعمل في ناد ليلي فيها، وتقود الصدفة

حلمي إلى هذا النادي مع مجموعة من المسؤولين، ويصاب بجلطة قلبية عند رؤية ابنته في النادي.5

في هذا البحث سنتوقف عند مؤلفات واحد من أهم هؤلاء الكتاب، وهو الكاتب والسّياسيّ والصّحفيّ المشهور علي كمال، الذي تكمن أهميته في كونه رجل سياسة وفكر، إضافة لكونه أديباً وشاعراً عاش في حلب ما يقارب ستّ سنوات في الفترة مابين عامي 1889-1895 م،كما كتب روايتين؛ (الأختان)و(مغامرة في الصحراء) تدور أحداثهما في ولاية حلب، واختار شخصيات هاتين الروايتين من السكان المحليين والموظفين الأتراك في سوريّة.

1- حياة علي كمال وآثاره

ولد علي كمال في حي السُّليمانيّة أحد أقدم أحياء إسطنبول في 1869 م لأسرة غنيةٍ، وذات صلة بكبار الموظفين في قصر السّلطان العثمانيّ. كان والد علي كمال تاجراً كبيراً ،ورجلاً متديناً، يمجد السّلطان والدولة العثمانيّة، أما أمه فقد كانت جارية جركسيّة. درس علي كمال في مكتب الرشديّة إلا أنه، وبسبب مشاكله الكثيرة، طُردَ بعد سنوات من اِلتحاقه به، بعدها التحق بدكان والِده مع مواظبته على متابعة الدروس في جامع السّليمانيّة، جذب علي كمال الذي كان صاحب ذكاء انتباهَ بعض المسؤلينَ في القصر الذين كانوا على صلةٍ بوالده فتوسطوا له، وأعادوه إلى المكتب. تتلمذ على كمال في مكتب الملكيّة على أيدي أساتذة كِبار في الأدب

التّركيّ، من أمثال الشّاعر والنّاقد معلم ناجي، والشّاعر والكاتب رجائي زاده محمود أكرم، في عام **1885** أصدر على كمال برفقة أصدقائه في مكتب الملكيّة أول جريدةٍ له، ولم يتجاوز يومها السّابعة عشرة من عمره، نشر فيها بواكير أشعاره وبعض كتاباته. وفي عام **1887** قرَّر مع صديق له الهرب إلى فرنسا لمتابعة دراسته هناك، إلا أنه ما لبث أن عاد بعد سنةٍ بسبب وفاةِ والدِهِ. عادَ علي كمال من فرنسا بأفكارٍ جيدةٍ حملها معه، فأراد أن يؤسس جمعيةً طلابيةً في مكتب الملكيّة كتلكَ التي رآها في فرنسا، لكن مالبث أن قُبض عليه مع زملائه أثناء اجتماع الجمعيّة السِّري الثاني الذي كان يترأسه في منزله، وبعد التحقيق معه سجن لمدة ستة أشهر نُفي بعدها إلى ولاية حلب في عام **1889**م .حضر علي كمال إلى حلب برفقة عائلته الصغيرة ليعمل أولاً كاتباً في الولاية ثم مفتشاً وجابياً للضرائب يجوبُ المناطق والمدن المجاورة لحلبَ، كما عمل فترة من الزمن مدرساً للّغة التّركيّة في المكتب الإعداديّ في حلب، عُرف علي كمال بين زملائه بنزاهته وبتفانيه في عمله. في عام **1895** م عاد إلى إسطنبول، لكنه مالبثَ أن غادرها من جديدٍ إلى فرنسا، حيث درس الحقوق والسياسة، كما عمل خلال تلك الفترة مراسلاً لجريدةِ (إقدام") الإسطنبوليّة في باريس، وانضمَّ إلى صفوف حركة "جون ترك" المعارضة إلا أنه غادر صفوفها سريعاً لقناعته بعدم جدواها ليلتحق بوظيفة كاتبٍ في سفارة الدولة العثمانيّة في سويسرا. في عام **1900**م توجه إلى مصر حيث عمل مديراً في مزرعةٍ لأحد باشوات

العثمانيين هناك، ولكن حدثت مشكلةٌ بينه وبين صاحب المزرعة ترك مصر عام **1908**م ليعود إلى إسطنبول برفقة زوجته الإنكليزيّة التي تعرف عليها عندما كان يقضي عطلته في بريطانيا. وبعد عودته إلى إسطنبول عمل رئيس تحرير في جريدة (إقدام)، لكن وبسبب إنقلاب **31** أذار غادر اسطنبول إلى أوروبة، ولم يعد إليها إلا بعد إصدار عفو عام **1912**م بعد الإطاحة بالإتحاديين الذين كانوا سبباً لمغادرته إسطنبول. بعد عودته أصدر جريدة الصباح، وأسّس حزباً سياسياً. كما عين مدرساً في جامعة إسطنبول، وفي عام **1919**م شغل منصب وزير المعارف لمدة شهرين، ثم شغل بعدها منصب وزير الداخليّة بضعة أشهر.**6** علي كمال عاش حياته معارضاً للسُّلطة، فقد انتقد سياسات السّلطان عبد الحميد، وانضمَ إلى معارضيه فترة من الزمن، كما كان خصماً قوياً لحركةِ الاتحاد والتّرقيّ، وللحركة الوطنيّة بقيادة مصطفى كمال أتاتورك، حيث انتقدَ هاتين الحركتين في كتاباته الأمر الذي أدى لإعدامه ميدانياً دون محاكمةٍ في إزميت عام **1922** م بعد نجاح الحركة الوطنيّة في الوصول إلى إسطنبول.

علي كمال وإن كان قد عارض بعض سياسات الدولة العثمانية وانتقدها في مقالاته، إلا أنه بقي طوال حياته مدافعاً عن الخلافة العثمانيّة، الأمر الذي جعل الروائيّ بيامي صفا(**1899**-**1961**) يقول☹السياسة العثمانية أُعدمت ميدانياً مع علي كمال في إزميت)**7**

يتقن علي كمال التركيّة والعربيّة والفرنسيّة والإنكليزيّة، وخَلّفَ العديد من الكتب والروايات أهمها: عُمري (مذكرات نشرها على شكل مقالات في جريدة الصباح أولاً ثم جُمعت في كتاب بعد وفاته)، صفحة التّاريخ، الأختان(رواية)، مغامرة في الصحراء(رواية)، فترت(رواية)، رجال الاختلال، صفحة الشَّباب، تونس، راشد مؤرخ أم شاعر، علم الأخلاق، إضافة لعدد من الكتب التي ترجمها عن الفرنسية، ناهيك عن مقالاته الأدبية والسياسيّة التي تزيد عن **1000**مقالة، عرف من خلالها بأسلوبه القويّ وجرأته.كما تُرجمت بعض أثاره إلى اللغة الفرنسيّة**8**.

2- حلب في مذكرات علي كمال

عاش علي كمال في حلب بين عامي **1889** و**1895**م، وبحكم وظيفته كمفتشٍ وجابٍ للضرائب أتيحت له فرصة التجول في مختلف مناطق الولاية، والتّعرف على السكان المحليين والبدو، إضافة للموظفين والولاة الأتراك الذين كانوا يعملون هناك، وقد تحدث في مذكراته المسماة (عُمري) بشيء من التّفصيل عن ولاية حلب.

2.1- الحياة السياسية.

2.1.1- ولاة حلب

تحدث الكاتب في مذكّراته عن ولاة حلب الذين عاصرهم مبرزاً سلبيات وايجابيات كل والٍ من هؤلاء الولاة، ذاكراً أهم صفاتهم وأعمالهم التي قاموا بها في الولاية، مبيناً السياسات التي

انتهجوها في إدارة الولاية وانطباعات الأهالي عنهم. من الولاة الذين تحدث عنهم الكاتب الوالي جميل باشا الذي يبدو في مذكرات الكاتب والياً شجاعاً صارماً، لا يفرق بين الأشراف وعوام الناس، استطاع تحقيق الأمن والاستقرار في الولاية، كما وضع حداً لتدخل القناصل في شؤون الولاية، وقام بتوسيع مدينة حلب بإنشاء الحي المعروف حتى يومنا هذا بحيّ الجميليّة نسبة لهذا الوالي، لكن هذا الوالي كان يُدير الولاية بطريقة كيفيّة بعيدة عن القانون، مما جعله عرضةً لشكاوي الأهالي، الأمر الذي أدى لعزله.

أما حسن باشا فيبدو والياً متديناً ونزيهاً، لا يأخذ الرشوة، يمضي جلّ وقته في قراءة القرآن الكريم، ومثنوي جلال الدين الرومي، يُحب السلطان عبد الحميد الثاني كثيراً، بيد أنه ضعيف إلى درجة أنه لا يستطيع عزل الموظفين الفاسدين في الولاية، كما أنه يخاف من الأجانب الذين يعيشون في المدينة، وينجز أعمالهم بسرعة.أما عارف باشا فيبدو في مذكّرات علي كمال والياً فاسداً ضعيفاً، ليس لديه خبرة في إدارة أمور الولاية، فقد عَمَّت الفوضى الولاية في فترة ولايته، ولم يستطع توفير الأمن والاستقرار في الولاية، الأمر الذي جعله عرضة لشكاوى الأهالي، وفي مقدمتهم عبد الرحمن الكواكبيّ.

2.1.2- سلبيات وايجابيات الدولة العثمانية

يذكرُ علي كمال أهم السّلبيات للدولة العثمانية في ولاية حلبَ، يرى الكاتب الذي عمل مفتشاً وجابياً للضرائب في الولاية أن الرشوة والفساد من أهمّ السّلبيات في الولاية، فقد كانت الرشوة شائعةً إلى درجة أن النّاس لم يعودوا يتصورون موظفاً لا يأخذ رشوة، فحتى المتدينين من الموظفين كانوا مرتشين. على الرغم من تحريم الدين والقانون الرشوة إلا أنها بقيت منتشرة في الولاية لانتشار الفساد. وبسبب هذا الفساد كانت الدولة تخسر الكثير من الأموال، فالسّكان كانوا يتهربون من دفع الضرائب للدولة عن طريق إرشاء الموظفين، أما ما كان يُجمع من أموال الضرائب فيُسرق قسم منه من قبل الموظفين الفاسدين، وكان يتم ذلك بشكل علنيّ دون خوف أو وجل، لكن الكاتب يعود ويقول في مكان آخر من مذكّراته أن الموظفين على الرغم من ذلك كانت مخافة الله ومخافة السلطان تسكن قُلوبهم، فلا يتمادون في أخذ الرشوة والفساد كثيراً.

ويورد الكاتب في مذكّراته بعض الحكايات المتعلقة بالفساد المنتشر في الولاية، منها ما جرى أمامه عينه، ومنها الآخر ما سمعه من الناس. فمن حوادث الفساد التي كان شاهداً عليها حادثة سرقة ضرائب الأغنام في قضاء "الباب"، حيث أرسل للتحقيق في هذه القضية، فقد كانت بعض القبائل البدوية تحط رحالها في هذا القضاء، الأمر الذي يوجب عليها دفع ضريبة للدولة، لكن القائم مقام ومدير المال وأمين الصندوق في قضاء الباب اتفقوا على سرقة قسم كبير من الضرائب، وذلك من خلال إعطاء

إيصالات للبدو بالمبالغ التي دفعوها، وتسجيل واحد بالمئة من تلك المبالغ في دفتر الإيصال.

ومن الأمور التي أشار إليها الكاتب غياب تطبيق القانون على المتنفذين. ومن حكايات تسلط الأقوياء على البسطاء التي يروي الكاتب حكايات المتنفذ حسن بيك زاده الذي كان يتهرب من دفع الضريبة، إضافة إلى تصرفه وكأنه هو الحاكم في الولاية. ومن هذه الحكايات حكاية شاب مسيحيّ مر راكباً على عربة يجرها بغل بالقرب من أحد بساتين المتنفذ حسن، فقطع غصن من أغصان شجرة دراق ليستعمله كرباجاً، وفي تلك الأثناء رآه البستاني، فأخذه إلى المتنفذ حسن الذي بدأ بحساب قيمة الثمار التي كان سينتجها هذا الغصن في السنوات القادمة، فنتج عن هذا الحساب مبلغ كبير من المال يساوي ثمن البغل والعربة فأخذهما وخلّى سبيل صاحبهما.

ويذكر الكاتب حكاية أخرى من حكايات هذا المتنفذ سمعها من الناس، ولا يعرف مدى صِحَّتها، تقول الحكاية أن حسن بيك كان عنده بيت كبير بمحاذاة حي بحسيتا، وأراد أن يوسع هذا البيت قليلاً، وكان بجانب البيت بيتٌ صغيرٌ ليهودي فقير، فقرر حسن بيك أخذ هذا البيت ليوسع بيته، لكنه لم يرد دفع المال مقابل ذلك، فوجد حيلةً استطاع من خلالها الاستيلاء على البيت، حيث طلب من جاره اليهودي الفقير الاعتناء بدجاجاته لأنه سيذهب إلى منزله الصيفيّ، لم يستطع اليهودي رد طلب حسن بيك خوفاً منه، ولأنه فقير لم يكن يستطيع إطعام الدجاجات، في نهاية المطاف اضطر إلى بيعها، وبعد سنوات طلب حسن بيك من

اليهودي الدجاجات قائلاً (فين جيجات فين بيضات) (أين الدجاجات وأين البيضات)، ولكن اليهودي كان قد أضاع الدجاجات، فبدأ حسن بيك بحساب ثمن الدجاجات وثمن الفراخ التي كانت ستفقس من البيض، فنتج عن هذا الحساب أن اليهودي أصبح مديناً لحسن بيك بمبلغٍ كبيرٍ من المال يعادل ثمن منزله الصغير، فاستولى على هذا المنزل. 9

وعلى الرغم من الفساد المستشري في الولاية إلا أن الدولة كانت توليها اهتمام كبيراً، لأهميتها بالنسبة للدولة العثمانية، يتحدث الكاتب في مذكّراته عن هذا الاهتمام ذاكراً أهم المنشآت التي بُنيت في الولاية في ذلك الوقت، ومن أهمها المكتب الاعدادي (ثانوية المأمون حالياً) الذي لم يكن له مثيل حتى في إسطنبول، فقد جُلب أثاثه خصيصاً من باريس، بالإضافة إلى مزرعةٍ تجريبيةٍ تم انشاؤها بمساعٍ من مدير الزراعة واهان سورينيان.

2.1.3- العلاقة بين الشعب والدولة العثمانية

في ما يتعلق بعلاقة الشعب مع الدولة العثمانيّة، لاحظ الكاتب أن السكان كانوا يحبون السّلطان عبد الحميد الثّاني، والدولة العثمانيّة، ويظهرون هذا الحب، ويحاولون أن يُطبقوا أوامر السلطان قدر المُستطاع، وعندما كانوا يتعرضون للظّلم كانوا يفضلون مراجعة السّلطان على اللجوء إلى السّلاح أو الثّورة.

كما كان أشرف القوم من الحلبيين يتهافتون للحصول على وظيفة في الحكومة المحلية في حلب، لأنهم بحصولهم على وظيفة

يستطيعون تسيير أمورهم، وأعمالهم داخل الولاية بيسر وسهولة، أما الذين لا يحصلون على وظيفة في الدولة فيعانون من صعوبة تسيير أعمالهم، فالبعد عن الحكومة أشبه بالموت بالنسبة لأشراف الحلبيين. فَهَمُّ معظمهم هو الاستفادة من الفساد المتفشي في الدولة للحصول على الثروة والمال. و(كان الأشراف يتطلعون للحصول على نيشان أو ثناء من السّلطان، فاذا حصل الواحد منهم على ثناء أو نيشان من السلطان كان يُجن من الفرح).**10**

2.1.4- القنصليات

إن الموقع الاستراتيجي لحلب جعلها مركزاً لقنصليات الدول المتقدمة في ذلك الوقت. إنّ كثرة القنصليات في حلب أثارت انتباه الكاتب واندهاشه، وعلى حد تعبيره (حتى البرتغال كان لها قنصلية في حلب). أما العاملين في هذا القنصليات فقد كانوا على قسمين قسم منهم قدم من البلدان الأجنبية، كما هو الحال في قنصليات إنكلترة وفرنسا وروسيا وإيطاليا. أما القسم الثاني فكان من التجار الأجانب الساكنين في حلب من غير المسلمين منذ مئات السنين، وكانوا يتهافتون للحصول على وظيفة في هذه القنصليات للاستفادة من الامتيازات الممنوحة للعاملين فيها، وأهمها الإعفاء من الضرائب.

لقد كان للقنصليات دور كبير في الحياتين السياسية والاجتماعية، فقد كان القناصل يتدخلون في شؤون الدولة مستفيدين من الامتيازات الممنوحة لهم، وفي هذا الصدد يقول الكاتب(إن القناصل في هذه الولاية

اعتادوا، ومنذ زمن بعيد، على التدخل في كل شيء مستفيدين من العهود القديمة)11، كما كانوا يقومون بنشاطات اجتماعية كإقامة الحفلات والمسامرات بشكل دائم في قنصلياتهم، كتلك التي تقام في أوروبة. فقد كان القنصلان البريطاني والروسي يقيمان في يومين مختلفين مرة كل أسبوع حفلةً ، يدعوان إليها أكابر القوم في حلب، أما قنصل النمسا اليهودي فكان نادراً ما يدعوا الناس للحفلات، ولكنه حفلاته كانت مميزة.

2.2. الحياة الاجتماعية

2.2.1- البنية السكانية

أولى الكاتبُ أهميةً كبيرةً للتركيبة السّكانية لمدينة حلب ذاكراً أهم الطّوائف التي كانت تسكن هناك وأشهر العوائل في المدينة. يذكر الكاتب أهم العوائل الحلبيّة الُمسلمة من مثل الجابري وكيخيا والمدرّس والشريف والسباعي، ويتحدث عن وضع كل عائلة من هذه العوائل، فيذكر أن عائلة الجابري هي الأكثر عدداً، وكان زعيم هذه العائلة "حجي أفندي" والد نافع أفندي الجابري الذي كان يبلغ الثمانين من عمره ، لكنه كان قوي البنية، ففي الوقت الذي كان يزوج فيه أحفاده كان عنده ولد في المهد. أما نافع أفندي الجابري الذي انتخب عضواً في مجلس المبعوثان كان ذكياً داعياً من دعاة الحرية ،محارباً للاستبداد.

أما عائلة كيخيا التي تتركز معظم أملاكها في منطقة حارم، فقد كان رئيسها أحمد أفندي الذي كان يملك العديد من الخانات بجوار القلعة مليئة

بالسجاد والتحف القديمة، بالإضافة لقصره الكبير، أحمد أفندي كان يعرف بأخلاقه الحميدة وتدينه، فقد كان عضواً مستقيماً نزيهاً في مجلس الولاية لا يعرف التملق، وكان لا يهاب الاصطدام مع الولاة في سبيل الحق، إلا أنه كان يُربي أولاده وفقاً للأصول القديمة ولا يُحب التّجديد.

أما عائلة المدرّس فقد كانت أغنى العوائل في المدينة، ورئيس هذه العائلة زكي بيك الذي كان عضواً في مجلس الإدارة، كان غنياً جداً وماكراً ومتملقاً. على الرغم من أنه كان كاتباً صغيراً في بداية حياته إلا أنه استطاع بدهائه أن يصبح أحد أعضاء مجلس الولاية. كان يحب نفسه كثيراً ففي الفترة التي انتشرت الكوليرا في حلب انزوى في مزرعة له، ولم يعد يخالط الناس، كما كان يرتدي معطفه في شهر آب خشية البرد.

ويذكر الكاتب من العوائل المسيحيّة الثّريّة العوائل التالية: مركوبولي، صولا، حمصي، خياط، غزالي وأنطاكي.كانت عندهم قصور وممتكات عظيمة، فممتلكات هذه العوائل تتركز في مدينة حلب، فقد لاحظ الكاتب أنّ أكثر الأملاك في المدينة كانت في عهدة المسيحيين. وكان قسم من أبناءِ هذه العوائل يعمل في القنصليات الأجنبية كقنصل فخري أو كمترجم.

ويرى الكاتب أن لليهود مكانة خاصة في حلب على الرغم من أن معظمهم من الفقراء، فقد لاحظ الكاتب أنهم يعيشون في حي (بحسيتا) الخاص بهم، وأشار إلى دورهم الكبير في الحياة

الاقتصادية للولاية، فيذكر من هؤلاء منسي التاجر اليهودي الذكيّ الذي كان يُقرض صندوق مال الولاية عندما يقع في ضائقة، مع ذلك كان يظهر تواضعاً كبيراً، فعندما يحضر إلى غرفة الوالي كان يجلس في آخر المجلس لاوياً عنقه، ناظراً إلى الأرض وكأنه أضعفُ مخلوقٍ على وجه الأرض.12

لعل إقامة كل طائفة من طوائف المدينة في حي لا يسكنه إلا أفراد هذه الطائفة هو أغرب ما لاحظه الكاتب في مدينة حلب، يقول " إنه أمر عجيب في هذه البلاد الطوائف الثلاثة المسلمون والمسيحيون واليهود يعيشون بشكل منفصل بعضهم عن بعضهم الآخر ما أمكن ذلك، ولا يوجد علاقات وثيقة بينهم، فالتّعصب في هذه الطوائف يفصل بعضهم عن بعض فصلاً كاملاً . لكن هذا الأمر يقتصرُ على الحلبيين أما غير الحلبيين من المسلمين وغير المسلمين فلا يصلون لهذه المرتبة من التّعصب فهم يختلطون ببعضهم أكثر من أهل المدينة."13

تحدث الكاتب في مذكراته بشكل مفصل عن الموظفين والمنفيين الأتراك الذي كانوا يشكلون مجموعة كبيرة في حلب، حيث يعمل معظم هؤلاء كموظفين إلا أنهم كانوا يقضون جلّ وقتهم في اللهو، كان بعضهم يقوم بفعاليات سياسية كنيقولا هاجر بيك المنتمي إلى عائلة مسيحية غنية، نفي من إسطنبول لأنّه كان يعمل في (سلاح شور) السّلطان مراد، كان نيقولا قد أسّس محفلاً ماسونياً في

حلب اسمه (نجمة سورية)، وكان على صلة بكبار الماسونيين في أوروبة، نذر ماله وحياته للماسونيّة، كان يحاول ما بوسعه لضم أفرادٍ جدد إلى محفله.14

2.2.2- وضع المرأة

أما فيما يتعلق بوضع النساء في الولاية فيذكر الكاتب (أنّه حتى النساء غير المسلمات في هذه البلاد يرتدين الشّراشف (الملاءات) أثناء التجول، ويبدون وكأنّهنّ يهربن من الرجال في الشّوارع)15

2.3. الحياة الثقافية والعلمية

2.3.1- التعليم

تحدث الكاتب في مذكّراته عن الحياة الثقافية والعلمية في الولاية في ذلك الوقت، فتحدث عن التَّعليم التقليديّ حيث كان الطلاب يدرسون على أيدي العلماء الكبار في المدينة، من مثل الشيخ بشير الغزيّ الذي كان له فضل كبير على الكاتب في مجال تعلم اللغة العربية والعلوم الدينيّة، حيث كان يلتحق بحلقة الشيخ الغزيّ في حجرته الصغيرة، لم ينس الكاتب فضل هذا العالم عليه، فقد وجه شكراً له في مقدمة أحد كتبه.16

إلى الجانب التعليم التقليدي كان هناك التعليم الحديث الـمُتمثِّل في المكتب الإعدادي الذي عمل فيه علي كمال مدرساً للّغة التركيّة. لقد لاحظ الكاتب أن معظم الطلاب في المكتب

الإعداديّ كانوا أذكياء ومجتهدين، فقد تعلموا اللغة التركيّة خلال سنوات قليلة بشكل ممتاز، وقد أصبح معظمهم في مواقع ممتازة، الأمر الذي جعل الكاتب يشعر بالفخر بهؤلاء الطلاب الّذين كانوا يظهرون له الاحترام والتقدير دائماً.

2.3.2- الشعراء والمفكرون

علي كمال شاعر بدأ كتابة الشعر في بداية شبابه، وهو يحب الشعر العربي كثيراً، ويستشهد به قي مقالاته، فقلما نجد مقالة من مقالات الكاتب تخلو من بيت شعرٍ عربي أو حكمة أو مثل، وكثيراً ما كان يستشهد بأقوال المتنبي والمعري في مقالاته وكتبه. لهذا ليس من الغريب أن يمنح الشعر العربي حيزاً في مذكراته، فقد لاحظ الكاتب سيادة الشعر في الأدب العربي، وتقدمه على بقية الاجناس الأخرى في تلك الفترة، كما لاحظ كثرة الشعراء الأمر الذي دفعه للاعتقاد بأن نظم الشعر عند العرب سهل. ويرى الكاتب أن 80 % من المفكرين المسيحيين في حلب وبيروت ينظمون الشعر، إلا أن معظم أشعارهم عبارة عن ألعاب لفظية على حد تعبيره . ويرى الكاتب أن أفضل الشعراء العرب في تلك الفترة هم الشعراء الذين نشأوا في بيروت ومصر، ويذكر منهم الشّيخ ناصيف اليازجي وابنه إبراهيم اليازجي، ويرى أن أشعارهما تصل إلى مرتبة الكمال، أما شعراء حلب من أمثال قسطاكي الحمصي وجبرائيل الدلال فلا يصلون إلى المرتبة التي وصل إليها شعراء لبنان ومصر.

ويذكر الكاتب من المفكرين الحلبيين الذين التقى بهم في حلب عبد الرحمن الكواكبي الذي كانت عداوة والي حلب عارف باشا تجمع

بينهما. فقد كانا يجتمعان لكتابة شكوى للباب العالي ضدّ الوالي عارف باشا. لقد أعجبَ الكاتبُ بذكاء الكواكبي وبراعته. ويورد الكاتب في مذكّراته برقيّة شكوى بعث بها الكواكبي إلى الباب العالي يُبيِّن فيها وضع المدينة في زمن الوالي عارف باشا، يذكر فيها الكواكبي أن الولاية وصلت إلى درجة لا يمكن تحملها من انعدام الأمن بسبب سوء إدارة الوالي.17

2.3.3- الرقابة

تحدث الكاتب عن الرقابة على الأدباء في الولاية، فيتحدث عن سجن ونفي الشاعر الممتاز على حد تعبيره جبرائيل الدّلال بسبب قصيدة (العرش والهيكل) التي نظمها في أيام شبابه، كما ذكر الكاتب في مقالة له أنّ الولي حسن باشا كلفه بتدقيق أشعار شاعر أرمنيّ ألقي القبض عليه، إلا أنّ علي كمال، وبعد تدقيق الشعر تبين له أنه لايوجد فيه أي شيءٍ جديّ يستوجب التّوقيف، عندها أمر الوالي بإطلاق سراح الشاعر.18

2.4. اللهجة المحلية

تفاجأ علي كمال الذي كان قد درس اللغة العربية الفصحى في إسطنبول، بالفرق الشاسع بين العربية الفصحى واللهجات الدارجة في المدن العربية التي زارها. وبحسب رأي الكاتب أن من يتعلم اللغة العربيّة من المعاجم وكتب النحو والصرف لن يستطيع أن يتكلمها في بلاد العرب، ولن يتمكن من توصيل مراده.19

لقد لاحظ الكاتب أن الناس في ولاية حلب يخلطون في كلامهم بين اللغتين العربية والتركية، ويذكر حادثة طريفة جرت له عندما كان يجبي الضرائب من الفلاحين في قرى أنطاكية، فعندما سأل الكاتب الفلاح عن المحصول أجابه الفلاح بـ ("قلدروا) حاول الكاتب تحليل الكلمة بناء على ماتعلمه من معلومات نحويّة وصرفيّة في المدرسة، فظن الكلمة من جذر (قول)، لكن تَبيَّن في نهاية الأمر أنّ الفلاح أدخل على المصدر التركيّ (قلدرمق) الذي يعني (الحمل أو الرفع) ملحقاً عربياً، فيكون معنى الكلمة (حملوها). ويذكر في هذا الصدد أنّ أهالي حلب يكثرون من المزج بين اللغتين التركية والعربية في أثناء حديثهم، فيقولون مثلاً (ما بجاليش) و "ما بقارش(أي)لا أعمل(ولا أتدخل) مدخلين حرف النّفي على الفعل التركيّ.**20**

العمران

تحدث الكاتب في مذكراته عن الأهمية الاستراتيجية لموقع ولاية حلب، وما جلبه هذا الموقع من ثراءٍ وتقدمٍ للمدينة. لقد أصبحت مركزاً تجارياً وممراً يربط الشرق بالغرب، فقد عَدَّ الكاتب مدينةَ حلب أفضل مدينة في سورية، فهي متفوقة من ناحيتي العمران والثروة على كل من دمشق وبيروت. إلا أن الكاتب رأى عيباً في مدينة حلب، إلا وهو عدم توسيع هذه المدينة، فقد بقيت محصورةً داخل أسوارها فترة طويلة من الزمن، إلى أن جاء الوالي جميل باشا الذي

شقّ شارعاً جديداً في الجهة الغربية من المدينة، وأسس حيّ الجميليّة، وبني فيها بيوتاً وقصوراً على الطرز الأوروبيّ، ويرى الكاتب أنّ الإقامة في حي الجميلة أفضل ألف مرة من الإقامة في حارات المدينة القديمة المغلقة والضّيقة التي لم يعجبه على ما يبدو طرز بنائها، فقد كان طرزُ بناء البيوت في حلب القديمة مدعاةً لاستغراب الكاتب، حيث يقول في هذا الصدد (إنّ النمط المعماري لبيوت المدينة عجيب، فهي مبنيّة بصورة لا تَحفظ سكانها لا من البرد والمطر شتاءً ولا من الحرارة صيفاً، لأنّ كل واحدٍ منها يحوي في وسطه فسحة (حوشاً) مكشوفة من الأعلى لا لزوم لها)12**حلب في روايات علي كمال**

كتب علي كمال روايتين تدور أحداثهما في ولاية حلب، هما(الأختان)، و(مغامرة في الصحراء)، سنقف عندهما لاتفصيل. تعتمد هاتان الروايتان القصيرتان على مشاهدات الكاتب في مدينة حلب، ففي مقدمة كتابه (صفحة من الشَّباب) يقول الكاتب أنَّ هاتين الحكايتين حقيقيتان، وأنَّ أحداثهما قد جرت أمام عينيه، فتأثر كثيراً لدرجة أنه أحس نفسه مجبراً على كتابتهما.**22**

2.5. الأختان

انتهى الكاتب من كتابة هذه الرواية في حزيران عام **1894**م في مدينة حلب، ونشر جزء منها في جريدة (مكتب)في العام نفسه ، وطبعت بشكل كامل لأول مرة عام **1898**م. تدرو أحداث الرواية في مدينة حلب عام **1890**م بين مجموعة من الموظفين الأتراك،

ومجموعة من البغايا قدمن من دمشق إلى حلب، إضافة إلى فتاتين غير مسلمتين تعيشان في حلب، فالرواية تعطي صورة للحياة الإجتماعية في حلب في أواخر القرن التاسع عشر من وجهة نظر الكاتب.

3.1.1- أحداث الرواية

تبدأ أحداث الرواية عندما يصادف الكاتب بطل الرواية في أثناء تجوله في أوسع شارع في مدينة حلب، فتاتين شابتين هما (ويوا) و(سلفيا)، وهما تتمشيان هناك، وبدا للكاتب أنهما تعيشان حياة كريمة وسعيدة، ولا يعوزهما شيء. وبعد فترة وجيزة من مرور هاتين الفتاتين غير المسلمتين تمر في الشارع نفسه قافلة قادمة من دمشق، يلفت انتباه الكاتب في هذه القافلة فتاتان شابتان أرهقهما السفر، بنظراتهما وضحكاتهما، هما (شريفة) و(زنوب)، بدا للكاتب أنهما تعيشان حياة صعبة وغير مستقيمة، تعقبهما بنظراته لفترة ثم انصرف بعدها إلى بيته، لكنه ظل يفكر في المشهدين المتباينين اللذين رآهما في شارع المدينة.

بعد فترة من الزمن يُدعى الكاتب إلى حفلة باليه أقيمت في أحد بيتوت التجار الأوروبيين المقيمين في حلب، يلتقي فيها بالفتاتين اللتين شاهدهما، وهما تتنزهان في الشارع، ويدور حديث بينه وبينهما، لكن الفتاة الكبيرة ("ويوا) تجذب انتباهه أكثر من أختها الصغيرة، فيتحدث ويرقص معها حتى ساعات الفجر الأولى.

لقد ذَكَّرَت هاتان الفتاتان الكاتبَ بالفتاتين الأخرتين اللتين صادفهما في المكان والزمان نفسه، فقرر السؤال عنهما، فذهب إلى صديق له يقضي جلّ وقته في اللهو والسكر، وسأله عنهما فوجد عنده معلومات كافيه عنهما، كما تطوع صديقه بإيصاله إلى المكان الذي تسكنان فيه، وذهب مع صديقه بعد تردد إلى بيتهما الذي يقع في أحياء المدينة القديمة، تعرف عليهما وعلى عمتهما التي كانت تسكن معهما، حيث تبين للكاتب أن رُقية عمة الفتاتين تقوم بتشغيل ابنتي أخيها زنوب وشريفة في الدعارة واللهو، وأن صديقه يحب شريفة، وأن شريفة أكثر شهرة من أختها زنوب، فهي فتاة لعوب تقوم بكل ما يمكنها القيام به للايقاع بالشباب في فخها، على العكس منها أختها زنوب التي لا تحب هذه الأعمال لكنها مرغمة على فعلها. الكاتب الذي كان يفضل حضور الحفلات التي يقيمها الأجانب في حلب ويختلف إليها، يعود ويلتقي بويوا وسيلفا في إحدى الحفلات المقامة في إحدى القنصليات الأجنبية، تبين له خلال الحفلة أن ويوا قد خطبت وستتزوج قريباً، يتأثر من سماع هذا الخبر.

تحبل شريفة محبوبة صديق الكاتب من أحد الأغاوات، فتخطط عمتها رُقية لإسقاط الجنين، فتأتي بداية يهودية، تبدأ الدَّاية بالعمل على إسقاط الجنين، بعد ثلاثة أيام من المحاولات الفاشلة، تنجح الدَّاية بإسقاط الجنين، لكن شريفة تصاب بنزيف يؤدي إلى وفاتها. يشترك الكاتب وصديقه الذي حزن حزناً شديداً لفقد

محبوبته في الجنازة التي لم يشهدها سوى عددٍ قليلٍ جداً من الناس، وبعد الانتهاء من مراسم الدَّفن في المقبرة التي تقع خارج أسوار المدينة القديمة، يمر الكاتب من أمام إحدى الكنائس فيرى النَّاس محتفلين بعرس (ويوا) فيحزن كثيراً.

صديق الكاتب وبعد وفاة شريفه يصاب بالمرض لأنه يتناول الكحول بكميات كبيرة، في يوم من الأيام يذهب الكاتب لزيارته، فيجد عنده مجموعة من الموظفين الأتراك يلعبون القمار، يحاول مغادرة البيت لكنهم يصرون على بقائه لتناول الطعام معهم. وبعد ساعات من اللعب تحدث مُشكلة يقرر اللعبون بعدها إنهاء اللعبة، ويبدؤون بتناول المشروبات والطعام، وبعد أن يأخذ السكر منهم كل مأخذ يرسلون لجلب عازف عودٍ يهودي ليعزف لهم، لكنهم لا يعضهم لا يكتفي بذلك فيقرر الذهاب إلى إحدى أماكن اللهو بحلب لإكمال سهرتهم هناك. صديق الكاتب بعد فترة قصيرة يصاب بالوهم الأمر الذي يؤدي به إلى الانتحار.

في يوم من الأيام، وفي أثناء مرور الكاتب من أمام قلعة حلب يصادف رقية، فتطلب منه أن يعطيها عنوان بيته، ثم تزوره في اليوم الثاني، وتدعوه لزيارتها، يلبي الكاتب الدعوة، فيذهب في اليوم التالي إلى بيت رقية، فيرى أن زنوب قد أصيبت بمرض وبدت ضعيفة جداً، قُدِّمت للكاتب المشروبات، وبعدها جاء مجموعة من العازفين، بدأت زنوب بالعزف على العود مع العازفين، لكن أحد العازفين بدأ بغناء أغنية تدور كلماتها حول شريفة، الأمر الذي جعل زنوب تتأثر كثيراً وتنفجر باكيةً، فخرجت من

الغرف حاملة كأس البيرة في يدها لتجلس في باحة البيت، لكن بعد فترة سمع الكاتب والذين يجلسون معه في الغرفة أنينها فخرجوا ليروا زنوب وقد كسرت الكأس وجرحت يدها محاولة الانتحار، وبعد أن ساعد الكاتب رقية على ربط الجرح الذي أحدثته زنوب في يدها، أعطى رقية بعض المال وعاد إلى بيته ليجد على مكتبه دعوة موجه له من والد ويوا وسلفيا يدعوه فيها لحضور حفل زفاف ابنته الصغرى سلفيا.

3.1.1- حلب في الرواية

3.1.1.1- المجتمع الحلبي

في هذه الرواية القصيرة التي تدور جميع أحداثها في مدينة حلب يقدم الكاتب لنا ثلاثة طبقات اجتماعية تعيش في المدينة، المجموعة الأولى تتمثل بالموظفين والتجار الأجانب الذين يعشون في حلب، المجموعة الثانية هي جزء من السكان المحليين الجاهلين الذين يقومون بأعمال لا أخلاقية، وأما المجتمع الثالث فهو مجموعة الموظفين والمنفيين الأتراك الغارقين في اللهو والسكر. الكاتب يقارن بشكل دائم بين المجموعة الأولى والثانية، فهو يقارن بين زنوب وشريفة من جهة، وويوا وسلفيا من جهة أخرى، فشريفة وأختها تعيشان في وسط يختلف تماماً عن الوسط الذي تعيش فيه ويوا وأختها اجتماعياً ومكانياً وثقافياً.

3.1.1.1.1- السكان المحليون

شريفة وأختها تعيشان حياة صعبة وقذرة، فقد توفي والداهما، وهما في سن صغيرة، ونشأتا في كنف عمتهما رقية التي

كانت تزاول أعمالاً لا أخلاقية في دمشق، لكنها بعد أن شاخت بدأت بتشغيل الفتاتين الصغيرتين. رقية همها الأكبر جمع المال بأي وسيلة، لا يهمها صحة أو سمعة ابنتي أخيها، كما أنَّها تتظاهر بالتَّدين، فهي ترتدي الحجاب، وتحمل سبحة في يدها، كما أنها تؤدي الصلاة أحياناً. من الملاحظ أن هذه الشخصيات جاهلة لم تنل أي حظ من العلم أو الثقافة.على هامش هذه الشخصيات الثلاثة توجد بعض الشخصيات الثانوية التي تنتمي للمجتمع المحلي. من هذه الشخصيات شخصيات يهودية، من مثل الداية وعازف العود. من الملاحظ أن الشخصية اليهودية في الرواية سلبية أيضا، وتتصف بصفات سيئة، وتقوم بأعمال بسيطة أو غير قانونية.

3.1.1.1.2- الأجانب

أما الفتاتان الأجنبيتان فهما شخصيتان إيجابيتان، على العكس من شريفة وزنوب ويوا وأختها تعيشان حياة مرفهة وسعيدة، فهما تحبان الموسيقى، وتعزفان على البيانو، وتحضران الحفلات التي تقام في القنصليات، أو التي يقيمها التجار الأجانب في حلب، تحبان الأدب والقراءة كثيراً، وهما مثقفتان تتحدثان في مواضيع تتعلق بالأدب، تتنزهان في شوارع حلب، وتقومان بالتجول في الريف على الخيل، باختصار هما لا تواجهان أي مصاعب في الحياة.

3.1.1.1.3- الموظفون الأتراك

لقد قدم الكاتب الموظفين والمنفيين في حلب بصورة سلبية في الرواية، فهولاء يتمتمون بصفات سيئة. فهم منغمسون في اللهو، يقضون جل وقتهم في أماكن التسلية ولعب القمار، وبسبب تناولهم للكحول، ولعبهم للقمار يعانون من مشاكل إقتصادية، فرواتبهم لا تكفيهم، وفي بعض الأحيان يأخذون ديوناً من الناس لكنهم لا يستطيعون إيفاءها بل ويتذمرون من مطالبة أصحاب الديون لهم.

3.1.1.2- المكان

الكاتب يقدم لنا في الرواية مكانيين مختلفين تماماً في مدينة واحدة،كل مكان يختلف تماماً عن المكان الأخرى، المكان الأول هو المكان الذي تعيش فيه رقية وابنتي أخيها، يتمثل في الحارات الضيقة والمتعرجة داخل أسوار المدينة القديمة، هذه الحارات غير نظيفة، شوارعها وأرصفتها مليئة بحفر الصرف الصحي، وأكوام الحجارة، وغارقة في الظلام الدامس، بيوتها صغيرة ومحاطة بجدران ليس لها نوافذ أو شرفات، فالبيت الذي تسكنه رقية أشبه ما يكون بالسرداب فيه حوش صغير جداً. أما المكان الذي تعيش فيه ويوا وأختها فيتمثل بالأحياء التي تقع خارج السور، البيوت فيها واسعة ولها شرفات، كما أنها محاطة بالأشجار، فالبناء الذي تقام في الحفلات الأسبوعية، بناء قاعاته كثيرة، وواسعة لها نوافذ وشرفات واسعة محاطة بالأشجار الكبيرة. يفهم من كلام الكاتب أن حلب كانت تعج بمراكز التسلية واللهو التي تقدم خدماتها للراغبين بها حتى ساعات متأخرة من الليل، فبالإضافة إلى أمكان التسلية والحفلات التي يقيمها الأجانب في حلب يمكن أن نضيف هذا

الحوار الذي دار بين اثنين من الموظفين الأتراك كانا يرغبان في الذهاب إلى أحد أماكن اللهو:

- الساعة تقترب من الرابعة صباحاً

-لا يزال هناك وقت، هناك وقت، أولا نذهب إلى (رقوش) إذا لم نجدها نذهب إلى (سلوم) خارقة حلب خارقة."23

3.1.1.3- الثقافات والعادات

يجد القارئ للرواية نفسه أمام مجتمعين مختلفين ثقافياً تماماً، يتجلى هذا الاختلاف في اللباس والأدوات الموسيقية والتسلية، فرقية وابنتا أخيها يرتدين غطاء الرأس والملاءة، أما ويوا وأختها فترتديان أثواباً ملونة صفراء وحمراء إضافة قبعات. من الملاحظ أن الحفلات الصغيرة التي تقام في بيت رقية يعزف فيها على العود والزيل إضافة إلى الطبلة الصغيرة، وهي آلآت شرقية. أما الحفلات التي تحضرها ويوا وأختها فيعزف فيها على الآلآت الموسيقية الغربية من مثل البيانو والقيثار المندولينا، ويغنى فيها بالفرنسية واليونانية إضافة إلى العربية. ولانسنى أن نذكر أن زنوب عازفة ممتازة على العود، أما ويوا فهي عازفة ماهرة على البيانو.

لقد تحدث الكاتب في الرواية عن بعض العادات السائدة في المدينة في ذلك الوقت. فمن ذلك حديثه عن حفلة الباليه التي أقيمت في بيوت أحد التجار الأجانب في حلب، هذه الحفلة أشبه ماتكون بالحفلات التي تقام في أوروبة وقتئذ، حيث يشترك فيها الرجال والنساء، ويرقص المدعون رقصات (والس) و(قادريل)

على نغمات البيانو، تتخلل هذه الرقصات فترات استراحة للطعام والشراب وتبادل أطراف الحديث.

ومنها أيضاً الاجتماع الذي كان يقام صيفاً ببناء إحدى القنصليات الأجنبية الفاخرة الواقعة خارج أسوار المدينة القديمة والمحاطة بالأشجار الكبيرة ، ففي هذه القنصلية يجتمع الرجال والنساء مرة كل أسبوع بعد الظهر في اجتماع أشبه ما يكون بحفلة يعزف فيها على البيانو والقيثارة، ويغنى فيها بالعربية واليونانية والفرنسية، ومعظم رواد هذه الاجتماعات من النساء.

ومن العادات التي ذكرها الكاتب جلب العازفين والمغنين إلى البيوت لخلق جوٍ من المرح وتسلية الضيوف. كذلك عادة اتباع الجنائز، فعلى الرغم من أن شريفة فتاة ليس لها أي أقرباء في المدينة إلا أن بعض الناس من الاتقياء شاركوا في حمل الجنازة، والصلاة عليها، رغم أنهم لا يعرفونها.

3.2. مغامرة في الصحراء

انتهى الكاتب من كتابة هذه الرواية في عام **1895**م في مدينة حلب، ونشرت أجزاءً في جريدة (ثروت)عام **1898**م، ثم طبعت في العام نفسه ، وتُرجمت إلى الفرنسية عام **1899**م. تدور أحداث الرواية حول فتاة إسطنبولية اسمها سحر، اضطرت للسفر مع ولدها الذي نفي إلى مدينة تدمر التي كانت تابعة لولاية حلب آنذاك، صرح

الكاتب في مقدمة الرواية أنه رأى سحر وأن أحداث الرواية حقيقة وإن كان فيها شيء من الخيال.

3.2.1- أحداث الرواية

تبدأ أحداث الرواية مع وصول سحر وزوجة أبيها صفوت إلى ميناء اسكندرون قادمتين على متن باخرة من إسطنبول للّحاق بصبحي أفندي الذي عين مديراً لمملحة تدمر. سحر فتاة في السادسة عشرة من عمرها، ولدت في إسطنبول التحقت بمكتب تعليم الفتيات في اسطنبول، تعرفت على مجموعة من الفتيات في المكتب، وأصبح عندها صديقات، مات والده سحر وهي في سن صغيرة على إثرها تزوج والدها بصفوت الفتاة الشابة التي كانت تعمل في بيتهم. سحر تحب رفيقاتها ومدينة إسطنبول كثيراً، إلا أنها تضطر لمغادرة إسطنبول بسبب تعين والدها في مدينة تدمر.

صبحي أفندي رجل في الخامسة والخمسين من العمر، مهمل لعمله، الأمر الذي أدى إلى تعيينه في تدمر بعد محاكمة دامت سنوات. صبحي أفندي يحب زوجته الشابة كثراً، لكنه لم يكن يكترث بأمر ابنته سحر وأختها الصغرى نوبر. عندما وصلت عائلة صبحي أفندي إلى ميناء إسكندرون كان من المفترض أن يكون بانتظارها رجل أرسله صبحي أفندي لاصطحابهما إلى حلب، ومنها إلى تدمر. ولما أن الرجل لم يحضر اضطرت العائلة للذهاب مع عائلة إسطنبولية قادمة إلى حلب، يعتقد أن هذه العائلة هي عائلة، حيث

بقيت عائلة صبحي أفندي في حلب عدّة أيام، أقامت خلالها في منزل العائلة الاسطنبولية في حلب، قبل أن تكمل طريقها إلى تدمر.

في البداية سحر شعرت بالملل الضيق من هذا السفر، كما أنها لم تحب طبيعة البلاد الصحراوية، ولا أثار مدينة تدمر التي كانت تظن أنها ستكون جميلة وممتعة، لأنها كانت قد قرأت مقالة حولها، فالأوروبيون يقطعون المسافات الشاسعة لرؤية هذه الأثار القديمة. سحر كانت تعيش منعزلة عن محيطها، كما كانت زوجة أبيها تكرهها، لذلك كانت تقضي جل وقتها برفقة أختها الصغرى (نوبر) بين أثار المدينة القديمة التي بدأت تحبها، لقد كانت نوبر ذات الخمس سنوات صديقة سحر الوحيدة، إلا أنها تصاب بمرض يؤدي إلى وفاتها، فتبقى سحر وحيدة في الصحراء لا يوجد ما يسليها سوى الرسائل التي كانت تتبادلها مع صديقتها خيرية.

بعد فترة من الزمن يعين في المملحة كاتب اسمه رجب أفندي، وهو شاب تركي وسيم، لقد أحبته سحر عندما سمعت عنه، حتى قبل أن تراه، وبدأت تنسج أحلام الزواج من هذا الشاب الوسيم، رجب أفندي أيضاً لم يكن يخفي رغبته في الزواج من سحر، ولكن في إحدى الليالي عندما كان رجب أفندي يسكر مع محمد رئيس الحراس في المملحة بدأ يتكلم بكلام سيئ ينم عن خساسته، فالرجل لم يكن ليكتفى بالحديث عن سحر، بل أفصح عن رغباته حول صفوت زوجة صبحي أفندي، الأمر الذي أغضب محمد،

وجعله ينهال عليه ضرباً، الأمر الذي أدى إلى اجتماع كل من في المملحة. وهكذا ظهر وجه رجب أفندي الحقيقي أمام الجميع. وبعد أيام جاءت رسالة من دمشق إلى صبحي أفندي تطلب منه أن يرسل الكاتب لأخذ زوجته التي تركها في دمشق لوحدها، حيث بدأت الإشاعات السيئة تنتشر حولها.

سحر أصيبت بخيبة أمل كبيرة بعد هذه الحادثة، فقد بلغت العشرين من عمرها ولم تتزوج، كما زادت مضايقات زوجة أبيها التي كانت تريد أن تتخلص منها، فكان تطلب من زوجها بشكل دائم أن يزوج سحر، بحجة أنها قد كبرت. وبعد فترة وجيزة يأتي مدير ناحية جديد إلى تدمر مع عائلته، ابن مدير الناحية الجديد شاب في العشرينات من عمره، لكنه لم يكن وسيماً أبداً، طلب يد سحر فوافقت على الزواج منه، بسبب الضغوط المتزايدة عليها من قبل أبيها المريض وزوجته. تم تحديد موعد الزواج لكن من حسن حظ سحر، وبسبب الظروف الصحراوية ظهرت أعراض مرض الفرنك على الشاب الذي كان يخفي إصابته بهذا المرض المعدي، فأبطل الزواج.

وبسبب إلحاح صفوت في تزوج سحر قرر صبحي أفندي أن يصطحب ابنته إلى مركز اللواء دير الزور عله يستطيع أن يزوجها لموظف من الموظفين هناك. شعر سحر بحزن شديد جداً، لأن والدها يريد التخلص منها، وتزوجها لأي شخص كان، فكتبت له

رسالة صغيرة مفادها أنه أبوها وأن من واجبها إطاعته، لكنها لا تستطيع أن تستوعب أن والدها الذي تعب في تربيتها يزوجها بهذه الطريقة لرجل لا يعرفه في مكان لا يعرفه.

رق قلب صبحي أفندي حينما قرأ الرسالة، وبكى قليلاً، لكن اصرار زوجته، وهجرها له يرغمانه على هذا الفعل، ومن حسن حظ سحر رفضت الإجازة التي تقدم بها صبحي أفندي لكي يأخذ ابنته إلى دير الزور لكونه طلب الاجازة في موسم عمل المملحة.

سحر كانت تقضي جل وقتها بين أثار مدينة تدمر القديمة أو تصعد إلى أحد التلال المحيطة بها تتأمل عالم الصحراء من حولها، وفي أحد الأيام اضطرت للعودة إلى البيت بعد خروجها منه بربع ساعة بسبب حرارة الجو، ولكنها عندما عادت إلى البيت، فوجدت باب البيت مفتوحاً، فتسللت إلى غرفتها، لكنها سمعت صوتاً في البيت، فنظرت من شق الباب، فرأت (حسن) أحد حراس المملحة يخرج من غرفة صفوت، لم تكد تصدق ما رأت، فقد أصيبت بصدمة جعلتها تبقى في غرفتها طوال اليوم، وهي تفكر فيما ستفعل، في النهاية قررت السكوت، لأن أباها لن يصدقها، وحتى لو صدقها لا فائدة من ذلك، بل على العكس إن هذا الخبر قد يسبب وفاة والدها المريض، لكنها قررت أن لا تخرج من البيت في فترة تواجد والدها في العمل.

في يوم من الأيام خرجت سحر إلى أثار المدينة، وبينما هي غارقة في تأملاتها ظهر أمامها فجأة مجموعة من البدو يتقدمهم

شاب وسيم، تفاجأ بدوره أيضاً برؤية سحر. نهضت سحر من مكانها، وغادرت المكان، لكن خيال الشاب لم يفارقها لحظة واحدة طوال تلك الليلة.

في اليوم التالي جاء مدير الناحية ليزف البشرى لصبحي أفندي، لقد طلب من الشيخ سطعان أن يطلب يد سحر لابنه نبهان الذي رأها جالسة في مدينة تدمر القديمة، وأخبره بأن الشيخ سطعان سيدفع له **200** ليرة مهراً لسحر. سحر رفضت هذا الأمر رفضاً مطلقاً، فكيف لفتاة نشأت في إسطنبول أن تعيش مع البدو في وسط الصحراء. لكن والدها أعطاها مهلة للتفكير حتى صباح اليوم التالي، ظلت سحر تفكر طوال اليوم بذلك الشاب البدوي، وفكرت أيضاً بوضعها في البيت الذي حولته زوجت أبيها إلى جحيم لا يطاق، وفي حال زميلاتها في الدراسة اللاتي تزوجن في إسطنبول بـأزواج في منتهى السوء والانحطاط. فقررت القبول بالعيش مع هذا الشاب البدوي الشهم في وسط الصحراء، وهجرت عالم المدينة إلى الأبد.

بعد رحيل سحر مع زوجها البدوي عن تدمر تعرض والدها لصدمة كبيرة أدت لوفاته حينما رأى حارس المملحة في بيته مع زوجته التي هربت مع حارس المملحة حسن إلى دمشق إثر وفاة زوجها.

3.2.2– المكان

تدور أحداث الرواية في إسطنبول، وفي تدمر التابعة لولاية حلب، وفي الطريق بين هذين المكانين. المكان الأول إسطنبول المكان الذي ولدت

وعاشت فيه سحر مع عائلتها، لهذا المكان مكانة خاصة في نفس سحر، فإسطنبول هي الوطن الذي يحوي ذكريات الطفولة إلى جانب جماله الطبيعي، غادرت سحر هذا المكان الجميل مكرهة للحاق بأبيها المنفي في وسط الصحراء. لكن هذا المكان ما يلبث أن يفقد بريقه في عيني سحر بسبب ما كان يصلها من أخبار منه من جهة، وبسبب الصحراء التي بدأت تحبها، وتعتاد على الحياة فيها. إسطنبول على الرغم من جمالها الطبيعي باتت موطن الفاسدين والمنحطين من الرجال بالنسبة لسحر.

أما المكان الثاني فهو الصحراء التي يقدم لنا الكاتب لها تصويراً دقيقاً نقتطف منه هذه المقطع الذي يصور منطقة تدمر.

(واد لانهاية له، يجري بهدوء في وسطه جدول ماء، اخضرت الأرض على طرفيه، حتى أن بعض الزهور الصفراء بدت مبعثرة على طرفي الجدول. تسير قطعان الجمال في نهاية هذه الوادي أفواجاً. إذا نُظر إلى الخيام والنساء التي فوقها، والخيل والرجال الذين يحيطون بها تبدو كبلد كبير يسير...)**24**

لعل أكثر شيء استرعى انتباه سحر ليالي الصيف المقمرة الساكنة التي لايعكر صفوها شيء، حيث كانت تصعد إلى هضبة بالقرب من آثار تدمر لتتأمل هذا منظر السماء والنجوم الجميل الذي قالت عنه في رسالة كتبتها إلى صديقتها في إسطنبول أنه أجمل ما في بلاد العرب. لقد بدت الصحراء في هذه الرواية مكاناً يسكنه الطيبون والشرفاء، ليس فيه مكان للفاسدين والمنحطين، إلى جانب

ذلك بدت الصحراء لغزاً وسراً يريد الكاتب أن يكتشف أشياء جديدة عنه.

3.2.3- البدو والبادية

من الطبيعي أن يكون للبدو والبادية مكان مركزي في رواية تدور أحداثها في بادية ولاية حلب، لقد رسم الكاتب في هذه الرواية صورة إيجابية للبدو ولحياة الصحراء، فالبدو في الرواية يتميزون بصفات جيدة، وأخلاق حميدة. فهم نجباء وأعفاء وشرفاء لايفعلون الأفعال القبيحة، ينطقون بالصدق، علاوة على ذلك وجوهم، وأجسامهم جميلة. فهذه الصفات الحميدة جعلت سحر تحبهم، وتميل إليهم، وتتحدث عنهم في الرسائل التي كانت تبعث بها إلى صديقتها المقيمة في إسطنبول، ففي إحدى تلك الرسائل تتحدث لصديقاتها عن جمال فتاة بدوية رأتها في تدمر. وفي رسالة أخرى تحدثت عن شهامة البدو، واحترامهم للآخرين. وفي مكان آخر من الرواية يتحدث الكاتب عن وسامة الشاب البدوي الذي رأته سحر أثناء وجودها في مدينة تدمر القديمة، فصورة هذا الشاب الوسيم الضحوك ذو العينين السوداوتين، والرموش الطويلة لم تفارق ذهن سحر طوال اليوم.

لقد أشار الكاتب إلى الغنى المادي الذي يتميز به زعماء القبائل البدوية، فعندما طلب الشيخ سطعان سحر زوجة لابنه، شجع مدير الناحية صبحي أفندي على قبول طلب الزواج مشيراً

إلى أن الشيخ غني جداً، وسيعطي لصبحي أفندي مبلغاً كبيراً من المال كما أن سحر سوف تعيش في بحبوحة من العيش طوال حياتها.

لقد فضل الكاتب البدو على الموظفين الأتراك ذوي الأخلاق السيئة في أكثر من موضع في الرواية، فكثيراً ما يجري الكاتب على لسان شخصياته مقارنة بين البدو والموظفين الأتراك في المملحة، ويخلص إلى أن البدو لا يمكن أن توجد فيهم الصفات القبيحة المستشرية في الموظفين الأتراك مثل الدناءة وقلة الشرف، فمكان هذه الصفات السلبية توجد صفات إيجابية، مثل السماحة والشجاعة والصفاء.

لقد تناول الأدباء الأتراك حلب في رواياتهم ومذكراتهم، فتحدثوا عن تلك الولاية، مبرزين أهم جوانبها وخصائصها. ومن هؤلاء الأدباء علي كمال الذي قدم في آثاره للقارئ التركيّ صورة عن ولاية حلب تعكس الحياة السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة فيها في العقد الأخير من القرن التاسع عشر. لقد لفت التنوع الثقافي في حلب انتباه الكاتب وانعكس ذلك في كتبه، فبدت حلب فيها مكاناً متعدد الثقافات، والأعراق، والأديان، تَتَلاقى فيه الثقافات المختلفة، وتتعايش جنباً إلى جنب، حيث يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود والعرب والترك والأرمن والأجانب. كما بدت حلب منفى للمعارضين للسلطة والمهملين لأعمالهم من الأتراك، حيث يكثر فيها المنفيون من مركز الدولة العثمانية، ولا غرابة في ذلك، لأن الكاتب عاش في فترة كانت فيها سياسة

النفي مُطبّقة بشكلٍ كبيرٍ، وكانت حلب من أهم المنافي بالنسبة للأترك. أما المنفيون إلى حلب فقد كان معظمهم أشخاصاً سلبيين.

إن التنوع الثقافي في المدينة، واستقطابها الأجانب من كل أنحاء العالم، إضافة إلى كونها مركزاً للمنفيين الأتراك جعل مراكز التسلية واللهو فيها كثيرة، فقد بدت حلب في آثار الكاتب مدينة تعج بأماكن اللهو والتسلية المتنوعة، ففيها يقيم التجار الأجانب والقنصليات الحفلات الأسبوعية، إضافة لأماكن التَّسلية واللهو التي يرتادها المنفيون من الأتراك، والسكان المحليون.

حلب علي كمال التي أحبها وأحبَّ الحياة فيها، سكانها المحليون بسطاء، والأجانب فيها أثرياء يعيشون في قصور عالية محاطة بالأشجار، وفقراؤها يعيشون في بيوت صغيرة تقع داخل السور، أما البدو الذين يعيشون في باديتها فهم نجباء يتمتعون بجمال خَلقي وخُلقي.

الإحالات:

*** مرسوم أصدره السلطان عبد المجيد عام **1839** يتضمن إصلاحات واسعة في جميع المجالات على النمط الغربي

1- انظرKefeli, Emel, **Edebiyat Coğrafyasında Akdeniz.** İstanbul: 3F Yayınevi, 2006. S148,153,164.

2- انظر Ahmet Midhat Efendi, **Felsefe-i Zenan; Letaif-i Rivayat,** hzl: Fazıl Gökçek,İstanbul, Çağrı Yayınları, 2001. S 85

3- أنظر Cenap Şahabettin, **Suriye Mektupları,** haz. Top, Baki, 1991

4- انظرŞerafettin Mağmumi, **Bir Osmanlı Doktorunun Anıları Yüzyıl Önce Anadolu ve Suriye;** çev. Cahit Kayra, İstanbul, Büke Yayınları, 2001. S. 224-235

5- انظرRefik Halit Karay, **Sürgün**, İstanbul, İnkılap ve Aka Kitabevleri, 1969.

6- انظر Uzun, Mustafa, "Ali Kemal" **DİV**, Türkiye Diyanet Vakfı, c.2. İstanbul 1989, s. 405-407.

7- انظرGezgin, Faruk, **Ali Kemal Bir Muhalifin Hikâyesi,** İsis yay. İstanbul 2010. S 238.

8- انظر المرجع السابق ص **247-248**.

9- Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal**, haz. Kayahan Özgül, Hece yay. Ankara, 2004. S. 169-170

10- انظر المرجع السابق ص **193**

11- انظر المرجع السابق ص **174**

12- انظر المرجع السابق ص **198**

13- انظر المرجع السابق ص **198**

14- انظر المرجع السابق ص**164**

15- انظر المرجع السابق ص**197**.

-16Ali Kemal, **Sorbonne Darülfünunu'nda Edebiyat-ı Hakikiyye Dersleri**; haz. Bahriye Çeri, Ankara, Hece Yayınları, 2007

-[17] Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal,** s 181-182

-[18] Ali Kemal, "Tûl-i Emel" **Peyam,** nr. 129, 31 Mart 1914, s.1.

-[19] انظر Ali Kemal,"Seyahat Hatıraları. Tunus Araplar ve Arapça " **İkdam**, nr.1871, 819, Eylül 1899, s.3.

-[20] انظر Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal**, s 201-202

-[21] انظر المرجع السابق ص 721

-[22] Ali Kemal, **Bir Safha-ı Şebâb,** İkdam Matbaası, Dersaadet 1329/1913,s.3

-[23] المرجع السابق، ص: **90**

-[24] المرجع السابق **185-186**

-[25] المرجع السابق **114**

المصادر والمراجع:

- Ali Kemal, "Tûl-i Emel" **Peyam**, nr. 129, 31 Mart 1914, s.1

- Ali Kemal, **Bir Safha-ı Şebâb**, İkdam Matbaası, Dersaadet 1329/1913, 208 s

- Ali Kemal, **Ömrüm-Ali Kemal**, haz. Kayahan Özgül, Hece yay. Ankara, 2004.

- Ali Kemal, **Sorbonne Darülfünunu'nda Edebiyat-ı Hakikiyye Dersleri**; haz. Bahriye Çeri. Ankara, Hece Yayınları, 2007

- Ali Kemal,"Seyahat Hatıraları. Tunus Araplar ve Arapça " **İkdam**, nr.1871, 819, Eylül 1899, s.3-4

- Gezgin, Faruk, **Ali Kemal Bir Muhalifin Hikâyesi**, İsis yay. İstanbul 2010

- Kefeli, Emel, **Edebiyat Coğrafyasında Akdeniz.** İstanbul: 3F Yayınevi, 2006.

- Uzun, Mustafa, "Ali Kemal" **DİV**, Türkiye Diyanet Vakfı, c.2. İstanbul 1989, s. 405-408

الداي حسين باشا أخر شخصية عثمانية تحكم الجزائر

فطيمة شيخ
طالبة دكتوراه- جامعة سيدي بلعباس

Abstract:

This study is based on personal Hussein Dey last listed Pasha Algeria during the Covenant Alosmlna (1818-1830).

This article is trying to show the political maneuvers and European diplomacy in deterring the Algerian Navy . And then access to the fan incident and sea blockade , which ended the French coast of Algeria in 1827 and the French military intervention to Algeria in 1830 .

Keywords:

Hussein Dey Pasha- Algeria- Algerian personalities- Political and economic achievements

تميزت الفترة الأخيرة من الحكم العثماني بالجزائر بعد الاستقرار السياسي و العسكري، حيث كثرت الاضطرابات بسبب الثورات التي قادها زعماء الطرق الصوفية ضد السلطة العثمانية بفعل النظام الضرائبي الجائر. و لم تتمكن السلطة العثمانية و من ورائها الجيش الإنكشاري من استتباب الأمن في أرجاء البلاد و هكذا انفتحت أبواب الجزائر على مصراعيها نحو مزيدا من المطامع الأجنبية و على رأسها الطموحات العسكرية الفرنسية في غزو الجزائر.

1- مولده: الداي حسين باشا (**1773-1838**)أخر دايات الجزائر في العهد العثماني، كانت فترة حكمه ما بين **1818** إلى غاية

1830م، وهو من ضمن الشخصيات التي أختلف في سنة ومكان ولادتها، تذكر بعض المصادر أن مولده كان سنة 1764م في مكان يدعي أدرنة، كما ذكرت أخرى أن مولده كان 1773م في أزمير، نشأ في أسطنبول، حيث خدم هناك المدفعية [1]،تلقى تكوين خاصا وأرسل إلى القسطنطينية لمزاولة دراسته بمدرسة خاصة كجندي بسيط، لقب باسم خوجة وتعني بالعثمانية تاجر، وذلك لامتهانه حرفة التجارة، وعلى رأسها تجارة التبغ، وقد ورد أنه كان رجلا فاضلا ينتمي إلى أسرة كريمة، يتمتع بثقافة واسعة، شريف النفس وكريمها، حريص على عدم إراقة الدماء، وعدم خرق المعاهدات المبرمة من طرفه، تقلب في عدة وظائف ،منها مجندا في ميليشيا الجزائر، وجندي في الحامية العثمانية، ليصل إلى منصب خوجة الخيل [2] في عهد الدي عمر باشا [3]، كما عينه على أملاك الدولة ليصبح بذلك عضوا في الديوان [4].

وصل إلى الحكم سنة 1818، خليفة للداي علي خوجة [5]، الذي أوصى بالحكم له، وهو منصب لم يتحمس له حسين باشا، غير أنه أضطر إلى قبوله مكرها، ولي من طرف الحاج مصطفى أبن مالك [6]، الذي نقل لحسين باشا نبأ موت علي باشا أثر زيارته له، وأخذه إلى دار الملك، وأجلسه على كرسي الحكم، وتقدم و بايعه، وكذلك الوزير وكافة العمال، حيث بايعوه، وناد البراح في الأسواق نبأ توليه الداي حسين باشا [7].

2- انجازاته:

تولى الداي حسين باشا الحكم في فترة حرجة، لما عرفته البلاد من فوضى منذ عهد الداي مصطفى باشا(1798 – 1805) [8]، غير أنه عمل على تحسين الأوضاع والنهوض بالبلاد من خلال

القيام بإنجازات كان من ضمنها إتمام مقر الحكم الجديد بالقصبة في أعالي مدينة الجزائر بعد نقل علي خوجه إليه [9]، كما قام بإصدار عملة جديدة بعد بناءه دار جديدة للسكة داخل قصر القصبة ومن ضمن النقود التي تم سكها قطع السلطاني من الذهب ونصف السلطاني وربع السلطاني أما الفضة فتم سك أنصاف الدورو ليحمل اسم ريال بوجة بالإضافة إلى ربع الدورو ،كما سكت قطع من النحاس جديدة قيمتها **18**قطعة لثمن الريال [10]،كما قام ببناء برج باب البحر وطبانية [11]، وإعادة تنظيم الجيش الإنكشاري، باعتباره نواة القوات العسكرية للدولة، فمنحهم امتيازات وأعاد الهبة والسلطة لهم، كما أصدر عفو شامل في حق الإنكشارية وألغى المراسيم والإجراءات السابقة التي صدرت ضدهم، كما أعاد فتح الحانات التي أغلقها علي خوجة، وسمح برجوع الباغيات لمدينة الجزائر بعد نفيهم إلى شرشال، وبنى لهم حيا خاصا لممارسة مهنتهن [12]،كما بنى سنة **1826** مباني ملحقة لقصر الجنينة تتسع لـ **12** فرنا و **03** أفران لطبخ الكعك، و بنى مع ذلك مطاحن لخدمة الجيش [13]، كما قام الداي بترميم مجموعة من الثكنات كان أهمها ثكنة باب عزون على يد صهره إبراهيم آغام عام **1821** [14].

أما عملية التجنيد فقد عرفت تراجعا كبيرا في عهد الداي حسين باشا، فقد بلغ عدد المجندين ما بين (**1820** – **1830**) حوالي **4154** متطوعا وهو عدد جد ناقص وقد وجدت عدة مراسلات [15] حول هذا الموضوع من الداي للسلطان محمود الثاني [16]، بطلب

فيها بدعمه بالمتطوعين، ومنها الرسالة التالية.(منذ عدة سنوات لم تتحصل الأوجاق على فرق عسكرية من الأناضول، وهي بحاجة إلى فرق تركية، ولهذا نرجوا من حضرتكم الموافقة على إرسال بعض الفرق المتطوعة من أزمير والمناطق الساحلية للإمبراطورية) [17].

أما بخصوص القوة البحرية، فمع نهاية القرن الثامن عشر أصبح الأسطول مملوكا للدايليت(الداي ووزراءه) وأضحى الرياس تحت سيطرة وزير الحربية وتم إنشاء قوة عرفت (بسفن خفر السواحل) عملت على حفظ أمن وسلامة سواحل الايالة مما جعل الداي يهتم بها أكثر واهم شيء هو حجز السفن الممارسة لنشاطات دون علم الايالة [18].،غير أن الأسطول البحري الجزائري تلاشي وضعف بعد حملة" اكسموث **1816**" والتي تم وصفها وعرض أضرارها و خسائرها في خط همايون رقم **29459** بتاريخ **1241** هـ/ **1816**م.

وقد أنشأ الداي فرق من الجيش الاحتياطي منها فرق زواوة التي عملت في حراسة الأبراج، وكانوا لا يتقاضون راتبهم إلى أثناء الخدمة، بالإضافة إلى فرق أخرى مثل فرقة الصباحية [19].

كما نجد أن الداي قام بترميم مجموعة من الثكنات مثل ثكنة باب عزون على يد صهره إبراهيم آغا عام **1821** [20]، وأهتم الداي بصناعة السفن وتصليحتها في موانئ بجاية، ومدينة الجزائر وشرشال [21]، كما ازدهرت في عهده الحرف والتجارة الداخلية منها، المتمثلة في الأسواق وذكرا أنه بلغ عددها حوالي واحد

وأربعون سوق(41)، وما يلاحظ هو تخصص الأسواق حسب المادة التي كان يتم بيعها بها [22]، وكانت هناك طرق برية محددة للمبادلات التجارية المرتبطة بتونس وفاس وجدة [23]، أما المبادلات التجارية مع دول أوروبا، فكانت الجزائر تصدر الزرابي والخزف اليدوية المطروزة، وخرق لف الرقابة من الحرير، والتمور والقماش والصوف والشمع وقطعان الماشية وجلودها، وريش النعام، كما كان يتم مقابل هذا إستراد مجموعة من منتجات الخارج تشمل القطن المغزول والخام والأقمشة الدمشقية، وأمتعة الذهب والفضة والعلك الأريجي وأوراق اللعب، الأمشاط والبهارات مثل الفسوخ والكمون والمواد الممزوجة للصباغة والتلوين [24]وكانت كل من إيطاليا وانكلترا وفرنسا وموانئ الشرق العثماني مصدرا لها.

3- الصعوبات التي واجهت الداي:

واجه الداي حسين باشا في فترة حكمه اضطرابات داخلية اخرى طبيعية خاصة وباء الطاعون الذي ضرب الجزائر في هذه الفترة (**1816** إلى **1823**م)وبذلك دام اكثر من سبع سنين أدى فيها لوفات الكثير من الجزائريين على رأسهم الداي السابق علي خوجة وذكرت مصادر انه بلغ عدد بلغ مئة فرد يوميا بالإضافة إلى الزلزال الذي ضرب البليدة الذي أدى إلى قتل الكثير وتدمير وتحطيم معظم المباني [25]، وثورات أدت إلى إضعافه وخلق اللإستقرار في حكمه، ومن بين الثورات التي واجهتها ثورة النمامشة ما بين عامي (**1819** – **1820**) وكذلك ثورة منطقة جرجرة سنة **1823** [26]،غير أن أخطر

هذه الثورات كان الثورة التيجانية نسبة إلى محمد بن أحمد بن محمد التجاني [27]، وما زاد خطورة هذه الثورة وقوتها الضعف الذي شهدته الإيالة والتدهور خاصة في قوة الإنكشارية والمشاكل الداخلية [28]، وقد تزعم هذه الثورة السيد محمد الكبير بن القطب العلامة السيد أحمد بن سالم التيجاني، وكانت انطلاقتها **1242**هـ، **1826**م [29]،وهي ثورة استعصى على الداي حسين القضاء عليها، وقد جند لها كل القوى و كانت نهايتها على يد الباي حسان [30] الذي قتل قائدها سي محمد الكبير سنة **1827**م وهو في طريقه نحو احتلال وهران، حيث اعترضه الباي وقتله بعد أن رشا من كان برفقته من حشم غريس الذين تخلوا عنه وتركوه فريسة سهلة للباي حسان الذي قطع رؤسه ورؤوس من معه وفرقها على المدن لتكون عبرة يعتبر بها الناس وتم إرسال رأس الحاج محمد ولد التيجني إلى الجزائر حيث صلبوه على عمود قبالة الباب الجديد وعلقوا الرؤوس الأخرى حوله، و نتيجة ما أحدثه من اضطراب داخل الإيالة أمتد صداه إلى الإمبراطورية تم إرسال خبر للسلطان محمود الثاني يبشره الداي فيه بقتله للحاج محمد كما بعث له بسيفه والحجب التي كانت معه [31].

وقد عمل الداي حسين على توطيد العلاقة مع المشايخ ودعاهم إلى القصبة عدة مرات ووزع عليهم برانيس حمراء، وسيوف بأغماد مذهبة، وساعات صدرية، وأمر وزراءه أكثر من مرة بزيارة قبور الأولياء على اختلافها، فزاروها وذبحوا الأغنام والأبقار وفرقوا

الأموال على الفقراء الذين اجتمعوا هناك وولي مفتي عربي مكان التركي كما بعث لجميع الأئمة بهدايا صغيرة [32].

ومن ضمن العوائق التي واجهة الداي حسين نجد كذلك ظاهرة الهروب من الخدمة العسكرية للجيش الإنكشاري، وذلك إما بهدف رعاية مصالحهم و تجارتهم بالجزائر أو الرجوع إلى بلدهم دون الالتحاق بوحداتهم [33]، وكانت عملية الهروب تتم عبر الأراضي التونسية، أو الإقامة فيها، مما أحدث خلاف وتوتر في العلاقات بين الأياليين انتهى بفرمان بعثة السلطان محمود الثاني في أكتوبر **1826**م يأمر باي تونس محمود باشا بمنع الجنود الهاربين من إيالة الجزائر من العبور أو الإقامة في الأراضي التونسية ووجوب القبض عليهم وتسليمهم إلى وكيل الجزائر ليعيدهم إلى وحداتهم [34].

بالإضافة إلى عملية هروب الجيش، واجه الداي محاولات اغتيال من طرف هذه الفئة التي كانت في جلها فاشلة، أفرزت سياسة التباعد بين الداي و الجيش الإنكشاري، مما دفع به إلى الاستعانة بفرق زواوة في حراسته ،أوكل قيادتها إلى يحي آغا [35] ذي الأصل الجزائري [36].غير أن أصعب ما واجهه وأنهى حكمه هو المآمرات الفرنسية و ما تولد عنها من حادثة "المروحة" و الطمع في خزينة القصبة و ما تحويه من نفائس الذهب و المجوهرات، وما نتج عنها من حصار كانت بدايته **16** جوان **1827** [37].

كما كانت للداي في فترة حكمه علاقات خارجية نشطة مع تونس اتسمت بالسلام وذلك بإبرام الصلح بينهما سنة **1821**م، لكنه سرعان ما بدأ بالتعكر والتباعد بعد التحيز الذي قام به الباي

حسين للجانب الفرنسي في النزاع الجزائري الفرنسي **1827**م، ودعمه للحصار الفرنسي والحملة الفرنسية نتيجة أطماعه في الجزائر خاصة بايلك الشرف [38] وبالأخص قسنطينة [39]. كما أنه منع مرور طاهر باشا مبعوث السلطان العثماني في مساعي لحل القضية سلميا بعد فشل مبعوثه الأول خليل أفندي المرسل أوائل نوفمبر **1827**م وبذلك ساهم في إفشال هذه المساعي ليقدم التهاني (ديبرمون) بنجاح الحملة بعد أن منحه وجيشه كل التسهيلات [40].

أما المغرب الأقصى فكان له أعوان في تلمسان و يحاول بسط نفوذه عليها و هو مشروع قديم باء بالفشل عديد المرات.كما أظهر العداوة والمؤامرات نحو الجزائر حيث في عهد السلطان العلوي إسماعيل(**1672**–**1727**) أرسل حملة عسكرية كبيرة لمحاصرة والإستيلاء على تلمسان سنة **1691**لكن تم التصدي لهجومات الجيش المغربي ، وهزمه قرب سهول الشلف [41].

أما على المستوى الخارجي الأوروبي عرف عهد الداي حسين باشا تنوع في العلاقات الأوروبية وجل ما سادها هو الحملات العسكرية الضخمة، خاصة بعد إثارة ما عرف(بالقرصنة) في مؤتمري فينا **1815** و اكس لا شابيل **1818** م الذي حملت قراراته على متن سفينة فرنسية واخرى انجليزية للداي حسين وعرضها عليه لكنه لم يولها اي اهتمام [42]، فبعد حملة اكس ماوث **1816** [43]، المدمرة لمدينة الجزائر بقصف مدفعي [44] كانت حملة **31** جانفي **1824** البريطانية التي حاصرت سواحل الجزائر، انتهت بانسحاب الجيش

البريطاني بعد عقم المفاوضات بين البلدين والمقاومة القوية للجنود الجزائريين وتوصل الطرفين إلى إبرام صلح قبل فيه الداي بشروط الإنجليتر [45] في **26** جويلية **1824** بعد استبدال القنصل الإنجليزي(ماك دونال **Mac Donel**) [46]

أما فرنسا فكانت علاقة وطيدة أحدثت فيها مسألة الديون انشقاق وخلاف انتهى بصراع بين الدولتين خاصة بعد حصول كلا اليهوديين بكري و بوشناق [47] على حصص من الدين لم يدفع منها شيء لحكومة الجزائر و اللذين غادر الجزائر و غيرا مقر إقامتهم، تاركين الداي يتخبط في مشاكل مع الدولة الفرنسية [48].

4- نهاية حكم الداي.

و كانت العلاقة السيئة مع فرنسا و عدم حذر الداي حسين باشا سبب مباشر لإنهاء حكمه والتواجد العثماني في الجزائر ليحل محله الاستعمار الفرنسي الذي مهد للاحتلال باستعمال الديون حجة انتهت بافتعال مشكلة إثر حادثة هي حادثة (المروحة) التي جرت وقائعها بعد اتهام الداي حسين باشا للقنصل الفرنسي بالجزائر (بير دوفال) [49] **Pierre Duval** بالتواطئ مع اليهوديين(بكري وبوشناق) ونهب الأموال التي كانت من حق الخزينة الجزائرية، وأرسل في طلب فصله وتعيين قنصل غيره، وهو شيء رفضه الملك الفرنسي، بالإضافة إلى عدم رده على رسائل الداي المتعلقة بالديون مما زاد في غضب الداي، الذي علم بوصول رسائل للقنصل لم يفسح على مضمونها، ليستغل حضور القنصل إلى القصر إثر

مناسبة عيد الفطر ويسأله حول مضمون هذه الرسائل، ليكون رد القنصل هو ما خيب أمل الداي حسين وكان الرد حسب ما كتبه حمدان خوجة في كتابه المرآة: (إن حكومتي لا تتنازل لإجابة رجل مثلكم) [50]، وهو مزاد في غضب الداي الذي لم يجد غير طرده والإشارة بيده عليه التي كانت بها مروحة لامست وجه القنصل الفرنسي قائلا له (أخرج ياكافر يا ملعون) [51] لتنتهي العلاقات الفرنسية الجزائرية عند هذه الحادثة التي حملتها فرنسا راية تبرر بها احتلال الجزائر و تحصل بها على الدعم والتعاطف الدولي، خاصة بعد رفض الداي حسين باشا لشروط التزكية المعجزة له والمهينة لحكمه وسيادته [52].

تنطلق الحملة نحو الجزائر بقيادة (دوبرمون) [53] بعد أن وافق عليها الملك شارل العاشر [54] في **07** فبراير **1830**م، وكانت من ضمن التحضيرات للاحتلال استعمال الخدعة و المناورة عن طريق تمرير منشور عبر تونس [55] كان عبارة عن نداء ترجمه (شارل كازار) [56] إلى العربية الجزائرية، وتم توزيعه على القضاة والأشراف والعلماء، وكبار المشايخ يتضمن وصف الداي بسوء المعاملة للرعايا، وتخريب البلاد والاستحواذ على الثروات، وإهانة فرنسا وبذلك هو عدو، كما يهددنكم في حال تعرضوا لفرنسا ورفضوا التعامل معها، وتم إرسال حوالي **400** نسخة مررت يوم **22** ماي **1830**م حاول الداي جمعها لكنه فشل.

ظهر الأسطول الفرنسي على السواحل الجزائرية السبت **20** ذي الحجة **1245**هـ/ **1830**م وكان الإنزال **16** جوان **1830**، لنبدأ المعارك والزحف الفرنسي نحو الجزائر، وهزم الجيش العثماني في

معركة مصطفى والي (أسطولي) [57] يوم **19** جوان **1830**، ليكون بذلك الفرنسيون على أبواب مدينة الجزائر بعد تدمير برج مولاي حسن [58] وإسقاط قلعة الإمبراطور يوم **04** جويلية **1830**م، وبذلك لم يتبقى للداي حسين باشا سوى طلب الأمان له ولأهله وماله حيث أرسل وفد إلى قائد الحملة (ديبورمون) يتكون من كاتبه مصطفى والقنصل الانجليزي إلى جانب بوضربة وحمدان بن عثمان خوجة كمترجمين للاتفاق على شروط الاستسلام [59]، ليكون يوم **05** جويلية **1830** هو تاريخ توقيع الاتفاق بين وفد الداي حسين باشا وقائد الحملة الفرنسية- دي بورمون) على شروط الاستسلام، وتنتهي المقاومة [60] ليغادر الداي يوم **10** جويلية مصحوبا بمائة وعشرة من أفراد أسرته وحاشيته بينهم **55** امرأة [61] على متن السفينة الفرنسية (جان دارك **jeanne darc**)

وقد اختار له (دي بورمون)مدينة (نابولي) الإيطالية منفى عوض (مالطة) التي رغب فيها الداي حسين باشا وأقلته الباخرة الفرنسية" جان داراك(التي حمله إلى) ماهون في البليار عشرة أيام وضع فيا بالحجز الصحي تم منها إلى إيطاليا تم أنتقل إلى (ليفورنة) للإقامة بأهله في منزل تملكه عائلة بكري وبوشناق اليهودية [62]، كما جرد من أملاكه وأمواله بعد اكتشاف فرنسا لعدة محاولات من الداي لدعم المقاومة في الجزائر وخصصت له منحة، لتكون الإسكندرية بمصر أخر ملاذ له بعد أن وافق محمد علي [63] على إقامته بها، ليبقى بقية حياته هناك إلى حين توفي بها سنة **1837**م.

- عمل الداي على تنظيم الحكم وخلق الانضباط في الدولة بذل كل مجهوده، غير أنه لم يتمكن من ذلك لعدم تمكنه من تفادي الحرب مع فرنسا [4] [6] و برحيله انتهى عهد الإيالة العثمانية الذي دام أكثر من ثلاثة قرون من الزمن مما أضطر بالجزائريين إلى الاعتماد على أنفسهم في مواجهة الاحتلال الفرنسي من خلال مقاومة اتخذت عدة أشكال ومرت بعدة مراحل.

الهوامش:

[1]- سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية الجزائرية (1830-1900) ، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامية، لبنان، 1992، ص 19.

[2]- خوجة الخيل: هو الموظف الذي يشرف على أملاك الدولة و على جمع الضرائب.

[3]- عمر باشا: تولى الحكم ما بين (1814 – 1817) ولاه الجيش على الجزائر، الذي قتل على يده في سبتمبر 1817 م شنقا و في ظروف صعبة عرفتها الجزائر خاصة بعد تدميرات حملة(أكس ماوث1816) و عين علي خوجة خلفا له.

[4]- خوجة ، حمدان بن عثمان ، المرآة، (تعريب الزبيري محمد العربي)، ط2 ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982.، ص 173/ 174.

[5]- علي خوجة،:حكم ما بين 1817 و 1818، كان يتمتع بالعلم و شدة الذكاء، وحسن معاملة الغير، و سرعة الغضب، عمل على التخلص من الجنود الإنكشارية غير المنظمين و المتقيدين بالنظام، كما أحاط نفسه بفرق من الحرس الخاص يتكون من مئتي جندي لا تفارقه أبدا، و نقل مقره إلى حصن القصبة توفي أواخر فيفري 1817 بالطوعون الذي أصاب الجزائر و أودى بحياة أكثر من 14 ألف شخص.

[6]- الحاج مصطفى أبن مالك: هو صهر عمر باشا، و من نقل خبر وفاة علي خوجة للداي حسين و كذلك من وضعه على الكرسي و فق وصيته و أول من بايعه على كرسي الحكم.

[7]- الزهار، أحمد الشريف، مذكرة الحاج أحمد الشريف نقيب أشرف الجزائر 1754 – 1830 (تحقيق توفيق المدني)، الطبعة الثانية، الجزائر، 1980، ص 141.

[8]- الداي مصطفى باشا: من مواليد الأناضول بآسيا، من أبوين فقيرين، جادءإلى الجزائر أيام شبابه، لينظم إلى الميليشيات و كان أول عمله هو كنس الزقاق، تم العمل في القصر تم إلى منصب الخزناجي في عهد الداي حسن الذي حكم بعده.

[9]- خوجة،حمدان بن عثمان،المرآة،(تقديم وتعريب محمد العربي الزبيري)،الطبعة الثانية،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر ،1980،ص 153.

[10]- مجهول، تاريخ بايات قسنطينة (تحقيق حساني مختار)،منشورات دحلب،الجزائر ،1999،صص 71-72.

[11]- الزهار، احمد الشريف ، المصدر السابق، ص 158.

[12]- بوشافي ، محمد، (الداي علي خوجة و إصلاحاته (1817 – 1818))، مجلة عصور، العدد الثالث، مخبر المصادر و الترجمة، جامعة وهران، جوان 2003، ص154.

[13]- Comité Du Vieil D'Alger, Les Feuiller D'Edjazaire ,Tome 2, Editions DU Tell ,Alger, P25.

[14]- أبراهيم آغا:هو صهر الداي حسين باشا، قائد الجيش العثماني في معركة سطاوالي 19 جوان 1830 عزل إثر انهزامه أمام الجيش الفرنسي في هذه المعركة .

[15]- خط همايون رقم 17216 بتاريخ 1293ه

[16]- السلطان محمود الثاني: حكم الدولة العثمانية ما بين (1223 هـ-1255 ه / 1808- 1839م) و هو قائد ثورة المورة في بلاد اليونان وصاحب الواقعة الخيرة التي أباد فيها

الجيش الإنكشاري .لمعلومات أكثر أنظر السيد ، محمود، تاريخ الدولة العثمانية و حضارتها، مؤسسة شهاب الجامعة، الإسكندرية، 2000م، ص 121،132.

[17] - Erk Ment , « Les lettres du dernier Day au grand Vizir de l'empire ottomane » , in, **R** , **A** ,(N96), 1952, P25.

[18]– حنيفي، هلايلي، النظام الحربي للجزائر في العهد العثماني منذ مطلع القرن السابع عشر حتى سنة 1830، رسالة دكتوراه في التار يخ الحديث غير منشورة، جامعة سيدي بلعباس، 2003 – 2004 ، ص 84.

[19]– عباد، صالح، الجزائر خلال العلم التركي (1514 – 1830) ، ط2، دار هومة للطباعة و النشر، الجزائر، 2007، ص 319.

[20]– هلايلي ، حنيفي، النظام الحربي.....،المرجع السابق، ص 61.

[21]– سعيدني، ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792 – 1830، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985، ص 37.

[22]– غطاس ، عائشة، الحرف و الحرفيون في مدينة الجزائر 1700 – 1830، رسالة دكتورا، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 2000 – 2001م، ص 260، 261.

[23]– محمد، العربي الزبيري، التجارة الخارجية للشرق الجزائري 1792 – 1830، ط2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1981، ص 67.

[24]– سبينسر ، وليم، الجزائر في عهد رياس الجر، الترجمة و تعليق عبد القادر زبادية، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1980م، ص 120، 121.

[25] – الزهار، أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 144.

[26]– بوشنافي ، محمد، الداي حسين باشا و سقوط الإيالة الجزائرية (1818 – 1820)، مجلة عصور، العدد 76، الجزائر، 2005، ص 112.

[27] – الزهار، أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 319.

– حنيفي ، هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط1، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص 53. [39]

[40]– بن خروف، عمر، علاقات الجزائر مع تونس في عهد الدايات (1671 –1830)، مجلة الدراسات التاريخية، العدد العاشر، جامعة الجزائر، 1997/ 1417، ص 398، 399.

[41]– فركوس، صلاح، تاريخ الجزائر من ما قبل التاريخ إلى غاية الاستقلال (المراحل الكبرى)، دار العلوم للنشر و التوزيع، الجزائر، 2005، ص 138.

[42]– Gaïd ,Miloud, L'Algérie sous les turcs,2éme édilion,Edilion mimouni ;Algrer,1991,P 205

– وصفت هذه الحملة في خط هما يون رقم29459،بتاريخ 1241ه علبة رقم 27. [43]

[44]– حنيفي ، هلايلي، النظام الحربي للجزائر .....،المرجع السابق، ص 28.

– أرزقي ، شويتام، المرجع السابق، ص 142، 144. [45]

[46]– بلقاسم، نايت مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل سنة 1830، ط1، دار البعث، قسنطينة، ج1، 1985، ص 196.

[47]– بكري و بوشناق، أ: بكري: لقب أسرة يهودية، أسمه مفيل كوهين العروف باسم ابن زهوا، حضر من ليفورنة إلى الجزائر 1770م، كان له أربعة أولاد أسسوا بعده شركة تجارية كانت تزود فرنسا بالحبوب و الأخوة بكري هم، يوسف، مردوشي، يعقوب، سليمان، أنظر، أحمد الشريف، الزهار، المصدر السابق، ص 17.

ب: بوشناق: المعروف باسم بوجناح، و هو من أسرة لها تجارة في الخارج، جاء إلى الجزائر 1723م، أنظر سعد الله، أبو القاسم، محاضرات...، المرجع السابق، ص 21.

[48]– بوعزيز، يحي، علاقات الجزائر الخارجية مع دول و مماليك أوروبا (1500– 1830)، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، د س، ص 128.

[49]- بيير دوفال: أخر القناصلة الفرنسين في الجزائر، جاء ما بين 1824 – 1827، عرف بتشدده الكبير لفكرة احتلال الجزائر، مفتعل(حادثة المروحة)، توفي قبل أن يحقق حلمه بفرنسا 1829 و خلفه أبن أخيه.

[50]- حمدان ، بن عثمان خوجة، المصدر السابق، ص 181.

[51]- صالح، فركوس، المرجع السابق ص 181.

- زروال، محمد، العلاقات الجزائرية الفرنسية (1791 – 1831)، طبعة حلب، الجزائر، 1994، ص 90. [52]

[53]- دي برمون(1773-1848) :كان من ألذ أعداد الثورة الفرنسية، فر إلى البرتغال و عاد إلى فرنسا مدربا باقي الجيش النابولي، برتبة عقيد و سنة 1814 برتبة جنرال، عين وزير الحربية و قائد الحملة الفرنسية على الجزائر 1829، كما حصل على لقب (ماريشال).

[54]- شارل العاشر(1757-1836) :آخر سلالة من أسرة آل بوربون حيث قامت الثورة الفرنسية 1824 و أسقط حكمه في أواخر جويلية 1830 من طرف المعارضة في معظم الاتجاهات السياسية و قد منح امتيازات إلى الاكليروس و طبقة النبلاء.

[55]- لمعرفة أكثر حول المنشور، أنظر: زبادية ،عبد القادر، (الداي حسين و استمرار المقاومة في المدينة)، مجلة الثقافية الجزائرية، العدد 26، ص 128.

[56]- شار زكار: ولد في دمشق 1787م، كان ممثل لكنيسة"(سانت نيكولاس) بمرسليا، عين مترجم للحملة دون التخلي عن الرهبنة، وضح تحت تصرفه أسقفية مدينة الجزائر 1845.انظر عباد،صالح ،المرجع السابق،

- أسطوالي: أو ولي بالعثمانية تقع على مسافة سير ساعة من سيدي فرج، أنظر عباد، صالح، المرجع السابق، ص 252. [57]

[58]- برج مولاي حسن: هو برج المشرف على المدينة و قد بنه الأسبان أثناء هجومهم على المدينة و الجزائر و عرف بالثرثار باسم(سلطان القلعة سي) أي سلطان القلعة.

[59] – الزهار أحمد الشريف، المصدر السابق، ص 173،174.

[60] – بوشنافي ، محمد، الداي حسين .....، المرجع السابق، ص 117، 118.

[61] – بوعزير ، يحي، علاقات الجزائر الخارجية .....، المرجع السابق، ص 135.

[62] – سعد الله، أبو القاسم، الحركة الوطنية .....، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 19.

[63] – محمد علي باشا:والي مصر العسكري، قدم من منطقة كافالا(Kavala) إلى مصر في سنة 1805م، أصبح واليها بعد عدة مؤامرات وثورات قام بإخماد ثورة الوهابيين في الحجاز، و خدم الدولة العثمانية بنجاح، و قد كسب لسلالته ولاية مصر و راثية لأسرته.

[64]- Hamdane , Khoja , Le Miroir Aperçu Historique Sur La Régence D'Alger, Ed ,Sind ad ,paris ,1985,p15.

ملف اللغات الأجنبية

<http://www.docstoc.com/docs/81190373/doc_3_.> Consulté le 20/05/2012.

-Sablayrolles, J-F., (2012), « Des néologismes par détournement ? ou Plaidoyer pour la reconnaissance du détournement parmi les matrices lexicogéniques ». In *Actes du colloque DORIF*. Pp.17-28, [En ligne]<http://hal.archivesouvertes.fr/index.php?halsid>.Consulté le 27/09/2012.

-Sablayrolles, J-F., (2002), « Fondements Théoriques des Difficultés Pratiques Du Traitement Des Néologismes », in Revue française de linguistique appliquée. Vol VII-1. « Lexique : recherche actuelles », P.101, [En ligne] <http://www.cairn.info/revue-francaise-de-linguistique-appliquee-2002-1-page-97.htm>, Consulté le 10/12/2010.

-Sablayrolles, J-F., (2000), *La néologie en français contemporains. Examens du concept et analyse de productions néologiques récentes*. Honoré Champion. Paris. p.157.

Sabayrolles, J-F. 1996-2. « Néologisme Et Nouveauté(s) », in : Cahiers *de Lexicologie*. N° 69. pp.5-42.

-Sader Feghali, L., (2005), « La presse vue à travers néoscope : quand les contextes médiatiques sont mis au service de la néologie. », in : *Mots, Termes et Contexte*. Actes des septièmes journées scientifiques du réseau de chercheurs, Bruxelles, Belgique, p.525

(5/ Concept emprunté à Benzakour, 2000, p.455.

(6/ Nous entendons par vernaculaire l'arabe dialectal, la langue maternelle de la majorité des Algériens.

(7/ Exemple tiré de l'article de S-E. Redouane 1995, p.303.

Bibliographie:

-Bastuji, J., (1979), « Notes sur la créativité lexicale », dans *Adda (R.) et alii, Néologie et Lexicologie*. Paris. Larousse. Pages12-20.

-Benmayouf, Ch. Y., (2008), *Renouvellement social, renouvellement langagier dans l'Algérie d'aujourd'hui*, Le Harmattan. p.71.

-Benzakour, F., (2001), « Le Français dans la réalité marocaine. Faits d'appropriation. L'exemple de l'écart lexical », in : *Par Monts et par Vaux: itinéraires linguistiques et grammaticaux : mélanges de linguistique générale et française*, Louvains-Paris, Editions, Peeters, p.55.

-Cabré, M-T., Doménech, M. et al., (2003), « L'observatoire de néologie : concept, méthodologie, résultats et nouveaux travaux », in : *L'innovation lexicale*, Honoré Champion. Paris. P.127.

-Guilbert, L., (1975), *La créativité lexicale*. Paris. Larousse.

-Humbley, J., (2000), « Evolution du lexique ». *Histoire de la langue française 1945-2000*. Paris : CNRS. Pp.71-106.

Marcellesi, Ch., (1974), « Néologie et fonctions du langage », in Langages. 8e année. n°36. [Enligne] <http://www.persee.fr/web/revues/home/prescript/article/lgge> Consulté le 08/02/2011.

-Mortureux, M-F, (2011), « La néologie lexicale : de l'impasse à l'ouverture ». In *Langages*, 2011/3 n° 183, pp. 11-24.

-Redouane, S-E., (1995), « Les emprunts dans la presse marocaine d'expression française : problème d'intégration. » [En ligne]

d'échange entre les langues qui s'adaptent parfaitement à la réalité sociolinguistique et linguistique du français en Algérie, remarquable principalement au niveau de la création morphosémantique, au moyen de différents types d'association et de combinaison (suffixation, composés par télescopage et composés hybrides) permettant ainsi l'apparition de nouvelles lexies.

Notes :

(1/ Pour ce genre d'étude, s'il faut recourir à des dictionnaires en guise de corpus d'exclusion qui détermine le caractère néologique d'éléments obtenus après dépouillement des chroniques journalistiques, on ne peut consulter que les quelques ouvrages d'usage courant, remis régulièrement à jour largement répandus et utilisés dans la vie courante.

(2/ Après avoir examiné et analysé les travaux des grammairiens et linguistes du XIXème et XXème siècle consacrés à la néologie, J-F Sabayrolles propose d'établir sa propre typologie des procédés de formation. Il a cependant essayé d'apporter quelques remaniements mais légères aux procédés de formations appelés aussi « matrices lexicogéniques », termes emprunté à J. Tournier. Il présente alors sa typologie en deux grandes matrices qu'il distingue les unes des autres : la matrice externe et les matrices internes.

(3/ La matrice externe comprend les emprunts, les calques, les xénismes.

(4/ Concept utilisé par Benveniste E.

matrice pragmatico-sémantique ainsi que les emprunts à la langue maternelle sont les plus productifs. Mais bien sûr avec une manifestation d'une distribution différente entre ces procédés de création lexicale :

- La matrice morphosémantique est représentée en grande partie par la dérivation affixale et plus nettement par la composition qui joue un rôle exceptionnel dans la productivité des unités nouvelles.

- La matrice externe représentant la néologie par calque, xénisme mais essentiellement par emprunt direct qu'on considère comme une des importantes sources d'innovation lexicale journalistique.

- Les procédés morphologiques présentent également un des mécanismes intéressants pour la création lexicale mais ils restent plus au moins importants quant à l'étude de notre corpus.

- Les procédés de création pragmatico-sémantique se manifestant uniquement par les innovations par détournement constitue aussi un mécanisme assez remarquable dans la formation des néologismes journalistiques.

En guise de conclusion, cet article sur la création journalistique, nous a permis d'avoir une vue d'ensemble sur l'utilisation des procédés de création les plus productifs. Ces éléments nous permettent de dire que malgré les spécificités et les originalités de chaque langue (avec une grammaire, une graphie, ou une phonologie différentes), existe un système

chroniqueur préfère emprunter directement des termes de sa langue maternelle au lieu d'avoir recours au calque. Les quelques expressions de la langue arabe entièrement traduites à la langue française sont *« il ne manque à l'aveugle que le Khôl »*, un autre calque de l'arabe dialectal également est recensé *demi-œil* exprimant le mépris ou la colère en regardant l'autre ou encore l'exemple suivant : *« Il vaut mieux stp laisser le puits avec la couverture »*, autrement dit, ne pas tout dire pour ne pas tout révéler.

4.2.3- Le xénisme

C'est quand on cite un mot étranger pour une réalité étrangère, pour faire couleur locale ou signifier l'absence d'équivalence dans la société de la langue cible. Par ailleurs, certains xénismes finissent parfois par devenir des emprunts (Sablayrolles 2011). C'est le cas du mot *hittiste* que nous avons recensé dans notre corpus « teneur de mur » pour désigner le jeune désœuvré qui passe ses journées appuyé contre un mur dont un équivalent, *muriste* est apparu plus récemment.

5- Conclusion :

Par le biais de cette étude, nous avons pu identifier des innovations linguistiques qui peuvent générer un nombre très grand de nouvelles lexies d'un corpus journalistique. Ainsi, les procédés de création de nouvelles lexies telles que la matrice morphosémantique**,** la matrice morphologique et la

général. Le cas de l'emprunt alem, « savant en théologie » écrit alem, 'alem ou âalem et prononcé soit [alem], soit [ʔalem] (7). « La coexistence de deux prononciations peut être perçue comme une preuve de la difficulté que rencontrent les emprunts à s'intégrer au système phonétique du français ». (Redouane1995, p.303).

Cependant, l'intégration des emprunts recensés ne pose aucun problème car ces derniers, dans l'ensemble, ne présentent pas de particularité phonétique par rapport à la langue française et ils semblent poser moins de problème d'intégration au système de la langue. Ainsi, ces emprunts sont écrits de la même façon comme ils se prononcent. Si certains emprunts semblent s'être totalement intégrés au système linguistique, d'autres mots en revanche, empruntent uniquement une lettre en arabe dialectal, cette dernière remplace le pronom personnel en langue française. C'est le cas de *M'nervi*. Il s'agit du verbe (s)'énerver qui appartient à la langue française, mais qui est modifié morphologiquement, il est formé par analogie sur des lexèmes en dialectal oranais, comme *M'hayer, M'riyeh,…* avec élision de *« rani »* je suis.

4.2.2 - Le calque

Le calque est un mode d'emprunt d'un genre particulier : il y a emprunt du syntagme ou de la forme étrangère avec traduction littérale de ses éléments. Par ailleurs, peu d'exemples, soit un taux de 0,32%, apparaissent dans notre corpus quant à ce genre d'emprunt car le

Tayemoum (Ablutions sèches)	*Houkouma* (L'Etat)	*Gouala* (Troubadours)			*Tchipa* (pots-de-vin)

Nous constatons que le recours à l'emprunt, plus particulièrement l'emprunt direct, montre que les créations vernaculaires(6) restent amplement favorisées et que l'influence des emprunts sur la structure de la langue française ne représente pas, nous semble-t-il, un danger pour celle-ci. Nous avons pu également observer que pour la création de ce type de néologismes, le chroniqueur recourt aux emprunts qui sont à l'origine du langage populaire ou familier. Tels que les exemples *: Aâlaoui, Gouala*, cela traduit une position normative, pour dénommer la réalité socioculturelle algérienne.

Ainsi, selon (L. Guilbert 1975, pp.96-98) « l'installation d'un terme étranger dans le système linguistique d'une langue d'accueil dépend de trois critères : paramètres phonologique (et graphique), morphosyntaxique et sémantique ». La langue prêteuse, l'arabe, présente beaucoup de différences par rapport au français. Ce qui oblige, dans beaucoup de cas, à adapter les mots locaux aux exigences de prononciation et de fonctionnement des mots français en

Tableau n°6 : Les lexies empruntées et leurs domaines

Domaine religieux	**Domaine politique**	**Domaine culturel**	**Administration**	**Termes relatifs au comportement des individus**	**Phénomène relatif à la réalité sociale**
Moufti (Mufti)	*Fransawi* (Français)	*Aâlaoui* (dance folklorique algérienne)	*Daïra* (Organisation territoriale conçue par le gouvernement)	*Chriki* (Partenaire, associé)	*El belbala* (La confusion)
Moulana (Notre Dieu)	*Guirra* (Guerre)	*Chaâbi* (Chant algéroi s)	*El bouchta* (La poste)	*M'gari*	*El fassède* (La corruption)
Tarawih (les prières du soir, pendant le Ramadan)	*Hizb* (Parti politique)	*Gasba* (Instrument de musique	*Wilaya* (Divison administrative)	*M'nervi*	*Herraga* (Migrants clandestins)

d'un point de vue lexical et inter-linguistique. Par contre, les autres mécanismes de création par contact de langue à savoir le calque et le xénisme restent relativement importants pour notre corpus.

4.2.1- Classification des lexies empruntées par domaines

« Si le recours à l'emprunt occupe une place de choix parmi les procédés néologiques à l'œuvre dans la presse d'expression française, c'est bien sûr parce qu'il permet le mieux et le plus facilement de combler les lacunes linguistiques du français, surtout celles relatives aux référents culturels et religieux, mais aussi et peut-être plus parce qu'il permet de mieux communiquer, de mieux convaincre ou de jouer simplement avec la ou les langues en présence… » (Redouane, 1995, p.301).

L'influence des langues, en effet, peut varier selon le domaine. Effectivement, les créations par emprunts relevant du domaine religieux, culturel mais aussi des lexies relatives aux phénomènes à la réalité sociale algérienne connaissent une nette représentativité de la totalité de la néologie journalistique ; le phénomène concerne ainsi un nombre de 166 lexies néologiques (17,94%). L'analyse de notre corpus, nous a permis de classer ces créations par domaine comme le montre bien le tableau ci-dessous :

Tableau n°5 : - Les créations pragmatico sémantiques et leur productivité

Détournement	**Lexie primaire, originelle**
A vos pelles prêtes ? Partez !	À vos marques ! prêts ? Partez !
Chacun pour soi et tout pour moi	Chacun pour soi et Dieu pour tous
Nul n'est Pickpocket en son pays	Nul n'est Prophète en son pays
Que le meilleur perde	Que le meilleur gagne
Rien ne sert de courir, tout est joué d'avance	Rien ne sert de courir il faut partir à point
Tout ce qui peut se vendre et faire ventre	Tout ce qui rentre fait ventre
Vote doigtal	Vote digital vs vote informatisé

4.2- Matrice externe :

4.2.1- Les procédés de création par contact de langue : emprunt comme phénomène de néologie :

Dés que des langues sont en contact, il se produit naturellement des échanges de cultures qui se traduisent par des emprunts réciproques, plus au moins nombreux. Le français a ainsi augmenté son lexique en puisant à des sources linguistiques diverses. Ceci atteste la flexibilité de la langue française dont nous considérons le lexique comme un domaine linguistique perméable aux autres unités lexicales étrangères. Si dans la plupart des recherches consacrées à ce type de création, l'emprunt reste le phénomène le plus étudié

4.2.3- Les procédés de création pragmatico-sémantique et leur productivité:

Cette catégorie correspond à un seul procédé de création qui est le détournement.

« La création par détournement d'unités lexicales et leur interprétation ne peut aboutir qu'à condition que les récepteurs aient conscience du détournement, reconnaissent l'élément détourné et calculent le sens que la modification introduit. Sans ce travail interprétatif qui se fonde sur des connaissances lexicales et culturelles partagées entre émetteur et récepteurs interprétants […] le mot composé ou la séquence constituent, à proprement parler, un non-sens ». (Sablayrolles 2012, pp.17-28).

L'innovation par détournement est bien présente. Nous constatons que cette stratégie d'écriture de détournement correspond parfaitement au chroniqueur qui nous permet de voir son style ludique et ironique. Mais, nous fait remarquer Marcellesi, que c'est un « jeu de langage certes, mais jeux non gratuit ». (Marcellesi 1974, p.95). Ces chroniques sont truffées de jeux de mots construits sur des proverbes, des dictons, des œuvres, …etc., Ce qui permet de donner naissance à de nouvelles expressions. Près de 33 néologismes (03,56%) par détournement sont attestés. Ce sont donc bien des jeux de mots construits sur des proverbes qui sont les plus utilisés dans le cadre de la création. Parmi les détournements inventoriés, nous avons retenu les exemples suivants :

Le tableau récapitulatif ci-dessous présente les divers procédés de la création morphologique :

Tableau n°4 : Les créations morphologiques et leur productivité :

<table>
<tr><th colspan="3">Troncation</th><th>Sigle</th><th>Acronyme</th><th>Contraction</th></tr>
<tr><td>Apocope</td><td>Aphérèse</td><td>Syncope</td><td>////////////////</td><td>/////////////////</td><td>//////////////////</td></tr>
<tr><td>Clo… de l’anglais closed</td><td>Tudiant… étudiant</td><td rowspan="3">A vot’santé… A votre santé</td><td rowspan="3">MAA… mensonge assisté par assistant</td><td rowspan="3">Pap... programme anti-pénurie</td><td>KMC… commerçant</td></tr>
<tr><td>Edifi… Edifice</td><td>Plôme… diplôme</td><td>KON… quand</td></tr>
<tr><td>Godo… Godot</td><td>Mangeaison… démangeaison</td><td>TOC… Troubles Obsessionne-ls Compulsifs</td></tr>
<tr><td>Sarko… Sarkosy</td><td>Versité… université</td><td>Cap’tain… Capitaine</td><td>MAP… mensonge assisté par puce</td><td>Pas… programme anti-soulèvement</td><td></td></tr>
<tr><td colspan="3"></td><td>MAT… mensonge assisté par technologie</td><td></td><td></td></tr>
</table>

Nous avons aussi relevé des exemples de troncation par la disparition du « e » qui concerne l’article masculin « le » qui est souvent relié au substantif qu’il détermine. Nous avons recensé les termes *lmétro, ltrain.* Par ailleurs, cette stratégie d’écriture existait déjà chez Raymond Queneau dans son roman intitulé *Zazie dans le métro*, paru en 1959.

En ce qui concerne le changement de sens, nous considérons que la création des lexies sémantiques est le résultat de l'application, sur le sens attesté d'un mot déjà existant dans la langue française, des effets de style. Nous comptons un nombre de 68 créations sémantiques, de la totalité de la matrice syntactico – sémantique. Celles-ci sont créées à partir des tropes. En effet, des métaphores comme le *Lénine du Funk* désignant le célèbre chanteur du Funk Michel Jackson, semblent aussi propres au contexte de la presse algérienne.

4.2.2- Les procédés de création morphologique et leur productivité

Il s'agit de la néologie morphosémantique, qui s'intéresse principalement à la forme ou à l'aspect formel des mots. En effet, pour s'exprimer, le chroniqueur se sert parfois du principe d'économie linguistique, en utilisant des procédés qui contribuent à la création lexicale : troncation, siglaison, acronyme et contraction. Quoique la majorité de ces procédés de création soient bien connus et fassent l'objet de plusieurs études en néologie, la création formelle reste plus au moins importante quant à la totalité de la création lexicale de notre corpus. La création morphologique totalise 89 lexies soit un taux de 9,82%. Ainsi, nous distinguons à travers les données recueillies, quatre importants procédés responsables des innovations morphologiques : la troncation par apocope, aphérèse, syncope ; la siglaison / l'acronyme et la contraction.

modèle auteur; le néologisme *savoirerie* est formé à partir du terme attesté chamaillerie. Le mot nouveau *trotoiresques* ; par analogie à cauchemardesque. Le néologisme *baccarads* ; par analogie à chauffards…etc.

4.2.1- Les procédés de création syntactico-sémantique et leur productivité

De façon générale, la matrice de création syntactico-sémantique comprend deux catégories : changement de fonction et changement de sens. Le changement de fonction semble incontournable en matière de création syntactico-sémantique. En effet, la conversion est clairement représentée**.** Le phénomène concerne 67 lexies. Plusieurs types de conversion sont attestés : l'adjectivation, l'adverbialisation et la verbalisation. Cette dernière est la plus productive comme nous le montre le tableau ci-dessous récapitulatif de la productivité de la conversion :

Tableau 3 : Les créations syntactico-sémantiques et leur productivité

Lexie néologique	Type de conversion
Footer	Nom…….verbe
Festivalent	Nom….verbe
Catharsiser	Nom….verbe
Castinguent	Nom…verbe
Frimousser	Nom…verbe
Se touristent	Nom…verbe

Un certain nombre de composés savants reste assez relatif. Des formations à base des formants latins ou grecs comme par exemple le formant grec «bio », représentent un taux relativement important des créations que compte notre corpus (11,07%). Les autres procédés de création morphosémantique tels que les onomatopées, la dérivation inverse et la dérivation parasynthétique sont plus au moins nombreux de la totalité des néologismes de notre corpus. Nous recensons des créations comme, *antialgérianisme*, (la) *déraille*, (la) *cherche* ou encore l'onomatopée, deuv,zdreuv, zdreuv-tac…

4.1.1.5 Création par analogie

La création néologique est l'innovation d'une lexie nouvelle à partir d'une autre unité déjà existante. « L'analogie suppose un modèle et son imitation régulière. Une forme analogique est une forme faite à l'image d'une ou plusieurs autres d'après une règle déterminée. » (Mortureux 2001, p.116). Ainsi, tous les procédés morphologiques attestés peuvent produire des néologismes. En effet, l'élément analogue joue un rôle actif dans la création. Par analogie, nationaliste, socialiste ont donné le néologisme *novembriste*. Le néologisme *machitude ;* sur le modèle certitude. *Défoulage, dégoutage, entrainage*; par analogie au chômage. Les lexies *journalistiqueur* ou *écriveur* sont écrites sur le

Buvresse	**Bu + ivresse**	**Deux mots**	**Mot complet+aphérèse**
pharmafruit	**pharmacie+ fruit**	**Deux mots**	**Apocope+ mot complet**

4.1.1.4- Les composés hybrides

Lorsque les mots entrant dans le composé n'ont pas la même origine, on parle de composés hybrides. Ces néologismes intersystémiques(5), mettant en jeu les règles de création de deux langues, est le paramètre le plus fiable quant au degré d'intégration des emprunts aux langues dans le français en usage. Il faut signaler que la néologie par hybridation est non seulement le recours à l'emprunt mais encore l'exploitation de toutes les éventualités de la langue emprunteuse en soumettant le mot emprunté à tous les mécanismes de formation néologique de la langue d'accueil (dérivation, composition, troncation, mots-valises, etc.). Ils interviennent fréquemment dans la création lexicale journalistique constituant notre corpus avec un taux de 22, 49% (65 lexies). Le tableau suivant synthétise quelques exemples des données recueillies quant à la productivité de l'hybridation recensée dans notre corpus :

Tableau n°2 : Les composés hybrides et leur productivité.

Français+ Arabe	**Arabe+ Anglais**	**Français+ Anglais**	**Français influencé par arabe**	**Arabe influencé par français**	**Dérivé hybride**
Programme batata	**Hard-rai**	**Mendicité new-look**	**M'digouti**	**Fetwas**	**Voteurs**
Imam par i-mail	**Sidna tramway**	**New génération**	**Tchoumir**	**Khobzistes**	**Ecriveurs**

du sacrifice, pour désigner les vendeurs de troupeaux qui font fortune en cette occasion et il les compare alors à Bill Gattes, informaticien américain le plus riche du monde.

4.1.1.3- Les mots-valises ou composés par télescopage :

L'analyse du corpus de néologismes nous a également permis de relever des procédés de mots-valises. En effet, ces derniers sont présents dans les chroniques journalistiques sous toutes les formes, totalisant seulement 38 lexies (13,14%), cela pour des fins de créations ludiques ou polémiques. Ainsi, le mot-valise *dictarchie* combine les fragments de mots « dictature » et « anarchie » en conservant le début du premier mot et la fin du deuxième mot sur le modèle apocope + aphérèse ; *otitophone* de otite et téléphone sous le modèle apocope +aphérèse. Un autre mot-valise *pharmafruit* de pharmacie et fruit: apocope +mot complet ; *buvresse* de bu, participe passé du verbe boire, et ivresse sous le modèle mot complet + aphérèse. Pour faciliter la lecture de ces mots-valises ainsi que leur formation, nous avons opté pour ce tableau récapitulatif :

Tableau n°1 : Les mots- valises et leur productivité.

Mot-valise	Eléments constituants	Nombre de mots	Le modèle de formation
Dictarchie	Dictature+anarchie	Deux mots	Apocope + aphérèse
Otitophone	Otite+ téléphone	Deux mots	Apocope + aphérèse

tel que le néologisme *diplômé-chômeur* désignant le phénomène social qui touche principalement la majorité des jeunes algériens qui obtiennent des diplômes à la fin de leur cursus universitaire dans le but de travailler, se retrouvent en fin de compte sans embauche.

Un autre type de composé est recensé lors de la collecte des néologismes. Il s'agit des composés soudés avec un taux de 8,19%, telle que la lexie *bnéouiouistes,* obtenue à partir de la base arabe « *bni* » qui veut dire « le fils de » et « oui » auxquels est ajouté le suffixe iste. Par ce néologisme, le chroniqueur désigne tous ceux qui disent tout le temps oui et manifeste malgré leur insatisfaction, leur accord avec tous les programmes politiques du pays.

La création des composés nommés synapsie par Benveniste sont aussi employés, mais ne représentant qu'un taux de 12,03 % (32) de la totalité des composés. La synapsie « *bête de route »,* désignant chauffard qui est l'auteur des dizaines de blessés et autant de décès sur nos routes. A l'occasion de l'évènement du Festival panafricain qui s'est déroulé à Alger en 2009, la lexie un « *panne à fric* » a été créé pour dénoncer les sommes faramineuses et les dépenses pour le « panafricain des Algériens d'Alger », ce grand évènement africain a été subventionné avec l'argent des contribuables algériens. Le composé synaptique *Pauvres de Bill Gates*, construit sur un nom propre, a été fabriqué par le chroniqueur à l'occasion de l'Aid El Adha, fête religieuse musulmane, fête

.4.1.1.2- La composition et la synapsie(4)

La composition comme procédé de formation de nouvelles lexies, affichant un nombre de 289 lexies néologiques (31,24%), semble très productive dans le langage de la presse francophone algérienne. Plusieurs structures de composés sont attestées.

Selon les résultats de notre corpus, nous constatons que les mots composés stricto sensu, formés par le rapprochement ou la fusion de deux ou plusieurs lexies indépendantes, sont généralement les plus présentés. Parmi les composés recensés, nous avons les composés non soudés avec un nombre de 50 lexies (17,30%). La lexie *foot politique,* composé relevant du domaine politique. Ce composé est créé par le chroniqueur à l'occasion du déroulement des matchs de la coupe d'Afrique 2009 où les relations étaient vraiment tendues politiquement entre l'Algérie et l'Egypte. Un autre composé relevant cette fois-ci du domaine économique : *la grippe financière* pour désigner la gravité de la crise économique qui a touché le monde ces dernières années en général et l'Europe en particulier ou encore l'exemple *pollution audiovisuelle* renvoie aux programmes télévisés de la chaine algérienne qui ne sont pas à la hauteur et qui sont en critique permanente de la part de l'ensemble des citoyens algériens.

Nous remarquons aussi, à travers les néologismes du corpus étudié, la diffusion des composés séparés d'un trait d'union représentés un taux de 21,45%,soit un nombre de 62

politique ; ou encore les lexies nimportequoitisme pour ainsi dire n'importe quoi, la lexie ramadanesques, désignant les soirées du mois sacré *Le Ramadan, h'midanesque, mairiesque* pour renvoyer à tout ce qui appartient à H'mida qui est un nom propre ou l'institution administrative la mairie. *Parkingueur*, de l'anglais parking + suff. *-eur*, « personne ayant la fonction de surveiller les voitures dans un parking ». *Piétonnation* désignant une personne marchant à pieds. *Novembriste* relatif à la révolution algérienne du 1er novembre 1954. La lexie *trabendiste*, de l'espagnol *trabendo* qui veut dire « marché noir ». Ce mot désigne toute personne qui s'engage dans une commercialisation illégale de marchandises. Le néologisme skéchiste formé à partir du mot sketch + suffixe iste pour désigner la personne qui joue des sketchs ou encore l'humoriste. Nous avons recensé des néologismes à base du suffixe age telle que *navigage* dans le sens de la débrouille, du français naviguer, ou encore le néologisme *dégoutage* revoie au dégoût.

c-La dérivation parasynthétique : phénomène où l'on note l'adjonction simultanée à un radical un préfixe et un suffixe. L'analyse nous a confirmé que ce processus dérivationnel n'est pas très fréquent quant à la créativité lexicale dans les chroniques journalistiques**.** Des lexies néologiques comme *démonopoliser, infilmable, reseiester,…*, obtenues sur ce modèle, ont été trouvées dans notre corpus.

journalistique, soit un nombre de 489 lexies (52,86%). Dans ce qui suit, nous examinons les procédés de création les plus productifs puis essayer d'interpréter cette dynamique lexicale.

4.1.1.1- La dérivation affixale

Les procédés de dérivation sont généralement employés dans le lexique journalistique, et notamment l'affixation qui reste un des procédés le plus productif par rapport à tous les procédés de création lexicale. Cependant, l'affixation n'arrive pas en première place avec tout de même 76 lexies, soit un taux de (08,11%).

a La préfixation : D'après les données recueillies, la préfixation comme procédé de création lexicale, ne fait pas l'objet d'un recours fréquent par rapport aux autres procédés. Ce procédé de formation de mots présente, en revanche, une proportion infime de la totalité des procédés que compte notre corpus. Des lexies comme *s'autosortir, invrai, infaux, recoup* ont été bien trouvées.

b- La suffixation : La fréquence des suffixes peut être révélatrice dans la création lexicale en général, et dans le lexique journalistique en particulier. Les suffixes les plus utilisés, nous avons recensés : *ation, iste, isme, eur, esque, ard*, etc. Leur adjonction donne une nouvelle valeur sémantique aux néologismes obtenus. C'est le cas des lexies telles que *Bouteflikisme* du patronyme Bouteflika, isme renvoie à la politique du président algérien Abdelaziz Bouteflika. Ce néologisme relève, bien sûr, du domaine

D'après l'analyse effectuée, nous remarquons que la distribution des résultats en fonction des matrices interne et externe est sans appel. La matrice interne est prédominante et semble être incontournable en matière de création lexicale avec un taux de 82,03%. Bien que loin derrière la matrice interne, la matière externe se classe tout de même en 2ème position mode de création lexicale, avec un pourcentage de 17, 94%.

Afin de vérifier cette prédominance et afin d'obtenir une idée générale sur la créativité et l'innovation lexicale dans les chroniques journalistiques francophones en Algérie, observons d'abord dans quelle proportion chacun des types de matrices néologiques est utilisé :

- Matrice morphosémantique : 52,86%.
- Matrice syntaxico-sémantique : 15,78%.
- Matrice morphologique : 09,83%.
- Matrice pragmatico-sémantique (néologie par détournement) : 03, 56%.
- Matrice externe : 17,94%.

4.1- Les matrices internes

4.1.1- Les procédés de création morphosémantique et leur productivité

Étant donné le nombre important de procédés de création morphosémantique, nous constatons une répartition inégale entre les différents types de néologismes. La création morphosémantique joue un rôle incontestable dans le lexique

qui ont des conséquences plus graves puisque ces omissions ne sont pas récupérables automatiquement ».

La collecte des données : Nous avons réfléchi à un dépouillement d'une façon plus soutenue, c'est-à-dire, nous avons essayé de récupérer les chroniques journalistiques en format électronique puis nous avons essayé de copier-coller en fichier Word. Les résultats obtenus est une liste d'unités lexicales non reconnues par le dictionnaire électronique et que nous avons considérées comme des néologismes après leur vérification dans les dictionnaires sélectionnées (corpus d'exclusion) (1). Nous avons continué le dépouillement d'une façon manuelle pour sélectionner les néologismes sémantiques et les néologismes formels syntagmatiques.

4. Résultats et analyse du corpus

Nous présentons ici les résultats des néologismes trouvés selon les procédés de création les plus productifs: dérivation, composition, mot-valise, les formes hybrides : unités composées de deux unités lexicales de langues différentes, ou des hybrides qui portent des marques de dérivations morphologiques …etc., qui sont intégrés dans les matrices internes(2). A cela, nous ajoutons le phénomène d'emprunts surtout aux idiomes locaux qui est intégré dans la matrice externe(3).

Nous disposons exactement de 925 unités néologiques extraites des chroniques journalistiques et qui se distribuent selon la principale matrice interne et externe.

3 Description du corpus :

Le titre du journal auquel nous avons eu recours est *Le Quotidien d'Oran* et plus spécialement la chronique intitulée *Tranche de vie* dont le chroniqueur est en réalité le journaliste *BABA Fodil*, soussigné *El- Guellil*. Type de discours supposé propice à l'apparition de créations lexicales, cette chronique est marquée par sa façon typique d'aborder des sujets variés qui reflètent la réalité de notre société.

La période de l'élaboration du corpus n'est pas prise au hasard car plusieurs évènements nationaux et internationaux sur le plan politique, économique, sportif et culturel,…etc. ont marqué la scène médiatique et journalistique des années 2009-2011. Pour ce faire, une attention particulière a été portée à l'intégration des néologismes dans ces chroniques de la période allant du mois de janvier 2009 au mois de septembre 2011.

3.1 Les étapes suivies pour la collecte des néologismes

La lecture : D'abord, une lecture attentive et constante des chroniques de la rubrique « Tranche de vie » du journal *Le Quotidien d'Oran* s'avère très essentielle pour le repérage et la collecte de nouvelles unités lexicales.

Le dépouillement : La détection et le repérage des phénomènes néologiques se fait manuellement, contrairement à la collecte automatique, qui selon (Sablayrolles 2002, pp.97-111) « engendre des erreurs par excès qui lui sont propres, et aussi des erreurs par défaut, dont elle n'a pas l'apanage mais

2Constitution du corpus

2.1 Les difficultés rencontrées liées à la collecte des néologismes

La constitution d'un corpus de néologismes n'est pas chose aisée en précisant que les difficultés provenaient du choix de l'unité considérée comme pertinente, de la durée variable de la nouveauté, de la nouveauté dans les circonstances d'interlocution, etc. (Sablayrolles 2000, p.249). Il nous semble donc important de signaler les difficultés rencontrées pour la constitution du corpus des néologismes potentiels vu le nombre important de nouvelles lexies qui se produisent quotidiennement dans les chroniques journalistiques. Une autre difficulté rencontrée concerne le nouveau sens des lexies, difficile à distinguer par rapport aux nouvelles formations et aux emprunts aux différentes langues. Ajoutons les changements de catégorie grammaticale et les glissements sémantiques ainsi que les locutions nouvelles ne se font pas toujours remarquer.

2.2 Objectif assigné à la collecte des néologismes :

Contrairement aux terminologues qui tâchent de collecter des termes nouveaux par le dépouillement systématique de revues ou de livres sur un domaine particulier de spécialité, nous établissons un corpus large en puisant dans des sources non spécialisés. Il s'agit des sources journalistiques quotidiennes d'informations générales.

généralement le fruit de l'imagination des journalistes. « Les médias sont le bassin privilégié pour la diffusion des créations néologiques qui témoignent de l'apparition d'une nouveauté ou qui répondent à un besoin d'expression et de communication. » (Sader Feghali2005, p.525). Des mots qui représentent de nouvelles constructions linguistiques dans leurs environnements syntaxiques ou même des termes du lexique du français de référence se retrouvent à reformuler un sens nouveau conformément à la nouvelle réalité socioculturelle algérienne.

1) Problématique

Par le biais de cette étude sur la créativité lexicale dans la presse écrite francophone en Algérie, nous voulons répondre à la question suivante : quels sont les procédés de formation les plus productifs dans les chroniques journalistiques et qui font la particularité lexicale du français en Algérie ?

A cet effet, l'axe de ce travail tourne autour des interrogations suivantes :

-Quelles sont les procédés linguistiques mis en œuvre pour former une unité nouvelle ?

-Quelles sont surtout les régularités qui sous-tendent la création et l'innovation des mots ?

- Selon quelles matrices ces innovations lexicales sont-elles construites ?

La coexistence de la langue française avec les autres variétés a donné justement naissance à plusieurs phénomènes : phénomène d'hybridation, emprunts lexicaux et créations de mots nouveaux ou proprement dit « néologismes ». ». Cette néologie lexicale attire notre attention par l'emploi de différents procédés : composition, emprunt, hybridation, siglaison et surtout le procédé dérivationnel.

Cette situation caractérise particulièrement la presse francophone où l'on assiste à un foisonnement considérable d'unités nouvelles, qui en parallèle, enrichissent l'univers lexical des journalistes. Cette mutation surtout médiatique, que connait l'Algérie depuis plus de trente ans, a une incidence directe sur la dynamique et l'évolution des langues utilisées par les journalistes

« Les journalistes n'ont pas hésité à recourir à la néologie afin de s'accommoder au quotidien de la vie, aux impératifs de la réalité qui se présente à eux et à laquelle ils se confrontent. Chaque terme crée dénote le besoin de dire ou de nommer autrement, et la créativité lexicale devient ainsi le symbole de la liberté d'invention de l'individu, -ou du groupe- face à l'opposition des pouvoirs constitués » (Bastuji 1979, p.12).

Prise comme principal vecteur du changement linguistique, la presse écrite algérienne organisme en constante évolution est un lieu d'exercice de liberté langagière et de création de mots. Ces innovations linguistiques sont

De quelques procédés de création lexicale dans la formation des néologismes journalistiques. Cas du journal *Le Quotidien d'Oran* des années 2009-2011

Allam-Iddou Samira

Université de Mostaganem

Abstract:

The adaptation of the language to use these conditions is reflected in the lexical creativity. These lexical innovations particularly concern the dynamics of the French language in Algeria in contact with other languages involved.

Keywords:

Creation / lexical innovation - neologisms - neologisms - forming processes of new lexical items -Feeling neological - Algerian French-speaking press.

L'Algérie connaît une situation linguistique très complexe. En plus des variétés de l'arabe dialectal et du berbère, l'arabe classique est la langue officielle du pays. A côté de ces variétés linguistiques, la présence de la langue française est une réalité que nul ne peut contester car cette langue marque sa présence depuis l'époque coloniale en dépit de toute ambigüité (langue officielle, secondaire puis étrangère).

BIBLIOGRAPHIE

Bonn, Charles, La littérature algérienne et ses lectures, Ottawa : Naaman. 1994

Daninos, Guy, Les nouvelles tendances du roman algérien, Ed : Naaman.1979

Jolles, A, Formes simples, Paris : Le seuil. 1972

*Krysinsky, W , Carrefour des signes, essai sur le roman moderne, Paris : Mouton.1981

Lejeune, Philippe, Le pacte autobiographique, Paris, Seuil.1980

Madelain, Jacques, L'errance et l'itinéraire, Paris : Sindbad. 1983

**Mezgueldi, Zohra, Oralité et stratégies scripturales chez M. Kheirddine, Doctorat, Lyon

Moura, Jean Marc, Littératures francophones. Le Maghreb, Paris : Belin.1996

encore mon chapelet en évoquant le nom de tous ceux que je ne reverrai plus jamais. » (426)

L'espace retrouvé après l'indépendance est lui-même étriqué. Le lieu emblématique de l'enfance longtemps adulé n'est qu'un lieu désolé, un espace définitivement dénaturé, voué à l'agonie et à la mort. Berrouaghia devient un monde sans couleur en noir et blanc, un lieu étonnamment vide et informe.

« Le village des Asphodèles, comme beaucoup d'autres villages du Titteri se meurt lentement. Il ressemble aux villages abandonnés qu'on rencontre à l'ouest des états unis …Le village gagné par la torpeur étrange s'enveloppe dans un silence de mort comme frappé par la malédiction. » (456)

Devant l'agonie du lieu désiré, le narrateur opte pour la rupture, le départ effectif et définitif. Le chapitre quatre-vingt deux intitulé « Les adieux » scelle cette séparation et jette brusquement le jeune adolescent devant l'inconnu.

Ainsi, *Le village des Asphodèles* récit pointu de la pulsion autobiographique qui s'inscrit dans la nostalgie et dans le deuil des espaces intimes de l'enfance, semble obéir à une seule préoccupation de l'écrivain celle de l'image fascinante de la terre matricielle, terre affective et idéalisée qu'il poursuit et recherche d'une manière lancinante, mais qui reste inéluctablement un éden perdu.

sorte spirale imprévisible, résolument portée par un discours dénégatoire. Les lieux euphoriques de l'enfance s'effacent alors indubitablement pour laisser place à un discours dysphorique. Le récit spécule ainsi sur un double écran, celui de la sublimation du lieu et sa célébration, de l'autre où l'écrivain irréconciliable et désenchanté, œuvre à rendre compte dans une écriture bousculante, les multiples fractures des sites de prédilection de son espace idyllique, à faire naître une atmosphère particulière.

Le narrateur revient au pays après l'indépendance. Le constat est des plus amers.Il fait vaciller la tranquille vision qu'il se faisait habituellement de son lieu d'enfance. C'est sur le mode de l'irruption soudaine et par un brusque revirement que le récit se mue en une note désespérante, après s'être acheminé passionnant et captivant. Du lieu idéalisé qu'il était, il devient lieu d'aversion. Le ravissement cède le pas au désenchantement, l'évocation à l'invocation. De manière tout à fait significative, les dernières pages font une large place à une évocation aux accents tragiques. Le chapitre « le temps d'une guerre » n'est qu'un décompte hallucinant et insoupçonné de morts.

« Arab est mort, Guernina est mort, Boutoutou est mort, Salmi est mort, Hadj est mort, mon cousin Mokhtar est mort, mon cousin Salem est mort, mon oncle est mort, mon oncle Djelloul est mort, Loussif et toute sa famille ont péri, la tribu des Yacoubi est décimée. Je pourrai égrener longtemps

village des Asphodèles tient effectivement aux éléments référentiels de la sphère culturelle du groupe.

Nous intéresse dans cette partie les différents référents recensés qui innervent le corps du récit et traduisent l'attachement profond à l'espace maternel. L'auteur exhibe et restitue en effet un corpus de 31énoncés empreints d'oralité, tous issus de l'espace local nommé en l'occurrence la société rurale et urbaine du Titteri. Ce rapport marquant aux différents croisements du code symbolique, dans ce qu'ils ont de plus prenant, devient centre d'intérêt sublimé.

Travail de remaillage de la mémoire, c'est toute l'amplitude des divers types de langage au contenu illocutoire implicite qui se déclinent à travers les paroles captives du dire gnomique et du chant, à l'évocation de la parole sacrée, motif privilégié de l'auteur qui revient avec une fréquence remarquable dans son texte, mais aussi à la parole atavique stéréotypée, autant de fragments textuels qui confortent la légitimité d'une authenticité et qui verbalisent la construction et la compacité du texte. Il est évident que l'étalage de ces segments crée un espace sonore, suggère à l'évidence l'enracinement dans la culture d'origine où se joue le vécu émotionnel que l'écrivain porte en lui.

III-La brûlure indicible

Mais en consumant les souvenirs fascinants de l'espace maternel, lieu de ses premières rêveries, les derniers chapitres prennent brusquement à revers le récit qui bascule dans une

n'est pas moins empreint d'un désir de signifier l'appartenance à ce terroir géographiquement déterminé le Titteri. Il est clair que tous ces sites et paysages sont scellés à son projet, deviennent sujet euphorisant voire une obsession.

II- Exaltation du référent oral

Cependant, le roman n'est pas uniquement centré sur l'espace. *Le village des Asphodèles* dépasse ce stade et s'ouvre sur l'oralité. En effet, le lien interrompu du lieu intime devenant insupportable, c'est à un véritable travail de reconstruction de la souvenance et du renouement avec la culture d'origine que l'écrivain recompose cette terre qu'il a fuie et abandonnée. Posture affligeante de l'espace perdu, cette autobiographie déclarée, insère d'une façon prononcée de nombreux échos essentiels de la culture orale.

Partant du postulat que « toute lecture sémantique est conditionnée par un déchiffrement double : celui de l'espace topologique du texte et celui des signes attachés à cet espace qui l'ont produit »*, l'écrivain nourrit son projet littéraire et l'élabore en fonction de l'étendue imaginaire qui renvoie explicitement à l'intimité de son aire culturelle périphérique. Hanté par le terroir qui l'a vu naître et grandir, Boumahdi dont le projet idéologique est de communiquer son attachement à son espace, ne peut l'exprimer qu'à travers une écriture élaborée à partir « d'un langage investi d'un double langage culturel, celui du groupe social dans lequel l'initiation au langage a eu lieu et celui de la langue qui le porte. »** *Le*

familiale et les terres du *Fleuve d'orge*, terres identitaires et ancestrales, lieux d'affects du romancier.

« On me hissa sur le bât d'un petit âne gris et nous nous mimes en route pour rejoindre les habitations de la tribu qui se trouvaient plus au nord en pleine montagne…De chaque côté, des vignobles s'étendaient à perte de vue. Un cousin tendait la main dans toutes les directions et m'expliquait, à haute voix que toutes les fermes que je voyais nous appartenaient…Ce ne fut que le lendemain que j'appris que nous avions été expropriés depuis plusieurs générations par les français » (p 188)

L'autre lieu de mémoire est incontestablement Médea, deuxième centre coordinateur du récit qui garde toute sa pertinence et se donne à voir, au plus juste, comme lieu euphorique de la citadinité.

« La ville me parut d'autant plus grande que j'éprouvais mille peines à marcher. Il y avait deux grandes places : la place du bas, entourée de cafés maures, et la place du haut couverte de dalles en ciment et ornée d'un joli kiosque…Le soir même je repris le train pour rentrer chez moi. Ma mère me reçut comme si j'étais revenu de la Mecque, de Médine ou de Jérusalem. Le seul nom de Médea lui procurait une joie ineffable. » (p 326)

Ainsi le marquage référentiel par les multiples lieux circonscrit le contour du récit et développe chez Boumahdi un sentiment d'attachement très dense dont l'intérêt focal n'en

natal, s'imposent comme signaux évidents qui travaillent le récit et lui confèrent une forte singularité.

« Tout le quartier dans lequel se trouvait notre maison appartenait à M .Jacob. Notre cour, comme je devais le remarquer un soir, perché sur le toit, n'était qu'une parcelle infime d'autres cours auxquelles aboutissaient les autres maisons du quartier. Bientôt je découvris que notre ancien quartier négre n'était pas le centre de l'univers que j'imaginais, mais formait la partie est la plus déshéritée du village. A l'ouest, se trouvaient de grosses villas cossues, avec balcons, balustrades, colonnes et parterre de fleurs. Elles étaient habitées par les européens. » (p 59)

Dans son désir indicible de raconter et de dire, l'auteur multiplie le recensement d'autres espaces de diction qu'il affecte profondément et qui cristallisent sa sensibilité. Des sites extérieurs à Bourrouaghia notamment. Les plus significatifs sont les allusions aux eaux thermales, au relief de la région, à la végétation et au décor pittoresque des paysages. Autant de points de force spatiaux qui travaillent l'écriture du récit.

« Je pris la résolution d'aller au-delà des montagnes qui entouraient mon village, là la nature devait s'étendre à perte de vue, belle, sereine et calme. » (p 119)

Au-delà de ces motifs du lieu et de leurs descriptions détaillées, la page 188, d'une grande résonance historique, fait entendre une voix aux accents nostalgiques. C'est la ferme

Elle envahissait surtout les terres pauvres couvertes de pierres et de roches. Au –dessus d'une touffe de longues feuilles pointues, s'élançait une longue tige couverte, au sommet, d'une grappe de fleurs blanches. Les fleurs proches de la racine avaient été brulées par le soleil et se trouvaient remplacées par de petites graines brunes, tandis que celles du sommet commençaient seulement à s'épanouir. Le maître insista en riant pour qu'on l'examine attentivement, puis il dit d'un air plus sérieux :

__ Cette plante est importante car c'est elle qui donne son nom au village, c'est un asphodèle. Le nom arabe « Berrouaghia » veut dire le village des asphodèles. » (p 288)

Ce lieu de mémoire magnifié, d'autres topos omniprésents, circonscrivant le territoire du village sont convoqués. Les langages –lieux de l'enfance participent profondément à l'élaboration de la compacité narrative du texte. C'est d'abord les repères spatiaux propres à la maison natale, source constante d'émotion et de ferveur de l'écrivain. D'autres décors familiers, célébration de l'espace matriciel, traversent le parcours autobiographique de Boumahdi. C'est la boutique, la rue et ses bruits, l'école coranique et l'école française ou bien le café maure. Ces lieux pertinents gravitent autour du quartier nodal, le quartier nègre en l'occurrence, quartier humain et attachant avec ses valeurs et ses déviances. Le quartier européen n'étant pas en reste. Réitérés et affichés, lestés d'images affectives, ces éléments focalisent le lieu

où la relation au site natal est perçue comme l'élément organisateur du récit, devient enjeu qu'ordonne l'écriture.
De toute évidence les deux topos saillants du récit, Medéa et Berrouaghia en particulier, mobilisent l'attention du lecteur et dénotent chez l'écrivain une propension à prendre en charge la partition de ces deux sites de diction ainsi que l'intelligibilité de leurs emblèmes culturels les plus marquants.

En effet, énonciation d'un temps et d'un lieu *Le village des Asphodèles* qui se veut une parole scripturale laisse entrevoir un pacte référentiel, celui de l'espace diégétique très circonscrit de Berrouaghia. Manipulant un flux discursif et sous l'éclairage d'un style à la sobriété extrême, nous retrouvons dans ce récit la cristallisation viscérale du sol mental, la dévoration intense du milieu originel. C'est bien par un regard humain et intime, une mise en place d'éléments locatifs emblématiques que l'écrivain reconstruit son lieu d'origine.

C'est d'abord cette proximité onomastique de Berrouaghia, inscription marquée d'une toponymie réelle et charnelle, chargée de lieux du dire et d'événements tumultueux de la petite enfance qui constitue la quête fondamentale de l'écrivain, les lignes de force de son désir. Berrouaghia est une présence obsédante dans son récit.

« Parmi les cistes, les myrtes et le romarin, il y avait une plante plus commune et plus abondante qui poussait partout.

segment rendra compte de la posture affichée très haut et sans ambages de l'écrivain, discours dépréciatif, c'est une évocation dysphorique aux accents pamphlétaires bouleversants.

I-Célébration de l'espace référentiel

L'espace maternel ''structure éternel et intemporelle'' est l'un des éléments de la rêverie première de l'homme maghrébin en général et de l'écrivain en particulier. Sa construction nous la retrouvons presque quasiment dans tous les textes littéraires maghrébins.

Ainsi l'ancrage spatial de notre récit est clairement désigné par un ensemble de lieux et leur mise en perspective signifiante. Dans la reconstruction mémorielle, étroitement liée aux traits de l'espace de l'origine, dans cette entreprise de la souvenance, Ali Boumahdi retourne sur son passé fait de certitudes et d'incertitudes, vise à remembrer ce temps tenu et évanescent pour évoquer de façon expressive le terroir flamboyant de sa région des hauts plateaux le Titteri et ressusciter l'intimité des multiples sites de prédilection de son village natal Berrouaghia (*Le village des Asphodèles*), tout en en exaltant les souvenirs prégnants de sa ville d'adoption Médéa et ses paysages désirés.

Il va sans dire que la forte imagibilité de ces deux localités porteuses de sens qui s'interpénètrent dans le tissu textuel, constitue l'assise narrative du récit, devient sa source d'inspiration essentielle. Nous sommes en présence d'un texte

Tittéri reste au sein de la littérature francophone algérienne, un itinéraire quelque peu biaisé. Boumahdi n'a en fait écrit que deux textes. Le premier, *Le village des Asphodèles* paru en 1970 et un second titre injustement méconnu, *L'homme cigogne du Titteri* en 1980.

Je m'attacherai particulièrement au récit initial *Le village des Asphodèles,* à son intimité et à son intelligibilité. Ce texte de l'introspection, du moi et de la confession, genre littéraire tributaire du monde social et affectif de l'écrivain, s'inscrit par son écriture dans le courant d'inspiration ethnographique et fait impasse. Ce roman publié en France, a été

difficilement reçu en Algérie. Il fut interdit et mis à l'index parce qu'il dérangeait un discours établi à l'époque par l'idéologie officielle et pour cause : l'auteur au lendemain de l'indépendance, quitte définitivement son pays et entre dans une dynamique d'opposition.

La structure discursive de ce récit se déploie en quatre-vingt-deux chapitres. Chaque séquence est une plaquette prégnante restituant par le montage de la mémoire, le monde culturel, social et politique du passé de l'écrivain narrateur.

Le premier axe est l'espace référentiel sublimé qu'on peut déceler à travers les lieux récurrents que l'auteur affecte. Le second portera sur le marquage de la parole /identité du lieu natal/mental constitué de faits de culture et d'éléments langagiers significatifs que l'écrivain cristallise. Le troisième

Cristallisation du lieu dans un récit mémoriel : " Le village des Asphodèles" de Ali Boumahdi

Dr. Mellak Djillali
Université Sidi Bel Abbes

Abstract:

Le texte littéraire maghrébin d'expression française est essentiellement structuré par un système spatial qui lui assure une certaine teinte réaliste et un ensemble de représentations et de significations diverses. Si le lieu signifié diffère d'un texte à l'autre en fonction du projet chez chaque écrivain, il est perçu par ses aspects paysagers comme le contexte socioculturel idoine dans lequel l'œuvre littéraire s'écrit. L'attachement au site d'origine relève assurément d'une expérience de soi, mais aussi d'un critère pertinent d'identité.

Keywords:

Place-Representation - Origin - Souvenance - Identity

Cette approche thématique n'a aucune prétention à l'exhaustivité. Il s'agit d'un regard posé sur un récit controversé et peu connu d'un écrivain contesté et iconoclaste de la décennie 70, Ali Boumahdi. Le parcours de création de cet écrivain issu de cette profonde contrée du

Romer P.M. (1990), Endogenous technical change, in Journal of political economy, 98.

Schumpeter J. (1939), Business Cycles, A theorical, historical and statistical analysis of the capitalists process, 2 vol. New York, Mc Graw Hill.

Schumpeter J. (1942) *Capitalism, Socialism and Democracy*. New York, Harper & Row.

Solow R.M. (1956), A Contribution to the Theory of Economic Growth, in Quarterly Journal of Economics, 70.

Solow R.M. (1957), *Technical Change and the Aggregate Production Function*, in Review of Economics and statistics.

Stewart F. (1978), *Technology and underdevelopment*, 2nd édition, The Macmillan Press LTD, Londres.

Vaitsos C. (1974), *Intercountry Income Distribution and Transnational Enterprises*, Oxford : Clarendon Press.

World Investment Report 1999, Foreign Direct Investment and the challenge of development, UNCTAD, New York, United Nations.

Références bibliographiques

Abramovitz M., Resource and output Trends in the United States since 1870, reproduit dans Abramovitz M., 1989.

Aghion P. et Howitt P. (2000), Théorie de la croissance endogène, Paris, Dunod.

Amable B. et Guellec D. (1992), Les théories de la croissance endogène, in Revue d'Economie Politique, 102 (3).

Amable B., Barré R. et Boyer R. (1997), Les systèmes d'innovation à l'ère de la globalisation, Paris, Economica.

Amendola M. et Gaffard J.L. (1998), Innovation et analyse économique : une mise en perspective, in Lassudrie-Duchêne B. (Dir.), Connaissances économiques, Approfondissements, Paris, Economica.

Barro R.J (1989), The ricardian approach to budget deficits, in Journal of economic perspectives, 3.

Dosi G. (1982), Technological Paradigms and Technological Trajectories, *Research Policy 11*, North Holland.

Escudier V., Du « développement » et de la « technologie », Thèse de doctorat en sciences économiques dirigée par F. Morin, Université Toulouse 1, 2004.

Guellec D. et Ralle P. (2001), Les nouvelles théories de la croissance, Paris, Editions La Découverte.

Katz J. (1994), Technologie et industrialisation tardive », in Salomon J.J., Sagasti F. et C. Sachs-Jeantet, La quête incertaine. Science, technologie, développement, Economica, Paris.

Lucas R.E. (1988), On the mecanics of economics development, in Journal of monetary economics, 21.

Lundvall B.A. (dir.), National systems of innovation. Towards a theory of innovation and interactive learning, Royaume-Uni, Printer Publishers, 1992 ; Nelson, R.R., National Innovation Systems: A Comparative Analysis, Oxford, Oxford University Press, 1993.

Marx K., Principes d'une critique de l'économie politique, Œuvres de la Pléiade II, 1968, Gallimard ; (1867), Le capital, La Pléiade I, 1965, Gallimard.

Mytelka L.K. (1999), Concurrence, innovation et compétitivité dans les pays en développement, OCDE.

Nelson R.R., National Innovation Systems: A Comparative Analysis, Oxford, Oxford University Press, 1993.

Nicolas F. et Mytelka L.K., L'innovation, clef du développement, IFRI, Masson, Paris.

North Douglass, Institutions, Institutional change and economic performance, Cambridge University Press, 1990.

Ricardo D., Des principes de l'Economie politique et de l'impôt, chapitre XXI, Flammarion, Paris, 1971.

Romer P.M. (1986), Increasing returns and long run growth, in Journal of political economy, 94.

la technologie est un levier de l'évolution de l'Etat et c'est la manière dont est actionné ce levier qui est à la base de la richesse ou de la pauvreté des nations.

Au total, le rapport entre la technologie et le développement comprendrait une part de déterminisme et une part d'action intentionnelle. Les histoires institutionnelles nationales, les sentiers technologiques sont des invariants qui définissent des logiques propres à chaque nation. Une fois appréhendés ces grands invariants, il reste à piloter la part d'intentionnel.

l'innovation dans la société. La confiance peut être considérée comme une de ces « institutions informelles » qu'évoque North qui déterminent la capacité à bâtir des institutions formelles efficaces. Déjà en 1990, North souligne que c'est la culture, acquise et transmise au fil des générations, qui détermine notre rapport au réel, notre capacité à traiter de l'information et à créer de la connaissance et qui définit une dépendance de sentier dans nos capacités d'apprentissage[28]. Il n'est donc pas possible d'imposer de nouvelles institutions qui ne seraient pas supportées par cette contrainte informelle qu'est la culture, et il n'est pas possible de « changer de culture » en tentant de détruire le passé et de couper le lien entre l'homme et son héritage.

Selon Claude Rochet (2005) le véritable moteur de la croissance est la base de connaissance, incarnée dans les institutions formelles et informelles chez North. Dans cette évolution institutionnelle, Ce dernier met l'accent sur le rôle des institutions informelles, permettant l'évolution des institutions formelles. La technologie peut alors devenir, grâce à des stratégies institutionnelles appropriées, un levier du développement. L'évolution technologique passe donc obligatoirement par l'évolution de l'Etat. En d'autres termes,

[28] « The long run implication of the cultural processing of information that underlies informal constraints is that it plays an important role in the incremental way by which institutions evolve and hence is a source of path dependance » (North, 1990, p. 44)

que plus le monde s'ouvre et se complexifie, plus les acteurs économiques sont dépendants de leur « rationalité limitée ». La spécialisation et la division croissantes du travail induites par les technologies de l'information accroissent la complexité, donc les asymétries d'information, ce qui accroît la rationalité limitée des acteurs et pèse sur les gains de productivité que ces mêmes technologies pourraient apporter. Pour North, ce sont les institutions qui peuvent jouer le rôle de réducteur d'incertitude et qui peuvent permettre de tirer profit de la révolution technologique en cours. North établit une corrélation directe entre les performances des nations et la qualité de leurs institutions. Selon lui, l'amélioration de la structure institutionnelle d'une société passe par la compréhension de son héritage culturel[27].

Selon la perspective évolutionniste, l'accès à la science comme technique reste essentiel, mais c'est une conception beaucoup plus large de la connaissance, comme celle de Douglass North, qui fait la différence. Cette connaissance n'est que pour une faible partie constituée de connaissance scientifique et de connaissance explicite et beaucoup plus de croyances et de connaissance implicite. Croyance et connaissance implicite dépendent des modèles mentaux des individus et d'un climat social qui favorise ou non

[27] Douglass North, Institutions, Institutional change and economic performance, Cambridge University Press, 1990, p.209.

delà, des nations qui dépend de la culture et du cadre institutionnel. La technologie est un bien public « non-rival » (Romer), soit un bien dont l'usage par un acteur ne prive pas l'autre. Donc, pour doubler la production, il n'est pas nécessaire de doubler la quantité de technologie. C'est le rapport à la technologie, endogène au modèle économique, qui va jouer sur la possibilité d'en obtenir des rendements croissants. Les politiques publiques retrouvaient des lettres de noblesse et n'étaient plus confinées à un rôle de gestion de « l'Etat supermarché » (Laegreid et Christensen, 2002) pour se voir réattribuer une capacité d'orientation du cours des choses : ce sont les politiques publiques, la qualité des institutions, qui vont, en dernière analyse, expliquer pourquoi, en période de mutation technologique, certains pays forgent l'avenir sur la frontière technologique, d'autres rattrapent et enfin d'autres déclinent.

Conclusion

Hormis dans les organisations internationales, les idées néo-classiques sont aujourd'hui fortement critiquées. Pour North, les conditions supposées de l'économie néo-classique qui invitait à s'en remettre à la régulation par le marché et les prix – et donc à ce que l'Etat n'intervienne pas – ne sont réalisées que dans quelques cas très exceptionnels où les coûts de transaction sont inexistants. North souligne au contraire

productivité peuvent avoir un effet positif sur l'accroissement des capacités sociales qui fait que les pays suiveurs peuvent rattraper les pays leaders. Cet accroissement des capacités sociales est lié aux institutions, à l'éducation notamment et à la qualité des politiques publiques de soutien au développement technologique.

Solow allait lui-même en constater en 1957[25] les limites en faisant apparaître que la croissance reposait sur un « résidu » - le progrès technologique, immatériel et non basé sur la dotation en ressources - qui devenait progressivement le facteur explicatif prépondérant – 87,5% de la croissance globale- et que surtout, la convergence attendue ne se produisait pas. En 1956, Abramovitz avait fait un constat similaire[26] attribuant le résidu à la « mesure de notre ignorance sur les causes de la croissance économique ». Abramovitz et Solow faisaient apparaître un facteur, réduit au rang de « résidu » dans la fonction de production néoclassique : la technologie, qui est à la source des rendements croissants. La théorie de la croissance endogène, formalisée par Lucas, Romer puis par Aghion et Howith (1997), allait montrer que la croissance va chercher ses sources dans la capacité d'innovation des firmes, et bien au-

[25] Solow R., *Technical Change and the Aggregate Production Function*, in Review of Economics and statistics, 1957.

[26] Abramovitz M., Resource and output Trends in the United States since 1870, reproduit dans Abramovitz M., 1989.

des éléments très largement immatériels. La question qui se pose est : comment les institutions peuvent-elles créer de la valeur ? North (2005) définit les institutions comme des réducteurs d'incertitude qui établissent des structures stables permettant l'interaction des acteurs de la société. Les institutions permettent d'identifier les opportunités en créant les incitatifs appropriés.

3.3. L'Etat, acteur du progrès technologique

Depuis 1974 et la fin du trend de croissance ininterrompu, l'économie n'est plus seulement dépendante de l'accès aux ressources et de capacité à mobiliser des gisements inexploités de technologies, elle n'est plus tirée par une conjoncture porteuse mais poussée par l'offre qui doit elle-même trouver sa propre valeur d'usage. Moses Abramovitz (1986) montre que l'hypothèse simple du rattrapage ne fonctionne plus et qu'il faut introduire un autre déterminant important : les « capacités sociales » (*social capabilities*). Abramovitz avait en tête le rattrapage des pays industrialisés ayant un potentiel élevé sur les Etats-Unis. Ce potentiel est défini par l'importance du retard technologique multiplié par les capacités sociales. Si l'on ne prend en compte que le retard technologique, l'effet de rattrapage est autolimitant. Par contre, les capacités sociales ne diminuent pas avec le rattrapage : le rattrapage et l'accroissement de la

L'Etat définit les institutions qui vont réduire les coûts de transaction. Il est en même temps une organisation qui gère des politiques comme la recherche et la technologie, la construction d'infrastructures, l'investissement dans l'éducation qui représentent un coût de plus en plus important au regard du PIB. De ce point de vue, le progrès technologique peut être appréhendé de deux manières : soit il est le résultat d'un « laisser-faire, laisser innover » soit il requiert une action spécifique de l'Etat.

La première option est celle de l'école néo-classique. Elle est aujourd'hui fortement critiquée d'un côté par la théorie de la croissance endogène avec différentes étapes qui vont intégrer progressivement les éléments immatériels comme la connaissance (la dimension logos de la technologie) et l'arrière plan des institutions informelles (la culture, l'histoire) et la nouvelle économie institutionnelle qui montre le rôle des institutions dans la croissance. Cette option a donné naissance au New Public Management, c'est-à-dire que la réforme de l'Etat est réduite à celle de son administration par l'introduction de mécanismes de marché dans son fonctionnement. La deuxième option provient du courant des néo-schumpétériens qui montrent que les ruptures technologiques permettent de « rejouer » les avantages comparatifs des nations, et que, notamment, la rupture des technologies de l'information fait reposer ces avantages sur

imposées au développement pour ce qui est de l'insertion d'un pays dans la division internationale du travail. Ces approches voient ces contraintes comme des entraves pour les pays dépendants.

Il est désormais évident que le développement ne doit plus être considéré comme un aboutissement mais comme un processus évolutif et non linéaire. Nicolas et Mytelka (1995) définissent le développement comme « la capacité d'un système à réduire sa vulnérabilité aux chocs exogènes et endogènes tout en poursuivant un chemin de changement qui apporte une amélioration de la qualité de la vie à une fraction croissante de la population »[24]. Le développement implique alors un processus d'apprentissage social qui permet la transformation des structures, des pratiques et des institutions politiques, économiques et sociales, et qui dépend de la capacité des acteurs politiques, économiques et sociaux à apprendre et à innover.

3.2. Le progrès technologique, piloté par l'Etat ou résultat d'un « laisser-faire, laisser-innover » ?

Dans le processus d'amélioration des performances économiques, l'Etat joue plusieurs rôles : il définit les règles du jeu tout en étant joueur, comme l'a montré North (1990).

[24] Nicolas F. et Mytelka L.K., op. cit., p. 13.

nombre de pays retardataires, exclusivement asiatiques, ait réussi à rattraper les pays les plus avancés ?

3.1. Envisager le développement comme un processus évolutif et non linéaire

Les hypothèses sur lesquelles repose ce paradigme du développement linéaire ont été remises en cause par les structuralistes et les théoriciens de la dépendance, qui ont notamment mis en avant la dimension historique. Ainsi, le sociologue Alejandro Portes (1974) remarquait que « le niveau de développement actuel des sociétés industrielles a peu de chances d'être reproduit par les sociétés sous-développées. Bien qu'elles fournissent des points de repère pour les efforts à fournir sur la voie du développement, les caractéristiques des nations actuellement industrialisées sont le produit de processus historiques uniques qui appartiennent déjà au passé de l'humanité ». Dans les années 60 et 70, ces auteurs (Cardoso et Faletto 1979, Dos Santos 1973, Frank 1969, Furtado 1973) ont commencé à remettre en cause le concept de dualisme économique et à étudier la capacité de transformation du secteur traditionnel via les transferts de technologie. Pour eux, le secteur traditionnel est simplement le produit de ses liens avec le secteur moderne au sein de l'économie, ainsi qu'au niveau international. Leurs approches privilégient la dynamique interne des pays tout en reconnaissant l'existence de limites dans les contraintes

3 - La remise en cause du paradigme du développement linéaire

Que ce soit dans les approches des économistes, mais aussi des sociologues et des politologues, il est généralement admis que le progrès est souhaitable et universel, celui-ci étant considéré comme l'abandon de ce qui est « traditionnel » au profit de ce qui est « moderne ». La référence de cette modernité se trouve être dans les caractéristiques économiques, sociales et politiques de certain pays comme les Etats-Unis ou le Royaume-Uni. Selon Nicolas et Mytelka (1995), « un tel raisonnement repose sur l'hypothèse implicite que la frontière de la modernité se déplace au fur et à mesure qu'interviennent des changements quantitatifs dans ces quelques pays »[23]. Ainsi, de telles approches déterministes considère que les pays en développement doivent répéter les processus ayant permis le progrès des pays développés. Cette hypothèse conduit donc à considérer le développement comme un processus linéaire et universel tout en rejetant toutes les approches alternatives au développement. Dans cette perspective les pays en développement devraient pouvoir rattraper les plus avancés seulement en imitant les stratégies et politiques de ces derniers. Comment se fait il alors que seul un tout petit

[23] Nicolas F et Mytelka L.K., L'innovation, clef du développement, IFRI, Masson, Paris, p. 11.

les résultats sont variables et sont à mettre en perspective avec tout un contexte politique particulier.

Selon Escudier (2004)[21], la particularité fondamentale qui distingue les systèmes d'innovation dans les « pays industrialisés » et les « pays en développement » provient de la logique exogène qui est à l'œuvre dans ces derniers. La place du transfert de technologie n'est en effet pas la même pour les deux types de systèmes d'innovation : les pays industrialisés ont créé leur propre trajectoire tandis que la trajectoire dans les « pays en développement » est déterminée de manière exogène dans les limites imposées par le paradigme occidental. La principale source technologique provient des firmes multinationales et une part importante de la R&D sert à absorber et adapter les technologies extérieures[22]. Le transfert de technologie, tel qu'il est conçu par la théorie évolutionniste, renvoie à une double dimension : d'une part, il est un moyen de créer une capacité technologique par apprentissage et, d'autre part, il suppose un certain niveau de connaissances pour avoir les capacités d'absorption nécessaires. Cette double dimension renvoie à la question du mode de transfert et à l'arbitrage entre les processus externalisés ou internalisés.

[21] Escudier V., Du « développement » et de la « technologie », Thèse de doctorat en sciences économiques dirigée par F. Morin, Université Toulouse 1, 2004.

[22] World Investment Report 1999, Foreign Direct Investment and the challenge of development, UNCTAD, New York, United Nations, p.215.

l'aptitude à utiliser une technologie avec efficacité dépend de la formation et de la polyvalence de la main d'œuvre, de la qualité des relations entre les entreprises et les institutions publiques, de la nature des droits de propriété intellectuelle ainsi que des programmes publics[18]. Les pouvoirs publics, s'ils veulent favoriser l'innovation nationale, doivent donc s'attacher à améliorer la technologie et la croissance des capacités d'apprentissage de toutes les institutions et de tous les acteurs, repérer et encourager les processus vecteurs d'innovation (transfert de technologie, recherche publique ou privée, etc.) être capables de lutter contre les freins à l'innovation. Les systèmes nationaux d'innovation mettent l'accent sur la complexité des processus liés à la construction des trajectoires technologiques nationales. Plusieurs études ont été menées sur les pays en développement, notamment sur les pays dits à « industrialisation tardive »[19], tels que le Japon. L'analyse des systèmes d'innovation dans ces pays doit, selon Mytelka[20], tenir compte de l'interaction de tous les facteurs hétérogènes et de leurs évolutions, en gardant à l'esprit que

[18] Amable B., Barré R. et Boyer R. (1997), op. cit. , p.5.
[19] Voir Mytelka L.K. (1999), Concurrence, innovation et compétitivité dans les pays en développement, OCDE ; Katz J. (1994), Technologie et industrialisation tardive », in Salomon J.J., Sagasti F. et C. Sachs-Jeantet, La quête incertaine. Science, technologie, développement, Economica, Paris, pp. 251-278.
[20] Mytelka L.K. (1999), ibidem.

Certes la connaissance et l'innovation sont des facteurs clés du processus de développement, seulement les calculs traditionnels de croissance de productivité ne tiennent pas compte de cela. Il est par conséquent fréquent qu'une hausse du niveau de productivité s'accompagne d'une baisse de la compétitivité du secteur étudié. Ainsi, il apparaît nécessaire de revenir à une définition plus large du processus de développement, en prenant en compte d'autres éléments que la croissance du revenu, de la production ou de la productivité.

2.3. Une place prépondérante des transferts de technologie dans les systèmes nationaux d'innovation des pays en développement

L'approche par les « systèmes nationaux d'innovation »[17] met en évidence plusieurs éléments tels que les problèmes de coordination issus de l'hétérogénéité des institutions en charge du développement des capacités technologiques, les différences entre dans les relations l'industrie et les gouvernements selon les pays, l'existence de différentes trajectoires de spécialisation nées du développement historique propre à chaque industrie. Dans cette approche,

[17] Lundvall B.A. (dir.), National systems of innovation. Towards a theory of innovation and interactive learning, Royaume-Uni, Printer Publishers, 1992 ; Nelson, R.R., National Innovation Systems: A Comparative Analysis, Oxford, Oxford University Press, 1993.

permettant d'améliorer le capital humain, va alors être considéré comme une source de croissance[15] du fait qu'il engendre des externalités positives permettant d'accroître les rendements d'échelle. La plupart des biens et services qui constituent le capital public ne peuvent être fournis que par le secteur public parce qu'ils sont « non exclusifs » ou qu'ils offrent un rendement social supérieur au rendement privé ou encore parce qu'ils ne peuvent être financés par des agents privés.

Dans un tel cadre d'analyse, les possibilités de rattrapage existent et le développement économique peut être rapide dès lors que l'on passe dans « la cour des grands », mais la principale difficulté, celle qui concerne le passage de « la cour des petits » à « la cour des grands », n'est pas expliquée. Cela est dû, selon Amendola et Gaffard [16], au fait que ces modèles ne permettent pas de traiter des « vrais problèmes de croissance », c'est-à-dire des problèmes liés à l'innovation, aux défauts de complémentarité et de coordination. En fait, les théories de la croissance endogène nous renseignent surtout sur les difficultés de la croissance, plus que sur les processus qui l'engendrent véritablement.

[15] Là encore, il s'agit d'une rupture avec les théories néo-classiques précédentes qui ne considèrent l'Etat que comme une entrave à la croissance liée au prélèvement de l'impôt.

[16] Amendola M. et Gaffard J.L. (1998), « Innovation et analyse économique : une mise en perspective », in Lassudrie-Duchêne B. (Dir.), Connaissances économiques, Approfondissements, Paris, Economica, p. 52.

de changement technologique. Ces modèles ont montré l'importance de l'action délibérée des agents économiques, mais les agents pris en compte sont seulement les entreprises. Ces modèles, qui ont permis une avancée théorique importante en endogénéisant le progrès technique, ont toutefois eu tendance à considérer le progrès technique comme « le moteur essentiel de la croissance » (Nelson, 1981) tout en marginalisant les autres facteurs.

Les théories de la croissance endogène rompent avec les théories de la croissance traditionnelles en introduisant dans leur analyse les hypothèses de rendements d'échelle croissants et d'externalités positives[14] afin d'introduire la possibilité de mécanismes de croissance auto-entretenue. De plus, ils engagent une réflexion sur les sources de la croissance en intégrant dans la sphère économique des éléments étant jusqu'alors considérés comme exogènes.

Ces théories renouvellent l'analyse de l'Etat et du capital public. En effet, la croissance auto-entretenue nécessite une accumulation permanente du capital physique et humain, ce qui suppose des efforts de recherche soutenus ainsi que l'entretien et la formation du capital humain. Le capital public, constitué d'infrastructures et de services

[14] La diffusion de connaissance née de l'accumulation de capital physique, les effets indirects de la division du travail et le capital public sont les principales sources d'externalités identifiées

L'évolution de la trajectoire engagée est définie de plus en plus précisément par les critères économiques et les processus d'apprentissage. Le développement technologique est alors considéré comme un processus cumulatif et contraint qui a des conséquences en termes d'irréversibilité et d'incertitude. Chaque choix technique dépend des choix antérieurs et détermine les choix ultérieurs. Ces travaux ont fournit une avancée dans le sens où ils fournissent une vision relativement endogène du progrès technique et mettent l'accent sur les contraintes et les incitations pesant sur les processus d'innovation.

2.2. Les nouvelles théories de la croissance

Les nouveaux modèles de la croissance et notamment le modèle de la croissance endogène[13] ont fortement contribué à la compréhension du processus de croissance et du processus

[13] Romer P.M. (1986), Increasing returns and long run growth, in Journal of political economy, 94, pp. 1002-1037 ; (1990), Endogenous technical change, in Journal of political economy, 98, pp.71-102 ; Lucas R.E. (1988), On the mecanics of economics development, in Journal of monetary economics, 21, (pp.3-42) ; Barro R.J (1989), The ricardian approach to budget deficits, in Journal of economic perspectives, 3, (pp.37-54); Amable B. et Guellec D. (1992), Les théories de la croissance endogène, in Revue d'Economie Politique, 102 (3) ; Amable B., Barré R. et Boyer R. (1997), Les systèmes d'innovation à l'ère de la globalisation, Paris, Economica ; Aghion P. et Howitt P. (2000), Théorie de la croissance endogène, Paris, Dunod ; Guellec D. et Ralle P. (2001), Les nouvelles théories de la croissance, Paris, Editions La Découverte.

2- L'endogénéisation de la technologie

Les années 80 se caractérisent par des réflexions théoriques, à savoir la théorie évolutionniste du progrès technique et les théories de la croissance endogène, qui apportent des éléments originaux sur le développement et la technologie.

2.1. La théorie évolutionniste du changement technique

La théorie des trajectoires technologiques élaborée par G. Dosi s'inscrit dans la tradition néo-schumpéterienne qui définit l'innovation comme un processus évolutif de résolutions de problèmes. Dans ses travaux, Dosi fait le rapprochement entre la science et la technologie à travers la notion de paradigme technologique. Pour lui, la technologie est un ensemble de connaissances pratiques et théoriques, de savoir-faire, de méthodes, de procédures, d'expériences de succès et d'échecs, et de matériel physique et d'équipements[12]. L'approche paradigmatique de la technologie permet d'établir une frontière entre ce qui est du domaine de l'économie et ce qui ne l'est pas en matière de changement technique.

[12] Dosi G. (1982), Technological Paradigms and Technological Trajectories, *Research Policy 11*. North Holland, pp.151-152.

technologie »[10] tandis que le second présente l'idée de « techniques inadaptées ou inappropriées »[11]. De nombreuses critiques s'élèvent au sujet des transferts de technologie, mais malgré tout, les politiques à venir ne remettent pas en cause les fondements des stratégies de développement. Les années 80 s'inscrivent alors à la fois dans la continuité et le changement. En effet, d'un côté elles confirment les représentations exogènes du développement et de la technique, et d'un autre côté, elles se caractérisent par une rupture politique en mettant fin aux logiques volontaristes pour imposer un consensus libéral pour lequel le développement rime avec les plans d'ajustement structurel destinés à le réaliser. On assiste alors à la fin de « l'économie du développement » en tant que discipline à part entière. C'est au cours de cette période qu'apparaissent la théorie évolutionniste du progrès technique et les théories de la croissance endogène, qui tentent d'endogénéiser la technologie.

[10] Voir à ce sujet: Vaitsos C. (1974), *Intercountry Income Distribution and Transnational Enterprises*, Oxford : Clarendon Press ; UNCTAD (1970), *Transfer of technology including Know-how and Patents : Elements of a Programme for UNCTAD* ; UNCTAD (1972), *Guidelines for the studies of the transfer of technology* ; UNCTAD (1975a), *Major issues arising from the transfer of technology to developing countries,* New York : Nations Unies.

[11] Stewart F. (1978), *Technology and underdevelopment*, 2nd édition, The Macmillan Press LTD, Londres.

Entre les années 50 et 70, différentes stratégies d'industrialisation, qualifiées de « stratégies développementalistes », sont adoptées : la substitution d'importations (qui vise à substituer progressivement une production nationale aux importations pour satisfaire le marché intérieur), les industries industrialisantes (la priorité est donnée aux industries lourdes ayant un effet d'entraînement.) et la substitution d'exportations (se fonde sur les principes libre-échangistes qui consistent à s'appuyer sur ses avantages comparatifs pour conquérir les marchés extérieurs). Ces stratégies considèrent comme nécessaire la modernisation par une croissance accélérée reposant sur l'industrialisation et le volontarisme politique. Dans toutes les stratégies, la croissance est l'objectif à atteindre afin de permettre une amélioration du bien-être. Comme les coûts de diffusion et de transfert sont inférieurs à ceux de l'innovation, l'idée pour les pays « sous-développés » est d'utiliser la réserve des connaissances mondiales, et de devenir des récepteurs de technologie, ce qui suppose que les activités locales d'innovation et l'imitation sont parfaitement substituables.

Une réflexion critique concernant les transferts de technologie se développe selon deux grands axes : le premier propose une analyse des imperfections du « marché de la

suite certaines hypothèses néo-classiques ont été rejetées avec la prise en compte de l'existence d'économies d'échelle ou de déséquilibres structurels internes (Fagerberg, 1994), de nouveaux paradoxes apparaissent, ce qui remet en cause le fait que la technologie serait un bien public et que l'imitation serait possible.

Ces modèles de croissance ignorent de nombreux facteurs importants comme le rôle du progrès technologique, l'importance des entreprises en tant qu'acteurs clés de la croissance économique, le rôle des institutions, qui influencent les choix des entreprises, et l'impossibilité d'isoler les différents facteurs responsables de la croissance à cause de l'existence de complémentarités fortes (Nelson, 1981).

1.3. L'échec des transferts de technologie

L'élaboration de politiques de rattrapage fondées sur le transfert de technologie provient de la cohérence qui existe entre les représentations exogènes du développement et de la technologie. Le transfert de technologie peut être défini comme un déplacement de technique productive d'un endroit à un autre. Sa logique est simple : le développement, qui ne peut se réaliser de lui-même, nécessite la mise en œuvre de politiques volontaristes. Ces dernières peuvent prendre pour modèle l'évolution des pays industrialisés.

inexpliquées. Ainsi, la technologie est considérée comme exogène. Pour Solow, l'accumulation du capital et l'amélioration de la main-d'œuvre sont les sources de la croissance, tout le reste étant attribué au progrès technologique, considéré alors comme un résidu et un produit gratuit accessible à tous et sans frais.

Durant les années 60-70, les travaux sur la croissance s'inscrivent dans la lignée du modèle de Solow et s'intéressent essentiellement à l'identification et à la mesure des différents composants de la croissance. Pourtant, selon Richard Nelson, « ces efforts ont enregistré des rendements fortement décroissants »[9] car les instruments utilisés n'expliquaient pas certains phénomènes tels que la chute du taux de croissance dans les pays industrialisés. Cette chute serait la conséquence du ralentissement de la croissance de la productivité du travail, qui serait due selon Boyer (1986) à des contradictions entre le mode d'accumulation et le régime de régulation et selon Madison (1987) à la chute du taux de croissance de la productivité totale des facteurs. L'approche de Solow est affinée et l'on s'intéresse plus particulièrement à l'explication du progrès technique.

Ces modèles sont fondés sur une approche linéaire et néo-classique des processus de changement. Même si par la

[9] Nelson R.R., National Innovation Systems: A Comparative Analysis, Oxford, Oxford University Press, 1993.

technique comme une donnée extérieure à l'entreprise lui permettant de transformer la fonction de production[8].

Ces trois auteurs ont ainsi mis en avant les interactions entre les domaines économique et technique. Leurs travaux sont encore très présents dans les théories récentes sur le sujet qui présentent la technique comme un facteur de croissance aux côtés des stocks de capital et de travail. Mais la technique ainsi représentée est déconnectée de ses fondements sociaux et culturels. Malgré cela, elle est largement dominante au moment où se définissent les politiques volontaristes destinées à lutter contre le « sous-développement ».

1.2. L'approche néo-classique de la croissance

Selon les théories traditionnelles de la croissance, la technologie est un fait connu et résulte des forces extérieures au marché. Dans le modèle de Solow, qui était la théorie dominante avant l'essor de la nouvelle théorie de la croissance, la technologie est assimilée à un flux continu de savoir qui devient simplement manifeste au fil du temps. Dans ce modèle, ce ne sont pas les forces économiques qui déterminent la technologie, celle-ci provenant de forces

[8] En 1942, dans son ouvrage *Capitalism, Socialism and Democracy*, Schumpeter développe une analyse des activités de R&D qui le conduit à considérer une partie des sciences et techniques endogènes à la sphère économique. Schumpeter J. (1942) *Capitalism, Socialism and Democracy*. New York, Harper & Row.

stock de techniques existant dans les pays plus « avancés » dans le but de favoriser leur développement.

1.1. Les travaux précurseurs

Ricardo est le premier à considérer le profit comme moteur du progrès technique en développant l'idée selon laquelle le premier utilisateur d'une technique nouvelle possède sur ses concurrents un avantage lui assurant la garantie de profits futurs énormes[5]. Dans l'analyse historique que développe Marx[6], le progrès technique apparaît comme nécessaire. L'ancien mode de production atteint ses limites face au développement des marchés et à l'accroissement des besoins, et la manufacture doit faire place à la grande industrie moderne. C'est ainsi, que peu à peu la « machine » remplace la force de l'homme. Marx n'aborde la technique qu'en tant qu'outil. Schumpeter[7], influencé par les travaux de Marx, introduit une nouvelle dimension dans la réflexion en mettant l'accent sur l'importance du progrès technique dans l'évolution économique. Il introduit un élément dynamique dans l'analyse, mais son analyse du changement technique n'en est pas moins exogène et statique. Il considère la

[5] Ricardo D., op. cit. p. 1.

[6] Marx K., op. cit. p. 1

[7] Schumpeter J., op. cit. p. 1.

statique. Les analyses de l'équilibre de court terme, caractéristiques des théories keynésiennes et néo-keynésiennes, reposent sur l'hypothèse d'une technique constante. Pour ce qui est des théories qui s'intéressent au long terme, elles ont longtemps éludé la question du changement technique, et quand Solow[4] introduit le progrès technique dans son modèle de croissance, c'est en tant que « résidu ».

I – Le classicisme et la technique exogène

La conception de la technique qui domine au sein de la science économique et qui considère celle-ci comme un facteur exogène, comme une donnée au même titre que le stock de capital et de travail, s'inscrit dans une longue tradition. Trois auteurs pionniers, Ricardo, Marx et Schumpeter ont contribué, avec des approches originales, à intégrer le progrès technique à la dynamique économique et sociale. Quant aux théories traditionnelles de la croissance, elles considèrent que la technologie résulte des forces extérieures au marché. Ces conceptions exogènes du développement et de la technologie ont donné naissance aux politiques de transfert de technologies, reposant sur le principe que les pays sous-développés peuvent utiliser le

[4] Solow R.M., « A Contribution to the Theory of Economic Growth », in Quarterly Journal of Economics, 70, 1956, pp. 65-94.

La célèbre théorie du développement de Rostow (1960) qui reflète l'approche dominante, suppose que la croissance et le développement sont inséparables voire équivalents. Cela pourrait s'expliquer par l'intérêt porté pour la théorie de la croissance de la part d'économistes néo-classiques mais aussi d'économistes évolutionnistes qui insistent sur la notion d'innovation.

La technique, quant à elle, reste considérée comme un outil neutre, une capacité productive facteur de croissance, et ce malgré certains travaux pionniers sur le « progrès technique », comme ceux de Ricardo[1], Marx[2], ou Schumpeter[3]. En conséquence, quels que soient les courants de pensée, d'inspiration libérale ou marxiste, les pratiques adoptées reposent sur le transfert de techniques « modernes » destinées à accélérer le processus de rattrapage. Les analyses économiques de la technique lui reconnaissent un rôle primordial dans le développement des forces productives mais son statut reste principalement celui d'un facteur exogène et

[1] Ricardo D. (1821), Des principes de l'Economie politique et de l'impôt, chapitre XXI, Flammarion, Paris, 1971.

[2] Marx K. (1857), Principes d'une critique de l'économie politique, Œuvres de la Pléiade II, 1968, Gallimard ; (1867), Le capital, La Pléiade I, 1965, Gallimard.

[3] Schumpeter J., Business Cycles, A theorical, historical and statistical analysis of the capitalists process, 2 vol. New York, Mc Graw Hill, 1939.

L'échec d'une vision unilinéaire et déterministe de la technologie et du développement

Dr. Benabderrahmane Yasmina

Université Constantine 3

Abstract:

In this article we put into perspective the impasse of unilinear and deterministic view of technology and development. We review the question of the contribution of technology to growth as it arose from the pioneering work of Ricardo, Marx and Schumpeter.

Keywords:

Technology_ development_ the contribution

La théorie économique assigne une importance traditionnelle à l'innovation comme moteur de la croissance. Ainsi, Adam Smith, Karl Marx et Joseph Schumpeter ont montré que la croissance économique fait partie d'un processus plus global de changement structurel et institutionnel, qualifié par la suite de « développement ». Cette approche globale du développement a pourtant été laissée de côté par les théoriciens plus récents qui ont assimilé la notion de développement à des facteurs isolés tels que la croissance du PIB ou de la productivité (Seers 1969, Dorfman 1991).

Hoek L.H. *la marque du titre : dispositifs sémiotique d'une pratique textuelle*. La Haye.1981

Jakobson R., *Essais de linguistique générale,* Minuit, Paris, 1963.

Maingueneau, D. *Initiation aux méthodes de l'analyse du discours : problèmes et perspective.* Paris : Hachette. 1976

Maingueneau, D. *approche de l'énnonciation en linguistique française, Embrayeur, « Temps », Discours rapporté*. Paris Hachette 1981

Moirand, S. *le rôle anaphorique de la nominalisation dans la presse écrite. Langue française* 28, p, 60-78. 1975

Mouriquand, J. *l'écriture journalistique.* Paris : P.U.F. Coll. Que sais-je ? 1997

Neveu, F. *Etudes sur l'apposition. Aspects du détachement nominal et adjectival en français contemporain, dans un corpus de textes de J-P Sartre.* Paris : Honoré champion Editeur. 1998

Neveu, F, *Lexique des notions linguistiques,* Thomasset, Nathan, Paris, 2000.

Noailly , M.1988 « Intitulation , articulation » . Cahier du CERF XX 4,p. 109-123

Safarti, G, *Éléments d'analyse du discours,* Nathan Université, Paris, 1991, 1997.

Saussure, F. *Cours de linguistique générale*, ENAG, Alger, 2004.

Strawson, P.F., *Etudes de logique et de Linguistique*, Seuil, Paris, 1973.

Weinrich, H, *Grammaire textuelle du français,* Didier/Hatier, Paris, 1989

Benzelikha A. *presse Algérienne,* Dar El Gharb, 2005

Banfield, A. *phrases sans parole : théorie du récit et du style indirect libre.* Paris : seuil 1995

Benveniste E, *Problèmes de linguistique générale,* Gallimard, Paris, 1974.

Blanchet A, *Dire et faire dire. L'entretien,* Armand Colin, Paris, 1991, 2003..

Bourdieu P, *Ce que parler veut dire. L'économie des échanges linguistiques,* Fayard, Paris, 1982.

Charaudeau P, *Grammaire du sens et de l'expression,* Hachette, Paris, 1992.

Charaudeau P, *la voix cachée du tiers des non-dits du discours,* L'harmattan, 2004

Charaudeau P, *le discours de l'information médiatique. La construction du miroir social.* Paris : Nathan 1997

Ducrot O, *Le Dire et le Dit,* Paris, Minuit, 1984.

Ducrot O, *les mots du discours,* Paris. Minuit 1980

Frandsen, P. *Éléments pour une théorie du paratexte journalistique* Hachette, Paris, 1990

Furet, C. *le titre de presse pour donner envie de lire.*Paris : Les éditions du CFPJ. 1995

Furet, C. *Le titre* presses universitaires de France. 2006

Gaillard, P. *Technique du journalisme*. Paris. P.U.F, Coll. Que sais-je ? 1992.

Grevisse M, *Le bon usage. Grammaire Française,* Duculot, Paris, 1986,1988.

Gross, M. *Grammaire transformationnele du Français : Syntaxe du nom.* Edit. Cantinène. 1986

Gruenais, M. *titres de presse et langue du pouvoir Langage et société* 31,1983

Ce travail sur le titre nous a permis de dégager un certain nombre de traits caractéristiques constituant les éléments de la grammaire du titre de presse. Même si le quotidien d'Oran fait partie de la presse « sérieuse », nous pensons avoir montré que le titre peut nous renseigner sur le positionnement du journal vis-à-vis des différents domaines de l'actualité qu'il traite, mais aussi sur le mode d'écriture utilisées par la presse écrite.

Dans ce travail, le titre a été examiné pour lui-même, en tant que texte à part entière ; il a été analysé comme une unité autonome : le titre a été considéré comme un texte reprenant le contenu essentiel de l'article, afin d'en approfondir les aspects discursifs et de mieux évaluer sa place dans le discours journalistique.

Pour terminer, on peut dire, que cette esquisse d'étude ne peut que constituer un travail préliminaire, nous sommes persuadé qu'il reste beaucoup à faire dans ce domaine de l'analyse du discours des titres de la presse écrite ; il faudrait, entre autre, effectuer des études portant sur la particularité de la phrase nominale dans les titres de la presse algérienne et comprendre ses fonctions.

Bibliographie

Ouvrages examinés

Phrase complète	43%
Syntagme nominal sujet	34%
Construction passive	07%
Parataxe	18%
SN + S prépositionnel	34%

Ce qui ressort dans ce tableau, ce sont les chiffres concernant les énoncés de type : la phrase complète, qui forme la classe d'énoncé la plus importante : 43% des titres relevés, ce qui implique que le quotidien d'Oran utilise un style « elliptique » pour l'élaboration de ses titres.

Conclusion

L'une des principales caractéristiques syntaxiques est l'effacement quasi constant des marques de temporalité, ce qui a été mis en évidence par l'utilisation majoritaire du présent dans les énoncés à prédicat verbal alors que la plupart des procès renvoient au passé, mais aussi celle de nominalisation dans un grand nombre de titres. Ces propriétés syntaxiques contribuent à accentuer le caractère assertif du titre dans sa façon de communiquer la nouvelle. La phrase dite complète est la catégorie la plus importante dans notre journal en plus le titre de presse dans son ensemble constitue un message où de nombreuses informations sont fournies par le contexte de la nouvelle. Ce contexte constitue un fonds de connaissances communes aux journalistes et aux lecteurs.

l'absence d'article, selon M.Noailly *les noms à article zéro, lorsqu'ils sont totalement isolés, sans contexte et sans détermination, sont plus volontiers saisis au sens figuré là où, avec article, il seraient compris comme l'évocation d'un objet du réel »*[4]

Nous constatons que les titres peuvent prendre forme d'une phrase complète dotée d'un prédicat verbal ou d'une assertion nominale. Les types étudies sont constitués de deux syntagmes ou membres de phrases, sont soit juxtaposés, soit reliés par un monème fonctionnel. Ce qui lie ces différents types de phrases c'est leur caractère assertif.

Les titres ne trouvant leur place dans l'une des catégories répertoriées ont été classées « autres ». Il s'agit surtout d'énoncés dont l'auxiliaire est effacé (construction active et passive) ce qui les distingue des autres types.

Voyons de plus près avec le tableau ci-dessous comment se répartissent les différents types répertoriés dans notre journal.

Types de phrases	pourcentage
Titres assertifs	64%
Interrogative-exclamative-impérative	08%

[4] Noailly, M.1988 *intitulation, articulation.* Paris p.120

L'ellipse de l'article n'est pas systématique, elle apparaît seulement en rapport avec certaines structures de la phrase. Les exemples suivants sont révélateurs de la construction elliptique de nos énoncés lorsque l'opération de suppression porte non seulement sur le verbe mais aussi sur l'article :

(108) retour sur le faux acte et le vrai agrément 28 février 2007

(109) choix politiques et choix électoraux 22 février 2007

(110) scandale aux œuvres universitaires de Tlemcen 03 Mars 2007

(111) Faux moudjahidine, un autre pavé dans la mare 1 Mars 2007

(112) Enseignement supérieur : 610 bourses à l'étranger 15 février 2007

(113) Vers la fermeture de plusieurs unités Menace sur le lait 7 février 2007

(114) fetwa contre les exemplaires incomplets du coran 18 février 2007

Dans tous les exemples de (108) à (114) on peut reconstituer un autre énoncé en introduisant un article et un verbe ainsi pour l'exemple (110), la reconstitution de l'énoncé donnerait soit *un scandale a lieu aux œuvres universitaires de Tlemcen*, ou bien *il y a un scandale aux…*En ce qui concerne l'effet de cette construction elliptique et en particulier de

La suppression de mots peut prendre des proportions tout à fait variées : nous partirons d'une forme d'ellipse grammaticale minimale (degré zéro) pour arriver à l'ellipse contextuelle maximale. Nous l'avons vu précédemment qu'il peut y avoir une seule unité supprimée comme dans les titres suivants où seule la copule *être* est supprimée :

(103) le vice-président américain visé par un attentat 28 février 2007

(104) un bar-restaurant incendié à ain témouchent 24 février 2007

(105) Football : Les espoirs algériens battus par l'ethiopie 8 février 2007

(106) huit membres d'une même famille tués par le gaz 03 avril 2007

(107) Malgré l'avantage du mandat d'arrêt européen

Paris embarrassé par l'affaire Khalifa 09 avril 2007

Dans les types des titres (103) à (107), l'ellipse porte sur la copule *être,* soit en tant qu'auxiliaire soit en tant que verbe il donne lieu à une configuration de phrase que nous avons déjà vu dans la mesure où le lecteur reconstitue automatiquement une phrase complète, malgré l'absence de la copule *être.* L'ellipse illustrée par ces exemples est une ellipse « grammaticale », car c'est par sa connaissance de la grammaire de la langue que le lecteur reconstitue la « phrase complète ».

(97) Les aveux de l'ambassadeur de France 02 mai 2007

(98) Air France et ses promesses 09 juin 2007

(99) Une jeunesse explosive 21 juin 2007

(100) Programme du gouvernement 25 juin 2007

(101) Une semaine ordinaire 05 mai 2007

(102) Tourisme algérien 03 juin 2007

Nous remarquons que les énoncés obtenus peuvent avoir une configuration variable. Il s'agit aussi bien de syntagmes nominaux avec ou sans déterminant, comme dans (99), (101) et (102) de configuration *nom+adjectif*, que d'un SN avec la préposition *de,* comme dans les titres (96), (97) et (100) de configuration *N de N*. Il s'agit ici d'un même syntagme ne pouvant être divisé en unités syntaxiques plus petites.

- **l'ellipse**

On met souvent en avant l' « allure » elliptique du titre, voire même son style télégraphique et son statut de phrase. Il est évident q'un titre fait l'objet de procédés de suppression, mais ces procédés ne sont pas de même nature que ceux employés pour rédiger un télégramme ou une petite annonce par exemple.

A quel genre d'ellipse avons-nous affaire dans les titres du quotidien algérien ?

- **les syntagmes prépositionnels**

Les prépositions de cette catégorie sont sémantiques c'est-à-dire qu'elles sont porteuses d'un sens qui leur est intrinsèque. Les syntagmes prépositionnels de notre corpus sont de nature très variés comme c'est souvent le cas dans les exemples déjà cités mais en voici d'autres :

(90) le tirage au sort pour le hadj le 21 juin (12 juin 2007)

(91) Cheb Mami se livre au quotidien d'Oran (04 juin 2007)

(92) Les biens des algériens à l'étranger sous surveillance (29 mai 2007)

(93) A l'appel du SNPSP grève illimitée dans les hôpitaux (29 mai 2007)

(94) Poutine, première diplomatique pour Nicolas Sarkozy (17 mai 2007)

(95) Des armes, de la poudre et des psychotropes dans une « Kangoo » (12 mai 2007)

- **Le bloc unique**

Certains des titres de ce type ressemblent aux titres du type précédent mais nous remarquerons par la suite qu'ils en sont bien distincts. Voyons quelques exemples de cette catégorie :

(96) Importation de véhicules 03 avril 2007

(81) Les biens des algériens à l'étranger sous surveillance (29 mai 2007)

(82) Les effets secondaires d'un décret (20 juin 2007)

(83) Une centaine d'islamistes arrêtés (20 février 2007)

(84) Le Maroc en alerte générale (20 février 2007)

Noua avons aussi rencontré des titres ou les syntagmes nominaux peuvent être privés d'article :

(85) Depardieu master card et des noms (20 février 2007)

(86) Libération annoncée d'algériens détenus à Guantanamo (19 juin 2007)

(87) Petite guerre et grands enjeux (20 juin 2007)

(88) Grève illimitée dans les hôpitaux (29 mai 2007)

(89) Liban, terrain de toutes les manœuvres (22 mai 2007)

Nous remarquons que lorsque nous avons affaire à un syntagme nominalisé renvoyant au résultat d'une action verbale que l'article disparaît le plus systématiquement. Lorsque le syntagme nominal ne correspond pas à un substantif verbal dérivé d'un verbe, l'article est plus souvent présent. L'absence d'article accentue l'impression de condensation de l'information. En plus la forme nue du substantif laisse libre cours à l'interprétation du lecteur quant au sens de l'information.

Afin de mettre en évidence la différence entre cette catégorie d'énoncés et ceux qui concerne le prédicat verbal, citons Benveniste :

« *L'assertion (dans une phrase nominale) aura ce caractère propre d'être intemporelle, impersonnelle, non modale, bref de porter sur un terme réduit à son seul contenu sémantique […]. Cette assertion nominale ne peut pas non plus participer à la propriété essentielle d'une assertion verbale qui est de mettre le temps de l'événement en rapport avec le temps du discours sur l'événement. »*[3]

Nous avons remarqué que les assertions nominales ne sont pas pour autant absentes d'autres formes de discours telles que la publicité, les slogans et aussi les annonces où l'on tend à l'abstraction et à la condensation.

- **Présence ou absence d'article**

Un grand nombre d'énoncés ont des noms propres tandis qu'une minorité de syntagmes nominaux sont déterminés par un article. En voici quelques exemples :

(79) un veto sur le patronariat sonatrach-gaprom (27 janvier 2007)

(80) des armes, de la poudre et des psychotropes dans une « Kangoo » (12 mai 2007)

[3] Benveniste .E.1966.*problèmes de linguistique générale1*. Paris : Gallimard p 159

(70) SNTF cherche assistance étrangère. Le train algérien veut se remettre sur rail (09 avril 2007)

(71) Paris embarrassé par l'affaire Khalifa (09 avril 2007)

(72) Importation de véhicules la fin des procurations pour les moudjahidine (03 avril 2007)

(73) Six mois de prison requis contre le président de la ligue nationale de football (27 janvier 2007)

(74) Bouira : dix morts dans un accident de la route (05 février 2007)

(75) Argent des caisses et des offices qui a ordonné d'aller chez Khalifa ? (28 janvier 2007)

(76) Deux bombes explosent à Constantine attentat contre les élections (17 mai 2007)

(77) Mali attaque d'un poste de sécurité près des frontières algériennes (12 mai 2007)

(78) Onab Tébessa une cinquantaine de personnes devant le parquet (24 mai 2007)

3. les assertions nominales

Une des caractéristiques des titres (70) à (78) est la présence d'un noyau nominal, nom propre ou abstrait, déterminé par un syntagme prépositionnel il s'agit d'une nominalisation mettant en scène le résultat d'un événement.

D'après ces titres nous pouvons dire que les syntagmes nominalisés constituent un moyen efficace pour présenter l'information en un condensé.

et apporter ensuite les éléments nouveaux. Les deux points deviennent des indices de la syntaxe des titres de presse.

- **La structure bipartite : SN + S Prépositionnel**

Dans cette troisième catégorie sont classés les exemples dont la structure syntaxique est : SN + S Prépositionnel. Le SN comporte soit un nom propre, soit un nom abstrait correspondant souvent à une nominalisation. Cette dernière est exprimée par un nom verbal exemple : (transaction) , selon S.Moirand

« *La nominalisation est un moyen grammatical, particulièrement utilisé dans la langue écrite pour construire les phrases des narrations et des exposés ; les nominalisations accroissent la densité d'un texte, permettant de hiérarchiser les données de l'expérience et les argumentations »*[2]

Quant aux syntagmes prépositionnels, ils sont introduits par des prépositions sémantiques ayant leur propre organisation argumentale codée lexicalement, il s'agit de propositions comme (dans, sur, chez ou avec) .Ce genre d'énoncé est très fréquent dans notre corpus, il représente les 34% des titres.

En Voici quelques exemples :

[2] Moirand, S ; 1975 « *le rôle anaphorique de la nominalisation dans la presse écrite* » langue française p.60

construction. La juxtaposition de deux syntagmes ou de deux phrases permet de donner aux éléments une certaine force tout en ne sacrifiant rien à la compréhension, étant donné l'habitude que les lecteurs de journaL en ont.

Voici quelques exemples où l'on voit que les deux points deviennent, dans le discours journalistique, un signifiant :

(115) Tébessa : le repenti et le faux candidat au bac 17 juin 2007

(116) Mali : attaque d'un poste de sécurité prés des frontières algériennes 12 mai 2007

(117) Maroc : les jeunes du rif veulent l'autonomie 17 mai 2007

(118) Medgaz : L'Algérie menace 10 juin 2007

(119) Contrefaçon : Du toc pour plaisirs contrefaits 17 mars 2007

(120) Législatives : Un élu, ça sert à quoi ? 19 mars 2007

(121) Procès Khalifa : Disparition mystérieuse d'un rapport confidentiel 27 janvier 2007

(122) Habitat : Les entrepreneurs algériens veulent s'unir cotre les chinois 29 janvier 2007

La parataxe constitue, nous l'avons vu, un moyen simple et efficace pour titrer : situer d'abord l'information dans un cadre qui consiste souvent en un rapport de l'actualité

La parataxe est la structure la moins importante dans notre corpus nous avons relevé 18% d'énoncés parataxiques, en voici quelques exemples :

(65) Bouira : dix morts dans un accident de la route (05 février 2007)

(66) « monde unipolaire » : Poutine courtise les pays arabes (15 février 2007)

(67) l'inégalité : les raisons de la colère (01 mars 2007)

(68) présidentielles françaises : une bonne opportunité pour l'Algérie (12 avril 2007)

Dans les énoncés que nous venons de citer, le choix d'une certaine présentation, le signe graphique apparaît très utile pour rendre la nouvelle à la fois plus brève et plus percutante, la syntaxe de la langue et la ponctuation sont mises à contribution pour satisfaire les besoins de la presse écrite. Charaudeau (1978, p.454) voit dans la juxtaposition de deux membres de phrase séparés par deux points une disposition cherchant à renforcer l'aspect assertif de l'énoncé.

Nous avons déjà défini la parataxe comme une construction par juxtaposition, sans qu'un mot de liaison indique la nature du rapport entre les phrases. La parataxe renvoie plus particulièrement à l'absence de liaison verbale entre deux mots, groupes de mots ou proposition elle est considérée comme une variante de l'ellipse, et représente une figure importante. En effet, le discours intitulant journalistique cherche à la fois la brièveté dans la

Nous avons vu dans cette section consacrée à la phrase complète, que les caractéristiques de nos énoncés résident dans l'utilisation de certain traits : en ce qui concerne le prédicat verbal, ce qui a attiré notre attention c'est l'emploi du présent au lieu du passé composé et la préférence pour les constructions actives plutôt que passives, mettant ainsi en valeur les actants et les procès dans lesquels ils sont impliqués.

- **La parataxe**

Dans les énoncés parataxiques, la relation entre les deux parties de l'énoncé est précisée d'une part par le sémantisme des unités lexicales mais aussi par celui des signes de ponctuation : les deux points.

On sait que les deux points peuvent avoir des significations différentes en fonction des contextes dans lesquels ils sont utilisés, mais en règle générale leur emploi révèle un lieu logique entre les deux propositions qu'ils relient.

Même si, au niveau syntaxique, il y a absence de marque formelle verbale de relation entre les deux membres, l'emploi fréquent de ce type de titres de presse engendre une habitude de lecture et donc de reconstitution du sens de la part du lecteur.

(68) Les cadres de l'état ne pourront plus faire ce qu'ils veulent (14 février 2007)

(69) Une filiale de sonatrach a perdu 10 millions de dollars chez Khalifa (15 février 2007)

Les titres (60), (61), (63), (66) et (68) relèvent du discours rapporté car ce ne sont pas seulement les paroles du journal qui sont mises en titre, mais celles des autres (politiciens).

Le titre (67) comportant un imparfait fait allusion à une phrase figée. En dehors de ce cas tenant à l'énoncé auquel il fait allusion, l'emploi de l'imparfait est souvent le fait de citation renvoyant à des événements passées, et ne relèvent donc pas de l'énonciation du journal

En ce qui concerne les exemples (60) et (69), comportant un passé composé (seulement 9 titres dans le corpus), on peut s'interroger sur la raison pour laquelle certains événements passés y sont transmis au passé composé et non au présent comme la grande majorité décrite.

Le passé composé produit selon Charaudeau un effet de « décrochage énonciatif »[1]et, contrairement à la grande majorité des titres portant la nouvelle au présent, les informations ainsi transmises acquièrent une valeur plus ponctuelle et définitive.

[1] Charaudeau, P. 1992. *Grammaire du sens et de l'expression.* Paris Hachette éducation p. 469

plus rapprochée du lecteur, compte tenu de l'effacement de l'effet de ponctualité lié à l'emploi du passé composé.

Malgré la présence du présent qui est importante (80%), les autres temps ne sont pas absents des titres. Nous avons relevé, en nombre restreint, des imparfaits (2%), des passés composés (4%), des futurs (12%) et des conditionnels présents (2%) dont voici quelques exemples :

(60) qui a ordonné d'aller chez Khalifa ? (28 janvier 2007)

(61) le procès s'est ouvert hier BCIA, ACTE (28 janvier 2007)

(62) BCIA, a l'origine, il y avait le sucre (29 janvier 2007)

(63) Le président de la ligue nationale de football « je suspendrais le championnat si … » (30 janvier 2007)

(64) Si l'électricité augmente, l'eau suivra (31 janvier 2007)

(65) La grève des stations-service n'aura pas lieu (04 février 2007)

(66) Présidentielles françaises pour qui votera Bouteflika ? (05 février 2007)

(67) Le procès se poursuit Khalifa versait des commissions aux responsables des OPGI (13 février 2007)

(53) Bouteflika appelle les femmes à créer des entreprises (10 Mars 2007)

(54) « l'Arabisation » bloque les importations de la pièce détachée (07 Avril 2007)

(55) Les palestiniens signent un accord à la Mecque (10 février 2007)

(56) Des violences font un mort et une centaine de blessés (04 février 2007)

(57) La carte visa arrive (05février 2007)

(58) Bruxelles continue de spéculer sur l'Opep du gaz (27 janvier 2007)

(59) Les patrons des entreprises publiques commencent à défiler (31 janvier 2007)

Dans la plupart de ces titres, le procès fait référence à un événement ou à une prise de parole ayant déjà eu lieu et il n'y a cependant aucune marque du passé, les verbes sont conjugués au présent. On peut rapprocher cet emploi de celui du présent historique dans la mesure où l'on a affaire ici à des événements passés.

Au-delà du choix du présent pour rapporter l'événement ayant eu lieu la veille, c'est aussi la volonté de mettre en avant, dans les titres, le résultat des procès exprimés au passé par le chapeau qui est frappant. Pour les titres de presse, c'est d'une actualisation du passé qu'il s'agit le plus souvent ; la nouvelle ainsi rapportée, d'après Charaudeau, s'en trouve

(51) Neuf militaires tués et dix terroristes abattus (09 avril 2007)

(52) 15.000 tonnes de médicaments périmés à incinérer (10 avril 2007)

(53) le complexe d'El-Hadjar paralysé (04 mars 2007)

(54) le vice-président américain visé par un attentat (28 février 2007)

Il nous semble que même si la forme des énoncés est « tronquée », la fonction verbale est assurée. Du point de vu formel, les titres cités ne peuvent être classés parmi les phrases complètes proprement dites, même si la forme tronquée du verbe ne prive pas l'énoncé de sa force assertive.

- **Temporalité dans les titres**

L'élément principal de ces phrases est le prédicat verbal. La fonction du prédicat est assumée par le verbe et le plus souvent par un verbe fini nous constatons qu'environs 80% ont un verbe au présent, ce qui constituent une caractéristique de ce type de discours :

(50) un ex-premier ministre parle « d'esclavagisme arabe » (03 Mars 2007)

(51) l'Algérien dit non aux bases Américaines (04 Mars 2007)

(52) des égyptiens veulent investir 700 millions de dollars en Algérie (06 Mars 2007)

Dans notre corpus, les énonces porteurs d'une construction passive sont très peu nombreux : nous en avons relevé que 7 %. Ces titres à la forme passive se trouvent presque dans la rubrique société où l'on rapporte des événements se rapprochant à des faits divers :

(43) des troupeaux entiers décimés par la tempête (11 mars 2007)

(44) 300 miliciens tués sur fond de achoura (30 janvier 2007)

(45) Un algérien maltraité par les forces de sécurité en Jordanie (20 février 2007)

(46) Un français et deux tunisiens arrêtés et 160 fusils saisis (12 février 2007)

(47) Six magistrats radiés pour fautes graves (1 février 2007)

(48) Un bar-restaurant incendié à Ain Témouchent (24 février 2007)

(49) 4 à 5 milliards de dollars seront investis en 2007 (18 mars 2007)

Certains titres relèvent d'une construction passive « tronquée » : le prédicat verbal, *être* a été supprimé. Il s'agit plutôt alors d'une construction participiale à l'intérieur d'un SN. En voici quelques exemples :

(50) un bar-restaurant incendié à Ain Temouchent (24 février 2007)

à (38). On remarque la fréquence de l'article défini dans ces énoncés, il est déterminé par le fait qu'il s'agit d'un titre phrase, il n'y a donc pas un choix direct de la part du journaliste, en plus le titre de presse s'inscrit dans une continuité de l'information, d'un jour à l'autre, d'un numéro à l'autre, ce qui entraîne que la valeur anaphorique de l'article défini joue sur le contexte situationnel, l'espace discursif.

- **Construction active et passive**

Les phrases de notre corpus correspondent le plus souvent à des constructions actives dont la forme canonique est : SN sujet +prédicat verbal + SN objet, comme dans les exemples suivants :

(39) « l'arabisation » bloque les importations de la pièce détachée (07 avril 2007)

(40) Des égyptiens veulent investir 700 millions de dollars en Algérie (06 mars 2007)

(41) Khalifa versait des commissions aux responsables des OPGI (13 février 2007)

(42) une filiale de sonatrach a perdu 10 millions de dollars chez Khalifa (15 février 2007)

Une des structures les plus typées pour les titres est une construction où l'on met en avant le résultat d'un geste, souvent d'une action criminelle. Cette réalité est encodée au niveau syntaxique par une voix passive dont on a omis l'auxiliaire et dont l'agent est effacé ou inconnu.

(31) Sidi Saïd assume, Soltani dit ne pas avoir signé (11 février 2007)

(32) l'Espagne livre 2000 véhicules blindés au Maroc (10 février 2007)

Dans la majeure partie des cas, on a affaire à des noms d'hommes politiques ou de célébrités au cœur de l'actualité, ainsi que de noms de villes ou de lieux désignant diverses institutions. Tous les noms communs sujets sont déterminés. Ajoutons également qu'il s'agit, dans une majorité de phrases ayant un article défini. Cette structure est représentée par 18% des titres dans la Une de notre corpus :

(33) les Imams peuvent s'organiser en syndicat (20 mars 2007)

(34) la privatisation du CPA joue les prolongations (20 mars 2007)

(35) le journal le monde perd sa tête (24 mai 2007

(36) la grève des avocats risque de faire tache d'huile (14 juin 2007)

(37) les salaires de sonatrach font parler d'eux (18 juin 2007)

(38) le ministère appelle les avocats au dialogue (19 juin 2007)

Une des caractéristiques majeures du SN sujet dans notre corpus est d'avoir une identité précise : le sujet est désigné soit par un nom propre soit par un nom commun déterminé par un article défini comme dans les exemples (33)

Sur l'ensemble des énoncés de notre corpus, la phrase verbale est représentée par 43 % nous avons remarqué qu'à la Une, ce type de phrases prédominent et des stratégies totalement différentes de mise en page sont employées influençant la longueur du titre : le Quotidien d'Oran privilégie une seule nouvelle, "l'Evènement", qui occupe la première page avec un titre en gros caractères et une photo.

- **Le syntagme nominal (SN) sujet**

Ce qui frappe lorsque l'on examine les titres de notre corpus, c'est la prédominance de noms propres ou de noms renvoyant à des groupes de personnes en position de sujet, comme dans les exemples suivants :

(25) les marocains viendront chercher le visa américain à Alger (08 mai 2007)

(26) les clients de Khalifa accusent (30 janvier 2007)

(27) « Abdelmoumène, un escroc institutionnel (05 février 2007)

(28) Khalifa versait des commissions aux responsables des opgi (13 février 2007)

(29) Benbouzid veut une levée des couleurs à l'américaine (12 février 2007)

(30) un français et deux tunisiens arrêtés et 160 fusils saisis (12 février 2007)

- **La phrase complète**

Il s'agit des titres dont la structure syntaxique est celle d'une phrase noyau, c'est-à-dire : sujet +verbe. Leur caractéristique principale est d'avoir un prédicat verbal. Dans ces phrases, la structure de base S+V peut être élargie à plusieurs expansions pouvant être aussi bien des compléments d'objet indirects, attributs ou des compléments circonstanciels, représentant un ajout d'information. Voici quelques exemples représentatifs extraits de notre corpus :

(16) les femmes doivent payer pour entrer à Dubaï (25 janvier 2007)

(17) les entrepreneurs Algériens veulent s'unir contre les Chinois (29 janvier 2007)

(18) la grève des stations-service n'aura pas lieu (04 février 2007)

(19) les propos de Jack Lang à Alger font jaser à Paris (06 février 2007)

(20) les banques se méfient des devises (08 février 2007)

(21) l'Espagne livre 2000 véhicules blindés au Maroc (10 février 2007)

(22) la rébellion touareg refait surface (11 février 2007)

(23) Benbouzid veut une levée des couleurs à l'américaine (12 février 2007)

(24) La France perd des parts de marché en Algérie (13 février 2007)

(12) Présidentielles françaises

Pour qui votera Bouteflika ? (05 février 2007)

(13) le procès Khalifa, les Algériens et le reste

Faut-il juger le système ? (31 janvier 2007)

(14) Palestine : une guerre de 70 ans, déjà ! (05 avril 2007)

(15) Deneuve aime l'argent de Khalifa mais pas Khalifa ! (07 mars 2007)

Les titres interrogatifs ou exclamatifs comme (12), ou le verbe introducteur a été omis, relèvent du discours rapporté, car les paroles d'autrui, sont transmises sans les guillemets, ici l'énonciateur n'est pas dévoilé, ce qui incite le lecteur à une certaine quête.

2- Analyse morphosyntaxique des titres

Les titres ont été classés selon leur construction. Nous proposons les quatre grands types de structures suivants : (a) la phrase complète, (b) la parataxe, (c) la structure bipartite, (d) le bloc syntaxique unique. Pour justifier la présentation de ces différents types, nous avons choisi de partir du type de l'énoncé de base ou canonique, avec un verbe fini et ne comportant pas d'omission de constituants, pour arriver au type le plus éloigné c'est-à-dire un titre sans prédicat verbal, le plus souvent, en simple syntagme nominal. Il y a une progression dans notre typologie syntaxique allant du plus long au plus court, mais aussi du plus verbal au plus nominal.

(5) Dépôts et ouvertures des comptes

Les banques se méfient des devises (08 février 2007)

A travers les titres (1) à (5), nous remarquons que les journalistes et secrétaires de rédaction ne semblent pas s'impliquer dans l'acte d'énonciation, pas plus qu'ils ne cherchent à interpeller le lecteur. Les titres sont comme livrés à eux même sur la page. Ce constat est partagé par P. Charaudeau(1983 ; P 104) qui remarque que les titres se caractérisent par une « énonciation délocutive, modalisée par une assertion constative ». De par son autonomie et ses fonctions communicatives, le titre est selon les linguistes, l'énoncé journalistique le plus à même de porter la modalité d'assertion caractéristique de l'écriture journalistique. Certains linguistes parlent de « modalité zéro ». Il s'agit ici de modalisation touchant à l'énonciation. Il va de soi que le journaliste intervient sur le contenu des informations titrées, mais il le fait alors à travers les modalités d'énoncés et le choix des unités lexicales.

A côté de la forme assertive qui est de loin la plus fréquente, notre corpus contient, de rares énoncés relevant d'autres modalités d'énonciations telles que l'interrogative et l'exclamative et même la forme impérative :

(10) argent des caisses et des offices

Qui a ordonné d'aller chez Khalifa ? (28 janvier 2007)

(11) A mort l'arbitre ! (15 février 2007)

La fonction principale des titres de presse étant celle d'informer, la forme de proposition la plus représentative serait la forme assertive, par laquelle le destinateur porte à la connaissance du destinataire certains faits ou relations de choses. L'assertion est opposée à l'interrogation, l'exclamation et la forme impérative, car d'après la définition du dictionnaire elle est censée dire le vrai. Contrairement aux formes interrogatives, exclamative, et impérative dans lesquelles le locuteur marque explicitement son doute, son ignorance, son émotion ou son désir, selon Charaudeau 1992, p.553, l'assertion consiste en une proposition dans laquelle le locuteur tient « des propos sur le monde » sans positionnement explicite.

Citons quelques exemples de titres assertifs de notre corpus :

(1) Une caution de 500 dollars exigée

Les femmes doivent payer pour entrer à Dubaï. (25 jan.2007)

(2) Procès Khalifa

Disparition mystérieuse d'un rapport confidentiel (27 jan. 2007)

(3) Habitat

Les entrepreneurs algériens veulent s'unir contre les chinois. (29 jan. 2007)

(4) La grève des stations-service n'aura pas lieu (04 février 2007)

nominale, phrase verbale, un mot, une interjection… peut-on dire si une partie du texte, ou segment, peut constituer un titre ou non ? On comprend automatiquement que des titres comme : « Dix morts dans un accident de la route », « Abdelmoumène un escroc institutionnel » et « Pour qui votera Bouteflika ? » sont différents.

Le titre de presse se définit par un statut relativement autonome (Charaudeau 1983), dû à sa particularité typographique et au fait qu'il a tendance à devenir l'essentiel de l'information. Il forme un discours particulier et peut être ainsi analysé pour lui-même. C'est pourquoi il peut s'apparenter dans maints cas de figure à une phrase.

Afin d'énoncer les premiers éléments de grammaire de la phrase-titre, nous aimerions dans cet article, à l'aide d'un corpus de titres tirés du ***Quotidien d'Oran*** (titres sélectionnés entre janvier 2007 et Juin 2007) poser les questions suivantes : quelles sont les structures de phrases les plus fréquentes ? A quel type de syntagmes nominaux avons-nous affaire ? Lorsqu'il y a un prédicat verbal, quels temps et aspects sont les plus distinctifs ? Nous examinerons également l'usage des signes de ponctuations, chainons essentiels pour comprendre le sens de certains types de phrases.

1- Syntaxe des titres et actes de langage :

Pour indiquer l'acte de discours que constitue l'énoncé, la langue dispose d'un certain nombre de moyens syntaxiques.

La syntaxe des titres de presse algérienne d'expression française Cas du quotidien d'Oran

Mahi Amina

Université de sidi bel abbés

Abstract:

The purpose of this article is to review the press titles that clearly have a special place in a text, they deploy strategies language quite specific and are carriers of multiple functions, they attract attention and stand out the rest of the speech information by their syntax, forms of representation of the new scene they put in, be it a speech or event.

Keywords:

syntax, titles, journalistic discourse

L'objet de cet article est d'examiner les titres de presse qui occupent manifestement une place particulière au sein d'un texte, ils déploient des stratégies langagières tout à fait spécifiques et sont porteurs de multiples fonctions, ils attirent notre attention et se démarquent du reste du discours de l'information par leur syntaxe, les formes de représentations de la nouvelle qu'ils mettent en scène, qu'il s'agisse d'un discours ou d'un événement.

Bien qu'on parle du discours journalistique, c'est dans les titres plutôt que dans les articles que l'on voit une syntaxe différente : le titre peut être sous forme d'une phrase

Gabriel, Mark A.: *Islam und Terrorismus. Was der Koran wirklich über Christentum, Gewalt und die Ziele des Djihad lehrt*. Resch, Gräfelfing 2004

Goethe, Johann Wolfgang: *West-östlicher Divan*. Frankfurt am Main: Reclam 1999.Erstausgabe: J. W. Goethe: West-Östlicher Divan. Stuttgard [sic], in der Cottaischen Buchhandlung 1819, 556 S. mit gestochenem Titel

Khoury, Adel Theodor: *Der Islam und die westliche Welt. Religiöse und politische Grundfragen*. Primus, Darmstadt 2001

Quellen:

(1): http://www.welt.de/data/2006/02/11/844055.html?s=3

(2): http://www.wissen-im-netz.info/literatur/goethe/diwan/12.htm

(3): http://www.wissen-im-netz.info/literatur/goethe/diwan/12.htm

(4): Schaikh 'Abdulqadir Al-Murabit

Über die Einheit Gottes sagte Goethe: "Der Glaube an den einigen Gott wirkt immer geisterhebend, indem er den Menschen auf die Einheit seines eignen Innern zurückweist." (Noten und Abhandlungen zum West-Östlichen Divan, WA I, 7, 42)

Goethe spricht über den Unterschied zwischen einem Propheten und einem Dichter und bestätigt Muhammad - möge Allah ihn segnen und ihm Frieden geben! "Er sei Prophet und nicht Poet und daher auch sein Koran als göttliches Gesetz und nicht etwa als menschliches Buch, zum Unterricht oder zum Vergnügen, anzusehen." (Noten und Abhandlungen zum West-Östlichen Divan, WA I, 7, 32)

Literatur

Banse E.: Der Orient. Petermanns Geogr. Mitteilungen (1909), S. 301-304; S. 351-355.

Buchta, Wilfried: *Schiiten*. Hugendubel, Kreuzlingen 2004

Capan, Egün: *Terror und Selbstmordattentate aus islamischer Perspektive.* INID, Mai 2005

Courbage, Youssef, Emmanuel Todd: *Die unaufhaltsame Revolution. Wie die Werte der Moderne die islamische Welt verändern*. Piper, München 2008

Gerhard: *Der Islam. Eine Einführung in seine Geschichte*. Beck, München 1997,

müssen." (WA IV, 34, 50) Als Teilnehmer des Kriegsheeres gegen Frankreich, bemerkt Goethe am 7./8. Oktober 1792, dass jener Glaube an die Vorherbestimmung Gottes seinen reinsten Ausdruck im Islam finde: "Der Mensch, wenn er sich getreu bleibt, findet zu jedem Zustande eine hilfreiche Maxime; ... Die Mohammedanische Religion gibt hiervon den besten Beweis." (WA I, 33, 123

Nach Eckermanns Bericht über eine Unterhaltung mit Goethe (11.4.1827) über die Erziehungsmethode der Muslime, die sie unablässig mit den Gegensätzen der Existenz konfrontiere, sie so den Zweifel erfahren lasse, der sich nach erfolgter Prüfung des Sachverhaltes schließlich zur Gewissheit wandle, schloss Goethe mit den Worten: "Sie sehen, dass dieser Lehre nichts fehlt und dass wir mit allen unsern Systemen nicht weiter sind und dass überhaupt niemand weiter gelangen kann. ... Jenes philosophische System der Mohammedaner ist ein artiger Maßstab, den man an sich und an andere anlegen kann, um zu erfahren, auf welcher Stufe geistiger Tugend man denn eigentlich stehe."

Über Dinge, die sich dem Verstand des Menschen und damit der Spekulation entziehen, schreibt Goethe in seinen "Maximen und Reflexionen": "Das schönste Glück des denkenden Menschen ist, das Erforschliche erforscht zu haben und das Unerforschliche ruhig zu verehren." Dies bezieht sich auf die Vorsicht des Muslims, nicht nach Dingen zu fragen, die vom Menschen nicht gewusst werden können.

Als tiefbewegendes Beispiel aus seinem Leben kann sein Verhalten im Juli 1816 bei seiner dritten Reise zu Marianne von Willemer gesehen werden, die kurz nach der Abfahrt nach dem Bruch der Wagenachse durch einen Unfall abrupt beendet wurde. Goethe hatte diese Reise sehnsüchtig herbeigesehnt, denn er beabsichtigte, kurz nach dem Tode seiner geliebten Frau Christiane, deren Verlust ihn tief erschüttert hatte, erneut zu heiraten. Den Unfall seiner Reisekutsche nahm Goethe als unmittelbaren Schicksalswink und entschlug sich augenblicklich seiner anfänglichen Absicht und sollte Marianne von Willemer tatsächlich nie mehr sehen.

Danach schrieb Goethe: "Und so müssen wir denn wieder im Islam, (das heißt: in unbedingter Hingebung in den Willen Gottes) verharren..." (WA IV, 27, 123) Ähnlich heißt es in einem Brief an Zelter vom 20.9.1820: "Weiter kann ich nichts sagen, als dass ich hier mich im Islam zu halten suche." (WA IV, 33, 123) Als 1831 durch das Auftreten der Cholera viele Menschen starben, tröstete er Louise Adele Schopenhauer am 19.9.1831 brieflich: "Hier kann niemand dem andern rathen; beschließe was zu thun ist jeder bei sich. Im Islam leben wir alle, unter welcher Form wir uns auch Muth machen." (WA IV, 49, 87) Am 22.12.1820 bedankte sich Goethe brieflich für das Geschenk eines Aphorismen-Buches seines Freundes Willemer und sagt darüber: "Es stimmt ... zu jeder religiös-vernünftigen Ansicht und ist ein Islam, zu dem wir uns früher oder später alle bekennen

als segensreich erfahren wird. Goethe ist weiterhin bekannt für seine klare Ablehnung der Vorstellung eines Zufalls: "Was die Menschen bei ihren Unternehmungen nicht in Anschlag bringen und nicht bringen können, und was da, wo ihre Größe am herrlichsten erscheinen sollte, am auffallendsten waltet - der Zufall nachher von ihnen genannt -, das ist eben Gott, der hier unmittelbar mit seiner Allmacht eintritt und sich durch das Geringfügigste verherrlicht." (Gespräch mit Riemer, Nov. 1807)

Sein fester Glaube an die Vorsehung Gottes (siehe beispielsweise das Gespräch mit Kanzler Müller vom 12.8.1827, WA I, 42, 212, WA I, 32, 57), seine berühmten "Divan"-Verse: "Hätt' Allah mich bestimmt zum Wurm,/ So hätt' er mich als Wurm geschaffen." (WA I, 6, 113) sowie seine Worte: "Die Parabeln (Metaphern des Divan) ... lehren und bestätigen den eigentlichen Islam, die unbedingte Ergebung in den Willen Gottes, die Überzeugung, dass niemand seinem einmal bestimmten Loose ausweichen könne." (WA I, 7, 151) führten zu seiner persönlichen Haltung der Ergebung in den Willen Gottes; d.h., Goethe nahm es als Befehl, diesen dankbar anzunehmen und nicht dagegen aufzubegehren. In seinem literarischen Werk finden sich hierfür starke Anklänge in "Egmont", "Dichtung und Wahrheit", "Urworte Orphisch" und "Wilhelm Meisters Wanderjahre" u.a.

Ungläubigen, die den Propheten - möge Allah ihn segnen und ihm Frieden gewähren! - dazu aufriefen, ihnen Wunder zu zeigen - "Wunder kann ich nicht tun sagt der Prophet, / Das größte Wunder ist dass ich bin." (WA I, 6, 476)

In seinem "Mohamed " verfasste Goethe seinen berühmten Lobgesang "Muhameds Gesang". Die Bedeutung des Propheten - möge Allah ihn segnen und ihm Frieden geben! - wird in der Metapher des Stromes gefasst, der, beginnend als kleines Rinnsal, immer breiter wird, sich ausdehnt und nach und nach zu einer gewaltigen geistigen Kraft anwächst, um schließlich glorreich in den Ozean, das Symbol der Göttlichkeit, zu münden. Er beschreibt den religiösen Genius, wie er, dem Strome gleich, die anderen Menschen, wie Bäche und Flüsse, mit sich fort zieht auf seinem Weg zum Meer. Auf einer Handschrift der Paralipomena III, 31 schreibt Goethe am 27.1.1816:

"Oberhaupt der Geschöpfe - Muhammed." (WA I, 6, 482)

Ein weiteres bedeutendes Element des Islam ist die Betonung des rechten Verhaltens des Muslims. Hier war es das Geben der Sadaqa, das großzügige Geben des Muslims, was Goethe besonders beeindruckte. In mehreren Gedichten seines "Divan", im "Buch der Sprüche", beschreibt er "die Wonne des Gebens" und sagt "Schau' es recht und du wirst immer geben." (WA I, 6, 70) An dieser Handlung faszinierte Goethe, dass sie nicht erst später belohnt, sondern unmittelbar

des Qur'an, die dem Menschen zeigen, wie er die Natur in all ihren Erscheinungsformen betrachten möge: als Zeichen göttlicher Gesetze. Die Vielfalt der Phänomene weist hin auf den Einen Gott. Die Bezugnahme auf die Natur, wie der Qur'an sie darstellt, verbunden mit der Lehre von der Güte und Einheit Gottes, die Goethe in den Ayats aus der zweiten Sure (Al Baqara) des Qur'an kennenlernte, wurden zu den Hauptpfeilern, auf denen seine Sympathie und Affinität zum Islam beruhen sollten. Er sagte, wir sollten "Gottes Größe im Kleinen" erkennen und bezieht sich dabei auf das Ayat 25 aus der zweiten Sure des Qur'an, wo das Bild der Fliege gegeben wird.

Nachhaltig bewegt war Goethe auch von der Erkenntnis, dass Allah durch Propheten zur Menschheit spricht; Goethe bestätigte daraufhin den Propheten Muhammad - möge Allah ihm segnen und ihm Frieden geben! In einem Brief an Blumenthal vom 28.5.1819 schreibt Goethe, indem er sich auf die Sure Ibrahim, Ayat 4 bezieht: "denn es ist wahr, was Gott im Koran sagt: Wir haben keinem Volk einen Propheten geschickt, als in seiner Sprache!" (WA IV, 31, 160) Indem er sich auf das gleiche Ayat bezieht, wiederholt er in einem Brief an Carlyle: "Der Koran sagt: Gott hat jedem Volke einen Propheten gegeben in seiner eigenen Sprache." (WA IV, 42, 270) In einem Essay der Zeitschrift German Romance, Vol. IV, Edinburgh 1827 (WA I, 41, 307) erscheint diese Ansicht erneut. Goethe bekräftigte die Zurückweisung der

besonderer Gunst hat man mir Bogen und Pfeile verehrt, die ich, zu ewigem Andenken, über meinen Kamin, aufhängen werde, sobald Gott diesen lieben Gästen eine glückliche Rückkehr bestimmt hat."" In einem Brief vom 17.1.1814 (WA IV, 24, 110) an seinen Sohn August fügt er hinzu: "Mehrere unserer religiösen Damen haben sich die Übersetzung des Korans von der Bibliothek erbeten."

Goethes positive Einstellung gegenüber dem Islam geht weit über alles Bisherige in Deutschland hinaus. Am 24.2.1816 veröffentlichte er folgenden Satz: "Der Dichter (Goethe) ... lehnt den Verdacht nicht ab, dass er selbst ein Muselmann sei." (WA I, 41, 86)

In einem Gedicht seines "Divan" sagt Goethe: "Närrisch, dass jeder in seinem Falle Seine besondere Meinung preist! Wenn Islam Gott ergeben heißt, In Islam leben und sterben wir alle." (WA I, 6, 128)

Neben seiner Faszination für die Sprache des Qur'an, ihre Schönheit und Erhabenheit, empfand Goethe eine große Anziehung für seine religiöse und philosophische Bedeutung: die Einheit Gottes, sowie die Überzeugung, dass Gott sich in der Natur, in der Schöpfung offenbare, ist eines der zentralen Themen in Goethes Werk.

Während seiner ersten intensiven Qur'an-Studien in den Jahren 1771/1772 kopierte und verbesserte Goethe teilweise den Text der ersten direkten Qur'an-Übersetzung aus dem Arabischen ins Deutsche. Goethe notierte verschiedene Ayats

Saadi, Attar, Qur'an-Tafsir, verschiedene Segenswünsche (Du'as), ein Arabisch-Türkisches Wörterbuch, Texte über Angelegenheiten wie die Befreiung von Sklaven, das Kaufen und Verkaufen, Zins, Wucher sowie originale Handschriften von Sultan Selim. Goethe betrachtete es nicht als bloßen Zufall, sondern vielmehr als bedeutsame Ereignisse, ja als Teil seines Schicksals und Zeichen von Allah, dass:

- ihm im Herbst 1813 von einem aus Spanien heimkehrenden Soldaten eine alte arabische Handschrift gebracht wurde, die die letzte Sure (114) des Qur'an enthielt. Später versuchte Goethe sie mithilfe der Professoren in Jena eigenhändig zu kopieren, die ihm auch dabei halfen, den Inhalt der Handschrift zu ermitteln.

- er im Januar des Jahres 1814 einem Freitagsgebet von Muslimen, Baschkiren aus der russischen Armee des Zaren Alexander, im protestantischen Gymnasium Weimars beiwohnte. Im Brief an Trebra vom 5.1.1814 (WA IV, 24, 91) schreibt er: "Da ich von Weissagungen rede, so muss ich bemerken, dass zu unserer Zeit Dinge geschehen, welche man keinem Propheten auszusprechen erlaubt hätte. Wer durfte wohl vor einigen Jahren verkünden, dass in dem Hörsaal unseres protestantischen Gymnasiums mohammedanischer Gottesdienst werde gehalten und die Suren des Korans würden her gemurmelt werden, und doch ist es geschehen, wir haben der baschkirischen Andacht beigewohnt, ihren Mulla geschaut, und ihren Prinzen im Theater bewillkommt. Aus

Bis auf den heutigen Tag besitzen wir die Handschriften seiner ersten intensiven Qur'an-Studien aus den Jahren 1771/1772 sowie auch der späteren. Goethe las den Mitgliedern der Herzogsfamilie von Weimar und ihren Gästen die deutsche Übersetzung des Qur'an von J. Hammer.

Stets empfand Goethe die Mängel aller Übersetzungen des Qur'an (der lateinischen, englischen, deutschen und der französischen) und suchte unaufhörlich nach neuen Ausgaben. In seinem sagt er:

"Ob der Koran von Ewigkeit sei?

Danach frag' ich nicht! ... Dass er das Buch der Bücher sei

Glaub' ich aus Mosleminnen-Pflicht" (WA I, 6, 203)

Er studierte arabische Handbücher, Grammatiken, Reisebeschreibungen, Dichtung, Anthologien, Bücher über die Lebensgeschichte des Propheten - möge Allah ihn segnen und ihm Frieden gewähren! - und pflegte einen umfangreichen Austausch mit Orientalisten aus ganz Deutschland. Goethe schätzte die deutsche Übersetzung von Hafis' "Diwan" (Mai 1814) und studierte die verschiedenen Qur'an - Übersetzungen seiner Zeit. All dies inspirierte ihn, seinen eigenen "West-Östlichen Divan" zu verfassen, der selbst wiederum viele Gedichte enthält, die eindeutig durch den Qur'an angeregt wurden und sich auf verschiedene seiner Ayats beziehen (siehe Mommsen, 269-274). Goethe kaufte alte arabische Handschriften von Rumi, Dschami, Hafis,

Als junger Mann wollte Goethe Philologie bzw. Arabistik studieren - sein Vater bestand jedoch auf dem juristischen Studium; zeitlebens bewunderte er die ersten Arabien reisenden (Michaelis, Niebuhr) und las fasziniert alles, was sie über ihre Reisen veröffentlichten.

Als Goethe 1814/1815 seinen "Divan" verfasste, hatte er sich mit den Professoren für Orientalistik Paulus, Lorsbach und Kosegarten (Jena) im Lesen und Schreiben des Arabischen geübt. Nachdem er arabische Handschriften gesehen und vom Qur'an erfahren hatte, empfand er eine große Sehnsucht, Arabisch zu lernen. Er kopierte eigenhändig kurze arabische Bittgebete (Du'as) und schrieb: "In keiner Sprache ist vielleicht Geist, Wort und Schrift so uranfänglich zusammengekörpert." (Brief an Schlosser, 23.1.1815, WA IV, 25, 165)

Im Alter von siebzig Jahren schreibt Goethe (Noten und Abhandlungen zum West-Östlichen Divan, WA I, 7, 153), dass er beabsichtige, "ehrfurchtsvoll jene heilige Nacht [zu] feiern, wo der Koran vollständig dem Propheten von oben her gebracht ward" Er schrieb auch: "[es] darf sich über die große Wirksamkeit des Buches niemand verwundern. Weshalb es denn auch von den echten Verehrern für unerschaffen und mit Gott gleich ewig erklärt wurde." und fügte hinzu: "so wird doch dieses Buch für ewige Zeiten höchst wirksam verbleiben" (WA I, 7, 35/36)

Goethe, ein Moslem ?

NOUALI Ghaouti
Université de Sidi Bel Abbés

Abstract:

. The Goethe's relationship to Islam, the Qur'an, the Prophet Muhammad, peace and blessings be upon him, and the Arabic language is very remarkable and interesting. The brief essay here has to prove definitively the goal

Keywords:

The Goethe's relationship_ Islam_ Arabic language

Das Verhältnis Goethes zum Islam, zum Qur`an, zum Propheten Muhammad, Allahs Segen und Frieden auf ihm, und zu der arabischen Sprache ist sehr bemerkenswert und interessant. Die hier kurzgefasste Abhandlung hat zum Ziel, endgültig den Beweis zu erbringen, dass sich Goethe als aufgeschlossener und toleranter Mensch- nicht "nur" fair und gerecht gegenüber dem Islam verhielt, sondern vielmehr zweifellos ein Muslim war, der sich aller Offenheit und Zivilcourage zum Islam bekannte und seine Eigenschaft als Muslim nie verleugnete.

savoir-faire méthodologique, de stratégies capables de l'aider à appréhender ce rôle de scripteur autonome : être apte à transmettre tout en restant fidèle aux intentions d'autrui (particulièrement l'enseignant-évaluateur). (4).

Index :

[1] - Résultats publiés dans ma thèse de doctorat « Pratiques d'écriture et de réécriture : le cas des étudiants de la filière de français université de Sidi Bel Abbes (Soutenue en 2008)

[2]- jean, M-C., J, M-F, Massonnet, J., (1991) : *Oser parler : pouvoir écrire*. Nathan, p. 47.

[3]-C., Jeanjean, M-F, Massonnet, J., (1991) Op. Cit. p. 50.

[4]- BELLENGER, L., (1981) : *L'expression écrite*, Paris, PUF, coll. « Que sais-je ? », p. 118.

de réintégrer des acquis réalisés antérieurement (à travers des lectures préalables, il peut rechercher des indices de sens, recenser les idées-maîtresses, utiliser ses propres observations), ainsi que la mise en pratique de tous ces apprentissages pour réaliser un écrit complexe et signifiant. Nous soulignons, à travers la présente proposition, l'importance à prendre en considération la nécessité de donner la latitude à l'apprenant de réinvestir ses acquis et les mobiliser pour réussir la production d'un écrit demandé ou visé. Le but de nos propositions, rappelons-le, est de permettre aux acteurs impliqués dans l'enseignement-apprentissage du français (particulièrement au supérieur) d'évoluer, à travers le tandem lecture-écriture, pour la réalisation des objectifs assignés.

Abordant un aspect relatif à la bonne écriture en français (à titre indicatif), Bellenger (1981) pense que : '' *[…] écrire était une manière d'être, d'exprimer, de penser, de « vivre plus », de faire passer quelque chose, mais aussi une corvée, une dure confrontation avec des principes, des règles et des convenances.*''(3) L'implication des enseignants dans les projets d'installation des compétences (orales et écrites) chez l'apprenant permet la mobilisation, chez ce dernier, des capacités d'analyse, d'expression, de communication. La présence de ces matières (compréhension de l'oral, compréhension de l'écrit, introduction aux textes littéraires, etc.) permet aussi le développement chez l'apprenant d'un

l'écrit, d'apprendre à développer leur autonomie et leur esprit d'initiative sachant que la maitrise de l'écrit ne va pas de soi.

Ainsi la lecture est génératrice de plusieurs compétences. Sa diversification est synonyme d'acquisition d'une variété lexicale très abondante. Nous rappelons l'utilité de mettre les apprenants dans des situations de lectures variées. A ce propos, Jean jean et al. (1991) rappellent que : '' *La multiplication des situations et des intervenants ne manqueront pas de faire bouger les « théories » que les apprenants élaborent à partir de leurs premières expériences.*'' **1** Nous reprenons ce contexte pour souligner l'importance des orientations à formuler par chaque enseignant envers ses apprenants pour une meilleure prise en charge des pratiques de l'écrit à partir de la multiplication des lectures. On ne doit pas réduire les situations d'apprentissage aux seuls situations courantes ; à savoir l'exclusivité de s'accaparer le mode et la décision par l'enseignant et la pérennisation de ce comportement de consommateur « passif » chez l'apprenant. On doit aussi faire appel, dans ce cas ci, à une situation d'échange, d'intégration et de vérification. Ce qui permettra à l'apprenant d'exercer la compétence visée (il s'agit ici de lire pour apprendre à construire, à écrire, à se situer par rapport aux instructions établies par l'enseignant-formateur-évaluateur).

La lecture est, de ce fait, un moyen capable de stimuler l'apprenant à se conforter à des situations qui lui permettent

acquis « récoltés ». Dans cet élan, M-C, Jeanjean, M-F, Jeanjean et J, Massonnet (1991) rappellent, '' *[…] qu'il est important que l'enfant comprenne que le discours de l'adulte vise tout simplement à enseigner quelque chose dont il est lui-même possesseur ! Qu'il est lui-même utilisateur de lecture-écriture et que son projet consiste bien à partager avec ses élèves les bénéfices qu'il retire, lui, de ces pratiques.*''(2).

L'écriture, une pratique qui s'apprend d'abord à l'école et qui doit refléter les niveaux d'enseignement dans lesquels a évolué une bonne partie de nos apprenants actuels, peut ne pas sombrer dans le délaissement. Il est reconnu par bon nombre de chercheurs que l'efficacité d'un apprentissage est liée aux occasions (pendant lesquelles les apprenants se rencontrent avec leurs enseignants pour un échange de points de vue à propos de concepts lus, de notions découvertes, de mots clés inaccessibles, etc.). Ces moments sont à mettre à profit pour réguler toutes ces compétences en un ensemble d'orientations telles le résumé des idées, la fiche de lecture, la pratique de la synthèse, le « guidage » pour l'évitement des incapacités et autres imperfections liées à l'écrit. Nous pensons que le travail de groupe (constitué d'enseignant-enseignés) permet l'installation et la maitrise des compétences relatives à la tâche d'écriture. Une telle démarche, à notre avis, permet aussi aux apprenants de rechercher par eux-mêmes, de confronter leurs représentations et leur rapport à

des temps grammaticaux stimulent l'apprenant à saisir et à se ressaisir. Pour mieux gérer les écrits universitaires, il a été conclu (à travers notre enquête de terrain) qu'un lecteur-scripteur est mieux disposé à se lancer dans la pratique. C'est le fait de pouvoir disposer d'un bagage lexical consistant qui lui facilite la tâche, lui permet aussi l'entrée dans la situation d'écriture sans hésitation, l'aide à comprendre ce qui va être fait (l'apport des prédispositions à ne pas trop chercher à se situer par rapport à l'objet de travail).

Dans sa globalité, l'apprenant en classe de français au supérieur, et en dépit des difficultés qu'il rencontre à l'écrit, est tenu par le suivi des instructions, des méthodes de travail. Il est vrai que chaque apprenant a ses propres caractéristiques. Dans la vie quotidienne de ce dernier, lire un journal, un magazine, un roman ou un recueil est un comportement qui se raréfie. La pratique des lectures (confirmée par un nombre « réduit » des enquêtés) aide à acquérir un matériau lexical, à enrichir l'imagination quant aux suites à donner aux analyses littéraires, à réussir la compréhension des discours universitaires, à améliorer les styles d'écriture. Nous pensons qu'il s'agit d'un facteur générateur de beaucoup de connaissances et autres outils permettant l'entrée dans l'écriture et sa maitrise graduelle. Pour mieux étayer nos propositions, nous rappelons ce rapport qui devait exister entre enseignant-enseigné d'où un échange perpétuel de points de vue relatifs aux lectures et aux bons usages des

Par ailleurs, il est à noter la présence d'autres apprenants qui affirment être adaptés aux nouvelles méthodes de transfert des savoirs universitaires d'où l'émergence de leur rapport à l'écrit. Comme explications à la nature cette dernière catégorie, nous pensons qu'il s'agit, soit d'éléments ayant évolué dans des milieux ouverts à la langue française (en général des apprenants qui vivent dans des familles où l'utilisation de la langue française est permanente), soit de ceux qui continuent à fréquenter les centres de langues (particulièrement les Centres Culturels Français ou leurs annexes), soit d'autres qui ont eu la « chance » d'avoir des enseignements consistants (notamment durant les phases pré-universitaires). Nous rappelons que ce sont des facteurs que nous avons pris en considération lors de notre analyse du corpus.

L'objet principal de cette recherche est de préconiser quelques propositions didactiques, que nous pensons capables d'aider l'apprenant du supérieur en classe de français à mieux se situer par rapport à ces nouveaux modes d'enseignement.

Pourquoi ce tandem lecture/écriture ?

L'apport et l'intérêt de la lecture peut-il aider à mieux écrire ? D'emblée, nous nous inscrivons dans l'affirmatif. Nous justifions cela par un rappel des situations d'enseignement dans lesquelles nous avons, nous-mêmes, évolué. Il était clair que la lecture aide à enrichir les compétences lexicales. La découverte des mots, des locutions,

Lecture-écriture : un tandem d'acculturation et de maitrise de l'écrit

Dr. Belabbas MISSOURI
Université Sidi Bel Abbès

Abstract:

This article presents some didactic Exploring issues of post-doctoral research. Investigations are conducted with first year university students whose results have been published (1) show that, of all the students surveyed, nearly 70% admit to having difficulty writing.

Keywords:

students - results - difficulty

Cet article présente quelques pistes de réflexion didactique issues d'une recherche post-doctorale. **Des enquêtes sont menées auprès d'étudiants de 1ère année universitaire dont les résultats ont été publiés(1) montrent que, sur l'ensemble des étudiants enquêtés, près de 70% avouent avoir des difficultés à l'écrit.**

Les résultats obtenus dans notre enquête de terrain prouvent que les méthodes d'enseignement/apprentissage de l'écrit exploitées manquaient de spécificités quant au caractère de l'apprenant, ses capacités d'acquisition, sa nature de non-natif, les prérequis avec lesquels il est arrivé à l'université, sa difficile adaptation au monde du supérieur, etc.

SOMMAIRE

- ***Dr. Belabbas MISSOURI 5***
Lecture-écriture : un tandem d'acculturation et de maitrise de l'écrit

- ***NOUALI Ghaouti 13***
Goethe, ein Moslem ?

- ***Mahi Amina.....25***
La syntaxe des titres de presse algérienne d'expression française Cas du quotidien d'Oran

- ***Dr. Benabderrahmane Yasmina: 55***
L'échec d'une vision unilinéaire et déterministe de la technologie et du développement

- ***Mellak Djillali 83***
Cristallisation du lieu dans un récit mémoriel : " Le village des Asphodèles " de Ali Boumahdi

- ***Allam-Iddou Samira.....95***
De quelques procédés de création lexicale dans la formation des néologismes journalistiques. Cas du journal *Le Quotidien d'Oran* des années 2009-2011

*** Les opinions exprimées dans cette revue n'engagent que leurs auteurs.**

Dialogue Méditerranéen

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et sociales éditée par le laboratoire de recherche sur les études orientalistes de civilisation du Maghreb islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbés- Algérie

Directeur de la Revue
Pr. Hanifi HALAILI

Rédacteur en chef
A.E.K SAHRAOUI

Comité de la rédaction

Dr. Hamida Ben Brahim
Dr. Bel Abbes Missouri
Dr. Djillali MELLAK
Dr. Bekhaled FERAOUN
Dr. NEGGAZ Ismail
Dr. Ghaouti Nouli
Dr.Mohamed Samir Ayad
Dr. Tawahri Miloud

Comité consultatif

Pr. Abd El Hamid Hadjiet (Univ-Tlemcen)
Dr. AbdElKader Doha (Univ-Khemis Miliana)
Pr. Ibrahim Sadaoui (Univ -Tunis)
Pr. BOURICHE Riadh (Univ- Constantine 3)
Pr.TLILI Agili (Univ- Tunis)
Pr. Abd El Aziz Lareg (Univ- Alger 2)
Pr.Ahmet YALDEZ(Turquie)
Pr. Daho FAGHROUR (Univ-Oran 2)
Pr. JADOUR Mohamed (Univ-Maroc)
Pr.Med Amine BELGHIT(Univ- Alger 1)

Dialogue Méditerranéen

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et sociales éditée par le laboratoire de recherche sur les études orientalistes de civilisation du Maghreb islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbés- Algérie

N° 9et10
Septembre 2015
Numéro spécial

ISSN : 1112-945X
Dépôt légal : 4402-2009

Dialogue Méditerranéen

Revue académique spécialisée en sciences Humaines et sociales
éditée par le laboratoire de recherches sur les études orientalistes de civilisation du Maghreb Islamique
Université Djillali Liabes Sidi Bel Abbés- Algérie

N° 9et10

Septembre 2015
Numéro spécial

ISSN : 1112-945X